روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

٢

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

اسرة تيبو

الجزء الثاني

روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

الجزء الثاني

العيادة الاخت الصغيرة

موت الاب

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : حزيران ١٩٧٠

العيادة

١

بعد الظهر بنصف ساعة ، شارع الجامعة .

وثب انطوان من سيارة الاجرة ، ودخل تحت القنطرة وفكر « : نهار الاثنين : يوم معاينتي » .

– صباح الخير يا سيدي .

فالتفت : غلامان يبدو انهما التجآ من الريح الى الزاوية . وكان اكبرهما قد خلع قبعته ، ورفع نحو انطوان رأساً يشبه رأس عصفور الدوري ، مستديراً ، متحركاً ، وكذلك نظره الجريء . فتوقف انطوان :

– ذلك لأرى اذا لم تكن تود اعطاء دواء ا .. له ، فهو مريض .

فاقترب انطوان « منه » وكان قد بقي جانباً :

– ما بك ايها الصغير ؟

وكشف تيار الهواء الذي رفع الرداء عن ذراعٍ ملفوفٍ بشال وتابع الاكبر مؤكداً :

– هذا لاشيء . حتى انه ليس بحادث عمل. الا انه قدالتقط هذا الدمل من مطبعته . وهو يؤلمه حتى الكتف .

وكان انطوان متعجلاً .

ـ حرارة ؟
ــ ما قولك ؟
ـ هل هو محموم ؟
ــ نعم ، هذا ربما ..
هكذا قال الاكبر مؤرجحاً رأسه ، متفحصاً وجه انطوان بعين قلقة .
ــ يجب ان تقول لأهلك كي يأخذوه الى معاينة الساعة الثانية ،الى مستشفى الاحسان ، المستشفى الكبير ، الى اليسار ، أتعرفه ؟
إنقباض ، أخفي بسرعة ، للوجه الصغير وشى بخيبة امل الولد ، وابتسم نصف ابتسامة مستميلة :
ــ كنت افكر انك ستريد ...
ولكنه استدرك حالاً . وبنبرة رجل يعرف منذ وقت طويل ان يحزم امره فيما لامناص منه :
ــ لا يهم سيسوّى الامر . شكراً يا سيدي . تعال يا لولو ..
وابتسم دون ان يضمر شيئاً ، وحرك قبعته بلطف وخطا خطوة نحو الشارع . وانطوان المبلبل الفكر تردد لحظة ، وقال :
ــ اكنتما تنتظراني ؟
ــ نعم يا سيدي .
ــ من الذي ... ؟ ـ وفتح الباب الموصل الى الدرج ـ ادخلا ،لا تظلاّ في مجرى الهواء . من الذي ارسلكما الى هنا ؟
فتهلل وجه الولد :
ــ لا أحد .اني اعرفك جيداً . فانا المستخدم الصغير في المكتب ، المكتب الذي في داخل الساحة !
ووجد انطوان نفسه بجانب المريض واخذ يده بحركة آلية .كان الاحتكاك بكف رطب ، بمعصم محرق ،يحدث فيه دائماً تأثراً لاإرادياً .
ـ اين يسكن اهلك ايها الصغير ؟

فلفت الصغير الى الكبير نظره المتعب :

ـ روبير !

وتدخل روبير :

ـ ليس له اهل ياسيدي.ـثم بعد وقفة قصيرة ـ انه يسكن في شارع فرناي.

ـ لا اب ولا ام ؟

ـ كلا .

ـ الجدود اذن ؟

ـ كلا .

كان وجه الغلام رصيناً ؛ والنظرة صريحة ؛ ليس هناك اية رغبة في استدرار الشفقة ، ولا في الخداع ؛ ولا اي فرق في الكآبة . اما دهشة انطوان فهي التي يمكن ان تبدو صبيانية .

ـ كم عمرك ؟

ـ خمس عشرة سنة .

ـ وهو ؟

ـ ثلاث عشرة سنة ونصف.

فقال انطوان لنفسه : « ليحملني الشيطان ! الساعة الآن هي الواحدة الا الربع ! اكلم فيليب بالهاتف . اتناول الغداء ، اصعد الى فوق ، واعود الى ضاحية سان اونوريه قبل موعد معاينتي .. .انه نهار !...» وقال بخشونة :

ـ هيا . تعال وأرني هذا .

ولكي لا يجيب على نظرة روبير المتهللة التي لم تظهر اية دهشة ، فانه سار في المقدمة ، وسحب مفتاحه ، وفتح باب طابقه الارضي ودفع الغلامين الى مكتبه خلال غرفة الزائرين .

وظهر ليون على عتبة المطبخ .

ـ انتظر لإعداد المائدة يا ليون ... وأنت ، بسرعة ، اخلع كل هذا ... واخوك سيساعدك . بهدوء . حسناً ، اقترب ...

ذراع ضعيف تحت ملابس نظيفة تقريباً ، وفوق المعصم التهاب موضعي سطحي ، محصور جيداً ، ويبدو انه ُجمع قبلاً . وانطوان الذي لا يفكر بالساعة وضع سبابته على الدمّل ؛ ثم ضغط باصبعي اليد الاخرى ضغطاً خفيفاً على نقطة اخرى من الدمّل . حسناً : لقد احس بانتقال المائع تحت سبابته بشكل واضح .

ـ وهنا . هل يؤلمك ؟

وجس الساعد المتورم ، ثم الذراع حتى غدد الابط الملتهبة .

ـ ليس كثيراً .

هكذا تمتم الصغير الذي كان يتشدد ولا يرفع نظره عن الولد الكبير . وقال انطوان بنبرة فظة :

ـ بلى ، ولكني ارى انك شجاع .

وغرز نظره في نظر الولد المضطرب : شرارة احتكاك ، ثقة ، بدت مترددة ثم انسابت نحوه . عندئذ فقط ابتسم . وكذلك خفض الولد رأسه ؛ وداعب انطوان خده ، ورفع بلطف الذقن التي قاومت قليلاً .

ـ اسمع . سنقوم بشق خفيف هنا في الداخل . وفي مدى نصف ساعة تتحسن كثيراً .. اتريد ؟ اتبعني من هنا .

وخطا الصغير الخاضع بضع خطوات بشجاعة ، ولكن منذ ان تحول نظر انطوان عنه ترنحت شجاعته ، ولفت نحو أخيه وجهاً مستنجداً :

ـ روبير .. تعال أنت أيضاً .

والغرفة المجاورة ـ بلاط من الخزف المطلي ، وأبسطة مطهرة بالبخار المضغوط ، ومنضدة مزينة بالمينا تحت عاكس نور ـ كانت تستعمل عند الحاجة للعمليات الصغيرة . وقد عمدّها ليون باسم « المختبر » ؛ وكانت غرفة حمام جرى فيها تبديلات . والشقة القديمة التي كان انطوان يشغلها مع أخيه في البيت الابوي أصبحت غير كافية ، حتى عندما بقي فيها انطوان بمفرده . وقد ساعده الحظ ان يستأجر ، منذ قليل ، منزلاً من أربع غرف ، في الطابق

الارضي ايضاً ، ولكن في البيت الملاصق. وقد نقل إليه غرفة مكتبه ، وغرفته ، واقام فيه هذا « المختبر » . اما غرفة مكتبه القديمة فقد أصبحت غرفة انتظار للزبائن . وهناك فتحة ثقبت في الجدار المشترك بين الغرفتين جمعت هاتين الشقتين في واحدة .

بعد بضع دقائق كان الدمل قد ُشق بحرية . وقال انطوان وهو يتراجع خطوة :

– قليل من الشجاعة ايضاً .. هنا .. ايضاً .. انتهى الأمر !

ولكن الصغير الذي شحب وجهه اغمي عليه نصف اغماءة بين ذراعي أخيه المتصلبين . وصاح انطوان بمرح :

– هيا يا ليون ! قليلاً من الكونياك لهذين الغلامين النشيطين ! ـ وغمس قطعتي سكر في مقدار اصبع من الكونياك ـ اقضم هذه . وانت ايضاً . ـ وانحنى على الغلام الذي اجريت له العملية : ـ هذا ليس شديد القوة ..

فتمتم الولد الذي توصل إلى ان يبتسم :

– انه جيد .

– اعطني ذراعك . لا تخف . قلت لك ان كل شيء قد انتهى . غسل وتضميد ، وهذا لن يؤذيك .

رنة جرس الهاتف . صوت ليون في الغرفة الملاصقة : « كلا يا سيدتي ، الطبيب مشغول .. ليس في فترة بعد الظهر هذه ، انه يوم معاينة الطبيب .. أوه ! ربما قبل العشاء . حسناً يا سيدتي ، بخدمتك » .

وهمهم انطوان منحنياً على الدمّل :

– فتيل لدى كل حادث . حسناً . والعصابة مشدودة قليلاً ، يجب ذلك . والآن انت ، الكبير ، اسمع: ستعيد أخاك إلى البيت وستقول لهم ان يبقوه نائماً لئلا يحرك ذراعه . مع من تسكنان ؟ هل هناك من يهتم بالصغير ؟

– ولكن انا .

كانت النظرة مستقيمة ، ملتهبة بالمباهات في وجه مليء بالجدارة . ولم يكن

هناك ما يستوجب الابتسام . والقى انطوان نظرة نحو الساعة وكبح جماح فضوله مرة اخرى .

– في أي رقم في شارع فرناي .

– الرقم ٣٧ مكرر .

– روبير ماذا ؟

– روبير برنار .

فسجل انطوان العنوان ، ثم رفع عينيه . كان الولدان واقفين ، موجهين اليه نظرات صافية دون اية علامة شكر ، ولكنه تعبير استسلام ، وسلامة كلية .

– هيا يا صغيريّ ، اذهبا ، أنا على عجلة من أمري .. سوف أمر في شارع فرناي بين السادسة والثامنة لأغيّر الفتيل . مفهوم ؟

فقال الاكبر ، وقد أبدى انه يرى الامر طبيعياً :

– نعم يا سيدي ، في الطابق الاخير ، الباب رقم ٣ ، مقابل الدرج تماماً .

وذهب الولدان على الأثر .

– تستطيع وضع المائدة يا ليون .

ثم في الهاتف :

– ألو .. إليزه ١ ٠–٣٢ .

كانت مفكرة المواعيد الى جانب جهاز الهاتف، على منضدة غرفة الزائرين، منشورة ومفتوحة على صفحة النهار . وقد انحنى انطوان وقرأ بدون ان يترك السماعة :

– ١٩١٣ ـ الاثنين ١٣ تشرين الاول . الساعة ١٤ والدقيقة ٣٠ . مدام دي باتنكور . لن أكون هناك ، وستنتظر . الساعة ١٥ والدقيقة ٣٠ . روميل ، نعم .. ليوتان ، حسناً .. مدام ارنست ، لا أعرفها .. فيانزوني .. دي فاييل .. حسناً .

– ألو .. رقم ١ ٠ ـ ٣٢ ؟ هل عاد الاستاذ فيليب ؟ هنا الدكتور تيبو ..

(وقت) ألو .. صباح الخير يا معلم .. اني امنعك من تناول طعـام الغداء .. ذلك بسبب معاينة . ضرورية جداً .. ابنة هيكيه .. نعم ، هيكيه ؛ الجرّاح كثيرة الخطورة مع الاسف ! ليس هناك أمل ، التهاب في الاذن لم يُعتن به . انه يريد أن يراك انت ، لا يمكنك ان ترفض ذلك لهيكيه .. بالتأكيد ، في أقرب وقت ممكن ، حالاً .. انا ، كلا ، بسبب معاينتي . واليوم هو الاثنين ..حسناً، مفهوم : سأمرّ لإصطحابك في مدى ربع ساعة . شكراً يا معلم ..

وعلق السماعة ، وأجال نظره مرة اخرى في لائحة المواعيد ، وزفر زفرة اصطلاحية من السأم يكذبها تعبير وجهه الراضي .

واقترب ليون وعلى وجهه الاجرد ابتسامة بلهاء :

– أيعلم السيد ان الهرة قد وضعت حملها هذا الصباح ؟

– هيا إذن ؟

ودخل انطوان لاهياً الى المطبخ . كانت الهرة نائمة على جانبها في سلة ملأى بالخرق ، حيث تتحرك كرات صغيرة من الوبر اللزج كانت تلحسها وتعيد لحسها بلسانها الذي يشبه المبرد .

– كم يوجد ؟

– سبعة . وقد طلبت زوجة اخي ان نحتفظ لها بواحد .

كان ليون هو البواب . ومنذ اكثر من سنتين بخدمة انطوان كان يقوم بمهامه باجتهاد طقسي . وكان غلاماً صموتاً ، ذا صبغة شاحبة ، دون عمر واضـــح ؛ شعر شاحب ، متناثر ، كالزغب يتوج وجهاً عالياً بشكل غريب ! والانـف متدلٍ ، كثير الطول ، بين جفنين منخفضين في أغلب الاحيان ، يكسبه هيئة بلهاء ولا تزال الابتسامة تحركه . ولكن هذه البلاهة ليست سوى قناع سهل ، ان لم يكن مركّباً ، يعيش تحته عقل فطن ، موهوب بحسٍ سليم ارتيـــابي ، ونكتة شخصية ساخرة . وسأل انطوان :

– والستة الآخرون ، هل ستغرقهم ؟

فقال ليون بدعة :

– أيريد السيد الاحتفاظ بهم ؟

فابتسم انطوان ودار على عقبيه ، وبلغ غرفة جاك القديمة بخطى سريعة : لقد كان يستعملها غرفة طعام .

البيض ، اللحم بالسبانخ ، الفواكه ، كل هذا كان على المائـــدة ؛ ولم يكن انطوان يستطيع انتظار الصحاف . وكانت العجة تنشر رائحة طيبة من السمن الساخن ومن الموقد . هدنة قصيرة . ربع ساعة من المهلة بين صباحية المستشفى ونهار الزيارات .

– ألم يتكلم أحد من فوق ؟

– كلا يا سيدي .

– ومدام فرانكلان ، ألم تتكلم بالهاتف ؟

– بلى يا سيدي ، لقد أخذت موعداً لنهار الجمعة . وهذا مسجّل .

رنة هاتف . صوت ليـــون : « كلا يا سيدتي . الساعة ١٧ والدقيقة ٣٠ ، أُخِذَتْ .. والساعة ١٨ أيضاً .. بخدمتك يا سيدتي » .

– من ؟

– مدام ستوكناي . ـ وسمح لنفسه بهزة كتف خفيفة ـ لأجل غلام صغير لصديقتها . ستكتب .

– من هي مدام أرنست ، في الساعة السابعة عشرة ؟ ـ وبدون انتظار الجواب – ستعتذر عني لدى مدام دي باتنكور ؛ سأتأخر عشرين دقيقـــة على الأقل .. اعطني الصحف، شكراً . ـ إلقاء نظرة على الساعة ـ يجب ان يكونوا فوق قد خرجوا من غرفة الطعام . تلفنْ ، أتريـــد ؟ اطلب الآنسة جيزيل ، وهات الجهاز الى هنا . مع القهوة حالاً .

وأمسك بالسماعة ، وتراخت قسماته وابتسم نظره الى البعيد، والآن ، وكأنه باشر طيرانه برفة جناح ، كان كل كيانه يندفع نحو الطرف الآخر من الخط .

– ألو .. نعم ، هذا انا .. ! لقد انتهيت تقريباً . – وابتسم – كلا ، عنب ارسالية زبون ، لذيذة .. وهناك فوق ؟ . ـ وأصغى ودكن وجهه تدريجياً : ـ

اسمعي ، قبل الابرة أو بعدها ؟ يجب اقناعه على الخصوص بان هذا طبيعي .. ـ ومضى وقت ، وتهللت جبهته من جديد : ـ قولي اذن يا جيز ، هل انت وحدك على الجهاز ؟ اسمعي ، يجب أن أراك اليوم . لدي ما أقوله لك . جدّياً .. هنا ، مفهوم . لا يهم في أية لحظة . ابتداء من الساعة الثالثة والنصف ، أتريدين؟ ليون سيجعلك تمرّين .. أأعتمد اذن على ذلك ؟ حسناً . أشرب قهوتي واصعد .

٢

كان مع انطوان مفتاح طابق والده ، وقد وصل دون ان يقرع الجرس حتى خزانة البياضات . وأجابت أدريان :

ـ لقد سير بالسيد الى مكتبه .

وبلغ غرفة زينـــة السيد تيبو على رؤوس أصابعه ، من الرواق الذي تعبق فيه عفونة صيدلية . وكان يفكر : « هذا النوع من ضيق النفس منذ أن اضع رجلي في هـــذه الشقة .. طبيب ! ولكن هنا ، بالنسبة اليّ ، ليس كما في موضع آخر » .

وسار نظره رأساً الى الورقة التي سجلت الحرارة عليها، والمعلّقة في الحائط بواسطة دبوس . كان لغرفـــة الزينة مظهر محلٍ لتركيب الأدوية في صيدلية : على الرف ، على المنضدة ، زجاجات ، وأوعية من البورسلين ، ورزم قطن . « لنر البوقال . هذا ما كنت افكر به : الكلى تشتغل قليـــلاً ؛ وسنرى في التحليل . المورفين ، اين هو ؟ » وفتح علبة الزجاجات التي كان قد طلى الأوراق الملصقة عليها لكي لا يساور المريض أي شك : « ثلاثة سنتيغرامات في الاربع والعشرين ساعة .. الآن . لنرَ أين وضعت الراهبة . ؟ آه ! هـــذا هو القدح المقسم الى درجات » .

وبدأ البحثُ بحركات رشيقة فرحة تقريبـاً . وكان يسخّن المخـبرة *Eprouvette* على لهب الكحول حين جعل صرير الباب قلبه يثب ، وجعله يلفت رأسه بسرعة . ولكنها لم تكن جيز . انها المدموازيل التي كانت تتقدم بخطى

قصيرة، منحنيةُ الى نصفين كحطـّابة عجوز، وهي الآن اكثر تقلصاً بحيث انها، وهي تلوي عنقها، لا تـكاد تتوصل الى أن ترفع، حتى الى يدي انطوان، نظرها الذي لا يزال حاداً تحت نظارات ضيقة من الزجاج القاتم. وكان أقل موضوع للذعر يترجم عندها بحركة آلية من جبهتها العاجية الصفراء بين عصابتين بيضاوين.

وقالت متأوهة :

– آه! أهذا انت يا انطوان ؟

وبدون مقدمات، وبصوت جعله الاهتزاز مرتجفاً :

– انت تعلم، منذ البارحة أصبح الامر مستحيلاً! لقد افسدت لي الاخت سيلين طاستين من المرق واكثر من ليتر من الحليب لأجل لا شيء! وهي تقشر له موزاً باثني عشر فلساً فلا يلمسه.. ولا يمكن عمل شيء بما يتركـه، بسبب الجراثيم! أوه ليس لدي شيء ضدها، ولا ضد أحد، انها فتـاة قديسة.. ولـكن كلـّمها يا انطوان، امنعها من الاستمرار. مريض، فلماذا نرغمه؟ يجب الانتظار حتى يطلب! انها دائماً تعرض عليه اشياء! وهكـذا، حتى الصباح يا انطوان! لقد عرضت عليه ثلجاً لـكي تجمد له قلبه دفعة واحدة! كما لو ان لدى كلوتيلد وقت لتذهب الى بائع الثلج! مع أهل بيت كهؤلاء لتغذيتهم!

وانهى انطوان، الصبور، تحليله دون ان يجيب بسوى تذمر مراوغ. وكان يفكر: «لقد احتملت خمساً وعشرين سنة من الفصاحة الأبوية دون ان تنبس بكلمة. وها هي تكسب ما خسرته». وتابعت الآنسة العجوز :

– اتعلم كم فمٍ عندي؟ كم فمٍ عندي في هذه اللحظة، مع الراهبة، فضلاً عن جيز؟ ثلاثة في المطبخ، وثلاثة على المائدة، ووالدك! احسب. في الثامنة والسبعين من عمري في الحالة التي انا..

وتراجعت برشاقة لأن انطوان ابتعد عن الطاولة ليذهب ويغسل يديه. كانت دائماً تخشى الامراض، والعدوى؛ والحالة الاضطرارية التي هي فيها منذ سنة، بأن تعيش بالقرب من مريض كبير، وتدفع برفقها ممرضات واطباء،

وتنلشق أدوية ، كانت تؤثر عليها على طريقة السم ، بحيث لا يزال تأثيرهـا اليومي يزيد من سرعة الانحطاط العام الذي بدأ منذ ثلاث سنوات قبل ذلك. ومع هذا فقد كانت تعي شيخوختها . وقالت زافرة : « منذ ان حرمني الله من جاك ، لم أعد سوى نصف لا شيء » .

الا انها خطت خطوتين خجولتين نحو المغسلة حين رأت انطوان يغسل بالصابون دون ان يتحرك من مكانه .

ــ تكلم مع الراهبة يا انطوان ، تكلم معها ! ستصغي اليك ، أنت !

فأشار « بنعم » مصالحة لها ، ثم ترك الغرفة بدون ان يهتم بها . ورأت الساقين المبتعدين فتبعتهما بنظرة حنو : لقد كان انطوان « تعزيتها على الارض » لأنه لا يجاوبها تقريباً ، ولا يعاكسها .

ومرّ في الرواق من جديد ليدخل الى المكتب بواسطة الدهليز ، كما لو انه وصل حديثاً .

كان السيد تيبو وحيداً مع الراهبة . وقال انطوان لنفسه : « اذن فجيز في غرفتها ! اذن فقد سمعتني بالتأكيد وانا أمرّ .. انها تتجنبني » ..

وقال بتلك النبرة الخفيفة التي كان يتكلفها عند سرير المريض :

ــ صباح الخير يا أبي . صباح الخير يا اختي .

فرفع السيد تيبو جفنيه :

ــ آه ! أهذا أنت ؟

كان جالساً في كنبة كبيرة موشّاه جيء بها الى جانب النافذة . وبدا الرأس ثقيلاً على الكتفين ، والذقن تلتوي على المنشفة التي عقدتها الراهبة في عنقه ، والجسم مكوّم ، يظهر العكازين الأسودين المستندين الى جانبي المسند العالي ، الطويلين بشكل مفرط . والزجاج من تقليد عصر النهضة كان يلقي قوس قزحه على قلنسوة الأخت سيلين ويضع بقعاً خمرية اللون على سماط المنضدة حيث يتصاعد الدخان من صحن صغير مليء بالتابيوكا بالحليب. وقالت الراهبة :

ــ هيا !

وغرفت ملعقة صغيرة من الطعام ، وجعلت الملعقة تقطر على حافة الصحن ، ثم بكلمة «هوب ـ لا» مداعبة ، كأنها تعطي رضيعاً نقدة من الطعام ، ادخلت الملعقة بين شفتي المريض الرخوتين وأفرغتها فيهما قبل أن يستطيع الالتفات. ويدا الرجل الهرم المبسوطتان على ركبتيه يتحركان بملل . كان يتألم في أنانيته لرؤية نفسه عاجزاً عن الأكل وحده . وبذل جهداً ليمسك بالملعقة التي تمسكها الراهبة ، ولكن أصابعه متخدرة منذ وقت طويل ، وهي الآن متورمة بسبب الارتشاح في النسيج الخلوي *œdéme* وتأبى القيام بأية خدمة . وأفلتت منه الملعقة على السجادة . وبحركة عنيفة دفع الصحن والمنضدة والراهبة ؛ وصاح ملتفتاً نحو ولده كأنه يطلب الحماية :

ـ لست جائعاً ! لا أريد ان أرغم !

وتشجع دون شك بصمت انطوان ، فألقى على الراهبة نظرة شرسة :

ـ ارفعي كل هذا .

وتراجعت الراهبة خطوة دون نقاش ، وخرجت من حقل الرؤيا وسعل المريض (كان في كل لحظة يقاطع بسعلة صغيرة جافة ، آلية ، دون اختناق ، كانت تجعله يشد قبضته ويشنج جفونه المطبقة) .

وقال السيد تيبو كأنه يرضي حقداً :

ـ انت تعلم ، انني تقيأت مساء البارحة وهذا الصباح !

وشعر انطوان ان نظرة منحرفة تتفحصه ، فاتخذ هيئة متجردة وقال :

ـ هكذا ؟

ـ اتجد ذلك طبيعياً أنت ؟

فلمّح انطوان مبتسماً:

ـ لعمري ، اعترف لك انني انتظر ذلك .

(كان يلعب دوره دون كثير من الجهد . ولم تكن لديه هذه الرأفة الصابرة تجاه أي مريض : كان يأتي الى هنا كل يوم ، وفي الغالب صباح مساء ؛ وكل مرة ، دون ان يتعب ، كما يعاد تضميد جرح ، كان يحتال لارتجال تعليلات

خادعة ولكنها منطقية . وفي كل مرة كان يردد بنفس النبرة المقتنعة نفس الاقوال التي تبعث على الاطمئنان) .

– ماذا تريد يا ابي ، ليت معدتك معدة شاب ؛ ثمانية اشهر على الاقل وهم يحشونها بالادوية والبرشام . يجب أن نعتبر أنفسنا سعداء لأنها لم تظهر تعبها قبلاً .

وسكت السيد تيبو . كان يفكر . وكان في السابق يتشدد بهذه الفكرة الجديدة ، ويتعزى لاستطاعته ان يوجه اللوم إلى شيء ، إلى احـد ما . وقال ضارباً يديه الضخمتين الواحدة بالاخرى ، دون ضجة :

– نعم . اولئك الحمير ، بعقاقيرهم ، انهم .. آخ ، ساقي ! انهم .. سيخربون معدتي ! آخ !

كان الألم مباغتاً وحاداً جداً بحيث فسّخ في لحظة كل قسمات وجهه . وترك نصفه الأعلى ينزلق ناحية ؛ واستند إلى ذراع الراهبة وذراع انطوان ، وتوصّل وهو يمد ساقه ، إلى أن يحيد عن ذلك الثلم الناري الذي يحرقه . وزعق :

– قلت لي .. ان مصل تيريفيه .. هيا واعمل على عرق النسا هذا ! وبعد ، أجب : هل يسير إلى أفضل ؟

فقال انطوان ببرود :

– ولكن نعم .

وأسال السيد تيبو نظرة مشدوهة نحو انطوان ؛ وقالت الراهبة التي اعتادت على رفع صوتها بشكل مبالغ فيها لتجعله مسموعاً :

– ان السيد نفسه قد اعترف بأن ألمه خف كثيراً منذ نهار الاثنين .

واغتنمت فرصة اللحظة المناسبة وأدخلت ملعقة تابيوكا في فم المريض .

– منذ الثلاثاء ؟

هكذا تمتم الهرم محاولاً ، بحسن نية ، ان يتذكر ؛ ثم صمت .

وانطوان ، صامت ، منقبض القلب ، كان يلاحظ وجه ابيه الناحل : كان الجهد الذهني يرخي عضلات الفك ، ويرفع الحاجبين ويطرف الأهداب. ولم يكن الهرم المسكين يطلب سوى الايمان بشفائه ، وبالفعل ، فانه حتى الآن لم

يساوره أي ريب في ذلك أبـــداً . وفي لحظة اخرى ، بدافع السهو ، جعلهم يلقمونه حليباً ؛ ثم تكدر فأبعد الراهبة بملل ، وخضعت ورضيت أخيراً أن تحل عقدة المنشفة . وردد حين حين كانت الراهبة تمسح له ذقنه :

– لقد خربوا معدتي .

ولكن ما أن ذهبت مع الطبق ، كأنه كان يترقب هذه اللحظة من الخلوة ، حتى انحنى بشدة على مرفقه ، ورسم ابتسامة مسارّة ، وأشار إلى ولده ليأتي ويجلس بقربه . وبدأ بنبرة نافذة :

– انها فتاة باسلة جداً هذه الاخت سيلين ؛ وهي بالحقيقـــة مخلوقة مقدسة يا انطوان ؛ اتعلم ؟ لن نكفّ أبداً عن الاعتراف بجميلها . ولكن حيال ديرها، هل...؟أنا أعلم جيداً أن للأم الرئيسة فضلاً علي.ولكن تماماً! عندي وساوس . اساءة استعمال هذا الاخلاص طويلاً ، بينما هناك كثير من المرضى الآخرين بحاجة إلى العناية أكثر مني ، ينتظرون ويتألمون ! ألست من رأيي ، انت ؟

وشعر ان انطوان سيعاكسه فأوقفه بحركة من يده ، ورغم السعال الذي جزّأ عباراته ، فانه قدّم ذقنه بكياسة متواضعة وتابع :

– بالتأكيد ، لا أقول هذا لأجل اليوم ، ولا لأجل الغد . ولكن .. ألا تعتقد أن .. حالاً .. حين تتحسن أحوالي .. يجب أن تعاد اليها حريتها ، لهذه الفتاة الباسلة . لا تتصور كم ان هذا متعب يا عزيزي ، واحد بقربك دائماً ! منذ ان يصبح الأمر ممكناً ، ها ؟ يجب أن تعاد .

وكان انطوان يضاعف علامات الاستحسان دون أن يملـــك الشجاعة على الجواب . هذا ما انتهت اليه تلك السلطة الابوية التي لا تلين والتي اصطدم بها كل أيام شبابه . ومنذ قليل ، فان هذا المستبد طرد الممرضة المزعجة،دون إيضاح؛ واليوم ها هـــو ضعيف منزوع السلاح .. في لحظات كهذه كان التلف الجسدي يبدو اكثر بروزاً منه حين يقيس انطوان تلف الاعضاء تحت اصابعه.

ونفخ السيد تيبو لرؤية انطوان ينهض :

– اتذهب الآن ؟

كان في هذا اللوم حسرة ورجاء : حنو تقريباً . وتأثر انطوان من ذلك ، وقال مبتسماً :

– يجب .. مواعيد طول النهار . سأحاول العودة هذا المساء .

واقترب ليقبّل والده: انها عادة حديثة العهد ، ولكن الهرم استدار وقال:

– حسناً . اذهب يا عزيزي .. اذهب !

فخرج انطوان دون ان يجيب .

في الغرفة الملاصقة كانت المدموازيل جاثمة على كرسي بشكل مضحك ترقب مروره :

– يجب ان اكلمك يا انطوان .. أن اكلمك عن الاخت ..

ولكنه بالحقيقة لم يكن لديه الشجاعة . فأخذ معطفه وقبعته وجذب باب الشقة وراءه .

وخمدت شجاعته دقيقة على قرص الدرج ؛ والجهد الذي بذله لارتداء معطفه ذكّره بالجهد الذي كان يبذله ، حين كان جندياً ، ليحمل ثقل الكيس قبل ان يعاود سيره .

والحياة في الخارج ، والعربات ، والمارة المكافحون ضد رياح الخريف ، اعادوا اليه بشاشته . وسار باحثاً عن سيارة اجرة .

٣

لاحظ انطوان حين كانت السيارة تمر امام ساعة المادلين :

– إلا عشرين . سأكون هناك ، ولكن على الوقت .. دِقة المعلم ! أنا واثق إنه الآن يستعد .

كان الدكتور فيليب ينتظر ، بالفعل ، واقفاً على عتبة غرفته ، ودمدم :

– صباح الخير يا تيبو .

كان صوته الذي يشبه صوت الكراكوز يبدو دائماً انه يتضمن سخرية .

– لقد دقت الساعة إلا ربعاً ، لنمش .

فقال انطوان بمرح : لنمش ِ ايها المعلم .

كان يسر دائماً حين يجد نفسه متبعاً اثر فيليب . لقد كان هو الطبيب المتدرج عنده طوال سنتين متتاليتين ، وعاش في مودّة هذا المعلم اليومية . ثم اضطر إلى تبديل الخدمة . ولكنه ظل على علاقة بمعلمه . وليس هناك اي شخص آخر حل محل « المعلم » عنده . وكان يقال عن انطوان : « تيبو ، تلميذ فيليب » . تلميذه بالفعل : الثاني بعده ، ولده الروحي . ولكنه في اغلب الاحيان خصمه ايضاً : الشباب في مواجهة النضج ؛ والجرأة وتذوق المخاطرة في مواجهة الحيطة . والعلاقات التي ُخلقت هكذا بينهما في سبع سنوات من الصداقة والمشاركة المهنية ،قد اتخذت صفة لا تندثر . ومنذ أن يجد انطوان نفسه بالقرب من فيليب فان شخصيته تتبدل بشكل لاشعوري ، وتتعرض لنقص في الحجم : فالكائن المستقل والكامل الذي كان قبل لحظة يسقط آلياً تحت الوصاية . وذلك دون أي غم . والمحبة التي يحملها للمعلم كانت تقوى بارضاء محبة الذات عنده : فقيمة الاستاذ التي لا جدال فيها ، وسمعته في انه يبدو صعباً على الناس، جعلتا لتعلقه بانطوان ثمناً . وحين يكون المعلم والتلميذ معاً ، تسيطر البشاشة . وكان يبدو لهما راهناً إن المعدل الوسط من الانسانية يتألف من الغافلين والعاجزين ، ولكنهما لحسن الحظ تفلّتا من القانون المشترك . والطريقة التي يخاطب بها المعلم ، القليل البوح باسراره ، انطوان ، وثقته وطبيعته ، والابتسامات النصفية والغمزات التي يشير بها الى بعض اللطائف ، هي نفسها مفردات يجب تعليمها ، وتبدو كلها انها تشهد ان انطوان هو الوحيد الذي يستطيع فيليب أن يتحدث معه بحرية ، والوحيد الذي يكون معه واثقاً إنه ُفهم جيداً . وسوء التفاهم بينهما كان نادراً ويحدث دائما من اسباب ذات نوع واحد . كان يحدث ان انطوان يأخذ على فيليب خداعه لنفسه ، وإن يحسب حكماً اساسياً ما لم يكن سوى كلمة مرتجلة لارتيابيته . أو إن يغير فيليب رأيه بعد تبادل افكار يتفقان عليها ، ويهزأ مما قالاه ، ويصرخ : « اذا ُنظر

الى ذلك من زاوية اخرى فان ما فكرنا به هنا هو بلاهة » . الامر الذي يقود الى : « لاشيء يستحق الوقوف عليه ، لا قيمة لأي تأكيد » . وعندئذ يغتاظ انطوان . وموقف كهذا كان بالنسبة اليه لا يحتمل ؛ وكان يتألم منه كما يتألم من عاهة جسدية وفي تلك الايام كان يترك صحبة المعلم بأدب ويسرع الى اعماله ليجد التوازن في لعب فعاليته المفيد .

لقد التقيا على الدرج بتيريفيه الذي جاء يطلب نصيحة مستعجلة من المعلم . وتيريفيه كان هو أيضاً متدرجاً قديماً عند فيليب ، وهو أكبر سناً من انطوان . وقد تفرغ الآن الى الطب العام . وهو الذي كان يعتني بالسيد تيبو .

كان المعلم قد وقف منحنياً الى الامام انحناءة خفيفة ، جامداً ، والذراعان متدليان ، وملابسه تطفو حول جسده الهزيل بهيئة دمية تتحرك بالخيوط وقد ُنسي ان ُتسحب خيوطها . وكان يشكل تناقضاً مضحكاً مع محدثه الذي كان قصير القامة ، سميناً ، متحركاً ، سريع الابتسام . وكانت نافذة الدرج تنيرهم جيداً . وانطوان الذي ظل الى الوراء كان يتسلى بملاحظة المعلم مع تلك الفائدة التي يشعر بها احياناً بأن يرى فجأة الناس الذين يعرفهم أكثر من غيرهم ، بعين جديدة . وفي تلك اللحظة كان فيليب يلقي على تيريفيه نظرة نافذة وقحة من عينيه الصافيتين المحميتين بحاجبين ناتئين ، ظلا أسودين مع ان اللحية اصبحت رمادية ـ لحية معزاة نحيفة تشبه الزينة المستعارة ، حاشية مستلة الخيوط معلقة في ذقنه . كان كل شيء فيه يبدو انه صنع للتكدير ، للاغضاب : اهمال ملابسه ، قساوة حفاوته ، بنيته الجسدية ، وذلك الانف الكثير الطول ، المحمّر وذلك النفس الصافر ، وفتحة الفم ، وتلك الشفة المستهجنة ، الدائمة الرطوبة ، التي يسيل منها صوت أخنّ ، كان بين لحظة واخرى يتسلق اللسان ليقذف كلمة [illegible] ، كلمة بطريقة واضحة نافذة ؛ وعندئذ كانت حدقتاه الشبيهتان بحدقتي قرد تلمعان من داخل اشواكهما : حرارة لذة وحيدة لم تكن تطلب ان ُتقتسم .

ولكن مهما كانت المقابلة الاولى غير موافقة ، فانها لم تكن تبعد عن فيليب سوى الآتين الجدد ذوي المستوى الوسط . وفعلاً ، فقد كان انطوان يلاحظ أنه ما من طبيب كان أكثر منه حظوة لدى مرضاه ، وما من معلم اكثر اعتباراً منه من زملائـــه ، ومطلوباً من تلامذته بكثير من الحماسة ، ولا اكثر احتراماً لدى شبيبة المستشفيات غير المتساهلة . واكثر غضباته الفجائية ضراوة كانت تهاجم الحياة ، والحمق الانساني : لم تكن تجرح سوى الحمقى . وكان يكفي ان تراه وهو يمارس مهنته حتى تشعر ليس فقط باشماع ذكاء دون سخافة ودون استخفاف حقيقي ، بل بحرارة حساسية كان المشهد اليومي يؤذيها بشكل مؤلم : وعندئذ يفطن الى ان عنف جيشان ذهنه ليس سوى رد فعل شجاع ضد الكآبة وعكس شفقة دون أوهام ؛ وان هـــذه الروح اللاذعة التي جلبت له حقد البلهاء لم تكن سوى عمـــلة فلسفته الدارجه ، اذا نظرنا اليها بصورة أفضل .

ولم يعر انطوان كلام الطبيبين سوى اذن غافلة . وكان الأمر يتعلق بمريض يقوم تيريفيه على العناية به ، وقد زاره المعلم البارحة . والحالة تبدو خطيرة . وكان تيريفيه متمسكاً بفكرته . وصرّح فيليب :

– كلا . سنتيمتر مكعب ، ايها الشاب ، هو كل ما اسمح به لنفسي . او افضل : نصف . وعلى مرتين اذا اردت .

وبما ان الآخر كان يتململ متمرداً بشكل ظاهر على هذه النصيحة المعتدلة ، فان فيليب وضع يده ببرود على كتفه وقال مخنخناً :

– انت ترى يا تيريفيه ، حين يكون مريض بهذه الحالة ، فلا يوجد على رأس سريره سوى قوتين تتصارعان : الطبيعة والمرض . ويصل الطبيب ويضرب حسب الصدفة . وجهٌ أم قفا . فاذا أصاب الألم فهو الوجه ، ولكن اذا اصاب الطبيعة فهو القفا ، ويموت الزبون . هذه هي اللعبة يا صغيرتي . وعندئذ في مثل سني ، يكون المرء حكيماً ويسعى حتى لا يضرب بكثير من الشدة .

وظل بضع ثوانٍ جامداً ، مبتلعاً ريقه بضجة مبللة ، ونظره الطارف يبحث

عن نظر تيريفيه . ثم سحب يده والقى على انطوان نظرة ماكرة ، واخذ يهبط الدرج .

والتقى انطوان وتيريفيه وراءه . وسأل تيريفيه :

ـ ابوك ؟

ـ قيء منذ البارحة .

ـ آه !

وغضّن تيريفيه جبهته وأطال شفتيه استياءً . وسأل بعد صمت قصير :

ـ الم تنظر الى الساقين في هذه الايام ؟

ـ كلا .

ـ أول البارحة وجدت تورمها قد زاد قليلاً .

ـ الألبومين ؟

ـ تهديد بالتهاب الوريد على الارجح . سأذهب هذا المساء بين الرابعة والخامسة . اتكون هناك ؟

كانت سيارة فيليب المقفلة تنتظر على الباب . واستأذن تيريفيه وذهب بقفزات صغيرة .

وفكّر انطوان : « من الافضل لي ان أحصل على سيارة صغيرة بما انفقه الآن اجرة سيارة » ..

ـ إلى أين نذهب يا تيبو ؟

ـ الى ضاحية سان أونوريه .

وغاص فيليب في داخل السيارة خائفاً من البرد . وقال قبل ان ينطلق السائق :

ـ اخبرني بسرعة يا صغيري . حالة يائسة حقيقية ؟

ـ يائسة يا معلمي . طفلة في الثانية من عمرها ، طرحٌ مسكين وُلد قبل ميعاده : شفة ارنبية مع تقسيم وراثي في سقف الحلق . وقد أجرى العملية

هيكيه بنفسه في الربيع . وفضلاً عن ذلك هناك نقص وظيفي في القلب . ها انت ترى ؛ وفوق ذلك التهاب حاد في الاذن . وقد جرى هذا في الريف . ويجب ان أقول لك انه ولدهما الوحيد .

وسُمعت دمدمة مشفقة من فيليب الذي كان نظره ضائعاً في البعيد في منظر الشارع الهارب .

ـ ... ولكن السيدة هيكيه حامل لسبعة أشهر . وهو حمل صعب . واظن انها مغفّلة جداً . وبالاختصار ، فقد أسكن هيكيه زوجته خارج باريس ، لتجنب حادث جديد ، في ميزون ـ لافيت ، في بيت مستعار من عمةٍ للسيدة هيكيه . وهم اناس أعرفهم لأنهم كانوا اصدقاء لأخي . وهناك ظهر التهاب الاذن .

ـ أي يوم ؟

ـ ما من أحدٍ يدري . فالمرضعة لم تقل شيئاً ولم تر شيئاً دون شك . والام التي لا تترك سريرها لم تكن أولاً تهتم بشيء . ثم ظنت انهــا المزعجات التي ترافق ظهور الاسنان . وأخيراً ، مساء السبت .

ـ قبل البارحة ؟

ـ قبل البارحة ؛ حين وصل هيكيه الى ميزون ليقضي هناك نهار الاحد ، كما في كل اسبوع ، رأى حالاً ان الصغيرة في خطر . فحصل على عربة اسعاف وجاء بالزوجة والطفلة ليلاً الى باريس . وكلمني هاتفياً عند وصوله . وفي الساعة الأولى من نهار الاحد رأيت الصغيرة . وأسرعت بدعوة طبيب اختصاصي في أمراض الاذن ، الطبيب لانكيتو . وقد وجدنا جميع التعقيدات الممكنــة : حتماً التهاب في عظم الصدغ ؛ وتلف في التجويف الجانبي. الخ.. ومنذ البارحة جربنا كل شيء على غير طائل ، والحالة تزداد خطورة من ساعة إلى أخرى. وفي هذا الصباح أعراض سحايا ..

ـ هل تدخّل أحد ؟

ـ كان يبدو الامر مستحيلاً . وقد قام هيكيه مساء البارحة باستدعـاء

بيشو ، وكان جازماً : حالة القلب لا تسمح بمحاولة أية عملية . وباستثناء الثلج لا يمكن عمل شيء لتخفيف الآلام ـ التي هي مخيفة .

وفيليب الذي لا تزال عيناه تنظر إلى بعيد أبدى دمدمة جديدة ؛ وتابع انطوان مهموماً :

ـ هذا ما وصلنا إليه . والآن دورك يا معلم .ـ وأضاف بعد وقفة ـ ولكني اعترف ان أملي الوحيد هو ان نصل متأخرين وان يكون الامر قد انتهى .

ـ وهيكيه ، ألم يوهم نفسه ؟

ـ أوه ! كلا .

وصمت فيليب لحظة ثم وضع يده على ركبة انطوان :

ـ لا تكن كثير الجزم يا تيبو . فهذا البائس هيكيه ، كطبيب ، يجب ان « يعلم » انه لم يبق لديه ما يأمله . ولكنه كأب ، فهو كما ترى ، كلما ازدادت خطورة الساعة يزداد خداعه لنفسه . ـ وكشّر عن ابتسامة تزيل الغشاوة وخنخن :

ـ من حسن الحظ ، ها ؟ من حسن الحظ ..

٤

كان هيكيه يسكن الطابق الثالث .

وفتح باب الدرج على جلبة المصعد . كانوا بانتظارهما . وهناك رجـل بدين يرتدي بلوزة بيضاء ، ولحيته السوداء تدل على النموذج السامي ، قد شدّ على يد انطوان الذي قدمه إلى فيليب :

ـ اسحق ستودلر !

لقد كان تلميذاً قديماً في الطب . وقد أقلع عن دراسة الطب ولكن ُيلتقى به في جميع الاوساط الطبية . وكرّس لهيكيه ، زميـله القديم في الدراسة ، مودة عمياء ، وتعلق حيوان . وأُعلم بواسطة مخابرة هاتفية بعودة صديقـه المستعجلة ، فركض تاركاً كل شيء ليجلس على رأس سرير الطفلة .

والشقة التي كانت كل أبوابها مفتوحة ، وأُبقيت كما نُظمت في الربيع كانت تقدم منظراً مشؤوماً : فالنوافذ مقفلة لعدم وجود الستائر ؛ والكهرباء منارة في كل مكان . وفي منتصف كل غرفة ، وتحت النور الشديد المنبعث من مصابيح قريبة من السقف ، كان الاثاث موضوعاً أكواماً تحت أغطية بيضاء تشبه نعوش الاولاد كثيراً . وفي قاعة الاستقبال حيث ترك ستودلر الطبيبين ليذهب ويعلم هيكيه ، فان الارض قد انتثرت عليها الامتعة الاكثر تنوعاً حول صندوق مفتوح نصف فارغ .

وفتح باب بنسمة ريح . وامرأة فتية لم ترتدِ ملابسها . والوجه مضطرب ، وشعرها الجميل الاشقر غير مرتب ، أسرعت نحوهما بقدر ما تسمح لها مشيتها الثقيلة ؛ وكانت تمسك بطنها بيد ؛ وترفع بالاخرى أذيال مئزرها لئلا تسقط . وكان تنفسها اللاهث يمنعها من الكلام ، وشفتاها ترتجفان . وسارت رأساً نحو فيليب ، ونظرت اليه بعينيها الكبيرتين الغارقتين بتوسلٍ صامت ، مؤثر جداً بحيث لم يفكر بتحيتها : وقد مدّ يديه بحركة آلية إلى أمامها كمن يريد ان يسندها ، ويهدىء من روعها .

وفي تلك اللحظة هجم هيكيه من باب الدهليز :

ـ نيكول !

كان صوته يرتجف من الغضب . وهو شاحب الوجه ، متشنج القسمات ، وقد اندفع نحو المرأة الشابة ، دون ان يهتم بفيليب ، وأمسكها ، واوقعها ورفعها بين ذراعيه بقوة غير منتظرة منه . فاستسلمت منتحبة . وقال لانطوان الذي ركض لمساعدته :

ـ افتح لي الباب .

وتبعها انطوان . وكانت تمتمة نائحة تنفلت من شفتي نيكول التي كان يسند رأسها المنقلب . وقد ميز أقوالاً متقطعة : « لن تسامحني ابـــداً .. كل شيء بسبب غلطتي ، كل شيء .. لقد ولدت معوهة بسببي فحقدت علي طويلاً ! والآن غلطتي أيضاً .. لو كنت فهمت ، لو اعتنيت حالاً .. » ووصلوا إلى غرفة

شاهد فيها انطوان سريراً كبيراً شاحباً . ومما لا شك فيه ان المرأة الشابة كانت قد راقبت مجيء الطبيبين ، فهل القت نفسها خارج السرير مستخفة بجميع أوامر المنع ؟

لقد امسكت الآن يد انطوان واختطفتها بيأس :

– ارجوك يا سيد .. لن يسامحني فليكس ابداً .. لن يستطيع أن يسامحني اذا .. جرب كل شيء ! انقذها . اتوسل اليك يا سيد ..

وأنامها زوجها بحيطة ٍ وسحب الاغطية عليها . فتركت يد انطوان وسكتت .

وانحنى هيكيه فوقها . وفاجأ انطوان نظرتها المزدوجة : نظرة المرأة مرتبكة ، والهة؛ ونظرة الرجل شرسة .

– اني امنعك من القيام ، اتسمعين ؟

فأطبقت عينيها. وعندئذ ٍ زاد من انحنائه ولامس الشعر بشفتيه ،ووضع على الجفن المطبق قبلة بدت انها تمهر ميثاقاً بالختم وتشبه صفحاً مقدماً .

ثم سار بانطوان الى خارج الغرفة .

حين وجدا المعلم بجانب الطفلة حيث سار به ستودلر كان فيليب قد خلع سترته اولاً ووضع مريلة بيضاء . وكان هادئاً ، مستتر الوجه كأنه وحيد في العالم مع الطفلة . وباشر بفحص دقيق ، اسلوبي ، مع انه عرف منذ الاحتكاك الاول عدم فعالية اية معالجة .

وكان هيكيه صامتاً محموم اليدين ، يراقب وجه الطبيب .

ودام الفحص عشر دقائق .

وحين انتهى فيليب ، رفع رأسه ، وبحث بعينيه عن هيكيه . وكان هذا قد اصبح متغيراً لا يعرف : وجه مقطب ، ونظر جامد بين جفنين احمرين ، متصلبين كأنهما قد جفا من الهواء والرمل . كان عدم تأثره محركاً للعواطف . وادرك فيليب من اللمحة السريعة التي شمله بها ان كل مداجاة لا فائدة منها وأقلع حالاً عن الاعتناءات الجديدة التي استعد لفرضها بدافع الشفقة . وحل

رباط مريلته ، ورفع يديه بسرعة ، وارتدى السترة التي قدمتها المرضة له ، وخرج من الغرفة دون اية نظرة نحو السرير الصغير . وتبعه هيكيه ، ثم انطوان .

وفي الدهليز تطلع الرجال الثلاثة إلى وجوه بعضهم البعض وهم واقفون . وقال هيكيه :

– مهما كان الأمر فاني اشكركما لمجيئكما .

فهز فيليب كتفيه متملصاً . وأحدثت شفتاه جلبة مبللة . وكان هيكيه يتأمله من خلال نظارتيه . وقد أصبح تعبير هذه النظرة صارماً بصورة تدريجية محتقراً ، شبه حاقد ؛ ثم انطفأ ذلك الوميض السيء ، وتمتم بنبرة اعتذار :

– لا يستطيع المرء الامتناع عن الأمل بالمستحيل .

ورسم فيليب حركة لم يكملها ، وأنزل قبعته دون عجلة . ولكن بدلاً من ان يخرج عاد نحـــو هيكيه ، وتردد ، ووضع يده على ذراعه بشكل اخرق . وساد صمت جديد . وحين هدأ جأشها تقهقر فيليب وسعل سعالاً خفيفاً. وعزم أخيراً على الذهاب .

واقترب انطوان من هيكيه .

– اليوم موعد معاينتي . سأعود هذا المساء حوالي الساعة الثامنة .

وكان هيكيه جامداً ينظر ببلاهة إلى الباب المفتوح الذي اختفى فيه آخر أمل له مع فيليب ، وحرك رأسه ليظهر انه سمع .

وهبط فيليب يتبعه انطوان طابقـــين بسرعة ، دون اية كلمة . وعندئذ توقف ، والتفت نصف التفاتة ، وبلع ريقه محدثاً صوتاً كخرير ينبوع . وقال بصوت أكثر خنخنة من السابق :

– كنت أريد أن آمر بشيء رغم كل هذا . ها ؟ والصحيح اني لم اجرؤ .

وصمت ، وهبط بضع درجات ، ودمدم بدون ان يلتفت هذه المرة :

– لست متشائماً مثلك .. يمكن لهذا أن يبقيها أيضاً يوماً أو يومين .

وحين بلغا أسفل الدرج المظلم التقيا بسيدتين داخلتين :

ـ آه ؟ السيد تيبو !

فعرف انطوان مدام دي فونتانان .

وسألت بصوت جذاب سعت ألا يُشتَمّ منه رائحة القلق :

ـ وبعد ؟ لقد جئنا تماماً حين سمعنا بالخبر .

فلم يجب انطوان بسوى هزة رأس طويلة .

ـ كلا ، كلا . وهل من يعلم !

هكذا هتفت مدام دي فونتـــانان بشيء من اللوم كما لو أن موقف انطوان أخطرها بسرعة لتلافي مصير سيء : « الثقة ، الثقة يا دكتور ! ليس هذا ممكناً سوف يكون الأمر فظيعاً ! اليس كذلك يا جني » .

عندئذٍ فقط شاهد انطوان الفتاة التي كانت تقف جانباً، فأسرع بالاعتذار. وكانت تبد قلقة ، حائرة ؛ وأخيراً مدت يدها اليه . ولاحظ انطوان هيئتها المضطربة ورفـّات جفونها العصبية ؛ ولكنه كان يعرف مودة جني لابنة خالها نيكول ولم يدهش .

إلا انه قال لنفسه حين لحق بالمعلم : « انها متغيرة بشكل غريب » . وانبثق في ذاكرته خيال بعيد لفتاة بثوب فاتح، في إحدى امسيات الصيف، في حديقة. وهذا اللقاء أيقظ فيه عاطفة مؤلمة . وفكر : « هذا المسكين جاك لم يكن يعرفها بالتأكيد » .

وكان فيليب قد انزوى في السيارة متجهماً ، وقال :

ـ أنا ذاهب إلى المدرسة . وسأنزلك في بيتك بطريقي .

ولم يلفظ ثلاث كلمات طوال الرحلة . ولكن في زاوية شارع الجامعة بدا أنه أفاق من خدره حين أستأذن انطوان :

ـ إلى العمل يا تيبو .. أنت المتخصص قليلاً بمعالجة من يتأخرون بالنطق .. سأرسل اليك أحدهم في هذه الأيام : مدام أرنست ..

ـ يجب أن أراها اليوم .

ـ ستأتيك بغلامها الصغير. طفل في الخامسة أو السادسة ، يتكلم كرضيع،

بكلمة ذات مقطع واحد . وهناك بعض الأصوات التي لا يستطيع لفظها أبداً . ولكن إذا قيل له أن يتلو صلاته ، فانه يركع ، ويردد « أبانا » بفصاحة ، من أولها إلى آخرها، لافظاً بضبط تقريباً ! وفضلاً عن ذلك فانه يبدو ذكياً بشكل كافٍ . انه حالة تشوقك جداً على ما أظن ..

٥

ظهر ليون منذ ان سمع مفتاح معلمه في القفل :

ــ الآنسة دي باتنكور هنا . ــ واتخذ هيئة إرتيابية كانت مألوفة لديه ، وأضاف : ــ واعتقد انها مع مربية .

فصحح انطوان لنفسه :

ــ انها ليست من عائلة باتنكور ما دامت ابنة لغوبيو « أسواق القرن العشرين » .

ومر إلى غرفته ليبدل طوق العنق والصدرة . وكان يعلق أهمية على زينته ويرتدي ملابسه بفطنة مدروسة . ثم جاء إلى غرفة عمله ، وتأكد بنظرة من أن كل شيء مرتب . كان مليئاً بالبشاشة للعمل على عتبة فترة ما بعد الظهر هذه ، ورفع الستار بنشاط وفتح باب قاعة الاستقبال .

ونهضت امرأة شابة رشيقة . فعرف الانكليزية التي كانت قد رافقت مدام دي باتنكور وابنتها في الربيع (وذاكرته الامينة بشكل لاإرادي ذكرته حالاً بحادث صغير كان قد استلفت نظره : في نهاية الزيارة ، وبينما كان جالساً إلى مكتبه يكتب الوصفة الطبية ، رفع عينيه صدفة نحو مدام دي باتنكور والسيدة الانكليزية ، حيث كانت الاثنتان بزينة خفيفة ، واقفتين ، متقاربتين، في فرجة النافذة ، ولم ينس ذلك الوميض الذي أدهشه في نظرة آن الجميلة بينما كانت ترفع ، بحركة مداعبةٍ من أصابعها العارية ، خصلة شعر عن صدغ المدرّسة الحريري) .

وحنت الانكليزية رأسها بحركة طليقة وجعلت الفتاة تمر أمامها. أما انطوان

الذي تنحّى ليفسح لها مجال المرور فقد غمره لحظة اريج هذين الجسدين الفتيين المعتنى بهما . وكانت الاثنتان شقراوين ، ممشوقتين ، ولون بشرتها لامع .

وكانت هيجيت تحمل معطفها على ذراعها . ومع انها لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد ، فقد كانت تبدو كبيرة وتبعث على الدهشة لرؤيتها ترتدي ثوب ولد ، قصيراً دون اكمام وتترك مكشوفاً لحم فتاة صغيرة ذهّبه الصيف بشكل فاخر . وشعرها الاشقر الحار كان يلتفّ فتائل متحركة ويؤطّر بشكلٍ بهيج هيئةً فيها الابتسامة الحائرة ، والنظرة الواسعة البطيئة تعربان عن الكآبة .

ودارت الانكليزية حول انطوان ، وصبغتها كزهرةٍ لوّنت الوجنتين بلون الورد عندما شرعت توضح بفرنسيةٍ رخيمةٍ كترجيع عصفور ، ان السيدة تناولت عشاءها في المدينة ، وانها امرت ان تُرسل إليها العربة ، وانهـــا لن تتأخر بالمجيء .

وكان انطوان قد اقترب من هيجيت وربت على كتفها بشكل خفيف وادار وجهها إلى النور ، وقال متشاغلاً :

ـ كيف صحتنا الآن ؟

فهزت الفتاة رأسها وابتسمت كأنها مرغمة .

واعاد انطوان النظر بسرعة في لون الشفاه ، واللثة ، والعـــين . ولكن تفكيره العميق كان في موضع آخر . لقد لاحظ في قاعة الاستقبال منذ قليل ، الطريقة الخرقاء التي قامت بها الفتاة من مقعدها ـ مهما بدت كيِّسة ـ وقـــد تقدمت نحوه بتصلب غير قابل للتحسن ؛ وحين ربت على كتفها فان انتباهه المستيقظ لم تفته ملاحظة كشرة لا يمكن اصلاحها وحركة تراجع خفيفة جداً .

انها فقط المرة الثانية التي يرى فيها الطفلة ، فهو لم يكن طبيب العائلة . ومما لا شك فيه ان مدام دي باتنكور الجميلة ، بناء على تحريض من زوجها ، سيمون دي باتنكور ، وهو صديق قديم لجاك ، جاءت في الربيع إلى انطوان لتستشيره في حالة ابنتها العامة ، المتعبة بسبب نموٍ جسدي سريع جداً ، كما قالت . وفي ذلك التاريخ فان الفحص الذي قام به انطوان لم يكشف له عن أي أثر لمرض .

ولكن الحالة العامة بدت موضع شبهة . وكان قد فرض عناية صحية صارمة ، وجعلهم يعدون بان يأتوه بالطفلة كل شهر . ولم يعد يراها . وقال :

ـ هيا . اتريدين ان تخلّصيني من كل هذا ؟

فنادت هيجيت : مس ماري !

وكان انطوان على مكتبه ، هادئاً راضياً ، يراجع الملف الذي وضعه في حزيران . ولم يكن قد اكتشف بعد اية أعراض تستحق الاهتمام : ولكن شكاً فرض نفسه عليه ؛ ومع ان هذه الانواع من الانطباعات غالباً ما كانت في السابق توصله إلى اتباع أثر مرض لا يزال غير ظاهر ، فانه كان يأبى ، وفقاً للقياس ، ان يصدقها بسرعة . وبسط أمامه صورة فحص الاشعة الذي جرى في الربيع ، ودرسه متمهلاً ، ثم نهض .

كانت هيجيت في وسط الغرفة تجلس نصف جلسة على ذراع الكنبة مستسلمة بكسل لخلع ملابسها . وحين كانت تريد مساعدة الآنسة على حل عقدة أو إبزيم كانت تقوم بذلك بشكل أخرق بحيث ترد الانكليزية لها يدها ؛ وذات مرة ، وقد انزعجت هذه ، توصلت إلى درجة ضربها بشدة على اصابعها . وهذه المعاملة العنيفة ، مع شيء مغلق في وجه ماري الملائكي ، جعلت انطوان يفترض ان الفتاة الجميلة لم تكن تحب الطفلة . وكذلك تبدو هيجيت انها تخشاها .

واقترب وقال :

ـ شكراً . هذا يكفي .

ورفعت الصغيرة إليه عينيها زرقاوين رائعتين صافيتين ، يخترقهما النور . كانت تحب هذا الطبيب دون ان تدري لماذا . (وبعد ، فان انطوان ، رغم وجهه المتصلب والمظهر المفكر ، نادراً ما يعطي مرضاه انطباعاً بانه قاسٍ ، حتى الصغار الاقل فطنة ، فانهم لم يكونوا ينخدعون بذلك ابداً : فغضن هذه الجبهة ، وتلك النظرة المغمضة الملحّة ، وذلك الفك القوي المتشنج كانت كلها تبدو لهم ضمانة للألمعية والقوة . وكان المعلم يقول بابتسامة شيطانية : « المرضى

لا يقيمون وزناً إلا لشيء واحد : العناية الجدية بهم .. ») .

وبدأ انطوان بكشف دقيق . لا شيء في الرئتين . كان يتقدم باسلوب ، كفيليب . لا شيء في القلب . وقال صوت خفي ملتمحاً : « مرض بوت[1] *Pott* .. » فقال فجأة :

ـ انخفضي قليلاً . او الافضل كلا : التقطي شيئاً .. حذاءك مثلاً .

فطوت الركبتين لئلا تقوس الظهر . دلالة سيئة . وكان لا يزال يود لو كان مخطئاً . ولكنه اسرع في المعرفة وقال :

ـ قفي مستقيمة . صالبي ذراعيك . هنا . انحني الآن .. اطوي .. اكثر من ذلك ..

وعادت إلى الانتصاب ؛ وشفتاها ، ببطء جذاب ، تنفصل وتنفتح بابتسامة رقيقة ، وتمتمت بنبرة اعتذار :

ـ هذا يؤذيني .

فقال انطوان : حسناً .

وتأملها لحظة دون ان يبدو انه يراهـــا . ثم نظر اليها وابتسم لها . كانت مسلية ، مبتغاة وهي عارية هكذا وحذاؤها بيدهـــا ، وعيناها الكبيرتان المندهشتان الرقيقتان محلقتان بأنطوان . وتعبت من وقـــوفها فاستندت إلى مسند مقعد . وبياض جذعها الاملس كان يظهر صبغة المشمش الناضج التي تغطي الكتفين ، والذراعين والفخذين المستديرين شبه قاتمة ؛ وذلك الشال كان يوحي بفكرة بشرة حارة محرقة .

وقال آمراً ، وهو ينشر قماشاً على كرسي طويل .

ـ تمددي هنا .

ولم يكن يبتسم ابداً ، كان منصرفاً من جديد الى قلقه .

ـ تمددي على البطن . تمددي جيداً .

---

١ ـبوت : جراح انكليزي ولد في لندن (١٧١٤ ـ ١٧٨٨) . كان معروفاًعلى الخصوص بابحاثه المشهورة حول مرض الفقار الحقوية الذي اطلق عليه اسمه . (مرض بوت) .

وجاءت اللحظة الحاسمة . وركع انطوان ، وجلس متمكناً على عقبيه ومد ذراعيه إلى الامام ليطلق المعصمين جيداً . وظل ثانيتين جامداً كأنه يجمع افكاره ؛ واخذ نظره القلق ينتقل شارداً من عظم الكتف حتى تقوس حقوها الظليل ، وحتى هذا الظهر القاسي ذو العضلات الذي كان مبسوطاً امامه . ثم وضع كفه على الرقبة الفاترة التي ارتخت قليلاً ، وأسند اصبعين فاحصين الى العمود الفقري ، محاولاً ان يبقي ضغطه متساوياً ، واخذ يعد عقد الظهر الواحدة بعد الاخرى . وهبط ببطء على طول السبحة العظمية .

وارتعش الجسم فجأة وتقعر : لم يكن لدى انطوان سوى الوقت الذي يرفع فيه يده . وقال صوت ضاحك مقتنع ، نصف مختنق بين الوسائد :

– ولكنك آلمتني يا دكتور .

– غير ممكن ! اين ؟

ولمس عدة نقاط اخرى لكي يضللها :

– هل هنا ؟

– كلا .

– وهنا ؟

– كلا .

عندئذ ، ولكي يتأكد من انه لم يبق ادنى شك ، سأل فجأة وهو يغرز سبابته في مكان الفقرة المصابة المضبوط :

– هنا ؟

وافلتت الطفلة صرخة مقتضبة استبدلت بسرعة بضحكة مرغمة .

وساد صمت .

وقال انطوان بعذوبة جديدة :

– استديري .

وجس العنق ، ثم الصدر ، ثم الابطين . وكانت هيجيت تتشدد لئلا تشكو . ولكنه حين استند إلى العقد العصبية في طية اعلى الفخذ صدر عنها

أنـّة ضعيفة .

ونهض انطوان ؛ وكان رابط الجأش الا انه تجنب نظرة الطفلة . وقال كأنه يبدي استياءه بدافع اللعب :

ـ حسناً . سأتركك . بالحقيقة انت قليلة الاحتمال .

وطرق الباب وفتح في الوقت نفسه . وقال صوت حار :

ـ هذا انا يا دكتور .

ودخلت آن الجميلة بخطوة مزهوة .

ـ اسألك الصفح . فقد تأخرت بشكل معيب ... ولكنك تسكن في حي يتعذر الوصول اليه . ـ وضحكت : ـ آمل الا تكون انتظرتني . ـ وأضافت باحثة بعينيها عن ابنتها وقالت بدون حنو : ـ أحذري لئلا تصابي بالبرد، انت . يا صغيرتي ماري تلطفي وضعي لها شيئاً على كتفيها ، اتريدين ؟

كان في صـوتها تغييرات مـداعبة وخشنة تتبع ، دون رابط ، رنات اكثر خشونة .

وتقدمت نحو انطوان . وكانت ليونتها مثيرة ؛ ولكن يظل تحت حركاتها المرحة شيء جاف يشي بعناد عنيف ، مصحح ألانته عادة إغراء طويلة ؛ اغراء بواسطة العذوبة . وكان يركد حولها عطر يتضوع مسكاً ويبدو كثير الثقل فلا يرتفع في الهواء . وبحركة حرة مدت يدها المغطاة بقفاز فـاتح تحتك فيها سلسلة الساعة .

ـ صباح الخير .

وكانت نظرتها الصهباء تغرز حتى اعماق عيني انطوان . ورأى فمهـا المفتوح قليلاً . وتحت التموجات السمراء شفوف ناعمة تخطط جلدة الصدغين بشكل دقيق جداً وتجعل اللحم اكثر هشاشة حول الجفون . وحول بصره . وسألت :

ـ أأنت مسرور يادكتور ؟ اين صرت في فحصك ؟

فقال انطوان :

ـ ولكن فحص اليوم قد انتهى .

وجمدت ابتسامة على الشفتين ؛ والتفت نحو الانكليزية :

ـ بامكانك ان تلبسي الآنسة .

وهتفت مدام دي باتنكور وهي تجلس ضد النور بدافع العادة :

ـ إعترف بانني جئتك بها في حالة جيدة . هل قالت لك اننـــا قضينا ..

كان انطوان قد اقترب من المغسلة ورأسه ملتفت بتهذيب نحو مدام دي باتنكور ، وبدأ يغسل يديه بالصابون .

ـ..باننا قضينا،لأجلها شهرين في اوستاند؟الا انها اصبحت سمراء كما يبدو ! ولو كنت رأيتها منذ ستة اسابيع ! اليس كذلك يا ماري ؟

كان انطوان يفكر . السل التدرني هذه المرة قد اعلن عن نفسه : كان يهاجم البناء من اساسه ، وينخر العمود الفقري بعمق . وكان على وشك القول : « آفة قابلة للشفاء » ولكنه لم يكن يعتقد ذلك . فالحالة العامة ، رغم المظهر كانت تستوجب القلق . وكل الجهاز الخاص بالعقد العصبية كان متورماً .

وهيجيت هي ابنة غوبيو الهرم ، وهذه الوراثة الفاسدة بدت انهاتعرّض المستقبل للخطر بشكل خطير .

ـهل قالت لك انها نالت الجائزة الثالثة في مسابقة « البالاس » ؟ وامتيازاً في مسابقة الكازينو ؟

كانت تلفظ الجيم كالزاي بشكل قليل ، قليل جداً ، بالقدر اللازم لتضيف إلى فتنتها الرهيبة شيئاً ساذجاً ، مطمئناً . وحـدقتاها ، حيث تنوع اللـون الاخضر يدهش في هذه الصبغة السمراء ، كانتا تطرحـان دون سبب وميضاً مقتضباً متجاوزاً الحد . ومنذ لقائها الاول اغـاظها انطوان بشكل خفي . وكانت آن دي باتنكور تحب ان تشعر انها مطمح انظار الرجـال والنساء . ومرت السنون ، الا انها استخرجت منها اقل فائدة ؛ ولكن كلما ظلت اللذة التي اتخذتها منها افلاطونية فانها كانت تبدو قلقة لتؤمّنهذا المحيط الشهواني في

كل مكان . وكان موقف انطوان يثير سخطها لأن النظرة المنتبهة اللاهية التي يرمقها بها لم تكن بريئة من الرغبة ابداً ؛ كانت تشعر بها جيداً ، الا ان رغبة كهذه كان يسيطر عليها بسهولة ويوجه كل فطنته لاصدار حكم صائب .

وقاطعت قائلة ، مع ضحكة من حنجرتها :

ـ عفواً ، اني اختنق تحت هذا المعطف .

وهي ما تزال جالسة ، دون ان ترفع نظرها عن الشاب . وبحركة متموجة جعلت سلسلتها تحدث صليلاً اسقطت على جسدها الفروة الفضفاضة التي كانت تغطي المقعد التي تجلس عليه . ونصفها الاعلى ، وهو اكثر حرية ، اخذ يختلج . وتجويف صدر الفستان ابرز عنقاً متفلتاً ، لا يزال فتياً ، متمرداً اذا صح القول ، ما دام يحمل بفخر الرأس الصغير المغطى بقبعة ، وذا المنظر الجانبي الأقنى .

وانطوان ، منحن الآن على يديه يجففها ببطء ، وهو ساه ، مهموم ، يتخيل مسبقاً التهاب النسيج العظمي الذي يتقدم تدريجياً ، والارتخاء ، ثم الانحطاط الفجائي للفقرة المنخورة. كان يجب ، وبأسرع ما يمكن ، محاولة الحظ الوحيد: الوضع في مشد من الجبس طوال اشهر ـ وربما سنوات .

وتابعت مدام دي باتنكور رافعة النبرة لتكون مسموعة من انطوان :

ـ كانت اوستاند بهيجة جداً في هذا الصيف يا دكتور . عالم مجنون . كثير من الناس . وسوق عامة ايضاً .

وضحكت . الا انها حين رأت ان انتباه الطبيب قد فاتها ، جعلت صوتها ينخفض تدريجياً ، وصمتت ، ولفتت عيناً ملاطفة نحو مس ماري التي كانت تلبس هيجيت ملابسها . الا انها لم تكن تحتمل دور المتفرج طويلاً : كان يلزمها ان تتدخل دائماً . ونهضت برشاقة لتصلح طية طوق خاطئة ، وصححت بحركة دائرية من يدها ترتيب اعلى الثوب ، وخاطبت الانكليزية بصوت منخفض ، وقالت لها وهي تنحني بدالة على وجهها :

ـ تعلمين يا ماري اني افضل الثوب المطرز الذي يصنع عند هيدسون ؛ ويجب ان يعطى لسوزي كنموذج ... ـ وهتفت منزعجة : ـ قفي اذن .

دائماً جلوس ! كيف تريدين ان نعلم اذا كان فستانك مستقيماً ؟ ـ وبحركة مرنة قلبت نصفها الاعلى من ناحية انطوان : ـ لن تتصور يا دكتور كم ان هذه الابنة فاترة الهمة ! بالنسبة الي ، انا التي يوجد زئبق في شراييني . ان هذا يبعث القشعريرة في البدن .

والتقت عينا انطوان بعيني هيجيت المستفهمتين بشكل غامض ولم يستطع ان يكبح جماح بريق مشترك بينهما جعل الفتاة تبتسم . وقد اوضح لنفسه : «اليوم هو الاثنين . ويوم الجمعة او السبت يجب ان تكون في جبسها . وبعد ذلك نتروى فيما يجب عمله » .

بعد ذلك .. ظل مفكراً بعض الوقت . وكان يرى بوضوح على سطيحة مستشفى بيرك ، بين « النعوش » المصفوفة تحت الريح المالحة ، عربة اطول من الاخريات ، وعلى الفراش الذي لا وسادة له ، في وجه العليلة المنقلب ، تلك النظرة الجميلة ، الرشيقة الزرقاء ، تائهة على افق تلال رمال الشاطىء ..

وأوضحت مدام دي باتنكور شاكية من كسل ابنتها :

ـ في اوستاند ، تصور انهم نظموا دروساً للرقص صباحاً في الكازينو . وقد اردت ارسالها الى هناك . وكانت الآنسة بعد كل رقصة تسقط على المقاعد وتبكي ، وتدعو للاهتمام بها ! وكان جميع الناس يشفقون.. ـ وهزت كتفيها ـ

ـ انا التي تنفر من الشفقة !

قالت ذلك بحدة ، مصوبة نحو انطوان نظراً لا يلين جعله يتذكر فجأة تلك الضجة التي سرت في الماضي بان غوبيو الهرم ، الذي اصبح غيوراً في وقت متأخر ، مات مسموماً . وأضافت بنبرة حقد :

ـ لقد أصبح هذا مضحكاً بحيث اضطررت إلى الخضوع . .

وشملها انطوان بنظرة لا تساهل فيها . واتخذ قراره فجأة . سوف يقلع عن اجراء حديث خطير مع هذه المرأة ؛ وسوف يتركها تذهب ، ويدعو الزوج إلى الاجتماع به فوراً . ان هيجيت لم تكن ابنة باتنكور ، ولكن انطوان تذكر ما كان جاك يقوله دائماً عن سيمون : « لا شيء في الرأس ، ولكن قلب

من ذهب »

وسأل :

ـ هل زوجك في باريس ؟

فظنت مدام دي باتنكور انه رضي أخيراً باعطاء الحديث إطاراً أكثر دنيوية . ولم يكن ذلك قبل الاوان ! فقد كان لديها بعض الاشياء تطلبها منه ولاجل ذلك كن عليها ان تثير رضا انطوان . فانفجرت ضاحكة واستشهدت بالانكليزية :

ـ اتسمعين يا ماري ؟ كلا يا سيدي العزيز : اننا محكومون بالبقاء في التورين حتى شهر شباط ، لأجل الصيد ! وقد استطعت الافلات هذا الاسبوع بين دفعتين من المدعوين ، ولكن البيت سيمتلىء من جديد نهار السبت .

فلم يجب انطوان بشيء ، وقد أغضبها هذا الصمت . يجب ان تقلع عن تدجين هذا المتوحش . واصبحت تجده مضحكاً بشرود ذهنه وتربيته السيئة !

واجتازت الغرفة لتستعيد معطفها.

وكان انطوان يقول لنفسه : « حسناً ، سأبرق حالاً إلى باتنكور ؛ العنوان معي . يمكن ان يكون غداً في باريس ، أو بعد غد على أبعد تقدير . نهار الخميس فحص بالاشعة . ومشاورة المعلم للاطمئنان . وسنصنع لها الجبس نهار السبت .

وكانت هيجيت ، الجالسة على كنبة ، تضع قفازيها بهيئة عاقلة ، ومدام دي باتنكور واقفة ، ملتفة بالفراء ، تضبط أمام المرآة قبعتها من طراز والكيري والمصنوعة من بقايا طائر التدرج *Faisan* المذهّبة . وسألت بشيء من الخشونة :

ـ وبعد يا دكتور ؟ أليس من وصفة ؟ أي تعليمات هذه المرة ؟ هل ستمنعها من متابعة بعض عمليات الصيد مع مس ماري ، في عربة انكليزية ؟

٦

ذهبت مدام دي باتنكور ، وعاد انطوان إلى مكتبه وفتح باب قاعة الاستقبال . ودخل روميل بخطوة رجل ليس لديه دقيقة يضيعها . وقال انطوان معتذراً :

– لقد جعلتك تنتظر .

فأتى الآخر بحركة اعتراض ملاطفة ومد يده بدالّة. وكان يبدو انه يقول: « لست هنا سوى زبون » .

كان يرتدي معطفاً أسود ذا قفا حريري ويمسك بيده قبعة عالية . وفضلاً عن ذلك فان هذه العدة الرسمية كانت كافية لهيئته .

وقال انطوان بمرح :

– اوه ! اوه ! كأنك آتٍ على الاقل من عند رئيس الجمهورية !

فضحك روميل مجاملاً :

– ليس تماماً يا عزيزي . ولكني خارج من سفارة الصرب : غداء على شرف بعثة دجانيلوسكي المارة في باريس هذا الأسبوع . ثم اقوم بعملية سخرة : فقد أرسلني الوزير لاستقبال الملكة اليزابيت التي خطرت لها فكرة مكدرة باعلانها انها سوف تزور معرض زهور « الكريزانتيم » في الساعة الخامسة والنصف . ومن حسن الحظ اني اعرفها . انها بسيطة جداً ، ولطيفة تماماً . وهي تعبد الزهور وتكره البروتوكول ، وسأقتصر على بضع كلمات ترحيب ليست احتفالية ابداً .

وابتسم بهيئة ساهية ، وخطر لأنطوان ان يردد في ذهنه خاتمة كلامه ، وهي لقطة محترمة وسامية وروحية معاً .

كان روميل قد تجاوز الاربعين . رأس كرأس الأسد ، ولبدة كثيفة شقراء ملقاة إلى الوراء حول وجه روماني سمين قليلاً ؛ وشارب كأنه مرفوع بالحديد ، وعين زرقاء متحركة ونافذة بشكل إرادي. وكان انطوان يفكر احياناً: «بدون

الشارب ، يصبح لهذا الحيوان وجهاً جانبياً كوجه خروف » .

ــ آه ! هذا الغداء يا عزيزي ! ـ وتوقف واغمض عينيه نصف إغماضة وهز رأسه : ـ عشرون أو خمسة وعشرون مدعــواً . لا شيء سوى ضباط ، وشخصيات من الدرجة الاولى ، وماذا ؟ ربما نعدّ اثنــين أو ثلاثة من الألبّاء . هذا مخيف .. إلا اني أظن انني مهدت لشيء نافع . والوزير لا يعرف من الأمر شيئاً ، وأخاف أن يفسد عــليّ كل شيء بطرقه التي تشبه طرق كلبٍ يمسك بعظمة .

وكان القاؤه ذا أهمية ، والابتسامة الرقيقة التي تطيل كلماته كانت تكسب نفس الملاحة لجميع أقواله .

وقال انطوان مقترباً من مكتبه : أتسمح ؟ الوقت الذي اكتب فيه برقية فورية . إلا إني اسمعك . كيف حالك اليوم بعد تلك الولائم الصربية ؟

لم يبد روميل انه سمع السؤال . واستمر يخطب لاهياً ، ولاحظ انطوان : « ما إن يتناول الكلام حتى لا تعود هيئته هيئة رجل متعجل » . وبينما كان يكتب برقيته لبانكور كانت نهايات بعض العبارات تصل إلى اذنه اللاهية :

ــ ..منذ أن تتحرك المانيا.. ها هم يعدون في ليبزيغ أثراً تذكارياً لحوادث عام ١٨١٣ ، والتدشين سيحدث ضجة ! كل عــذر صالح لديهم .. والأمر آت يا عزيزي ! انتظر فقط سنتين أو ثلاث .. هذا آت !

وقال انطوان رافعاً أنفه : ماذا إذن ؟ الحرب ؟

وكان ينظر إلى روميل بهيئة لاهية . فقال الآخر بشكل جدي :

ــ ولكن نعم ، الحرب . اننا سائرون رأساً اليها .

كان دائم الهوس بالتنبؤ بالحرب الاوروبية بعد وقت قصير . حتى ليظن احياناً انه يعوّل عليها ؛ واضاف : « ستكون هي اللحظة التي سنظهر فيها اننا على المستوى المطلوب » عبارة مبهمة يمكن ان تفسر : الذهاب الى الحرب . ولكن انطوان فسرها دون تردد : تسنّم السلطة .

وكان روميل قد اقترب من المكتب وانحنى نحو انطوان وخفض حدته آلياً:

ـ هل تتابع ما يحدث في النمسا ؟
ـ هيه ... نعم كمن لا علاقة له .
ـ يدّعي تيسزا *Tisza* انه خليفة برتولد . وتيسزا ، رأيته عن قرب عام ١٩١٠ : انه أسوأ المغامرين . وقد برهن على ذلك في رئاسة مجلس الوزراء الهنغاري . هل قرأت ذلك الخطاب الذي هدد فيه روسيا بطريقة مكشوفة ؟
كان انطوان قد انتهى من الكتابة ونهض وقال :
ـ كلا . ولكن منذ ان اصبحت في سن قراءة الصحف ، كنت ارى النمسا دائماً تلعب دور الولد المخيف . وحتى الآن لم يكن لهذا كثير من الاهمية .
ـ ذلك لأن المانيا كانت تقوم بدور المكبح . ولكن من المؤكد ان موقف النمسا بدأ يصبح مقلقاً جداً ، بسبب التطور الذي حدث في المانيا منذ شهر تقريباً . وهذا ، فالجمهور لا يرتاب به .
فقال انطوان ، مهتماً رغماً عنه : اشرح لي هذا .
فتطلع روميل الى الساعة ووقف .
ـ لن اعلمك سوى انه رغم التحالف الظاهر ، ورغم خطابات الامبراطورين الجميلة ، فان العلاقات بين المانيا والنمسا ، منذ ست او سبع سنوات ...
ـ حسناً ، أليس هذا الخلاف هو ضمانة السلام بالنسبة الينا ؟
ـ انه لا يقدر بثمن . « فقد كان » هو الوحيد .
ـ « فقد كان » ؟
فأتى روميل بحركة إيجابية وفورة :
ـ كل هذا يا عزيزي على وشك التغيير .
ونظر الى انطوان كأنه يتساءل الى اي مدى يستطيع الذهاب . ثم أضاف بين اسنانه : « ربما بسبب خطأنا » .
ـ بسبب خطأنا ؟
ـ ياالهي ، نعم . ولكن هذه حكاية اخرى . ولو قلت لك ان الناس الاكثر اطلاعاً في اوروبا يعتبرون اننا نضمر الحرب ؟

ـ نحن ؟ هذه بلاهة .

ـ الفرنسي لا يسافر . والفرنسي يا عزيزي ليس لديه اية فكرة عن التأثير الذي يمكن ان تنتجه سياسته الحربية .. منظورة من الخارج .. ان التقارب التدريجي بين فرنسا وانكلترا وروسيا ، واتفاقاتهم العسكرية الجديدة ، وكل ما يحاك دبلوماسياً منذ سنتين ، كل هذا ، عن خطأ او عن صواب ، بدأ يقلق برلين جدياً . فامام ما تسميه المانيا عن سلامه نية « تهديدات » الاتفاق الثلاثي ، تكتشف فجأة انه من الممكن ان تجد نفسها وحيدة . وهي تعلم ان ايطاليا ليست جزءاً من الثلاثي إلا نظرياً . اذن فليس معها سوى النمسا . ولهذا السبب بدا لها ، في هذه الاسابيع الاخيرة ، ان من الضروري شد أواصر الصداقة . ولو كان الثمن منح امتيازات هامة ، او تغيير الاتجاه . افهمت ؟ ومن هنا ، فليس سوى خطوة لتبديـــل الموقف فجأة . ولقبول سياسة النمسا ، البلقانية ، وربما تشجيعها . ويقال ان هذه الخطوة قد تمت . اما الاكثر خطورة فهو ان النمسا ، وقد شعرت بدورة الريح ، اغتنمت الفرصة حالاً ، كما رأيت ، لكي تهدد . وهكذا نجد المانيا تسند بملء اختيارها الجسارات النمساوية ـ الامر الذي يجعل لهذه الجسارات ، بين اليوم والغد ، مرمى لا يمكن حسبانه . ان اوروبا كلها مجرورة آلياً الى الخلاف البلقاني .. اتدرك الآن ان المرء يشعر بالتشاؤم ، وعلى الاقل بالقلق ، بسبب هذا القليل من المعلومات التي اطلع عليها؟

وكان انطوان صامتاً ، ارتيابياً . يعلم بالاختبـار ان اختصاصيي السياسة الخارجية يتوقعون دائماً اصطدامات لا يمكن تجنبها . ورن الجرس طالباً ليون ، وهو واقف بقرب الباب ينتظر مجيء الخادم لينتقل اخيراً إلى الامور الجدية ؛ وكان يتبع بعين غير متغاضية روميل الذي نسي الساعة وهو منصرف لموضوعه ، على أحسن ما يكون ، يروح ويجيء أمام الموقد .

والاب روميل ، وهو عضو قديم في مجلس الشيوخ ، كان صديقاً للسيد تيبو . (لقد مات في الوقت المناسب لئلا يشاهد صعود ولده في معارج الامجـــاد الجمهورية .) وسنحت الفرصة لأنطوان عدة مرات التقي فيها بروميل . ولكن

الحقيقة انه لم يعاشره كثيراً الا من مدة اسبوع . وقد لاحظ ان هـذه الشقشقة الدائمة ، وتلك البشاشة الباكرة لرجل ذي خطوة ، وهذا الاهـتمام بالمشاكل الكبرى ، تترك المجال ، بين لحظة واخرى ، لأثر حقير يتكشف فيه الطمـع الشخصي بشكل ساذج ؛ وكان الطمع دون شك هو العاطفة الوحيدة العنيفة التي كان روميل خليقاً بها ، وكان انطوان يعتد ايضاً ان الطمع قليلاً ما يتناسب مع وسائل التطرف ـ التي يجزم بأنها محدودة : تعليم وسط ، خجـــل دون اعتدال ، طبـع متقلب ، وكل هذا متستر بمهارة تحت مسلك رجـل مستقبل كبير .

إلا ان ليون جاء يأخذ البرقية . وقال انطوان لنفسه وهو يلتفت نحـو الثرثار : « هدنة في السياسة وهدنة في علم النفس » .

ـ اذن ؟ دائماً هكذا ؟

وتجهم وجه روميل بغتة .

ذات مساء من اول الاسبوع المنصرم ، حوالي الساعة التاسعة ، فإن انطوان رأى روميل يدخل إلى مكتبه محتقن الوجه . وقد اصيب منذ أول البارحة بمرض رفض ان يعترف به لطبيبه المعتاد ، وكذلـك كمجهول . وكان يقول : « افهمني يا عزيزي ، لانني متزوج ، ولأنني شخص رسمي نوعاً ، فان حيـاتي الخاصة وحياتي العامة هما تحت رحمة عدم الكتمان والتشهير » .

وتذكر ان تيبو الشاب هو طبيب ، فجاء يرجو انطوان ان يعتني بـــه . وبعد ان حاول هذا عبثاً إرساله إلى اخصائي ، فانه بدا مستعداً لممارسة مهنته ، وفضولياً كفاية ليقترب من هذا السياسي . وهكذا رضي .

ـ صحيح ، أليس هناك أي تحسن ؟

فهز روميل رأسه بنوع مشفق وظل صامتاً . كان هذا الثرثار لا يستطيـع التصميم على التكلم عن مرضه والاعتراف بانه يقاسي بين لحظة واخرى أشـد العذاب ، وانه منذ قليل ايضاً ، بعد الغداء الدبلوماسي اضطر ان يقطع حديثاً هاماً ليترك غرفة التدخين على عجل لأن الآلام أصبحت شديدة.

وفكر انطوان ، وقال بعزم : حسناً ، يجب تجربة النيترات .

وفتح باب « المختبر » ، وادخل روميل الذي ركن إلى الصمت ؛ ثم أدار ظهره وأعد المزيج وملأ المحقن بالكوكايين . وحين عاد نحو ضحيته كان هذا قد خلع المعطف الاحتفالي ؛ وبدون طوق القميص المستعار ، وبدون بنطلون ، لم يكن الآن سوى شخص مريض مسكين ، متألم ، قلق ، ذليل يتخلص بقلق من ملابس قذرة .

ولكنه لم يطمئن بعد . فحين اقترب انطوان ، رفع رأسه قليلاً وحاول ان يبتسم ببقية من الطلاقة .كان يتألم مع ذلك ، وبألف طريقة ، حتى من وحدته المعنوية . وزيادة في البلية لم يكن في نكبته الحالية يستطيع إلقاء القناع ، ولا يستطيع الاعتراف لأحد كم يهينه هذا الحادث المضحك ، ليس فقط في جسده : بل في كبريائه . واأسفاه ! الى من يتكلم بعدم تكلف ؟لم يكن له صديق . فقد حكمت عليه السياسة منذ عشر سنوات ان يعيش منعزلاً وراء حاجز من الرفقة المرائية الحذرة . لم تكن هناك اية محبة حقيقية في متناوله. بلى ، هناك واحدة: محبته لزوجته ؛ فقد كانت في الواقع هي صديقته الوحيدة، الكائن الوحيد الذي عرفه وأحبه لماهيته ، الكائن الوحيـــد الذي يتعزى بالركون اليه ـ ولكنه الكائن الذي يجب ان يخفي عنه هذه المغامرة البائسة وبكثير من القلق .

وتكتفل الالم الجسدي بوضع حد لهذه الافكار . وبدأت النيترات عملها . وخنق روميل اولى صرخات الالم . ولكن بعد قليل ، ورغم تأثير المسكن ، فقد شد على اسنانه وقبضتيه ، ولم يستطع امتلاك نفسه . فالكي العميق انتزع منه انين امرأة في حالة الولادة . ودمعات كبيرة جعلت عينيه الزرقاوين تلمعان.

وأشفق انطوان عليه :

ـ هيا يا صغيري . قليلاً من الشجاعة، فقد انتهيت .. انه مؤلم ولكن لاغنى عنه ؛ وهذا لن يدوم . إبق هادئاً لأصنع لك قليلاً من الكوكايين ..

لم يكن روميل يسمعه ، كان مجزءاً على الطاولة تحت عكس نور لا يرحم ، يقلص ساقه ويرخيه كضفدعة قيد التشريح .

وحين توصل انطوان اخيرا إلى تخفيف الالم قال :

ـ انها الرابعة والربع . في اية ساعة يجب ان تذهب من هنا ؟

فقال المنكود متلجلجاً :

ـ في .. في الساعة الخامسة فقط . معي .. السيارة .. تحت .

وابتسم انطوان : ابتسامة صـــداقة ، مشجعة ، ولكنها تخفي ابتسامة تدليس : فقد فكر عنه بالسائق الكثير التهذيب ، ذي الشارة المثلثة الالوان ، والثابت الجنان على مقعده ، وكان ينتظر السيد مندوب الوزير ؛ ثم على طريق الطنفسة الحمراء التي تُفرش دون شك فيهذه اللحظة تحت سقفمعرض الزهور ، والذي سيتقدم عليه بعد ساعة هـــذا الروميل الذي يفحص برجليه كرضيع يبدلون له ملابسه ، روميل الجميل المحزوم اخيراً في معطفه ، وابتسامة مبهمة تحت شاربه الذي يشبه شارب الهر ، يتقدم وحيداً ، بخطى محسوبة ، الى امام الملكة الصغيرة اليزابيت .. ولكن هذا الذهول لم يدم سوى دقيقة . وبعدها لم يكن تحت نظر الطبيب سوى مريض ؛ أقل من مريض ، حالة ؛ وأقل ايضاً : عمل كيماوي ، عمل كاوٍ على غشاء ، عملٌ كان قد اثاره عن علم واصبح مسؤولاً ، وكان يراقب بالفكر النمو الضروري .

ثلاث ضربات رصينة ضربها ليون ذكـــرته بالحقائق الخارجية . وفكّر فجأة ، ملقياً معداته في طبق التطهير : « جيز هنا » . انه الآن متعجل ليترك روميل ولكنه معتاد على عدم التساهل بالواجبات المهنية . فانتظر روميــــل بصبر ليهدأ المفعول المؤلم . وقال وهو ينصرف :

ـ استرح هنا على راحتك . لست بحاجة الى هذه الغرفة . وسآتي لأنبئك عندما تصبح الساعة الخامسة إلا عشرة .

٧

كان ليون قد قال لجيز : لو أرادت الآنسة ان تنتظر هناك .

و « هناك » هي غرفة جاك القديمة ، المظلمة الآن بسبب بدء الليل ، وهي

مليئة بالظلام والصمت كأنها قبو صغير . وخفق قلب جـــيز وهي تمر على هذه العتبة، والجهد الذي اضطرت إلى بذله لتتغلب على اضطرابها اتخذ ، كما هو دائماً، شكل صلاة ، نداء قصير لذلك الذي لا يتخلى ابـداً . وجلست آلياً على تلك الأريكة ـ السرير حيث أتت مرات عديدة ، وفي كل مراحل عمرها، لتثرثر مع جاك . وكان ُيسمع بكاء مضطرب صادر عن ولد ـ هل هو في غرفة الاستقبال، هل كان من الشارع ؟ ـ وكانت جيز تشعر بالألم للسيطرة على حساسيتها. والآن تـكاد الدموع تخنقها ، لأجـــل لا شيء . ومن حسن الحظ انها كانت وحدها في تلك اللحظة . وكان يجب ان ترى طبيباً ، ولكن ليس انطوان . انها ليست بحالة جيدة . وقد هزلت كثيراً . الأرق دون شك . وليس هذا طبيعياً في سن التاسعة عشرة .. وفكرت دقيقة في التسلسل الغريب لهذه السنوات التسع عشرة : تلك الطفولة التي لا تنتهي بين عجوزين ؛ ـ ثم هذا الغم الكبير المعقد باسرار ثقيلة جداً ، في سن السادسة عشرة .

وجاء ليون يولع النور ، ولم تجرؤ جيز على القول انها تفضل أن تشملها الظلمة النصفية هذه ؛ وفي الغرفة المضاءة الآن كانت تعرف كل قطعة أثاث ، كل الأشياء الصغيرة . ويبدو جيداً ان حب انطوان الاخوي قد حال ، من حيث المبدأ ، دون لمس أي شيء ؛ ولكن منذ أن أصبح يتناول طعامه هنا فان كل متاع قد نقل ، شيئاً فشيئاً من مكانه ، وبدّل غاية استعماله وكل شيء اتخذ مظهراً مختلفاً؛ تلك المنضدة المبسوطة في وسط الغرفة ؛ وأوعية الشاي التي تعلو المكتب الذي تبدلت مهمته بين سلة الخـــبز وصحن الفاكهة . والمكتبة نفسها .. في الماضي لم تكن ُتسحب هذه الستائر الخضراء هكذا وراء الزجاج . كان أحـــد الستائر ينفتح قليلاً ؛ وانحنت جيز ورأت الصحون تلمع ؛ وكان ليون قد نضد كتباً على الرفوف العليا .. لو يستطيع هذا المسكين جاك أن يرى مكتبته المتحولة إلى خزانة صحون !

وجاك .. كانت جيز ترفض أن تفكر به كميت . لا لأنها لم تكن تأمل أن تراه يظهر فجأة في فتحة الباب . ولكنها ، في كل لحظة تقريباً ، كانت تتوقع

أن تراه يظهر أمامها ؛ وهذا الانتظار الخرافي كان يبقيها ، منذ ثلاث سنوات ، في نصف حلم متحمس ، ومخفق .

وهنا ، بين هذه الأشياء المألوفة ، تهاجمها الذكريات . لم تجرؤ على النهوض : لا تكاد تتنفس خوفاً من تحريك الهواء وتدنيس هذا الصمت . وعلى المدخنة صورة لأنطوان توقفت عيناها عليها. انها تتذكر النهار الذي اعطى فيه انطوان هذه الصورة لجاك ، وترك للمدموازيل صورة مماثلة ؛ وهي موجودة فوق . انه انطوان الزمن الماضي الذي كانت تحبه كأخ أكبر ، والذي كان نجدتها الكبرى أثناء تلك السنوات الثلاث من التجربة . ومنذ ان اصبح جاك غير موجود هنا ، كانت تنزل في أغلب الأحيان إلى جانب انطوان للتحدث عن المختفي ! كم من مرة كادت ان تخبره بسرها ! كل شيء تغير الآن . لماذا ؟ ماذا جرى بينهما ؟ تكاد لا تعرف ان تذكر شيئاً واضحاً . انها تذكر فقط المشهد القصير في شهر حزيران ، عشية ذهابها إلى لندن. وقد بدا انطوان انه أضاع صوابه أمام هذا الفراق الداهم الذي لم يكن يعرف سببه الخفي . ماذا قال لها بالضبط ؟ ظنت انها فهمت انه لم يكن يحبها كأخ أكبر فقط ، وانه كان يفكر فيها « بشيء آخر » . هل هذا ممكن ؟ ألا يمكن أن تكون قد تخيلت أشياء ؟ ولكن كلا ؛ حتى في الرسائل المبهمة ، الكثيرة الرقة التي كتبها اليها ، وكأنها تضمر شيئاً ، لم تجد المودة الهادئة للسنوات الماضية . كانت تتجنبه بدافع الغريزة منذ أن عادت الى فرنسا ، وفي هذه الأيام الخمسة عشر لم يكونا بمفردهما لحظة واحدة . فماذا يريد اليوم منها ؟

ارتعشت . انه انطوان ، انها خطواته السريعة الموزونة . دخل ، وتوقف، وابتسم. تبدو قسماته متعبة قليلاً ؛ إلا ان الجبهة مسترخية ، والعين ذات حيوية، سعيدة . وجيز التي شعرت انها حادت عن الطريق ملكت نفسها ثانية : يكفي ان يظهر انطوان لينتشر حوله شيء من اندفاعه الحيوي . وقال مبتسماً :

ـ صباح الخير يا نيغريت . (هذا لقب قديم جداً اطلقه السيد تيبو على جيز

في يوم كان مزاجه رائقاً ، وفي العهد الذي اضطرت فيه الآنسة دي ويز إلى تبني ابنة أخيها اليتيمة ، وجاءت بها إلى عندها وأسكنتها معها في بيت عائلة تيبو البورجوازية ، تلك الابنة المولودة من أم خلاسية من مدغسقر والتي كانت كأنها شجرة برية) .

وسألت جيز لتقول شيئاً :

ـ أعندك اليوم كثير من الناس ؟

فأجاب بمرح :

ـ انها المهنة ! أتريدين المجيء إلى مكتبي أم تبقين هنا – وبدون ان ينتظر جوابها جلس بقربها : ـ كيف حالك ، انت ؟ لا يراك أحد .. شالك جميل .. اعطني يدك ..ـ وبدون تكليف امسك باليد التي تركته جيز يأخذها ؛ووضعها على قبضته المطبقة ، ورفعها : ـ يدك الصغيرة ليست سمينة كالماضي ..

فابتسمت جيز بدافع المجاملة . ورأى انطوان تشكيل « غمازتين » فيالخدين الاسمرين . ولم تفعل شيئاً لتنقل ذراعها ، ولكن انطوان شعر بتصلبه استعداداً للتراجع . وكان على وشك ان يتمتم : «لست لطيفة ابداً منذ عودتك»، ولكنه رجع عن رأيه وعبس وصمت . فقالت متملصة :

ـ أراد والدك ان يعود إلى النوم بسبب ساقه .

فلم يجب انطوان . منذ وقت طويل لم يجد نفسه منفرداً مع جيز كهذه اللحظة . واستمر في التطلع إلى اليد الصغيرة السمراء ؛ وعكف على تتبع رسم الشرايين حتى المعصم الدقيق ذي العضلات ؛ وتفحص الاصابع واحداً واحداً؛ وضبط نفسه عن الضحك : « حتى ليقال انها سكاير جميلة شقراء .. » ولكن في الوقت نفسه ، وكما من خلال بخار حار ، داعب بعينه كل جوانب هذا الجسد اللين المنطوي على نفسه ، ابتداء من لحم الكتفين المستدير حتى طـــرف الركبة البارز تحت الشال الحريري . اي جاذب بالنسبة اليه في هذا الفتور الطبيعي ،ـ القريب جداً ! انه شيء فجائي عنيف .. دفقة دم .. انه مجرى مكبوح يهدم السدود .. هل سيقاوم الرغبة في ان يطوقها بذراعه ، ويجذب اليه ذلك الجسد

اللين الفتي ؟ انه يكتفي بأن يخفض رأسه ، وان يلامس اليد الصغيرة بخده ، ويتمتم : « ما أنعم بشرتك يا نيغريت .. » ونظره ، نظر متسول ثمل ، يرتفع بتثاقل حتى وجه جيز التي لفتت رأسها بدافع الغريزة وخلصّت يدها . وسألت بعزم :

— ماذا كنت تريد ان تقول لي ؟

فملك انطوان نفسه وقال :

ـ انه امر رهيب اريد اعلامك به يا صغيرتي المسكينة ..

رهيب ؟ .. واجتاز شك مخيف عقل جيز . ماذا ؟ هل تلاشت جميع آمالها هذه المرة ؟ وطافت نظرتها الصريعة في هذه الغرفة لعدة ثوان واستقرت بقلق على تذكار من الحبيب .

ولكن انطوان اكمل عبارته :

— ان ابي مريض جداً كما تعلمين ..

فبدت اولاً انها لم تسمع . طوال الوقت الذي تستغرقه العودة منمكان بعيد جداً .. ثم رددت :

— مريض جداً ؟

قالت ذلك ، وخطر ببالها فجأة انها كانت تعرف هذا دون ان يقوله احد لها . فأضافت ، وقد رفعت حاجبيها ، وعيناها مليئتان بقلق فيه شيء من التكلف :

— ولكن .. اهو الى درجة ... ؟

فأتى انطوان باشارة ايجابية . ثم قال بنبرة رجلٍ على إلفةٍ مع الحقيقة منذ زمن طويل :

— عملية هذا الشتاء ، استئصال الكلية اليمنى لم يفد الا بشيء واحد : لم يعد بالامكان التمويه حول طبيعة الورم . والكلية الاخرى سرى اليها الفساد حالاً . ولكن المرض اتخذ مظهراً مختلفاً ، لقد اصبح عاماً ؛ ومن حسن الحظ ، اذا استطعنا القول — إن هذا يساعدنا على خداع المريض . فهو لا يرتاب بشيء ،

ولا يعرف انه مفقود .

وبعد صمت قصير سألت جيز :

– كم من الوقت ، تعتقد ، لكي ... ؟

فنظر اليها . وكان مسروراً . انها حقيقة تصلح لتكون زوجة طبيب . تعرف كيف تتمالك امام الحادث ؛ حتى انها لم تبك . ان هذه الاشهر التي قضتها في الخارج قد أنضجتها بشكل غريب . ولام نفسه لانه كان دائماً يميل الى الاعتقاد ، بأنها طفلة اكثر مما هي . واجاب بنفس النبرة :

– شهران ، ثلاثة اشهر على الاكثر . – واضاف بحرارة : – وربما اقل من ذلك بكثير .

ومع ان عقلها ليس ذا هوائيات (انتين) كثيرة الحساسية فانها فطنت إلى وجود مقصد يعنيها في هذه الكلمات الاخيرة . وتعزّت لأن انطوان يكشف القناع عن وجهه دون امهال .

– قولي لي ياجيز . اتتركينني الآن وحيداً وانت تعلمين ؟ هل ستعودين إلى هناك مهما كان الأمر ؟

فلم تجب ، ونظرت أمامها بهدوء ، بعينيها اللامعتين الجامدتين ، وعلى وجهها المستدير ، حيث لا يتحرك شيء آخر ، ثنية صغيرة بين الحاجبين تتشكل وتختفي ، وتعود إلى الظهور وتتلاشى ، انها الاثر الوحيد مع المعركة الداخلية . كانت عاطفتها الاولى عاطفة حنو : هذه الدعوة بعثت فيها الاضطراب . لم تكن قد فكرت ابداً انها تستطيع ان تكون سنداً لأحد ، وخصوصاً لأنطوان الذي تستند العائلة كلها اليه .

ولكن كلا ! انها تتنسم ريح الفخ ، وتشعر جيداً لماذا يود الاحتفاظ بها في باريس . وتمرّد كل ما فيها . تلك الاقامة في انكلترا هي الوسيلة الوحيدة لإتمام مقصدها الكبير ، وهي سبب حياتها الوحيد ! لو كانت فقط تستطيع ان تشرح لانطوان كل شيء ! مع الاسف ! ان في ذلك إماطة القناع عن سر قلبها ، وكشفه إلى القلب الاقل استعداداً لهذه المسارّة .. ربما فيما بعد .. بواسطة

رسالة . ليس الآن .

وظلت نظرتها محدقة في البعيد بتعبير عنيد كان لأنطوان علامة شؤم في الماضي . إلا انه ألحّ :

ـ لماذا لا تريدين ان تجاوبيني ؟

فارتجفت ، وقالت دون ان تتخلى عن هيئتها العنيدة :

ـ ولكن يا انطوان ، بالعكس ! يجب ان اسرع للحصول على تلك الشهادة الانكليزية اكثر من أي وقت . انا بحاجة لأن اكفي نفسي بنفسي ، بأسرع مما كنت افكر ..

فقاطع انطوان بحركة غاضبة .

ودهش لرؤيته شيئاً من عدم التشجيع لا دواء له في تعبير هذا الفم المقفل ، وتلك النظرة ؛ وفي الوقت نفسه لمعاناً ، وهوساً يشبه املاً مجنوناً .. لا مكان له في هذه العواطف . وقد جعلته نفخة حزن مصحوب بغضب يرفع رأسه . حزن غاضب ، يأس ؟ اليأس يسيطر : وتقلصت حنجرته : دموع .. ولمرة واحدة ، لم يحاول ان يردها ولا ان يخفيها : لا تزال هذه الدموع تستطيع مساعدته في اخضاع هذا التصلب بالرأي والذي لا يُفهم ..

وبالفعل ، فقد تأثرت جيز جداً . انها لم تر انطوان يبكي ابداً . ولم تفكر انه يستطيع البكاء . وتجنبت النظر اليه . كانت تشعر نحوه بمودة حنون وعميقة ، وتفكر دائماً به باندفاع داخلي ، بنوع من الحماسة . منذ ثلاث سنوات وهو سندها الوحيد ، والرفيق المتين المجرب الذي كانت مجاورته هي الرفاهية الوحيدة في حياتها . لماذا وجب ان يتمنى منها شيئاً آخر غير هذا الاعجاب ، وتلك الثقة ؟ ولماذا لا تستطيع ان تدعه يرى عواطفها الاخوية ؟

دقة جرس رنت في الدهليز . فأرهف انطوان السمع آلياً . ضجة ابواب ؛ ثم الهدوء من جديد .

كان الواحد منهما بقرب الآخر ، جامدين ، صامتين ، وأفكارهما المختلفة الاتجاه تركض ، وتركض ..

واخيراً جرس الهاتف .. وخطوة في الدهليز . وفتح ليون الباب قليلا :
ـ ذلك من قبل السيد تيبو يا آنسة . الدكتور تيريفيه موجود فوق .
ونهضت جيز حالاً .
وقال انطوان مذكراً ليون بصوت متعب :
ـ كم عدد الاشخاص في غرفة الاستقبال ؟
ـ اربعة يا سيدي .
ونهض بدوره . وعادت الحياة سيرتها . وفكر :« وروميل الذي ينتظرني في اقل من عشر دقائق » .
وقالت دون ان تقترب منه :
ـ يجب ان اذهب بسرعة يا انطوان .. وداعاً .
فابتسم باستغراب وهز كتفيه :
ـ حسناً .. اذهبي يا نيغريت .
وذكرته نبرته الخاصة بوداع والده منذ قليل: « حسناً ، اذهب يا عزيزي » . انه تقارب مؤلم .
وأضاف بنبرة اخرى :
ـ اتريدين ان تقولي لتيريفيه انني لا استطيع التغيب في هذه اللحظة ؟ فاذا اراد ان يكلمني فليدخل الى هنا اثناء نزوله . اليس كذلك ؟
فوافقت باشارة من رأسها وفتحت الباب ؛ ثم دارت نحو انطوان كأنها اتخذت قراراً فجائياً .. ولكن كلا .. ماذا ستقول له ؟ ما دامت لا تستطيع ان تقول له « كل » شيء ، وما الفائدة ؟ وغمرت نفسها بشالها واختفت دون ان ترفع عينيها .

قال ليون :
ـ المصعد يعود الى الهبوط ، الا تنتظر الآنسة ؟
فأشارت بالنفي وبدأت بالصعود متمهلة ، لانها متضايقة . ان كل طاقتها

تتركز الآن حول فكرة ثابتة : لندن ! نعم . الذهاب بأسرع وقت ممكن ، حتى دون ان تنتظر نهاية اجازتها ! آه ! لو كان انطوان يستطيع ان يعلم ماذا تمثل لها هذه الاقامة عبر المانش !

منذ سنتين ، وفي صباح من ايلول (بعد اختفاء جاك بعشرة اشهر) ، فان ساعي بريد ميزون ـ لافيت الذي التقت به جيز صدفة في الحديقة ، ترك لها سلة باسمها تحمل بطاقة بائع ازهار في لندن . فدهشت ، وتوقعت شيئاً خطيراً . وبلغت غرفتها دون ان يراها احد ، وقطعت الخيوط ، ونزعت الغطاء ، وكاد يغمي عليها حين شاهدت على مهد من الطحلب الرطب باقة ورد بسيطة . جاك ! وردهما ؟ ورود ارجوانية اللون ، ورود صغيرة ارجوانية ذات قلب اسود ، هي نفسها بالضبط ! أيلول ، العيد السنوي ! وكان معنى هذا الارسال الغفل واضحاً لها وضوح برقية بالشيفرة تملك مفتاحها . جاك ليس ميتاً ! وكان السيد تيبو مخدوعاً . ان جاك يقطن انكلترا ! « جاك يحبها » ! كانت حركتها الاولى ان تفتح الباب على مصراعيه لتصرخ بملء صوتها : « جاك حي » !

ومن حسن الحظ انها ملكت نفسها في الوقت المناسب . كيف توضح ان هذه الورود الصغيرة الارجوانية كاشفة الى هذا الحد؟ سوف يضايقونني بالاسئلة. كل شيء ما عدا إفشاء سرها . وأعادت اغلاق الباب ، وصلّت الى الله ليعطيها القوة على الصمت ـ على كل حال ، حتى المساء : كانت تعلم ان انطوان يجب أن يأتي الى ميزون للغداء .

وفي المساء انتحت به . وحدثته عن ارسالية غامضة : زهور آتية من لندن حيث لا تعرف احداً .. جاك ؟ كان يجب بأي ثمن ان تطلق التفتيشات في طريق جديد . واهتم انطوان ، غير انه اصبح ارتيابياً بعد اخفاق محاولاته كلها منذ سنة ، الا انه قام بمساع مباشرة في لندن . وأعطى بائعُ الزهور علامات واضحة جداً عن المشتري الذي قام بالطلب ؛ الا ان هذه العلامات لم تكن تطابق علامات جاك ابداً . وتخلوا عن الاثر .

ما عدا جيز . فقد كانت الوحيدة التي تملك اليقين . لم تتكلم بشيء ؛

وصمتت بسيطرة على النفس لم تكن منتظرة من سنيها السبع عشرة . ولكنها عزمت عزماً لا يقاوم على الذهاب بنفسها الى انكلترا ، مهما كلف الامر ، لتجد فيها اثر جاك . مشروع غير ممكن التحقيق تقريباً . وطوال سنتين ، بمواظبة ماكرة ، صامتة للكائنات البدائية التي هي اجدادها ، جعلت شيئاً فشيئاً هذا الرحيل ممكناً ومنظماً بدقة . بثمن اي جهود ؟ كانت تتذكر كل مرحلة . وقد اضطرت ، وبمناورات صابرة ، الى غرس عشرين فكرة جديدة في دماغ عمتها الحرون . اولاً ، ان تجعلها تقبل ان فتاة دون مال ، ولو كانت من عائلة طيبة ، هي بحاجة الى وسيلة حياة ؛ ثم اقناعها بعد ذلك ان لإبنة اخيها ميلاً الى تربية الاولاد مثلها ؛ واقناعها ايضاً بصعوبات المنافسة الحالية وضرورة تكلم اللغة الانكليزية بطلاقة لمعلمة . ثم اضطرت بلباقة الى ايجاد علاقة بين الآنسة العجوز ومدرّسة من ميزون - لافيت اتمت دروسها في معهد انكليزي تديره راهبات كاثوليكيات في ضواحي لندن . وشاء الحظ ان السيد تيبو ، وقد تحرك ، تلقى عن المعهد معلومات جيدة . واخيراً ، وبعد الف مماطلة ، في الربيع الاخير ، رضيت المدموازيل دي ويز بالفراق . وقضت جيز فصل الصيف في انكلترا . ولكن تلك الاشهر الاربعة لم تعط ما كانت تأمله : فقد كانت ضحية شرطة عادمي الاستقامة ، ولم تستفد شيئاً . والآن ، اصبحت تستطيع العمل ، تحريك الناس . فقد باعت بعض الحلى ، وجمعت مدخراتها . وفاوضت اخيراً وكالات رصينة . وبجازفتها الروائية اجتذبت على الخصوص ابنة « مفوض شرطة العاصمة » في لندن ويجب ان تتناول العشاء عندها منذ ان تعود الى هناك ، وتستطيع هذه ان تكون لها سنداً لا مثيل له . فكيف لا تأمل ؟

ووصلت جيز إلى الطابق الذي يسكنه السيد تيبو . وأضطرت إلى قرع الجرس : فعمتها لم تكل اليها أبداً أمر مفتاح الشقة .

وقالت لنفسها : « نعم ، كيف لا آمل ؟ » . وفجأة ، فان يقينها بايجاد جاك استعاد سلطته عليها بحيث شعرت انها متأكدة . وكان انطوان قد قال ان هذا يمكن ان يدوم ثلاثة أشهر . ففكرت : « ثلاثة أشهر ؟ قبل ثلاثة أشهر

أكون قد نجحت » !

أثناء هذا الوقت ، في غرفة جاك في أسفل ، فان انطوان الذي بقي واقفاً امام الباب الذي أغلقته جيز وراءها كان يسحق نظره على ذلك الاطار المصفح الخشبي الكثيف الذي لا يمكن اجتيازه .

كان يشعر انه وصل إلى نقطة محدودة . أن ارادته حتى الآن لم تتحرش بما لا يمكن تحقيقه ـ وقد كانت تهاجم دائماً بأصعب شيء ، وبشكل منتصر . ـ وفي هذه اللحظة فان هنالك شيئاً على وشك الانفصال عنه . فهو لم يكن الرجل الذي يواظب دون أمل .

وخطا خطوتين مترددتين ، وشاهد نفسه في المرآة ، واقترب ، واستند بمرفقه إلى المدخنة ، ومد وجهه وتأمل نفسه بضع ثوان حتى أعماق العينين . وقال فجأة : « نعم ، تزوجيني .. » وارتعش : انه خوف متعلق بالماضي .. وقال لنفسه وهو يدور على عقبيه : « من البلاهة اللعب بهذا » . ثم ، فجأة : « يا لطيف ، الساعة هي الخامسة .. والملكة اليزابيت » !

وسار بخطى سريعة نحو « المختبر » . ولكن ليون اوقفه : كانت عينه قاتمة وابتسامته تائهة وماكرة .

ـ لقد ذهب السيد روميل ، وسجل اسمه لبعد غد ، في نفس الساعة .

فقال انطوان متعزياً : حسناً .

وكان هذا السرور القليل كافياً في هذه اللحظة لكنس همومه .

وبلغ غرفة مكتبه ، واجتازها من زاوية الى اخرى ، ورفع الستار بتلك الحركة المألوفة التي لم يكن يقوم بها دون شيء من السرور ، وفتح باب غرفة الاستقبال ، وقال قارصاً عند مروره خد غلام صغير اصفر اللون قليلاً كان يتقدم على استحياء :

ـ مهلاً ، مهلاً ، وحدك كغلام كبير ؟ هل أهلك بخير ؟

وأمسك بالغلام وجذبه حتى النافذة ، وجلس بعكس النور على مقعد صغير ،

وبحركة لطيفة وثابتة ، حنى الرأس الصغير المطيع الى الوراء ليفحص حلقومه ، وتمتم دون ان يفصل نظره : « حسناً . هذه المرة ، هذا ما يسمّى باللوزتين .. » لقد استعاد دفعة واحدة هذا الصوت الناشط الرنان ، الحاد قليلاً ، الذي كان يؤثر على المرضى على نسق الطريقة المقوية.

وظل منحنياً على الولد بانتباه . ولكنه وقد تألم فجأة من عودة الكبرياء لم يستطع الامتناع عن التفكير : « أولاً ، اذا شئت ، بالمستطاع استدعاؤها ثانية بواسطة برقية » .

٨

كان مندهشاً جداً، وهو يقود الغلام ، بأن وجد مس ماري الانكليزية ذات صبغة الزهور جالسة علىمقعد صغير في الدهليز:

ونهضت حين جاء نحوها ، واستقبلته بابتسامة طويلة صامتة محبوبة ، ثم ناولته ، بهيئة حازمة ، غلافاً أزرق .

هذا الموقف ، المختلف تماماً عن التحفظ الذي ابدته منذ ساعتين ، وتلك النظرة اللغزية العزوم ، ايقظا عند انطوان ، وبدون ان يعرف تماماً لماذا ، فكرة وضعية غير عادية .

وظل واقفاً في الدهليز مبلبل الفكر ، وفتح الغلاف الموجود عليه شعار الشرف ، حين رأى الانكليزية تسير من تلقاء نفسها نحو غرفته التي ظل بابها مفتوحاً . فتبعها وهو ينشر الرسالة :

عزيزي الدكتور .

لدي التماسان صغيران أرسلهما اليك ، وقد أوكلت أمرهما إلى العميل الاقل تجهماً ، حتى لا يُستقبلا استقبالاً سيئاً .

أولاً : تلك الطائشة ماري انتظرت ببلاهة لتخرج من عندك وتعترف لي بانها تشعر بالسقم منذ بضعة أيام ، وان السعال كان يمنعها من النوم في هذه الليالي

الاخيرة . فهل تتلطف بفحصها بالتفصيل واعطائها بعض النصائح ؟

ثانياً : لدينا في الريف ناطور صيد يشكو كثيراً من روماتيزم مشوّه وهو في هذا الفصل عذاب حقيقي . وقد اشفق سيمون على الهرم المسكين وأعطاه بعض الحقن المهدئة . وعندنا في صيدليتنا مورفين بشكل دائم ، ولكن النوبات الأخيرة استنفدت مؤونتنا بكاملها ، وطلب اليّ أن أحمل اليه من المورفين ، الأمر الذي ليس ممكناً بدون اذن الطبيب . وقد نسيت كليا ان اكلمك عن ذلك بعد الظهر . وسوف تكون لطيفاً جداً اذا أودعت عميلتي الفاتنة وصفة تكون « قابلة للتجديد » اذا امكن لكي استطيع ان احصل حالاً على «خمس أو ست دزينات من الأنابيب كل واحد منها سنتيمتر مكعب » .

أشكرك مقدماً لهذا الأمر « الثاني » . أما الأول يا عزيزي الدكتور ، فمن منا نحن الاثنين يجب ان يشكر الآخر ؟ يجب الا يعوزك زبونات أقل لطفاً لتستمع الى دقات قلوبهن .

تذكاري الودود .

آن ـ ماري س . دي باتنكور

ملاحظة : ربما ستسأل لماذا لم يتوجه سيمون إلى الطبيب الموجود هنا؟. انه شخص محدود متعصب يصوت دائماً ضدنا ولا يسامحنا ابداً لأننا أبينا عليه زبائن القصر ، ولولا ذلك لوفرت عليك هذا الهم .

« أ »

انهى انطوان قراءته . ولكنه لم يكن قد رفع رأسه بعد . كانت حركته الاولى حركة غضب : من تظنه ؟ وكانت الثانية انه وجد القصة مؤثرة ، يتسلّى بها .

كان يعرف لعب المرآتين اللتين تزينان غرفة مكتبه ، لأنه علق بها هو نفسه . فبالشكل الذي كان واقفاً به ، ومرفقه على المدخنة ، كان باستطاعته

مشاهدة الانكليزية دون ان يتحرك ، لا شيء سوى انتقال الحدقتين تحت جفونه المسبلة . وهذا ما فعله . كانت مس ماري جالسة وراءه ، وقد نزعت قفازيها ؛ وفكت ازرار معطفها ، واعتقت نصفها الاعلى ، وكانت تتطلع بذهول مصطنع إلى طرف رجلها وهي تداعب حاشية سجادة . وتبدو خجولة وشجاعة معاً ، متخيله انه لا يستطيع رؤيتها دون ان يغير مكانه . ورفعت فجأة أهدابها الطويلة والقت نحوه نظرة زرقاء وقصيرة كالشرارة .

وعدم الحيطة هذا جعل سبباً لشكوك انطوان الاخيرة ، والتفت . واخذ يبتسم ، وابقى رأسه منحنياً ، متصفحاً للمرة الاخيرة الرسالة المغوية التي أعاد طيها ببطء . ثم توقف دون ان يكف عن الابتسام ، واستقر نظره على نظر ماري . والتقاء هاتين النظرتين أحس به الاثنان كالصدمة . وترددت الانكليزية مقدار ثانية ، اما هو فلم ينبس بكلمة : الجفون نصف مسبلة ، وقال ببساطة : « كلا » وهو يدير الرأس يميناً وشمالاً عدة مرات وبدون عجلة . وكان يبتسم دائماً . وهيئته معبرة لم تغفل عنها ماري. ولم يكن بالامكان القول بوقاحة اكثر: « كلا يا آنسة : لا يمكن عمل شيء ، «هذا لا يؤثر .. » لا تظني انني غاضب : انا اضحك . وقد رأيت كثيراً غير ذلك .. اني فقط آسف ان أقول لك ـ حق بهذا الثمن ـ ليس هناك أي شيء تأملينه مني » .

وكانت قد نهضت عن مقعدها دون صوت ، محمرة الوجه. وتعثرت بالطنفسة وهي تتراجع نحو الغرفة الملاصقة ، فتبعها كأن ليس هناك شيء اكثر طبيعية من هذا التراجع السريع ؛ واستمر طويلاً في التسلية . وكانت تهرب ، وعينها في الارض ، دون أية كلمة ، محاولة اعادة اقفال طوقها بيدها العصبية العارية التي بدت خالية من الدم بجانب خديها الملتهبين .

وفي الرواق اضطر إلى الاقتراب منها ليفتح لها باب الشقة . فرسمت انحناءة مبهمة برأسها ، وكان على وشك رد التحية إليها حين قامت بحركة عنيفة :قبل ان يدرك ما يجري اختلست منه ، بمهارة نشال ، الرسالة التي كان يمسكها بين اصابعه ، وقفزت إلى الخارج .

واضطر إلى الاعتراف ، مغتاظاً انه لم يكن ينقصها الرشاقة ولا حضور الذهن .

وحين عاد إلى مكتبه تساءل كيف تكون وجوههم حين يلتقون ، ثلاثتهم: الانكليزية ، وآن الجميلة ، وهو . وابتسم من جديد لهذه الفكرة . وهناك قفاز ملقى على الطنفسة فالتقطه ـ وشمّه ـ قبل أن يرسله بمرح إلى سلة الأوراق .

هؤلاء الانكليزيات ! هيجيت .. ماذا ستكون حياة المريضة الصغيرة بين هاتين المرأتين ؟

وهبط الليل .

ودخل ليون ليقفل المصاريع. وسأل انطوان بعد أن القى نظرة على المفكرة:

ـ هل مدام أرنست هنا ؟

ـ اوه ! منذ وقت طويل يا سيدي .. العائلة بكاملها : الأم ، والغلام الصغير ، والأب الهرم .

ـ حسناً .

قال انطوان ذلك ببشاشة وهو يرفع الستار .

٩

لقد رأى بالفعل رجلاً قميئاً في الستين من عمره يتقدم نحوه .

ـ ارجوك يا دكتور ان تستقبلني أولاً : لدي بضع كلمات أود قولها لك .

كانت اللهجة ثقيلة ، ذات نغم واحد ، والمشية خجولة ، لطيفة .

وأعاد انطوان إغلاق الباب باعتناء وأشار إلى مقعد . فتمتم الرجل وهو يجلس :

ـ أنا السيد أرنست .. لقد قال لك الدكتور فيليب .. شكراً .

كانت الهيئة لطيفة. عينان مغمضتان كثيراً، ونظرة معبرة كئيبة ، ولكنها حارة ، لامعة ، وقتية . والوجه على العكس، كان وجه عجوز ؛ بالٍ متغضن، لحيم وجافّ معاً ، كله تجاويف وحدبات صغيرة،دون أي مكان موحد الشكل:

الجبهة ، الخدان ، الذقن ، تبدو كلها مقبولة ، قد جُسّت بالابهام . وشارب قصير وقاس ، رمادي بلون الحديد ، كان يقطع الوجه قسمين . وعلى الجمجمة شعرات قليلة جداً نصل لونها ، تذكّر بالعشب النابت على التلال الرملية .

هل لاحظ تفحُّص انطوان الرصين ؟

قال ملاحظاً بكآبة :

ـ تبدو هيئتنا اننا اجداد للصغير . لقد تزوجنا متأخرين . أنا استاذ في الجامعة : ادرّس الالمانية في كلية شارلمان .

فقال انطوان لنفسه : « أرنست . وهذه اللهجة .. يجب أن يكون ألزاسياً » .

ـ دون أن أريد إساءة استعمال هنيهاتك يا دكتور ، أعتقد انه مما لا بد منه ، ما دمت تريد الاهتمام بالصغير ، ان اوضح لك بعض الأمور ، بعض الأمور « السرية » . ـ ورفع عينيه ؛ وكان يغشاهما ظل . وأوضح : ـ أريد أن أقول أشياء لا تعرفها مدام أرنست .

فحنى انطوان رأسه علامة الموافقة .

ـ لنرَ .

قال الآخر ذلك كأنه يستجمع شجاعته . (ليس هناك ادنى شك في انه أعدّ ما يقوله ؛ وأخذ يتكلم ، وعيناه في البعيد ، دون عجلة ودون سرعة مفرطة ، كرجل يملك عادة الكلام) .

وشعر انطوان ان أرنست يفضل ألا يتطلع اليه .

ـ في عام ١٨٩٦ يا دكتور ، كنت في الحادية والاربعين من سني ، وكنت استاذاً في فرساي ـ وفقد الصوت شيئاً من اطمئنانه ـ كنت خاطباً .

قال ذلك منغماً حرف (*l*) [1] ، وكان يكسب تلك المقاطع الثلاثة رنة مدهشة ، كأنها اصوات متتابعة متوافقة ..

---

١ ـ في كلمة *Fiancé* .

وتابع بكثير من القساوة :

ـ وفضلاً عن ذلك ، فقد تحزبت بتفانٍ للنقيب دريفوس [1] . أنت صغير السن يا دكتور لتعيش مأساة الضمير هذه .. (ولفظ *Tramme* بدلاً من *Drame* برنة بجّاء احتفالية) .. ولكنك لا تجهل انه كان من الصعب في ذلك العهد ان يكون المرء في الوقت نفسه موظفاً ودريفوسياً مناضلاً . — وأضاف : — كنت من اولئك الذين يعرضون انفسهم للخطر .

كانت النبرة مـــوزونة ، دون ثرثرة ، ولكنها ثابتة كفاية ليدرك انطوان جيداً ما كان ، منذ خمس عشرة سنة ، عدم الحيطة ، وطاقة وايمان هذا العجوز الهادىء ذي الجبهة المحدودبة والذقن العنيدة ، والذي لا تزال عينه تقذف ذلك البريق الاسود .

وتابع السيد ارنست :

ـ ذلك لأوضح لك كيف وجدت نفسي منفياً في كلية الجزائر عند بدء عام ٩٦ . — وتمتم بعذوبة : — اما زواجي ، فان شقيق خطيبتي ، الوحيد الباقي من اهلها ، وهو ضابط في البحرية — التجارية ، ولكن قليلاً ما يهم — كان يجاهر بأفكار معاكسة لافكاري : وفسخت خطوبتنا .

كان يبدو جلياً انه يحاول اعطاء الوقائع لمحة غير شخصية . وتابـــع بصوت اكثر انخفاضاً :

ـ بعد وصولي الى افريقيا بأربعة اشهر ، فطنت الى انني .. مريض . — وبدأ يرتخي من جديد الا انه شدد من عزيمته : — يجب الا نخاف من الكلمات : كنت مصاباً بالسفلس .

ففكر انطوان : « آه ! حسناً .. الصغير .. فهمت » ..

ـ وعلى اثر ذلك رأيت عدة اطباء من كلية الجزائر . وبناء على نصيحتهم

---

١ ـ دريفوس : ضابط فرنسي يهودي اتهم بالخيانة في قضية اسهم شركة بناما فجندت الصهيونية كل ما لديها لانقاذه واشترت اقلاماً عديدة لهذا الغرض وكان أشهرها قلم اميل زولا . والقضية مشهورة .

أسلمت امري الى افضل اختصاصي هناك . ـ وتردد في ذكر اسمه ـ الدكتور لوهر الذي يمكن انك تعرف اعماله . ـ قال ذلك اخيراً دون ان ينظر الى انطوان ـ لقد قبضنا على الداء في بدء امره ، منذ ظهور الاعراض الاولى الوحيدة. وكنت رجلاً اتبع المعالجة بدقة ، مهما كانت قاسية ، وقد فعلت ذلك . وحين دعيت الى باريس ، منذ اربع سنوات ، بعد هدوء القضية ، فان الدكتور لوهر اكد لي انه كان يعتبرني قد شفيت كلياً منذ سنة . وصدقته . وبالفعل فاني لم اشعر بعد ذلك بأقل حادث ولا بأي تهديد لعودة الداء .

وادار رأسه بوقار، وبحث بعينه عن انطوان. فأشار هذا انه يستمع بانتباه .

لم يكن يكتفي بالاستماع : كان يلاحظ الرجل . ولدى المظهر ، والمواقف، كان يتخيل ما يمكن ان تكون عليه تلك المهنة الشاقة الوفية لاستاذ الالمانية الصغير . لقد عرف له مماثلين . اما هذا فيدرك انه سامٍ في عمله ، ويشعر المرء ايضاً ان هذا الرجل معتاد على التحفظ منذ زمن طويـــل ، على هذه المواربة الملأى باللياقة والتي تفرضها على بعض الطبائع المختارة وضعية مقلقة ، وحياة كريهة عارية من المكافأة ولكنها راضية بقلب مخلص وثابت . ولهجته التي أعلن فيها كانت تقول طويلاً عما يجب ان يكونه ، في هذه الحياة المنفردة ، ذلك الحب المعاكس ؛ إلا ان الحرارة الموجـودة في بعض النظرات كانت تكشف بطريقة مؤثرة، عند هذا الاستاذ الأشيب، عن حساسية اكثر نضارة من حساسية شاب مراهق .

وتابع :

ـ بعد عودتي إلى فرنسا بست سنوات فقدت خطيبتي أخاها . ـ كان يبحث عن كلماته ، وتمتم ببساطة : ـ واصبح باستطاعتي رؤيتها .

هذه المرة اجبره اضطرابه على مقاطعة نفسه . وكان انطوان خافض الرأس ينظر برصانة . وقد فوجىء لسماعه صوت الاستاذ يرتفع بلهجة قلق شديد :

ـ لا أعرف يا دكتور ماذا ستفكر برجل فعل ما فعلت .. هذا المرض ، وتلك المعالجة ، حكاية قديمة يعود تاريخها إلى عشر سنوات : حكاية منسية ..

لقد تجاوزت الخمسين ـ وتأوه ـ وتعذبت طوال حياتي لكوني وحيداً ؛ أقول لك الاشياء بدون ترتيب يا دكتور .

ورفع انطوان عينيه . وكان قد فهم ، حتى قبل ان يرى هذا الوجه . ان يكون رجل درس ويكون له ولد معوه عقلياً ، انها ستكون تجربة مميتة ولكن ماذا تكون بجانب عذاب كهذا : الاب شاعر انه المسؤول الوحيد . وها هو يشاهد عاجزاً ، المصير الذي عمل على إحداثه ، وقد أضناه توبيخ الضمير .

وكان ارنست يوضح بصوت متعب :

ـ ومع ذلك فقد كانت لدي وساوس ، وقد اردت استشارة طبيب . وفعلت تقريباً . يعني كلا . يجب ألا نخشى الحقيقة . فقد اعتقدت ان هذا غير مفيد . ورددت لنفسي ما قاله لي لوهر . كنت أبحث عن شيء اتوارى وراءه . وذات يوم التقيت بطبيب عند صديق ، ووجهت الحديث إلى هذه الناحية لأتأكد مرة أخرى ان هناك شفاءً « نهائياً » ولم اكن اطلب منه اكثر من ذلك لأطرد كل قلق .

وتوقف من جديد .

ـ ثم قلت لنفسي : امرأة بهذا السن ، ليس هناك ما نخشاه أن.. ان .. ان تأتي بولد .

وعقدت انتحابة حنجرته : لم يكن قد خفض رأسه ؛ وبقي جامداً والقبضتان مشدودتان ، ماداً عضلات عنقه بقوة حيث رآها انطوان تهتز . وهناك دمعتان لم تسيلا وجعلتا نظره الثابت اكثر لمعاناً . كان يريد ان يتكلم . وبذل جهداً . وتمتم بصوت متقطع مؤثر :

ـ اني أشفق .. على هذا الصغير .. يا دكتور .

فانقبض قلب انطوان . ومن حسن الحظ ان شدة التأثر كانت تحدث عنده دائماً حدة مسكرة تترجم على الأثر بحاجة جامحة إلى أن يصمم على أمر ويعمل ولم يتردد ثانية واحدة . وقال متصنعاً الدهشة :

ـ ولكن ماذا إذن ؟

ورفع حاجبيه وعبس متظاهراً بانه تتبع القصة بشكل مشوش جداً وبانه يتردد في ادراك ما اراد الآخر ان يقوله . « اي علاقة بين هذا .. هذا الحادث الذي لاقى عناية منذ اول امره ، والذي شفي تماماً ، و .. عاهة هذا الولد ـ التي ربما كانت وقتية ؟ »

كان ارنست يتأمله ذاهلاً .

وأضاء وجه انطوان بابتسامة عريضة :

ـ ايها السيد العزيز. ان كنتُ فهمتُ جيداً فانهذه الوساوس مدعاةشرفٍ لك . ولكني طبيب ، فدعني اكلمك بدون مواربة : من وجهة النظر العلمية فهي مستحيلة !

ونهض الاستاذ كأنه يريد التقدم نحو انطوان . وظل جامداً ، واقفاً ، ماداً نظره . لقد كان من تلك الكائنات ذات الحياة الداخلية الواسعة ، العميقة . والتي حين تتسرب اليها فكرة موجعة ولا يستطيعون ان يقيسوا لها مكانها فانهم يتركون لها قلوبهم بكاملها . كان منذ سنوات يحمل في صدره هذه الندامة الكبيرة التي لم يكن يجرؤ على الاعتراف بها لشريكة آلامه . وكانت هذه هي اول دقيقة راحة واول امل بالتخفيف .

وكان انطوان قد ادرك كل هذا ، ولكنه قطع الكلام عمداً ، خوفاً من اسئلة اكثر دقة تضطره الى اكاذيب حسب الظروف واكثر صعوبة . وبدا انه وجد ان لا فائدة من بقاء هذه الاوهام المحطة . وسأل بغتة :

ـ هل وُلد الطفل قبل ميعاده ؟

ورفّت اهداب الآخر :

ـ الطفل ؟ قبل الميعاد ؟ كلا .

ـ ولادة عسيرة ؟

ـ عسيرة جداً ،

ـ الحديد ؟

ـ نعم .

فقال انطوان كأنه وراء اثر هام :
ـ آه ! هذا ما يوضح اموراً كثيرة دون شك .. ـ ثم لكي يقطع الحديث :
ـ حسناً ، ارني مريضك الصغير .
قال ذلك وهو ينهض ويسير نحو قاعة الاستقبال .
ولكن الاستاذ خطا خطوة سريعة وسد الطريق ووضع يده على ذراعه :
ـ اصحيح يادكتور ؟ اصحيح ؟ الم تقل ذلك لكي .. آه ! يادكتور . اعطني كلمة شرف .. كلمتك يا دكتور .
وكان انطوان قد التفت ، ورأى ذلك الوجه المتوسل الذي امتزجت فيه الرغبة العنيفة في التأكد باعتراف بالجميل لا حدود له . واجتاحه فرح شديد ؛ فرح العمل والنجاح ؛ فرح العمل الصالح . سيرى ما يمكن عمله للصغير . اما للاب فلا مجال للتردد : إنقاذ هذا البائس بأي ثمن ، من يأس لا فائـدة منه !
وعندئذ غمس نظره في نظر ارنست وقال بوقار ، وبصوت منخفض :
ـ بشرفي ياسيد .
ثم فتح الباب بعد صمت قصير .
كان في قاعة الاستقبال سيدة مسنّة ، ترتدي السواد ، وكانت تحاول ان تبقي بين ركبتيها شيطاناً صغيراً ذا ضفائر سمراء ، وقـد استولى اولاً على كل انتباه انطوان . وانقطع الولد عن اللعب لدى صرير الباب وأثبت على هـذا الرجل المجهول عينين كبيرتين سوداوين ، ذكيتين ؛ ثم ابتسم ؛ ثم خجـل لابتسامته ودار بهيئة متكدرة .
ونقل انطوان نظره الى الام . هناك كثير من العذوبة والكآبة يزين هـذا الوجه الذابل الذي تأثر منه وقال لنفسه على الاثر : « هيا .. المقصود بذل الجهد .. بالمستطاع « دائماً » الحصول على نتائج » .
ـ اتريدين ان تأتي الى هنا يا سيدتي ؟
وابتسم كأنه يمنح احساناً . وكان يريد منذ البدء ان يتصدق على المـرأة المسكينة بشيء من الثقة . وسمع وراءه تنفس الاستاذ الضيق . وترك الستار

مرفوعاً بصبر ورأى تلك الام وذاك الولد يأتيان اليه . وكانت نفسه في عيد ، وكان يقول لنفسه : « ما اجملها مهنة ، واسم الله ، ما اجملها مهنة » !

١٠

وتتابع الزبائن حتى المساء ، دون ان يشعر انطوان بتعبه ولا بالساعة ؛ وفي كل مرة يفتح باب قاعة الاستقبال كانت فعاليته تثب دون جهد . وبعد ان شيع آخر زبائنه ـ امرأة شابة جميلة ، تضم بين ذراعيها رضيعاً نضراً كان يعتقد انه مهدد بعمى تام تقريباً ـ ذهل حين فطن الى ان الساعة هي الثامنة وقال لنفسه : « لقد فات الوقت للنظر في التهاب الصغير . سوف امرّ في شارع فرناي لدى عودتي هذا المساء الى بيت هيكيه » .

وعاد الى غرفة مكتبه ، وفتح النافذة لتغيير الهواء ؛ واقترب من طاولة منخفضة عليها كتب منضّدة ؛ وبحث عن شيء يقرؤه اثناء طعامه وفكر : « بالفعل ، كنت اريد ان احقق شيئاً لحالة ارنست الصغير » . وتصفح بسرعة اعداد سنوات قديمة من مجلة « العالمين » ليجد المناقشة الشهيرة التي جرت عام ١٩٠٨ حول الحبسة (فقدان النطق) . وفكر: « ان هذا الصغير حالة نموذجية حقاً . سأحدّث تروبار عنها » .

وابتسم ابتسامة لاهية وهو يفكر بتروبار وأهوائه الاسطورية . وتذكر سنة تلمذته في المستشفى التي قضاها في خدمة علم الاعصاب . وتساءل : « يا للشيطان ، كيف دخلتُ الى هناك ؟ يجب الاعتقاد ان تلك الاسئلة تشغل بالي منذ زمن طويل .. من يعلم اذا كنت لا اعطي بشكل افضل لو تخصصت في الامراض العصبية والعقلية ! انها ارض لا يزال فيها الكثير للاستصلاح » .. وفجأة انتصبت امامه صورة راشيل . لماذا هذا التوارد في الافكار ؟ راشيل التي لا تملك اية ثقافة طبية او علمية كانت تُظهِر ، وهذا صحيح ، ذوقاً ممتازاً لجميع المشاكل النفسية ؛ وقد ساهمت بلا مراء في انماء ذلك الاهتمام الشديد بالكائنات والذي يحمله الآن . الا ان لقاء راشيل القصير الامد ـ كم مرة تأكد

من ذلك ؟ – قد بدّله بألف طريقة .

لقد اصبح نظره مشوشاً متميزاً بالكآبة . وظل واقفاً متعب المنكبين ، مؤرجحاً المجلة الطبية بين الابهام والبنصر . راشيل .. لم يكن يستطيع ، دون هزة مؤلمة ، ان يستحضر صورة المخلوقة الغريبة التي اجتازت حياته . لم يتلق منها اقل خبر . ولم يكن في دخيلة نفسه مندهشاً من ذلك : لم يخطر بباله ان راشيل يمكن ان تكون حية في احدى نواحي الدنيا . انهكها المناخ ، والحمّى .. ضحية التسي تسي [١] .. مقتولة في حادث ، غريقة وربما مخنوقة ؟ ولكن ميتة : هذا لا شك فيه .

وانتصب ، ووضع المجلة تحت ابطه ، وبلغ الغرفة الملاصقة ونادى ليون لأجل الغداء . وعندئذ عادت الى ذاكرته فورة غضب من فيليب . فذات يوم ، بعد غياب المعلم ، أعلمه انطوان عن ضيوف جدد في الخدمة ، وقد وضع فيليب يده على ذراعه ، وهو نصف راضٍ ونصف غاضب ، وقال :

– لقد اقلقتني يا صغيري : ان اهتمامك يزداد بمرضاك ويقل بأمراضهم .

كان وعاء الشورباء يتصاعد منه البخار على الطاولة . وحين جلس انطوان ادرك انه تعب . وقال لنفسه : « مع ذلك ، ما أجملها مهنة » !

وعاد الى ذهنه حديثه مع جيز مرة اخرى ؛ ولكنه فتح مجلته بسرعة وسعى لابعاد هذه الذكرى على غير طائل . فجوّ تلك الغرفة الذي لا يزال مثقلاً بوجود جيز فرض نفسه عليه كشهادة مرهقة . وتذكر بعض مضايقات هذه الاشهر الاخيرة . كيف استطاع ، طوال الصيف ، ان يداعب هـذا المشروع الذي لا يستند الى شيء ؟ لقد كان امام هذا الحلم الخَرِب كأنه امام انقاض مسرح لم يترك انهياره وراءه سوى غبار واهن . لم يكن يتألم ابداً . لم يكن يتألم . كان فقط مصاباً في كبريائه . كان كل هذا يبدو له سيئاً ، سخيفاً ،

١- تسي تسي *Tsè - Tsé* : ذبابة افريقية تحدث لسعتها مرض النوم .

غير جدير به .

وكانت دقة الجرس التي رنت في الغرفة الملاصقة ألهية حلّت على الرحب والسعة . فوضع منشفته حالاً وظل مصغياً ، وقبضته على السماط ، مستعداً للنهوض ومواجهة الامر الطارىء بسرعة .

كانت أولاً احاديث سرية وهمسات نساء ؛ واخيراً فتح الباب ، وأدخل ليون بدون كلفه ، مع دهشة انطوان ، زائرتين الى الغرفة . كانتا خادمتي السيد تيبو . ولأول وهلة لم يعرفها انطوان في الظل ؛ ثم افترض فجأة انهما ركضتا في طلبه ، فانتصب بسرعة بحيث سقط كرسيه وراءه .

وهتفت المرأتان وهما في ذروة الاضطراب :

ـ كلا ، كلا .. ليعف عنا السيد انطوان .. نحن اللواتي كنا نفكر ان نحدث اقل ما يمكن من الخلل بمجيئنا في هذه الساعة !

قال انطوان لنفسه ببساطة: « لقد ظننت ان والدي مات » . واخذ يفكر كم كان مستعداً في السابق لقبول هذه النهاية . وفكرة انسداد العرق ، القريبة من المعقول ، الناتجة عن اضطرابات الالتهابات الوريدية قد استحوذت على عقله. ثم فكر بالعذاب البطيء الذي جنبه اياه هذا الحادث العنيف ولم يستطع الاحتراس من نوع من الاخفاق . وقال :

ـ اجلسا ، سأكمل عشائي لانه لا يزال لدي زيارات اقوم بها هذا المساء

فظلت المرأتان واقفتين .

وامها ، حنة العجوز ، كانت منذ ربع قرن طاهيةعند السيد تيبو. ولكن بصرف النظر عن السن ، فان ساقيها معقدان بسبب تمدد الاوردة ، واعترفت هي نفسها انها لم تكن سوى « إناء قديم مصدع » ، وقد انقطعت عن كل عمل ؛ وبنتاها تسحبان لها كنبة الى جانب الوجاق فتقضي هناك نهاراتها ، وفي يدها محراك للحطب بدافع العادة ، موهمة نفسها انها لا تزال تقوم بأعباء بعض المسؤوليات، لأنها كانت تظل على علم بكل شيء ، وتمزج احياناً بعض التوابل، ومن الصباح إلى المساء ترهق بنتيها بالنصائح مع ان كلا منهما تجاوزت الثلاثين . فكلوتيلد ، الكبرى، ابنة قوية احتفظت من امها بالنوع الخشن والنطق العذب،

لانها ظلت مدة طويلة خادمة مزرعة في البلاد ، وهي الآن تقوم بأعمال المطبخ. أما الاخرى ، أدريان ، فأكثر دقة من الكبرى ، وقد أنشئت عند الراهبات واستخدمت في المدينة بشكل دائم ؛ تحب البياضات ، والرومانس ، وباقة صغيرة على المنضدة التي تشتغل عليها ، وقداديس سان توما — دا كان الجميلة .

وتولت كلوتيلد الكلام كما هو الامر دائماً :

— لقد أتينا بسبب الأم يا سيد انطوان . منذ ثلاثة أو أربعة أيام رأينا جيداً أنها تتألم ، المرأة المسكينة . لديها تضخم في مقدمة الجهة اليمنى . وفي الليل لا تستطيع النوم . وحين تذهب الى حاجتها ، العجوز الطيبة ، تعبس كالولد . ولكنها صلبة على الألم ولا تريد ان تقول شيئاً ، الام ! يجب أن يأتي السيد انطوان دون أن يبدو عليه شيء — أليس كذلك يا أدريان ؟ ثم يعثر فجأة على الورم تحت المريلة .

فقال انطوان ساحباً دفتره الصغير :

— هذا سهل جداً ، غداً سأدخل الى المطبخ بحجة ما .

وغيرت ادريان صحن انطوان بينما كانت اختها توضح الامر ، وقدمت سلة الخبز ، وكانت تسرع بالخدمة بدافع العادة .

ولم تكن قد لفظت كلمة بعد . فسألت بصوت غير ثابت :

— هل يعتقد السيد انطوان ان .. ان هذا يمكن ان يصبح خطيراً ؟

وفكر انطوان : « الدمل الذي ينمو فجأة ، في مثل سن العجوز ، يتعرض لعملية » ! وتمثل ، بدقة قاسية ، كل ما كان يعرفه ممكناً في حالة كهذه : النمو الفاحش للورم ، وفتكاته ، وضيق النفس التدريجي للأجهزة .. وأسوأ ايضاً : التفسخ الفظيع البطيء لكثير من الاموات الاحياء ..

كان مرتفع الحاجب ، كالح الشفة ، يتجنب بتوان ان يلتقي بتلك النظرة الخائفة التي لن يعرف ان يكذب عليها . ودفع صحنه وأتى بحركة مراوغة . ومن حسن الحظ ان كلوتيلد الضخمة التي لا تستطيع احتمال الصمت دون ان تقذف فيه كلاماً ، اجابت عنه :

ـ لا يمكن قول ذلك مقدماً ، بالتأكيد ؛ يجب اولاً ان يهتم السيد انطوان. ولكني اعرف جيداً شيئاً واحداً : هو ان ام المرحوم زوجي انتهت الى الموت بسبب سعال ناتج عن الصدر ، بعد ان ظل بطنها منتفخاً خمس عشرة سنة .

١١

بعد ربع ساعة وصل انطوان الى رقم ١٧ مكرر في شارع فرناي . ابنية قديمة على ساحة صغيرة مظلمة . في الطابق السادس على مدخل رواق تعبق فيه رائحة الغاز ، الباب رقم ٣ .

جاء روبير يفتح وبيده قنديل :

ـ واخوك ؟

ـ شفي .

كان القنديل ينير من قريب نظرة صادقة ، مرحة ، قاسية قليلاً ، ناضجة مبكراً ، ووجه ولدٍ مجهدٍ بطاقة مبكرة .

وابتسم انطوان قائلاً : لنر ذلك !

واخذ المصباح بنفسه ليعرف طريقه .

كان وسط الغرفة مملوءاً بطاولة مستديرة مغطـاة بقماش مشمع . كان روبير يكتب دون شك : هناك سجل كبير مفتوح بين زجاجة حبر مفتوحة وكدسة صحون عليها قطعة خبز كبيرة ،وتفاحتان ، تشكل « طبيعة ميتة » متواضعة. وكانت الغرفة مرتبة ؛ مريحة تقريباً . والطقس حار فيها . وعلى الوجاق الصغير امام المدخنة اناء معدني يغلي .

وتقدم انطوان نحو أعلى سرير من الاكاجو كان يشغل داخل الغرفة :

ـ أكنت نائماً ، أنت ؟

ـ كلا يا سيدي .

والمريض الذي استيقظ مرتجفاً بشكل منظور ، اتكأ على مرفقه السليم ، وحملق بعينيه وهو يبتسم دون خجل .

كان النبض هادئاً . ووضع انطوان على طاولة الليل علبة (الشاش) الـتي جاء بها ، واخذ يفك الضماد .

ـ ما الذي يغلي على الوجاق :

فابتسم روبير وقال :

ـ ماء . اني اصنع الزيزفون الذي أعطتنيه حارسة البيت ـ وطرف بعينه فجأة ـ اتريد منه ، قل ؟ مع السكر ؟ اوه ! نعم يا سيد ! قل نعم !

فقال انطوان لاهياً :

ـ كلا ، كلا ، شكراً . ولكني بحاجة إلى ماء يغلي لأغسل هذا . أسكب لي منه في صحن نظيف . حسناً . يجب الانتظار ليبرد قليلاً .

وجلس ونظر إلى الولدين اللذين كانا يبتسمان له كما يبتسمان لصديـق دائم . وفكر : « الهيئة صادقة ، ولكن من يدري ؟ » والتفت نحو الاكبر وقال :

ـ كيف حدث ، في مثل سنك ، أن تسكنا وحيدين هنا ؟

حركة مبهمة ، وحركة من الحاجبين بدت أنها تقول : « يجب ذلك » !

ـ ماذا حدث لأهلك ؟

فقال روبير كما لو أنها قصة قديمة :

ـ اوه ! الأهل .. كنا نسكن مع عمتنا

وأصبح حالماً . وأشار بالاصبع إلى السرير الكبير :

ـ وبعد ، فقد ماتت ليلاً . في العاشر من آب ، ومضى الآن أكثر من سنة . وقد أزعجونا بقساوة ، أليس كذلك يا لولو ؟ من حسن الحظ كنا على صداقة مع حارسة البيت . فلم تقل شيئاً للمالك ، واستطعنا البقاء .

ـ ولكن الاجار ؟

ـ يُدفع .

ـ من !

ـ نحن .

ـ ومن أين يأتي المال ؟

– نربحه بالتأكيد . يعني أنا . لأنه هو ، لا تسير أموره على ما يرام ويجب أن نجد له شيئاً آخر . أنه يشتغل عند برول ، هل تعرفه ؟ في غرينيل ؟ للقيام بسباقات . أربعون فرنكاً بالشهر بدون طعام . وهذه ليست بأجرة ، أليس كذلك ؟ لا شيء إلا تجديد النعل . أتعتقد !

وصمت ، وانحنى مهتماً لان انطوان رفع الاربطة . كان الدمل قليل التقيح، والذراع زال ورمه ؛ والجـــرح ذا مظهر حسن . وسأل انطوان وهو يغمس (الشاس) .

– وانت ؟

– أنا ؟

فقال روبير بنبرة مؤثرة قعقعت كالعلم :

– اوه ! أنا ! أنا .. اني انظم أموري .

ودهش انطوان ورفع عينيه ، والتقى هذه المرة بنظرة حادة ، قلقة قليلاً ، في وجهٍ صغير عاطفي وعنيد .

لم يكن الغلام يطلب إلا أن يتكلم . فربح معيشته هـو الموضوع الاكبر ، الوحيد الذي يستحق الاهتمام ، والذي منذ أن يفكر يتجه كل تفكيره إليـه دون امهال .

وبدأ بنبرة مداورة ، متعجلة لقول شيء وللبوح بأسراره :

– حين ماتت العمة لم أكن أربح ، كمستخدم صغير ، سوى ستين فرنكاً بالشهر . أما الآن فاني أشتغل أيضاً في قصر العدل : وأصبح المبلغ مئة وعشرين بشكل ثابت . ثم ان السيد لامي ، رئيس المستخدمين ، أراد أن أحـل محل الماسح الذي كان يمسح المكتب بالشمع صباحاً ، قبل وصول المستخدمين . رجل عجوز لم يكن يمسح إلا غداة وجود الوحل ، وأيضاً ، في المكان الذي يرى فيه الوحل أمام النوافذ . ولم أخسر في هذا التبديل لأن هذا يعطيني خمسة وثمانين فرنكاً زيادة . وهذا كان يسليني، انه مكان للتزحلق. – وصفر صفيراً خفيفاً– وثم ، ليس هذا كل شيء ... فعندي أيضاً تدابير اخرى .

وتردد قليلاً ، وانتظر ليدير انطوان رأسه نحوه من جديد ؛ وبنظرة ، بدا انه يقيس رَجُلَه نهائياً . ومع انه اطمأن دون شك ، فقد اعتقد ان من الفطنة ان يبدأ بمقدمة :

ـ اني اقص هـذا عليك انت لأنني اعلم اني استطيع · ولكن لا تتظاهر بالمعرفة ، ها ؟

ثم رفع صوته ، منتشياً باعترافه شيئاً فشيئاً :

ـ اتعرف مدام جولان حارسة البيت رقم٣ مكرر المقابل لبيتكم ؟حسناً. لاتقل هذا ابداً . تلك المرأة الطيبة تصنع سكاير لبعض الزبائن . والسكاير مع ذلك جيدة، وخفيفة ، وليست مشدودة ، ولا غالية الثمن . سأجعلك تذوقها. على كل حال فقد ظهر انها ممنوعة، تلك المهنة . ولذلك كان يلزمها واحد حاذق لحمل العلب وقبض المال دون التعرض للقبض عليها . وقد قمت انا بهذا دون ان يبدو علي شيء ، من الساعة السادسة الى الثامنة ، بعد الدرس ، وهي مقابـل ذلك تعطيني غدائي في جميع الايام ما عدا الاحد . وهي لا تطبخ طبخاً سيئاً ، وليس هناك ما يقال . وانت تتحدث عن توفير ! دون ان احسب ان الزبائن يعطونني اكرامية عندما ارفع فواتيرهم ، وهذا دائم تقريباً ، عشرة سنتيات ، عشرون سنتيماً ، حسب الظروف . من هنا تدرك ان كل هـذا من الاول الى الاخير ، يمكن التخلص منه .

وقفة صمت . عرف انطوان من نبرة الصوت ان لدى الولد وميضاً من الكبرياء فيعينيه ، ولكنه تجنب عمداً ان يرفع انفه .

وروبير المنطلق استمر بمرح :

ـ في المساء ، عندما يعود لويس ، فهو عاجز عن المشي ، ونحن نقوم باعمال الطبخ هنا : شورباء ، او بيض ، او جبن ، وهذا يصنع بسهولة ، اننا نحب هذا اكثر من باعة الخمر بالجملة ، اليس كذلك يا لولو ؟ وايضاً ، انت ترى انني الهو ايضاً عدة مرات بكتابة عناوين على الصفحات لأمين الصندوق. اني احب هذا، العناوين الجميلة محكمة الصنع على الدائر : ان هذا يصنع لأجل اللذة . اما في

المكتب فهم .

فقاطعه انطوان :

ـ اعطني الدبابيس المزدوجة .

كان يتكلف هيئة لامبالية ، خائفاً ألا يسر الولد بتسليته بثرثرته . وكان يفكر ضمناً : « هذان الولدان يستحقان ألا يغيبا عن النظر » ..

وانتهى الضماد ، وأعيد الذراع إلى الشال ، وتطلع انطوان في ساعته :

ـ سأعود مرة اخرى ايضاً في الغد ، حوالي الظهر . وبعد هذا ، فأنت ستأتي إلى البيت . وأعتقد انك تستطيع العودة إلى عملك نهار الجمعة او السبت.

وقال المريض الصغير اخير اخيراً :

ـ شك .. شك .. شكراً يا سيدي .

وبدا صوته المتغير انه اندفـــع بشكل مفرط ، وسقط في الصمت بشكل غريب بحيث انفجر روبير ضاحكاً ، بضحكة مخنوقة ، متجاوزة الحد وشت فجأة بالتوتر الثابت لهذا الكائن الصغير الكثير العصبية .

وكان انطوان قد اخذ من جيبه عشرين فرنكاً وقال :

ـ لمساعدتكم قليلاً هذا الاسبوع يا اولاد !

ولكن روبير وثب الى الوراء ، ورفع انفه عابساً :

ـ اتعتقد ! ابداً ! فقد قلت لك ان لدينا ما يلزم .

وعزم على البوح بالسر العظيم ليقنع انطوان الذي كان يلح متعجلاً :

ـ هل تعلم كم ادّخرنا نحن الاثنين ؟ إحـــزر ! سبع عشرة مئة ! نعم يا سيدي ! اليس كذلك يا لولو ؟

وفجأة ، وقد خفض صوته كخائن في مأساة تمثيلية :

ـ دون ان نحسب ان هذا يمكن ان يزداد ايضاً اذا نجحت طريقتي .

ولمعت عيناه بشدة بحيث توقف انطوان المبلبل الفكر لحظة على العتبة .

ـ مهارة جديدة .. مع سمسار نبيذ وزيتون وزيوت .. شقيق باسو ، مستخدم في المكتب. وهذا هو الترتيب : عند العودة من قصر العدل بعد الظهر

— وهذا لا يعني احداً اليس كذلك ؟ — ادخل الى عند بائعي الخمور، والبقالين، والنبيذ والاشربة الكحولية . وأعرض عليهم طلباتي . يجب استمالتهم بالكلام المعسول ، وهذا سيحدث .. ولا يمنع انني اكون في مدى سبعة ايام قد وضعت أوعيتي ! اربعة واربعون فرنكاً من الربح ؟ ويقول باسو انني لو كنت احسن التخلص ..

كان انطوان يضحك وحده وهو يهبط الطبقات الست . لقد ربحا عطفه . ويود ان يفعل اي شيء لهذين الولدين . وفكر : « هذا لا يجدي نفعاً ، يجب الحرص على ألاّ يصبحا كثيري التخلص ... »

١٢

كانت تمطر . فأخذ انطوان سيارة اجرة . وبمقدار اقترابه من ضاحية سان اونوريه كان مزاجه الرائق يختفي ، وكسا الهم جبهته .

وقال لنفسه وهو يصعد بدون بشاشة ، وللمرة الثالثة في النهار ، درج آل هيكيه : « لو كان لهذا ان ينتهي » . وداعبه الامل ذات لحظة ان يستجاب نذره : الوصيفة التي فتحت له الباب تطلعت اليه بطريقة غير عادية ، واقتربت بحيوية لتقول له شيئاً ، فقد كانت مكلفة فقط بمهمة سرية:السيدة ترجو الدكتور ان يدخل ليراها ، وتكلمه قبل ان يذهب الى الطفلة .

لم يكن يستطيع التملص . كانت الغرفة مضاءة ،والباب مفتوحاً . ولدى دخوله شاهد رأس نيكول ملقى على الوسادة . فاقترب . وظلت جامدة : كانت في اغفاءة وايقاظها عمل فظ . كانت ترتاح ، وقد عاد اليها شبابها ونجت؛ لقد ذاب في النوم كل اضطرابها النفسي وتعبها . وكان انطوان يتأملها غـــير متجرىء على الحركة ، ممسكاً انفاسه ، خائفاً من ان يقرأ على هذه القسمات ، التي لم يكد الغم يفارقها ، كثيراً من الغبطة ، وتعطشاً للنسيان ، وسعادة . ان لؤلؤ الجفون المنخفضة ، وحواشي الاهداب المزدوجة المذّهبة ، وهذا التخلي ، وذلك الفتور .. كم كان باعثاً على الاضطراب ذلك الوجه العاري ! واية جاذبية

في ذلك القوس الهابط للفم ، في تلك الشفاه المنفرجة العادمة الحياة ، والتي لا توضح شيئاً سوى الراحة والأمل ! وكان انطوان يتساءل : « لماذا هذا الوجه النائم لكائن حي يمارس هذه الفتنة ؟ وماذا يوجد في اعماق رأفة الرجل تلك غير النقية ، والتي هي سريعة التأثر دائماً ؟ » .

وعاد ادراجه على رؤوس اصابعه ، وخرج دون ضجة من الغرفة ، وسار بطريق الرواق نحو غرفة الطفلة حيث ميّز من خلال الحواجز الصرخة البّحاء غير المتقطعة . واضطر الى جمع ارادته ليدير المفتاح ويجتاز العتبة ، ويعود الى الاحتكاك بقوى الشر التي كانت تحاصره هناك .

كان هيكيه جالساً ويداه مبسوطتان على حافة السرير الموضوع في منتصف الغرفة ، وكان يهزه برصانة ؛ ومن الناحية الاخرى من السرير حارسة ليلية منحنية تحت نقاب ممرضة في موقف صبر مهني لا يكلّ ، وكانت تنتظر ويداها في تجويف مريلتها ! وهي واقفة مسندة ظهرها الى المدخنة محزومة في بلوزتها القطنية . وإسحق ستودلر متصالب الذراعين يملس باحدى يديه لحيته السوداء .

ووقفت الحارسة حين شاهدت دخول الدكتور . ولكن هيكيه ، وعيناه على الطفلة ، لم يبد انه انتبه الى شيء . وجاء انطوان الى جانب السرير ،وعندئذ فقط لفت هيكيه رأسه نحوه وتأوه . فأسرع انطوان واخـــذ اليد الصغيرة الساخنة التي كانت تتحرك تحت الاغطية فانكمش حالاً جسد الطفلة كدودة تحاول الغوص في الرمل . كان وجهها احمر ، رخامياً ، شبه داكن ككيس الثلج المعلق وراء الاذن ؛وكانت تلتصق بالجبهة وبالخد خصل شعر شقراء كشعر نيكول ، مبللة بالعرق او من الرفادات .وكانت العين نصف مطبقة ،وكان للحدقة المضطربة تحت الجفن المتورم بريق معدني كبريق حيوان ميت . وكانت حركة هدهدة السرير تؤرجح الرأس باسترخاء يميناً وشمالاً وتجعل الأنين المتفلت من الحنجرة الصغيرة البحّاء يسير على إيقاع .

وبادرت الحارسة فأخذت السّاعة : ولكن انطوان اشار بالنفي وان

لا لزوم لذلك .

وقال هيكيه عندئذ بنبرة غريبة وصوت شبه مرتفع :

ـ انها فكرة من نيكول .

وبما ان انطوان قد فوجىء ولم يبد انه فهم ، فان هيكيه اوضح دون عجـلة :

ـ اترى السرير ؟ انه فكرة نيكول ..

وابتسم بغموض. فهذه التفاصيل في تشوشه الكلي كانت تبدو انها اكتسبت اهمية خاصة . وأضاف تقريباً على الاثر :

ـ نعم .. لقد جئنا به من الطابق السادس .. سريرها الصغير ! في الطابق السادس مليء بالغبار .. هذه الهدهدة هي الشيء الوحيد الذي يهدئها قليلاً ، اترى ذلك ؟

وتأمله انطوان متأثراً . وادرك في تلك اللحظة أن رأفته مهما كانت شديدة فانها لن تبلغ ابداً مستوى ألمٍ كهذا . ووضع يده على ذراع هيكيه :

ـ لقد تلاشت قواك يا صديقي المسكين . عليك ان تذهب وتتمدد قليلاً . وما الفائدة من إنهاك نفسك ؟

وألح ستودلر :

ـ الليلة الثالثة التي لم تنم فيها .

وتابع انطوان منحنياً :

ـ كن عاقلاً . ستكون بحاجة الى طاقتك كلها .. بعد قليل .

وشعر برغبة جسدية لانتزاع البائس من الاحتكاك بهـــذا السرير ليجعله يغطّس هذا الالم العقيم في لاوعي النوم .

ولم يجب هيكيه . واستمر في هدهدة الطفلة . ولكنهم رأوه يطوي كتفيه اكثر فأكثر كما لو ان « بعد قليل » انطوان كانت حقيقة ثقيلة على الحمل . ثم نهض من تلقاء نفسه ، وبدون اي الحاح آخر ، ورجا الحارسة ان تحل محله بجانب السرير ، ولفت رأسه كأنه يبحث عن شيء ، بدون ان يمسح خديه المغمسين

بالدموع . واخيراً اقترب من انطوان وبذل جهداً ليتطلع في وجهه . ودهش انطوان لرؤيته مقدار التغير في تعبير عينيه: ذلك النظر الاحسر ، الحاد، الحازم بدا كأنه ضعيف: كان بطيئاً في الانتقال ، ثقيلاً ومسترخياً حين يقع على شيء .

ونظر هيكيه الى انطوان . وتحركت شفتاه قبل ان يتكلم ، وتمتم :

– يجب .. يجب عمل شيء . انها تتألم كما تعلم .. ما الفائدة من تركها تتألم ، اليس كذلك ؟

وصمت ، وبدا انه يطلب مساندة ستودلر ؛ ثم ثبت من جديد ، وبثقل ، نظره على نظر انطوان قائلاً : « انت يا تيبو ، يجب ان تفعل شيئاً » .. وخفض رأسه كأنه يريد تجنب الجواب ، واجتاز الغرفة بخطوة مترددة ، واختفى .

وظل انطوان بضع ثوان جامداً مكانه . ثم احمـــرّ فجأة ، وتزاحمت في رأسه افكار مشوشة . ولمس ستودلر ذراعه قائلاً بصوت منخفض ، متطلعاً الى انطوان :

– وبعد ؟

كانت عينا ستودلر تبعثان على التفكير بعيون بعض الخيول . هاتان العينان الممتدتان الواسعتان ، حيث تسبح على هواها في بياض مبلل ، حدقة فاترة . وفي تلك اللحظة فان نظره ، كنظر هيكيه ، كان ثابتاً متطلباً . ونفخ :

– ماذا ستفعل ؟

وساد صمت قصير تشابكت افكارهما خلاله . وقال انطوان مراوغاً :

– انا ؟

ولكنه ادرك ان ستودلر لن يعفيه من الايضاح ، فقال فجأة :

– بالتأكيد ، اعرف جيداً .. ومع ذلك فحين يقول : « عمل اي شيء » فليس بالامكان التظاهر بالفهم !

– اسكت !

قال ستودلر ذلك . وألقى نظرة لناحية المرضة . وسار بانطوان الى الرواق واغلق الباب . وسأل :

ـ أأنت من الرأي القائل انه لا يمكن عمل اي شيء ؟

ـ لا شيء .

ـ وان ليس هناك اي امل ؟

ـ ولا اقل امل .

ـ إذن ؟

فشعر انطوان بهزة خفيفة تجتاحه واعتصم بصمت عدائي . وصرح ستودلر :

ـ اذن ؟ لا مجال للتردد : يجب ان ينتهي ذلك بأسرع وقت .

ـ اتمنى ذلك مثلك .

ـ التمني لا يكفي .

فرفع انطوان رأسه وقال بحزم :

ـ ومع ذلك ليس بالمستطاع عمل شيء .

ـ بلى !

ـ كلا .

واتخذ الحوار نبرة حاسمة بحيث صمت ستودلر بضع ثوان ، وتابع اخيراً :

ـ تلك الحقن .. لا اعلم ، انا .. ربما لو زيدت الكمية .

فقاطعه انطوان :

ـ اسكت .

وكان فريسة اهتياج عنيف . وكان ستودلر يلاحظ صامتاً . وشكل حاجبا انطوان حلقة مستقيمة الخطوط تقريباً ، وتعرضت عضلات الوجه لتشنجات لاارادية تجذب الفم . وعلى وجهه العظمي كان الجلد يتموج بين لحظة واخرى ، كما لو ان اختلاجات عصبية قد انتشرت بين الجلد واللحم .

ومرت دقيقة . وردد انطوان بعنف اقل :

ـ اسكت. اني افهمك. هذه الرغبة بالانتهاء نعرفها كلنا ليست سوى محا.. محاولة مبتدىء ! قبل كل شيء هناك امر : احترام الحياة ! تماماً ! احترام

الحياة .. لو ظللت طبيباً لرأيت الامور تماماً كما نراها نحن جميعاً . ان ضرورة بعض القوانين .. حد لقدرتنا ! وبدون ذلك ..

ـ حين يشعر المرء بنفسه انه رجل فان الحد الوحيد هو الضمير .

ـ تماماً . الضمير المهني .. ولكن فكر اذن ايها البائس ! في اليوم الذي يدعي الاطباء فيه الحق .. مع ذلك ، فما من طبيب .. اتسمع يا اسحق ؟ ما من طبيب ...

فهتف ستودلر بصوت صافر : اذن ..

ولكن انطوان قاطعه :

ـ لقد وجد هيكيه نفسه مئة مرة امام حالات مؤ .. مؤلمة ويا .. يائسة كهذه ، وما من مرة وضع ، هو نفسه ، بارادته حداً ا .. ابداً ! ولا فيليب ! ولا ريغو ! ولا ترويار ! ولا اي طبيب جدير بهذا الاسم ، اتسمعني ؟ ابداً !

فقال ستودلر بنفور :

ـ وبعد .. ربما كنتم مــن الاحبار العظام ، ولكنكم لستم في نظري سوى جلادين .

وتراجع خطوة، فأنار ضوء قنديل السقف وجهه . وكان يقرأ في هذا الوجه اشياء اكثر مما في اقواله : ليس فقط الاحتقار الثائر ، بــل هناك نوع من التحدي ، من التهديد تقريباً ، وشيء كأنه عزم خفي .

وفكر انطوان : « حسناً ، سوف انتظر الساعة الحادية عشرة لأقــوم بنفسي باجراء الحقنة » .

ولم يجب بشيء . وهز كتفيه ، وعاد الى الغرفة وجلس .

المطر الذي كان ينهال على النوافذ بشدة وبدون هدنة ، وقطرات المــاء المنهمرة على زنك النافذة بقوة وبقدر ، وفي الغرفة تلك الهدهدة غير المنقطعة للسرير والتي فرضت رتابتها على انين الطفلة ، كل هذه الضوضاء المختلطة كانت تشكل في ذلك الهدوء الليلي المسكون بالموت انسجاماً متواصلاً ومؤثراً

وقال انطوان لنفسه ولمّا يهدأ تهيج اعصابه : « لقد تلجلجت مرتين او ثلاث مرات متتابعة منذ قليل . (كان هذا لا يحدث له الا في النادر وحين يتصلب في موقف مصطنع ـ مثلاً حين يضطر الى ان يكذب كذبة صعبة امام مريض كثير الذكاء ؛ او حين يجد نفسه مقاداً في الحديث الى مساندة فكرة جاهزة لم يتكون لديه بعد يقين شخصي بشأنها) . وفكر : انهـــا غلطة « الخليفة » [1] . وبزاوية عينه تأكد ان الخليفة قد عاد الى مكانه وظهره الى المدخنة . وتذكر عندئذ اسحق ستودلر الطالب ،كما التقى به منذ عشر سنوات في ضواحي كلية الطب . في ذلك العهد كان الحي اللاتيني كله يعرف الخليفة . لحيته كلحية احـد ملوك مادي ، وصوته المخملي ، وضحكته القوية ، ولكن ايضاً طبعه المتعصب المشاغب ، السريع الغضب . وكانوا يعتقدون انه مـؤهل اكثر من غيره لمستقبل ممتاز . ثم عُلم في يوم جميل انه ترك دروسه ليربح مـــا يقوم بأوده ؛ وقد قيل انه اخذ على عاتقه زوجة واولاد احد اخوته الذي كان مستخدماً في مصرف وانتحر على أثر عملية اختلاس .

وقطعت خيط التذكارات صرخة من الطفلة أكثر بحة . وفي لحظة ، لاحظ انطوان انقباض الطفلة ، وعكف على تسجيل تكاثر بعض الحركات ؛ ولكن لم يكن هناك معلومات يمكن استنتاجها من هذه الحركات غير المنتظمة ، لا شيء سوى اختلاجات دجاجة تُذبح . وعندئذ ، فان ذلك الشعور بتعكر المزاج الذي كان انطوان يكافح ضده منذ جداله مع ستودلر ، قد تزايـــد فجأة الى درجة المضايقة . كان اهلاً للقيام بأي عمل جريء لانقاذ حياة مريض في خطر ، وللمجازفة شخصياً بأي خطر ؛ ولكن ان يتعثر هكذا في وضعية لا مخرج لها ، ويشعر انه مجرد إلى هذه الدرجة من كل وسيلة عمـل ، وليس لديه سوى النظر إلى مجيء « العدو » المنتصر ، فهذا فوق مستوى قوته . ثم ، في الحالة الحاضرة ، فان منازعة هذه الكائن الصغير التي لا تنتهي ، وصرخاته المبغومة ، كانت

---

١ ـ يبدو انه لقب كان يطلق على ستودلر في الجامعة .

تهز أعصابه بشكل خاص . الا أن انطوان كان معتاداً على رؤية من يتألم ، حتى الاطفال . فلماذا لم يتوصل هذا المساء إلى أن يصبح عادم الشعور ؟ ذلك لأنه يوجد دائماً شيء غامض ، غير مقبول ، في احتضار كائن بشري آخر ، كان يسبب له في تلك اللحظة ، كما للأقل استعداداً ، قلقاً نفسياً لا يمكن التغلب عليه . كان يشعر أنه اصيب في صميمه : اصيب في ثقته بنفسه ، ثقته بالعمل ، بالعلم، بالحياة. لقد كان ذلك كموجة غمرته. ومراماه موكب شؤم : كل مرضاه الذين حكم بموتهم .. ولا شيء سوى عد اولئك الذين رآهم منذ الصباح ، واللائحة تصبح طويلة : أربعة أو خمسة مرضى في المستشفى، هيجيت ، ارنست الصغير ، الرضيع الاعمى ، وهذه .. بالتأكيد لقد نسي منهم ! فقد رأى والده مسمراً في كنبته ، وشفته السميكة المبللة بالحليب .. في بضعة اسابيع ، بعد ايام وليالي من الألم ، يأتي دور الشيخ المتين .. الجميع ، البعض بعد البعض الآخر ! ما من سبب لهذا البؤس العام . وقال لنفسه بهياج كأنه يخاطب محدثاً متفائلاً بعناد : « كلا ، الحياة مستحيلة ، الحياة سيئة » ! وهذا العنيد الراضي ببلاهة ، كان هو ، كان انطوان جميع الايام .

ونهضت الممرضة دون ضجة .

وتطلع انطوان الى ساعته : ساعة الحقنة .. كان منتشياً لأن عليه ان يبدل مكانه ، وأن يفعل شيئاً؛كان كمن عاد اليه نشاطه لتفكيره أنه سيستطيع الهرب حالاً .

وحملت اليه الحارسة على طبق كل ما يلزمه . فقطع رأس الانبوب الزجاجي وأدخل فيه الابرة ، وملأ المحقنة حتى الدرجة المحدودة ، وافرغ بنفسه ثلاثة ارباع الانبوب في السطل . وكان يشعر بنظر ستودلر المنتبه مثبتاً عليه .

واجريت الحقنة ، وعاد الى الجلوس ، مقدار الوقت الذي يتأكد فيه من علامه تهدئة خفيفة ؛ وانحنى على الطفلة ، وجس مرة اخرى ضربات النبض الذي كان ضعيفاً حتى النهاية، واعطى بعض التعليمات للحارسة بصوت منخفض؛

ثم نهض دون عجلة وغسل يديه على المغسلة وجاء يضغط بصمت على يد ستودلر، وترك الغرفة .

وقطع على رؤوس اصابعه كل الشقة المضاءة، المقفرة . وكانت غرفة نيكول مقفلة . وبقدر ابتعاده كان يبدو له ان أنين الطفلة يتناقص . وفتح باب الدهليز واقفله دون ضجة . وعلى قرص الدرج ارهف السمع : لم يسمع شيئاً . فتنفس بشدة وهبط الدرج برشاقة .

وفي الخارج لم يستطع منع نفسه من الالتفات نحو الواجهة المظلمة حيث يوجد صف من النوافذ المضاءة كمساء عيد .

وانقطع المطر . ولا تزال تجري سواقي سريعة على طول الارصفة . وكانت الشوارع المقفرة تلمع على مدى البصر .

وفي البرد رفع انطوان طوقه واسرع الخطى .

١٣

خرير الماء ذاك، وتلك المساحات المبللة .. تخيل فجأة وجهاً مبللاً بالدمع : هيكيه واقف، ونظرته ملحّة : « انت يا تيبو، يجب ان تفعل شيئاً » .. رؤيا مؤلمة لم يستطع طردها حالاً : « العاطفة الابوية.. عاطفة مجهولة لديّ كلياً، شيء من الجهد ابذله لأتخيلها » .. وفجأة فكر بحيز : « عائلة .. اولاد » .. افتراض بسيط من حسن الحظ انه غير قابل التحقيق . ان فكرة الزواج في هذا المساء لم تبد له مبكرة فقط، بل مجنونة ! وتساءل : « انانية ؟ جبانة ؟ » وحاد تفكيره من جديد : « هناك من يحكم علي بالجبن في هذه اللحظة، انه الخليفة » .. وعاد فرأى نفسه محصوراً في الرواق، ليس بدون ملل، امام الوجه المحتدم، الفظ، تحت نظر ستودلر العنيد . وجرب التملص من خشرم الافكار الذي كان يدور حوله منذ تلك اللحظة . « جبان » وجدها كريهة قليلاً بالنسبة اليه ؛ ووجد كلمة : « متحرز » . لقد وجدني ستودلر متحرزاً، الأبله !

ووصل الى امام الاليزيه . هناك دورية من الحرس البلدي تسير الهوينا وقد اتمت دورة حـــول القصر ؛ وكان هناك ضجة خشب بنادق على الرصيف . وانتشرت في رأسه تتمة افتراضات شبيهة بصور واثبة ، قبل ان يتاح له الوقت للاحتراس منها : أبعد ستودلر المرضة ، وسحب محقنة من جيبه .. وعادت المرضة ، وجست الجثة الصغيرة .. شكوك ، وشاية ، رفض الدفن ، تشريح الجثة .. قاضي التحقيق ، الحرس البلدي . وقرر بسرعة : « سوف آخـــذ كل شيء على عاتقي » ؛ واخذ يقيس الحارس الذي مر امامه وصرح بتحد موجهاً الكلام الى حاكم وهمي : « كلا ، ليس هناك اثر لحقنة سوى حقنتي . وقـــد تجاوزت الكمية عن علم . كانت الحالة يائسة ، واني اطالب بكل الـ .. » وهز كتفيه ، وابتسم وخفف خطاه . « انا ابله » . ولكنه كان يشعر انه لم ينته من هذه المسائل . « لو كنت مستعداً ان اضع على ظهري نتائج حقنة مميتة قام بها آخر فلماذا رفضت ان اجريها بنفسي ؟ »

والمشاكل التي لم يكن يكفي جهد عنيف وقصير من التأمل، ان لم يكن لحلّها، فعلى الاقل لايضاحها ، كانت دائماً تثيره بشكل عميق . وتذكر حواره مـــع ستودلر ، وفورته ، ولجلجته . مع انه لم يشعر بأي أسف على سلوكه ، فقد كان يشعر بانطباع كريه لأنه لعب دوراً وابدى مقاصد لم تكن تتفق جيداً مـــع مجموع شخصه ، ومع احد الاسس الجوهرية عنده ؛ وكان لديه ايضاً حـــدس غامض موجع بأن هذا الدور وتلك المقاصد يمكن ان تجد نفسها ذات يوم معارضة لطريقته في النظر والعمل . وكان يجب ان يكون هذا الشعور من عـــدم الاستحسان الداخلي اكيداً بحيث لا يتوصل انطوان الى التخلص منه ، لانـــه كان ، بوجه عام ، يأبى ان يصدر حكماً على ما فعله ؛ ومعرفة توبيخ الضمير كانت غريبة عنه تماماً . كان يحب ان يحلل نفسه ، ومنذ تلك السنوات الاخيرة كان يلاحظ نفسّه بشغف ، ولكن بدافع الفضول السيكولوجي الصرف : مـــا من شيء كان اكثر معاكسة لمزاجه من ان يمنح نقاطاً سيئة او جيدة .

وهناك مسألة توضحت وزادت من حيرته : « الم يكن يلزمه من القدرة

ليرضى ، اكثر مما يلزمه ليرفض » ؟ حين كان يتردد بين حزبين دون ان يجد ، مع التفكير ، اسباباً لاختيار الواحد دون الآخر ، فقد كان ، بوجه عــــام ، يختار ذاك الذي يتطلب اكبر قدر من الارادة : وكان يزعم ، بعد التجربة ، ان هذا هو الافضل دائماً . ولا بد له من الاعتراف انه قد اختار الاسهل هذا المساء، واتخذ الطريق المرسوم .

وكانت بعض العبارات التي لفظها لا تزال تعمر رأسه . فقد قال لستودلر : « احترام الحياة ». لن يُحترز ابداً من العبارات المألوفة . « احترام الحياة » .. **احترام ام تكريم** مفرط ؟

وعندئذ عادت الى ذهنه حكاية ادهشته في السابق : حــــكاية تريغينيك *Tréguineuc* ذي الرأسين :

منذ خمس عشرة سنة، وفي مــــرفأ بريتوني حيث كان آل تيبو في عطلة ، وضعت زوجة صياد طرحاً ذا رأسين متميزين ، مكونين بشكل تام . وكان الاب والام قد طلبا من طبيب البلاد ألا يدع المسخ الصغير حياً . وعندمـــا رفض الطبيب فان الاب ، وهو سكير مشهور، انقض على الوليد ليخنقه بيديه؛ وقد وجب إلقاء القبض عليه واحتجازه . تأثر عظيم في القرية، موضوع احاديث لا ينفد للسابحين والآكلين . وانطوان الذي كان آنذاك في سن السادسة عشرة او السابعة عشرة لا يزال يتذكر المناقشة العاصفة التي اشتجرت بينه وبين السيد تيبو ـ احدى الحوادث الاولى العنيفة بين الاب والابن ـ لأن انطوان ، مــــع تشدد الشباب البسيط ، كان يطالب للطبيب باجـازة ليقضي دون امهال على حياة محكوم عليها بقضاء محتوم .

كان مضطرباً لإدراكه انه لم يغير رأيه بشكل ظاهر حول هذه الحالة الخاصة وتسائل : « ما رأي فيليب بذلك ؟ » ليس هناك اي شك : فقد اضطر انطوان الى الاعتراف بأنّ فيليب ما كان ليبحث مجرد بحث في افتراض الإماتة ؛ وافضل من ذلك ، فلو فرضنا ان المعوّه الصغير في خطر ، لكان فيليب حرك كل شيء لانقاذ هذه الحياة البائسة . وريغو كذلك ، وتيريفيه نفس الشيء . ولوازيل .

الجميع . الجميع . ففي كل مكان تبقى فيه شذرة حياة فالواجب لا جدال فيه . احد اعراق الارض الجديدة .. وظن انه يسمع صوت فيليب الأخن: « لا حقّ لك يا صغيري ، لا حق لك ! » .

وتمرد انطوان : « الحق ؟ لنر ، انت تعرف مثلي ما تساوي معرفة الحق والواجب . لا يوجد قانون سوى القوانين الطبيعية ؛ فهذه ، نعم ، محتومة . ولكن تلك القوانين الاخلاقية المزعومة ، ما هي ؟ باقة من العادات المتأصلة فينا منذ قرون .. لا شيء اكثر .. وربما لم يكن بالامكان الاستغناء عنها قديماً لنمو الانسان الاجتماعي . اما اليوم ؟ فهل يمكن بصورة معقولة ان تُمنح هذه القوانين القديمة ،قوانين الصحة والشرطة ،ما لا ادري من فضيلة مقدسة وصفة حتمية مطلقة ؟ » وبما ان المعلم لم يكن يجيب بشيء فان انطوان هز كتفيه ، وادخل يديه في جيبي معطفه ، وبدل الرصيف .

كان يمشي دون ان يتطلع ، مناقشاً دائماً ولكن لنفسه : « اولاً ، انه امر واقع : الاخلاق غير موجودة بالنسبة الي . **يجب** ، **لا يجب** ، **الخير** ، **الشر** ، ليست في نظري سوى كلمات أستعملها لأفعل كالآخرين ، قيم يسهل علي استعمالها في الحديث ؛ ولكن في داخلي ، تحققت منها مئة مرة ، بالحقيقة انها لا تطابق شيئاً من الواقع . وكنت هكذا دائماً .. كلا هذا التأكيد الاخير هو كثير . انا هكذا منذ .. » ومرت صورة راشيل امام عينيه . « .. منذ وقت طويل ، على كل حال .. » وحاول عن حسن نية ، طوال لحظة ان يبين على اي مبادىء تحددت حياته اليومية . لم يجد شيئاً . وجازف ، لعجزه عن ادراك ما هو خير من ذلك ؛ « شيء من الصدق ؟ » وفكر وأوضح : « او بالاحرى شيء من **الفطنة** » ؟ كان تفكيره لا يزال مشوشاً ، ولكنه كان راضيا عن اكتشافه . « نعم ، ان هذا ليس بالامر الهام . ولكن حين ابحث في نفسي فان هذه الحاجة الى الفطنة ، هي رغم كل شيء احدى النقاط الوحيدة الثابتة التي اجدها .. ومن الممكن تماما انني صنعت ، دون ان افكر بذلك ، نوعا من المبدأ الاخلاقي لاستعمالي الخاص .. وهو يصاغ هكذا : « حرية كاملة ، شرط

النظر بشكل واضح .. » وهذا، بشكل اجمالي يتوقف على نوعية النظر . النظر بوضوح .. المراقبة بتلك العين الحرة ، الجلية،النزيهة التي تكتسب في المختبرات. حسبان المرء نفسه انه يفكر بوقاحة ، ويعمل . لومه نفسه لكونه ما هو عليه. وكنتيجة : ان يقبل المرء نفسه كما هو..وعندئذ؟عندئذٍ،اصبح قريباً من القول: كل شيء مسموح به .. كل شيء مسموح به منذا للحظة التي لا يكون فيها المرء مخدوعاً بنفسه . منذ اللحظة التي يعرف ما يفعل ، وبقدر الامكان ، لماذا فعل ذلك !

وعلى أثر ذلك ابتسم بجدة : « اكثر شيء مدعاة للحيرة هو انه لو نُظر الى حياتي بانتباه ـ تلك « الحرية الكاملة » الشهيرة التي ليس عندها خير ولا شر ـ فانها مخصصة فقط لعمل ما يسميه الآخرون الخير ، وكل هذاالانعتاق يؤدي الى ماذا ؟ الى فعل مايفعله اولئك الذين تدعوهم الاخلاق الدارجة الفضلاء ، وليس فقط الى فعل ما يفعله الآخرون . والبرهان : ماجرى هذا المساء . هل توصلت ، بالفعل ورغما عني ، الى ان اخضع نفسي لنفس الأنظمة الأخلاقية كجميع الناس ؟ كان فيليب يبتسم .. اني ارفض القبول بان ضرورة تصرف الانسان كحيوان اجتماعي تكون اكثر استبداداً من جميع غرائزه الفردية ! اذن كيف افسر موقفي هذا المساء ؟ هذا لا يُصدّق الى اية درجة يمكن للعمل ان يكون منفصلاً ، مستقلاً عن العقل ! لانني في اعماق نفسي اعترف انني اعطيت الحق لستودلر . والاعتراضات غير الناضجة التي قمت بها ضده لا تُعد شيئا . انه هو الذي كان منطقياً : تلك الطفلة تعاني سكرات الموت ؛ والمخرج من هذا الصراع الرهيب لا يمكن تجنبه ووشيك الحدوث . إذن ؟ لو اكتفيت بالتفكير لما رأيت سوى فوائد استعجال الموت . ليس فقط لأجل الصغيرة ، بل لأجل مدام هيكيه : من الراهن أن منظر هذا الاحتضار الذي لا ينتهي ليس بدون خطر في الحالة التي فيها الام .. وهيكيه بالتأكيد فكّر بكل ذلك .. وليس لديه ما يجيب عليه ؛ ولو اكتُفي بإعمال العقل فإن قيمة هذه الأدلة غير قابلة للجدل .. فهل

من الغرابة ألا يستطيع أبداً الاكتفاء بالتعقل المنطقي ؟ لا أقول هـذا لأعتذر عن جبن . اني أعرف جيداً ، وأنا وحيد أمام نفسي ، ان الذي اضطرني هذا المساء لأن أتملص كما فعلت ، ليس هو الجبن ، كلا انه شيء أكثر إلحاحاً ، وأكثر ضرورة من قانون طبيعي . ولكنني لم أصل إلى فهم ماهيته .. » وأعاد النظر في مختلف التأويلات . فهل كانت هذه إحدى أفكاره المشوشة ـ التي يـؤمن بوجودها ـ والتي تبدو نائمة فينا تحت سطح أفكارنا الواضحة والتي تستيقظ بين لحظة واخرى ، وتنهض ، وتستولي على القيـادة وتحرك عمـلاً ، ثم تختفي دون ايضاح وراء أعماقنا ؟ او أيضاً ، ببساطة أكثر ، أما كان يجب القبول بوجود قانون أخلاقي جماعي وانه يستحيل تقريباً على الانسان أن يتحرك كفرد فقط ؟

لقد بدا له أنه يدور بشكل مستدير مغمض العينين . وكان يحاول ايجاد آخر عبارة لنيتشه تذكر في أغلب الأحيان : بأن الانسان يجب ألا يكون مشكلة . بل حلاً . مبدأ كان في الماضي يبدو له بكل وضوح ، ووجد من سنة إلى سنة ان من المستحيل التوافق معه . وسنحت له الفرصة قبلاً للتأكـد أن بعضاً من مقاصده (الأكثر تلقائية بوجه عام والاكثر أهمية في اغلب الاحيـان) كانت تجد نفسها متناقضة مع منطقه العادي ؛ إلى درجة انه كان يتساءل عدة مرات: « ولكن هل انا حقيقة ذاك الذي أظـن ؟ » شك خاطف وخفي ، شبيه بالبرق الذي يثقب الظلمات لحظة ويتركها بعده أكثر عتمة ؛ شك كان يبعـده حالاً ـ وهذا المساء ايضاً ردعه .

وساعدته الظروف . فحين وصل إلى الشارع الملكي نفخت في وجهه نافذة مخبز رائحة خبز مشوي ، ساخنة كاللهاث ، فالتهى بهـا وتثاءب وبحث بعينه عن محلٍ مضاء لشرب الجعة . ثم شعر فجأة بالرغبة في الذهـاب حتى المسرح الفرنسي ليأكل شيئاً عند زم *Zemm* ـ وهو بار صغير يظل مفتوحاً حتى الصباح وحيث كان يتوقف فيه احياناً ، وفي الليل ، قبل ان يعود إلى اجتياز الجسور .

واعترف بعد فترة صمت داخلي : « انه لغريب مهما كان الامر . فمهما شك المرء وخرّب ، وتحرر من كل شيء ، فهناك ، مهما أراد ، شيء لا يمكن تبديله ،

شيء لايتوصل أي شك إلى النيل منه: تلك الحاجة إلى أن يؤمن الانسان بعقله. وقد قدمت برهاناً جميلاً على ذلك منذ سنة !» وشعر أنه تعب وظل غير راض. وكان يبحث عن حقيقة بديهية لكل راحة يمكن أن تعيد إليه الطمأنينة. وطابق بكسل: «كل شيء نزاع، وليس هذا بجديد؛ وما يجري في نفسي فهو الظاهرة الكونية، تصادم كل ما يحيا».

ومشى بعض الوقت دون أن يفكر بشيء واضح. كانت جلبة الشوارع قريبة. والشوارع محددة بالمتنزهات الليليات، الأليفات إلى أعلى درجة. بحيث حاد عنهن بحركة مفرطة الحلم.

الا ان العمل اللاواعي لعقله تكاثف شيئاً فشيئاً. وقال أخيراً لنفسه: «انا احيا، وهذا امر واقع، وبقول آخر، لم انقطع عن الاختيار والعمل. حسناً، ولكن هنا تبدأ الظلمات. «باسم ماذا» هذا الاختيار والعمل لا اعرف عن ذلك شيئاً. ايكون باسم تلك الفطنة التي كنت افكر فيها منذ لحظة؟ كلا.. نظرية! في الاساس، فان هذا الاهتمام بالوضوح لم يعلل في الواقع، من ناحيتي، عزماً أو عملاً. ولكن حين اعمل فقط فان تلك الفطنة تتدخل لتبرر امام عيني ما قمت بعمله.. ومع ذلك منذ ان اصبحت كائنا افكر، اشعر انني مدفوع لنقل: بغريزة – بقوة تجعلني، بلا انقطاع، اختار هذا وليس ذاك، واعمل بطريقة وليس بأخرى. وألاحظ – وهذا ما يحير اكثر من غيره – انني **لا اعمل في اتجاهات متناقضة**. اذن، فكل شيء يجري بطريقة مضبوطة كما لو انني خاضع لقاعدة ثابتة.. نعم، ولكن اي قاعدة؟ اني اجهلها! وفي كل مرة، في لحظة حاسمة من حياتي. يجعلني هذا الدافع الداخلي اختار اتجاهاً محدوداً وأعمل في هذا الاتجاه، فاني اتساءل: «باسم ماذا؟» وكنت دائماً اصطدم بجدار اسود. اشعر انني متوازن، موجود بشكل جيد، اشعر انني شرعي – ومع ذلك فعلى هامش جميع القوانين، لم اجد لا في مذاهب الماضي ولا في الفلسفات المعاصرة، ولا في نفسي، اي جواب يرضيني، وارى بوضوح جميع القواعد التي لا استطيع ان ارضى بها، ولكنني لا ارى اية واحدة

استطيع الخضوع لها ، وفي جميع الانظمة المجموعة لم يبد لي اي نظام ، حتى من بعيد ، انه يناسبني او يستطيع تفسير سلوكي . ورغم كل شيء ، فاني اسير قدماً ، وامشي مشية حسنة ، دون تردد ، مستقيمة تقريباً ! فهل هذا غريب ! اني احدث تأثير سفينة سريعة تتبع طريقها بجرأة وليس لدى ربانها بوصلة .. وسوف يقال بالتأكيد انني اخضع لنظام ! وهذا ما أعتقد انني اشعر به : طبيعتي مرتبة . ولكن ما هو هذا النظام ؟ الا اني لا اشكو . فأنا سعيد . ولا اتمنى ابداً ان اكون رجلاً آخر ؛ وببساطة ، فاني احب ان افهم بموجب ماذا انا فلان . وتدخل ذرة من القلق في هذا الفضول. فهل كل كائن يحمل لغزه هكذا؟ هل سأجد مفتاح لغزي؟ هل سأتوصل الى وضع صيغة قانوني ؟ هل اعرف ذات يوم **باسم ماذا** ؟ » .

دخل بسرعة في رواق المدخل بحيث عثر بسلال المحار التي تنشر في الممشى عفونة مستنقع لاذعة .

كان البار يشغل الطابق الموجود تحت الارض؛ ويُنزل اليه بدرج ضيق لولبي ، عجيب ، خفي بشكل غامض . في تلك الساعة كانت القاعة ملأى بعشاق الليل الجالسين الى مناضد في بخار فاتر ينتن به المطبخ والكحول ، والسيكار ، وتحركه المراوح وهي تصفر . وكان الاكاجو المدهون والجلد الاصفر يكسبان هذه الغرفة المنخفضة بدون نوافذ ، الطويلة ، مظهر غرفة تدخين في سفينة .

واختار انطوان زاوية ، وألقى معطفه على المقعد ، وجلس . وانتابه شعور بالراحة . وفجأة ، وبدافع التناقض ، تخيل هناك غرفة الطفلة ، الجسد الصغير المبلل بالعرق ينتفض عبثاً تحت الضغط ، وكان في اذنه ايضاً ايقاع السرير المشؤوم ، الشبيه بطرقة قدم تضرب الايقاع الموسيقي .. فانقبض منزعجاً .

— طعام لواحد ؟

— واحد ، روزبيف ، خبز أسود ؛ وويسكي في قدح كبير بدون صودا مع زجاجة ماء باردة .

– بدون شورباء بالجبن ؟
– إذا أردت .

على كل طاولة ، للإبقاء على العطش ، مقالي مرشوشة بالملح ورقيقة « كنقود البابا » كانت تتكوم في صحن . وقاس انطوان جوعه بالسرور الذي شعر به وهو يقضم تلك التي كانت أمامه ، منتظراً تلك الشورباء بالجبنة ، المطبوخة على نار خفيفة ، المزبدة ، السائلة على مهل ، المعقودة بالبصل ، والتي كانت من مآكل المكان الخاصة .

وغير بعيد عنه ، أناس واقفون يطلبون ملابسهم . وامرأة شابة كانت تشكل جزءاً من تلك الفئة الصاخبة ، تطلعت خلسة إلى انطوان ، وتلاقت عيونهما ، وابتسمت له خفية . أين إذن التقى بهذا الوجه ذي الطابع الياباني ، الأملس المسطح ، وذينك الحاجبين الدقيقين ، وتينك العينين الرقيقتين المكبوحتين بشكل خفيف ؟ وسخر من الطريقة اللطيفة التي رسمت بها سمة الذكاء تلك خفية عن الجميع . آه ! انها نموذج رآها عدة مرات عند دانيال دي فونتانان في المشغل القديم ، في شارع مازاران . والآن قد تذكر جيداً جلسة بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، شديد الحرارة ؛ وتذكر الساعة ، والضوء ، والوضعية – والاضطراب الذي أبقاه هناك مع أنه كان متعجلاً .. وتبع المرأة بعينه حتى الباب . كيف كان دانيال يناديها ؟ اسم كان يشبه ماركة شاي .. والتفت قبل أن تختفي . لقد ظل الجسد أيضاً في ذاكرة انطوان شيئاً مسطحاً ، أملس ، عصبياً .

أثناء الأشهر القليلة التي خيل اليه فيها انه كان يحب جيز ، لم يكن في حياته مكان لأية امرأة . وفي الواقع . منذ ان قطع علاقته بمدام جانين (علاقة دامت شهرين وأوشكت ان تنتهي بشكل سيء جداً) كان يعيش دون عشيقة واثناء بضع ثوان شعر بأسف محرق ، فغمس شفتيه بالويسكي الذي جيء به اليه . ورفع بنفسه غطاء اناء الشورباء ، وتنشق الروائح السمحة التي تصاعدت نحوه .

في تلك اللحظة جاء خادم المدخل يسلمه ورقة مدعوكة ، مطوية أربع طيات . انها منهاج صالة موسيقى . وفي احدى الزوايا كُتب بقلم رصاصي :

« غدا عند زيم ، الساعة العاشرة مساءً » .

وسأل لاهياً ولكنه مرتبك :

– هل هناك من ينتظر الجواب ؟

فأجاب الخادم :

– كلا ، فالسيدة ذهبت .

وكان انطوان مصمماً على ألاّ يعير أي اهتمام لهذه الدعوة . إلا انه وضع الورقة في جيبه وأخذ يتناول عشاءه .

وفكر فجأة : « الحياة جميلة » . وغمرته جلبة غير منتظرة من الافكار الفرحة . وقال مؤكداً : « نعم ، احب الحياة» ؛ وفكر لحظة : « وفي الأساس لست بحاجة لأحد » . وحلقت فوقه ذكرى جيز من جديد ، واعترف أن الحياة تكفي لسعادته ولو كانت بدون حب ، واعترف بخلوص نية انه أثناء إقامة جيز في انكلترا لم ينقطع عن الشعور بأنه سعيد بعيداً عنها ، ومع ذلك هل كان لديه مكان كبير لامرأة في سعادته ؟ راشيل ؟ نعم ، راشيل ! ماذا كان حدث لو لم تذهب راشيل ؟ وثم ، الا يشعر انه شفي نهائياً من العواطف التي من هذه الطبيعة ؟ والعاطفة التي كان يحملها لجيز لم يجرؤ هذا المساء على أن يسميها حباً . انه يبحث عن كلمة أخرى . ميل ؟ ولازمه التفكير بجيز بعد لحظة ، وآلى على نفسه أن يظهر إلى النور ما حدث في نفسه في الأشهر الأخيرة . هناك شيء كان أكيداً : هو أنه كان قد خلق صورة لجيز على قياسه ، تختلف جداً عن جيز الحقيقية التي ، في هذه الفترة من بعد الظهر أيضاً .. ولكنه رفض أن يتأخر عن هذه المقابلة .

وشرب جرعة من الويسكي المداف بالماء ، وهاجم الروزبيف ، وردد انه يحب الحياة .

كانت الحياة في عينيه ، قبل كل شيء ، حيّزاً واسعاً مكشوفاً ليس على الناس العاملين مثله إلا ان يندفعوا فيها بجذل . وحين كان يقول : محبة الحياة ، كان يريد ان يقول : محبة النفس ، الإيمان بالنفس وكل مرة ، حين كان

يستعرض ، بشكل خاص، حياته الخاصة لم تكن تظهر له فقط كحقل للمناورات مهيأ بشكل رائع ، كمجموعة لا تنتهي من الترتيبات الممكنة ، بل أيضاً ، وعلى الخصوص ، كطريق مرسوم بوضوح . خط مستقيم يوصل إلى ناحيةٍ ما بشكلٍ لا شك فيه .

وشعر انه هز جرساً مألوفاً كان يسمع دائماً صوته بتساهل . وتمتم الصوت الداخلي : « تيبو ؟ عمره اثنتان وثلاثون سنة ، عمر الانطلاقات الجميلة ! الصحة؟ غير عادية : مقاومة حيوان فتي ، في أوج قوتــه .. الذكاء ؟ مرن ، جريء ، يتقدم دون انقطاع .. خاصة الشغل ؟ لا تنفد تقريباً .. بحبوحة مادية .. كل شيء ، اخيراً ! لا ضعف ولا عيوب ! ليس هناك أي عائق لدعوته ! والريــح تدفع مؤخر السفينة . . »

ومد ساقيه وأولع سيكارة .

دعوته .. منذ سن الخامسة عشرة والطب يمارس عليه جاذبية غريبة . والآن ايضاً ، فانه يقبل كعقيدة انيكون علم الطب هو نهاية كل الجهد العقلي ، وان يؤلف اوضح فائدة لعشرين قرناً من البحث في جميـع سبل المعرفة ، وأغنى صعيد مفتوح لعبقرية الانسان . علم غير محدود في دراسته النظرية وفضلاً عن ذلك فهو متأصل في الواقع الاكثر حسية ، وعلى اتصال مباشر ودائم بالكائن البشري . وكان يهتم بهذا بشكل خاص . وما كان ليرضى ابداً ان يحبس نفسه في مختبر، وان يحد من ملاحظته في حقل المجهر : كان يحب هذه المواجهة الدائمة للطبيب مع الواقع الكثير الأشكال .

وتابـع الصوت: «ان ما كان يلزم هو ان يزيد تيبو من شغله في سبيل نفسه.. يجب ألاّ يدع الزبائن يشلـّونه كتيريفيه ، كبواستكو .. ايجاد الوقت لاجراء ومتابعـة التجارب ، وتنسيق النتائج ، واستخلاص خيوط « اسلوب » ـ لأن انطوان كان يعتقد أن مستقبله شبيه بمستقبل أكبر المعلمين : قبل بلوغ الخمسين سوف يكون مالكاً لعدد من الاكتشافات ، وعلى الخصوص ، يكون قد أرسى قواعد هذا الاسلوب الشخصي الذي لا يزال مشوشا، والذي يعتقد أنه سيستشفه

ذات يوم . « نعم ، عما قريب ، عما قريب » .

واجتاز تفكيره نوعا من الفسحة المظلمة ، هي موت والده ؛ وفيما عدا ذلك عاد الطريق وأصبح متألقا . وبين نفختين من دخان السيكارة تصفح هذا الموت بشكل يختلف عن المعتاد ، دون أي خوف ، دون كآبة ؛ بالعكس ، كخلاص ضروري ، منتظر ، كتوسيع للافق وأحد شروط تقدمه . وخطرت بباله مئة امكانية جديدة . « سيكون المقصود ان يقوم حالاً بعملية اختيار بين الزبائن.. ويحتاط لأوقات الفراغ.. ثم، مساعد دائم لأجل الأبحاث.وربما أمين سر أيضاً، بدون معاون ، كلا ، غلام فتي ، ذكاء مفتوح على كل شيء ، انشئه ويخلصني من الاشغال .. وأنا ، بامكاني أن أعمل بقساوة ، ان انهمك .. وأكتشف جديداً ! آه ! نعم ، اني واثق من عمل أشياء عظيمة ! » وبدا على شفته رسم ابتسامة ، انعكاس داخلي لذلك التفاؤل الذي كان يسره .

وفجأة القى سيكارته وتوقف مفكراً : « أليس غريباً التفكير به ؟ هـذا الاتجاه الاخلاقي الذي طردته من حياتي ، والذي شعرت انني اجتزته تماماً ، منذ أقل من ساعة ، ها أنا أعود وأجده فجأة في نفسي ! وليس ملتجئاً إلى احدى الحنايا المظلمة غير المطروقة في وعيي ! انه على العكس، متفتح ، متين ، لا يمكن استئصاله، مظهراً نفسه في المكان الرئيسي،في منتصف طاقتي الحيوية وفعاليتي : في قلب حياتي المهنية ! لأن ليس المقصود اللعب على الكلمات : فأنا كطبيب ، كعالم ، لدي معنى للاستقامة لا يمكن تغييره مطلقا . وحول هذه النقطة اعتقد ان باستطاعتي القول انني لن اتساهل ابداً .. كيف أوفق بين كل هذا ؟ لماذا دائما إرادة المصالحة ؟ » بالفعل ، فقد اقلع عن ذلك بسرعة ، وكف عنالتفكير بدقة ، واستسلم بفتور للراحة الممزوجة بالتعب والتي خدرته تدريجيا .

ودخل سائقا سيارة ووقفا غير بعيد عنه. كانا ينوءان تحت معاطف وضعاها على المقعد الصغير . الرجل يبدو انه في الخامسة والعشرين ؛ والمرأة أقل منذلك بقليل . ثنائي عجيب : الاثنان ممشوقان ، قويان ؛ والاثنان اسمران ، العـين صادقة ، والفم كبير ، والسن سليمة ، والصبغة لوّنها البرد . نفس السن ، نفس

الصحة ، نفس الطبقة الاجتماعية ، نفس الاناقة الطبيعية ، ونفس الذوق دون شك . ونفس الشهية ايضا : الواحد بجانب الآخر ، كانا يقضمان على نفس الايقاع ، بلقمٍ كبيرة من شطيرتين متشابهتين ؛ ثم بنفس الحركة ، افرغا قدحي الجعة . ووضعا فروتيهما على ظهريهما ، وبدون ان يتبادلا كلمة أو نظرة ابتعدا بنفس الخطوة المرنة . وتبعهما انطوان بعينيه ؛ كانا يوحيان فكرة التفاهم النموذجي ، للزوجين الكاملين .

ولاحظ آنئذٍ ان الغرفة أصبحت شبه فارغة . واستشار نظره ، في مرآة بعيدة ، مينا ساعة معلقة فوق رأسه . « الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة ! كلا ، هذا بالمقلوب . ماذا ؟ تكاد تصبح الساعة الثانية » .

ونهض ونفض خموله ، وفكر خجلاً : سأكون نشيطا صباح غد » .

في كل مرة ، وهو يصعد الدرج الضيق حيث كان الخادم ينام راضياً على درجة ، كانت تخطر له فكرة سريعة ، متبوعة بتصورٍ واضح جداً يجعله يبتسم خفية . وقال لنفسه : « غداً مساءً ، الساعة العاشرة » .

ووثب إلى سيارة اجرة . وبعد خمس دقائق دخل بيته .

على طاولة غرفة الزائرين ، حيث كان ينتظره بريد المساء ، كانت تنبسط بشكل واضح ورقة غير مطوية بخط ليون :

« لقد تكلموا هاتفياً ، حوالي الساعة الواحدة ، من بيت الدكتور هيكيه . فقد ماتت الابنة الصغيرة » .

احتفظ بضع ثوان بالورقة بين اصابعه ، وأعاد قراءتها . « الساعة الواحدة صباحاً ؟ بعد رحيلي.. ستودلر ؟ أمام الحارسة ؟ كلا ، بالتأكيد ، كلا .. إذن؟ حقنتي ؟ ربما .. مع ذلك فهي كمية صغيرة . ولكن النبض كان ضعيفاً جداً » .

ومضت المفاجأة . وسيطر شعور بالتعزية . فمهما كان الأمر مؤلماً لهيكيه وزوجته فقد انهى على الأقل هذا الانتظار المقيت. وتذكر وجه نيكول النائمة ، لن يلبث كائن صغير جديد ان يصبح هناك ، بينهما. فالحياة على حق بكل شيء. ليس هناك جرح لا يصبح ندبة . وأخذ بريده بحركة غافلة وفكر وهو منقبض

القلب : « انهم مساكين مهما كان الأمر . سأمر عليهم قبل المستشفى » .

وفي المطبخ كانت الهرة تموء بيأس ، فدمدم انطوان : « البهيمة القذرة ، ستمنعني من النوم » . وفجأة تذكر الهررة الصغار ، ففتح الباب قليلاً . وارتمت الهرة بين ساقيه شديدة الحزن ، ناعمة ، محتكة به بالحاح مغيظ وانحنى انطوان على السلة ذات الخرق : كانت فارغة .

ألم يكن قد قال : « ستغرق الجميع ، اليس كذلك ؟ » . كان هذا من الحياة أيضاً . لماذا هذا الفرق ؟ **باسم ماذا** ؟

وهز الكتفين ، ورفع العينين نحو المنبه وتثاءب . « أربع ساعات للنوم ، هيا بنا » .

وكان لا يزال ممسكاً بورقة ليون ؛ فصنع منه كرة قذفها بمرح على الخزانة . « وثم ، (دوش) بارد جميل .. من طراز تيبو : إزالة التعب قبل النوم ! » .

الاخت الصغيرة

(لاسوريللينا)

١

ـ أجب : كلا !

هكذا قال السيد تيبو دون ان يفتح عينيه. وسعل: سعلة جافة كانت تدعى « رَنْبوُه » ولا تكاد تهز رأسه المدفون في الوسادة .

والسيد شاسل جاثم امام منضدة سهلة الطي ، في فتحة النافذة ، ومع ان الساعة الثانية قد مضت فانه كان يفتح بريد الصباح ..

كانت الكلية الوحيدة تعمل بشكل سيء هذا النهار، وكانت الآلام مستمرة بحيث ان كل فترة الصباح لم يستطع السيد تيبو ان يختلي بأمين سره ؛ واخيراً ، عند الظهر عزمت الاخت سيلين ، بحجة ما، ان تحقنه بالحقنة المهدئة التي تحتفظ بها عادة لنهاية النهار . وكان الألم قد انقطع تقريباً . ولكن السيد تيبو الذي لم يكن يعدّ الساعات اضطر ، ليس بـــدون غضب ، الى انتظار عودة السيد شاسل من تناول طعامه ليقرأ له رسائله . وسأل :

ـ وبعد ؟

وكان السيد شاسل قد اجال عينيه في رسالة :

ـ اوبري (فيليسيان) ، صف ضابط من الزواف .. يطلب وظيفة ناظـر في اصلاحية كروي .

ـ **اصلاحية** ؟ لماذا ليس **السجن** ؟ الى سلة المهملات . وبعد ؟

فردد السيد شاسل بصوت منخفض :

ـ ماذا ؟ لماذا ليس السجن ؟

وتخلى عن الفهم ، وثبت نظارتيه وفتح غلافاً آخر بسرعة :

ـ بيت كاهن رعية فيللنيف ـ جـــويان .. اعتراف عميق بالجميل .. شكر لأجل اليتيم القاصر .. بدون فائدة .

ـ بدون فائدة ؟ اقرأ يا سيد شاسل .

« حضرة المؤسس .

« لقد اتاحت لي وظيفتي الكهنوتية الفرصة للقيام بواجب لذيذ . انـــني مكلف من قبل واحد من رعيتي ، مدام بسليه ، لأعبر لك عن شكرهـــا العميق » ..

وأمر السيد تيبو :

ـ بصوت اكثر قوة .

ـ « .. شكرها العميق لأجل النتائج المدهشة لنظام (كروي) على طبيعة الكسي الصغير . فحين تكرمت بقبوله في مؤسسة اوسكار تيبو ، منذ اربـــع سنوات ، انتابنا اليأس ، وهـــذا مؤسف ! من هذا الولد المسكين : فغرائزه المعيبة ، وانحرافات سلوكه ، وعنفه الطبيعي ، كلها تدل على السوء . ولكن في مدى ثلاث سنوات ، اتممتم معجزة . وها قـــد مضى الآن اكثر من تسعة اشهر على عودة رجلنا الصغير الى البيت الابوي . وامه ، واخوته ، والجيران ، وانا نفسي ، وكذلك السيد بينو (جول) النجار الذي كان يتعلم عنده ، نحن كلنا متفقون على إطراء هدوء ألكسي ، وتذوقه العمل ، وحميته في القيام بواجبات ديننا .

« اني اتوسل الى الله ليمنح بركاته في سبيل نجاح عمل تكون فيه امثال هذه التجديدات الاخلاقية ممكنة . وأحيي بكل احترام السيد المؤسس الذي عاشت

فيه من جديد روح الاحسان وتجرد القديس فنسان دي بول .

« ج . روميل ، كاهن »

كانت عينا السيد تيبو مطبقتين دائماً ، ولكن اللحية الصغيرة كانت تتحرك مرتجفة : لقد وضع الضعف الرجل العجوز تحت رحمة اقل مايمكن من الرقة . وقال حين سيطر على تأثره :

ـ رسالة جميلة يا سيد شاسل . الا تعتقد انها تستحق ان تنشر في « مجلة » السنة القادمة؟ سوف تذكرني بها في الوقت المناسب ، ارجوك . وبعد؟

ـ وزارة الداخلية . ادارة الاصلاحيات .

ـ آه ! آه ...

ـكلا . ليست هذه سوى ورقة مطبوعة .. صيغة .. لم تنجح .

وفتحت الاخت سيلين الباب قليلاً . وتذمر السيد تيبو :

ـ لننته اولاً !

فلم تعترض الراهبة . وجاءت تضع حطبة كبير في النار التي كانت تتعهدها في غرفة المريض لتكافح ضد تلك الرائحة التي كانت تسميها بكشرة صغيرة : « طعم المستشفى » — وذهبت .

ـ وبعد يا سيد شاسل ؟

ـ معهد فرنسا . جلسة ٢٧ ..

ـ بصوت اكثر قوة . وبعد ؟

ـ اللجنة العليا للاعمال الاسقفية . تشرين الثاني ، اجتماع ٢٣ و ٣٠ كانون الاول ...

ـ سترسل بطاقة الى الاب الرئيس بوفريمون ليعتذر عن غيابي في ٢٣ .. وايضاً في ٣٠ . ـ اضاف ذلك بعد تردد قصير ـ اما عن كانون الاول فاكتب على المفكرة .؛ وبعد ؟

ـ هذا كل شيء يا سيدي . والباقي ، في آخر الامر .. قسط لاجل الاعانات الرعوية .. بطاقات .. سجلت في نهار البارحة : الاب المحترم نوساي ، السيد

لودفيك روي ، امين سر « مجلة العالمين » . الجنرال كيريفان .. هذا الصباح ، نائب رئيس مجلس الشيوخ استقى اخباراً .. ثم منشورات ، اعمال رعــوية .. الصحف .

وفتح الباب من جديد بشيء من السلطة . وتقدمت الاخت سيلين ، حاملة هذه المرة (لزقة) على صحن يتصاعد منها الدخان .

وخفض السيد شاسل عينيه وابتعد على رؤوس اصابعه لئلا يحـــدث حذاؤه صوتاً .

وكانت الراهبة قد رفعت الاغطية . وكانت هذه (اللزقات) منذ يومين موضوع هوس الاخت سيلين . وهي في الواقع اذا كانت تخفف الالم ، فلم يكن لها على كسل الاعضاء التأثير الذي كانت تأمله الراهبة . بحيث اصبح من اللازم المباشرة بعملية سبر غور جديدة ، رغم نفور السيد تيبو .

وجرت العملية ، وشعر منها بانفراج . ولكن هـــذه الاعتناءات تركته صريعاً . ودقت الساعة الثالثة والنصف. ولم تكن نهاية النهار تعد بشيء حسن. وبدأ تأثير المورفين يتناقص . وكان هناك من الوقت اكثر من ساعة يجب تمضيته قبل حقنة الساعة الخامسة . ولإيجاد تسلية ، اخذت الراهبة على عاتقها دعوة السيد شاسل من جديد .

وجاء الرجل الصغير برصانة يعاود جلوسه في فرجة النافذة .

وكان مهموماً . فكلوتيلد الضخمة التي التقى بها في الرواق همست في اذنه : « قل اذن ، لقد تغير معلمك جيداً هذا الاسبوع » . وبما ان السيد شاسل تطلع في وجهها ذاهلاً فانها وضعت يدها على ذراعه : « صدقني يا سيد شاسل . هذا المرض لا يعفو ! »

والسيد تيبو ، الجامد، كان ينفخ ويئن بداعي العادة لأنه لم يكن يتألم بعد: كان يشعر براحة ، وهو ممدد هكذا . الا انه يتمنى ان ينام ، خائفاً من معاودة الألم . وكان وجود امين سره يقلقه .

ورفع جفناً وارسل نحو النافذة نظرة نائحة :

ـ لا تضع وقتك بالانتظار يا سيد شاسل . مستحيل ان نشتغل هذا المساء ، انظر . ـ وحاول ان يرفع ذراعه . ـ انا رجل انتهيت .

ولم يكن السيد شاسل يفكر بالتظاهر بما ليس فيه ، وهتف مذعوراً :

ـ الآن !

ودهش السيد تيبو ، وادار رأسه . وسطع وميض ماكر بين اهدابه وقال متأوهاً :

ـ الا ترى ان قواي يزداد نقصها كل يوم ؟ لماذا خداع النفس؟ اذا لزم ان اموت فليكن بأسرع ما يمكن .

ـ تموت ؟

ردد السيد شاسل وهو يضم يديه . وكان السيد تيبو يلهو ، وقال بلهجة مهددة :

ـ نعم ، اموت !

وفتح عينيه فجأة واطبقهما .

وكان السيد شاسل ذاهلاً يتأمل هذا الوجه الذي لا حياة فيه ، المنتفخ ، الشبيه بالجثة . هل كانت كلوتيلد على حق ؟ اذن ، وهو ؟ وبدت له شيخوخته : الشقاء .

واخذ يرتجف ، كما في كل مرة يجمع فيها كل شجاعته ؛ وانزلق عن كرسيه بدون ضجة ، وتمتم السيد تيبو الجاهز للاستسلام للنوم :

ـ تأتي ساعة يا صديقي لا نبتغي فيها سوى الراحة . فالموت يجب الا يخيف مسيحياً .

العينان مطبقتان . كان يستمع الى صدى اقواله يضج في رأسه ، وارتجف حين سمع صوت السيد شاسل يدوي بالقرب منه :

ـ بالتأكيد! الموت ، يجب ألا يخيف !

وخاف الرجل الصغير من جسارته . وتمتم: « وهكذا ، فموت والدتي .. » وتوقف كأنه اختنق .

كان يتكلم بصعوبة بسبب اسنان جديدة يحملها منذ قليل : جائزة كان قد ربحها في مسابقة لغز مصور نظمها معهد لطب الاسنان في الجنوب كان اختصاصه في الاعتناء بالاسنان بالمراسلة ، وان يصنع على البعد أجهزة لصنع الاسنان وفقاً لطبعات مرسلة من قبل الزبائن . وكان السيد شاسل راضياً عن طقم الاسنان الاصطناعية هذا ، بشرط ان يرفعه عند الولائم او عندما يجب ان يتكلم طويلاً. وكذلك فقد اكتسب مهارة كافية في أخذ الجهاز بسرعة من العلبة والقائه في فكه متظاهراً بالعطسة . وهذا ما كان .

ووثب نازعاً طقم اسنانه .

ـ هكذا انا . فموت امي لم يخفني . ولمـــاذا الخوف ؟ ومع ذلك فنحن مرتاحون الآن لأنها في مأواها ؛ وحتى في سن الطفولة، فهذا ما يحدث الروعة..

وتوقف من جديد محاولاً ربط الكلام :

ـ لقد قلت : « نحن » لأنني لا اعيش وحيداً . ربما تعرف ذلك يا سيدي . فقد ظلت ألين معي .. الين خادمة امي القديمة .. وكذلك الصغيرة ابنة اخيها ، ديديت ، تلك التي اجرى لها السيد انطوان عملية ، في تلك الليلة الشهيرة .. نعم ، ـ أضاف ذلك مبتسماً ، وتلك الابتسامة عبّرت فجأة عن أرّق حنو ـ ان تلك الصغيرة تعيش معنا ، حتى انها تناديني « العم جول » عادة .. ومـــع ذلك فأنا لست عمها ، هذا عجيب ..

واختفت ابتسامة ، وامتد ظلٌ على وجهه ؛ وأعلن بنبرة قاسية :

ـ لإعالة ثلاثة ، هذا يشكّل إنفاقاً !

وكان قد تقدم مقترباً من السرير ايضاً ، متبسطاً على غير عادة ، كما لو أن لديه شيئاً ضرورياً يقوله ؛ ولكنه يتجنب النظر الى السيد تيبو . اما هذا ، وقد اخذ على حين غفلة ، فلم يكن قد عاد الى إطباق عينيه تماماً ؛ كان يتفحص السيد شاسل . فقد شعر ان في عدم تلاحم كلامه الظاهر الذي يبدو انه يدور حول مقصد خفي ، شيئاً غير عادي ، مقلقاً ، هزم ميوله الى النوم .

وفجأة تراجع السيد شاسل واخذ يروح ويجيء خـــلال الغرفة ، ونعلاه

تصران ولكنه لم يعبأ بها . وتابع بخشونة :

ـ وفضلاً عن ذلك فان موتي لن يخيفني ابداً . وهذا يعني الرب في النهاية .. ولكن الحياة ! هي التي تخيفني ، انا ! الشيخوخة ، هذا هو المشكل . ـ ودار على عقبيه وتمتم : « ماذا » ؟ بهيئة استفهامية ، ثم : ـ كان معي عشرة آلاف فرنك اقتصدتها . وحملتها ذات مساء الى مأوى «العمر الناضج » . عشرة آلاف فرنك وأمي ، هذا هو الثمن . ان هذه الامور يجب الا تكون موجودة .. نحن مرتاحون ، وهذا صحيح ، ولكن مهما كان الامر ، عشرة آلاف فرنك ! كل شيء مضى .. وديديت ؟ تستلف كثيراً بدون فائدة (وهذا لا يفيد شيئاً ، لأن ألين اسلفتني الفي فرنك ، من مالها ، لنفقاتنا ، لنعيش) .. ولنحسب : اربعماية اقبضها من هنا كل الشهور . وهـــذا ليس مبلغاً كبيراً . فنحن ثلاثة . ويلزم ما يلزم لأجل تلك الصغيرة .. انها لا تزال تتعلم ولا تربح شيئاً ، بـــل تكلف .. ومع ذلك ننظر الى كل شيء .. قول رجل فاضل يا سيدي . ننظر حتى في الجريدة : ونقرأ ان شيوخاً وضعوا جانباً .. ـ وكان صوته يرتجف . ـ اسرد عليك الصحف القديمة يا سيدي فعفواً اذا فضحت نفسي . ولكن هـــذا يجب الا يكون ، كل هذا بعد عشرين قرناً من المسيحية وكل ما يقال عن المدنية .

وحرك السيد تيبو يديه بهدوء ولكن السيد شاسل لم ينو ان ينظر الى ناحية السرير . وتابع :

ـ ماذا يحصل لو لم تكن لدي هذه الاربعماية فرنكاً ؟

ودار نصف دورة نحو النافذة ورفع رأسه كأنه يأمل ان يسمع اصواتاً . وهتف كأنه اكتشف اكتشافاً ، ولكنه عبس حالاً :

ـ اللهم الا اذا كان هناك ارث . ليقاضينا الرب ! اربعة آلاف وثمانماية فرنكاً بالسنة . ولا يمكن ان تكون اقل حين نكون ثلاثة . رأسمال صغير مماثل ، هذا مما يفعله الله لأجلنا اذا اراد ان يكون عادلاً ! نعم يا سيدي ، سيرسل الينا رأسمالاً صغيراً . الرب الرحيم ..

وسحب منديله وجفف جبهته كما لو انه قام بجهد فوق طاقة البشر .

ـ ليكن عندك ثقة . هـــذه هي اللازمة دائماً ! اولئك السادة سان روك مثلاً : « ليكن عندك ثقة ، فأنت لست بدون ظهير .. » بدون ظهير ، كلا ، هذا أقبل به : انا لست بدون ظهير . اما الثقة ، فأريد تمامــاً الحصول عليها ، ولكن يلزمني الارث اولاً .. الرأسمال الصغير .

وكان قد توقف بقرب السيد تيبو ولكنه يتجنب دائماً النظر اليه وتمتم :

ـ الحصول على الثقة . سيكون هذا اكثر سهولة يا سيدي .. لو كنت واثقاً!

واقترب نظره من الرجل العجوز شيئاً فشيئاً وهـــو أشبه بعصفور يصبح أليفاً ؛ وبجناح سريع لامس الوجه وعاد يقع على العينين المطبقتين وعلى الجبهة الجامدة ، وأفلت من جديد ووقع ايضاً . وفي النهاية تثبّت تماماً كأنه مطلي بدبق . وانخفض النهار . واخيراً رفع السيد تيبو جفنيه ، وشاهد في الظلام القليل عين السيد شاسل تنثني نحو عينه .

هذه الصدمة هزت خموده . كان منذ وقت طويل يعتبر ان تأمين مستقبل امين سره هو واجب ؛ والهبة التي اختصه بها في وصيته قد أشير اليها بشكل صريح جداً بين ترتيباته لما بعد وفاته . ولكن حتى موعد فتح الوصية ، كان من المهم الا يرتاب صاحب العلاقة بشيء . كان السيد تيبو يعتقد انه يعرف الناس ويحذر من الجميع . ويعتقد ان السيد شاسل لو استروح هذه الهبة فسوف يكف حالاً عن ان يكون ذلك الشغيل الدقيق الذي كان السيد تيبو يفتخر بمكافأته . وصرح بلطف :

ـ اعتقد انني فهمتك يا سيد شاسل .

فاحمر الآخر فجأة ولفت عينيه . وجمع السيد تيبو افكاره بضع ثوان :

ـ ولكن .. كيف اقول ؟ الا يوجد في بعض الحالات كثير من الشجاعة في رد ايحاءٍ كإيحائك باسم المبادىء المقررة ، بدلاً من الخضوع له بدافع المفاجأة ، والعمى ، والحسْنة الزائفة .. والضعف ؟

كان السيد شاسل واقفاً يكتّون رأياً بالرئيس . وكان توكيد هـــذا الكلام الخطابي يمارس عليه دائماً شيئاً من السلطة .وكان معتاداً جداً على تبني توكيدات

معلمه بحيث لا يستطيع اليوم ايضاً ان يساومه على رضاه . وقد خطر بباله فقط بعد فوات الاوان ، انه بقبوله هذه الاقوال يكون قد قبل باخفاق مسعاه . فأسلم امره لله . وكان معتاداً على ذلـــك . الم يكن يذكر في صلواته احياناً طلبات شرعية جداً ولم تكن تستجاب ؟ لم يكن يثور على العناية الالهية لأجل ذلك . لهذا كان السيد تيبو ، بنظره ، يتمتع بحكمة لا تدرك ، وعظيمة ، اعتاد امامها على الانحناء .

لقد كان عازماً على الاستصواب والصمت بحيث عزم على اعادة وضع طقم اسنانه . وغمس يده في جيبه ، واحمـــر وجهه . فالجهاز لم يكن فيها . وتابع السيد تيبو دون ان يرفع صوته :

ـ الا تعترف معي يا سيد شاسل انك كنت الضحية الراضية لعملية احتيال بتركك لمأوى .. علماني ومشبوه من كل الأوجه ، تلك القيمة المقتناة الـــتي جمعتها بتعبك ؟ بينما بامكاننا ان نجد ، بدون تعب ، مؤسسة اسقفية يمكن ان تقدم العناية مجاناً لمن لامورد لهم ويسندهم رجل معتبر؟ ولو كنت جعلت لك في ترتيباتي المتعلقة بالوصية مكاناً يبدو انك تلتمسه ، الم يكن من البديهي انـــك ستسقط بعدي في شباك محتال يختلسك ، حتى آخر سنتيم مني ؟

لم يكن السيد شاسل يسمع شيئاً . وقد تذكر انه سحب منديله : يمكن ان يكون طقم الاسنان قد سقط على الطنفسة . وتخيل هـــدا الجهاز الخاص ، الكاشف ــ وربما الكريه الرائحة ــ بين ايدٍ غريبة .. وكان يحملق بعينيه ، ممدود العنق ، مرسلاً نظره تحت كل قطعة اثاث وقافزاً في مــكانه كطائر منفـر .

وشاهده السيد تيبو . وشعر هذه المرة بعاطفة رأفة وفكر : « لو كنت زدت الهبة ؟ » ثم تابع بخلوص نية ، معتقداً انه خفف قلق امين سره :

ـ ومع ذلكْ يا سيد شاسل ، اليس هناك خلط بين العوز والفقر في اغلب الاحيان ؟ بالتأكيد ان العوز مخيف ؛ انه مستشار سيء . ولكن الفقر ؟ اليس هو في اغلب الاحيان شكلاً .. متنكراً .. للرحمة الإلهية ؟

كما في اذني غريق تطنّنان ، فان صوت المعلم لم يصل الى السيد شاسل الا بواسطة نفخات غير متميزة . وقد بذل جهداً لالتقاطه ؛ وجس سترته مرة اخرى ، وصدرته ، وغمس يده بيأس في شقوق ثيابه ، وفجأة غص بصرخة فرح . كان طقم الاسنان هنا ، ممسوكاً بين رزمة المفاتيح !

وتابع السيد تيبو :

ـ .. هل كان الفقر منافياً للسعادة المسيحية ؟ أليس عـــدم المساواة في الممتلكات الزمنية هو نفس شرط التوازن الاجتماعي ؟

فهتف السيد شاسل :

ـ بالتأكيد .

وضحك ضحكة صغيرة انتصارية ، وفرك يديه وتمتم بذهول :

ـ هذا ما يصنع الروعة ..

وادار السيد تيبو عينيه نحو أمين سره ، وقد انحطت قواه . كان متأثراً من رؤيته وهو يظهر عواطف كهذه ، وسرّ لشعوره بانه لاقى استحساناً وبذل جهداً ليكون محبوباً .

ـ لقد لقنتك اساليب جديدة يا سيد شاسل . وبما انك دقيق ورصين ، فاني اعتبر انك ستجد دائماً خدمات تؤديها . ـ وتوقف قليلاً ـــ حـــتى ولو اختفيت قبلك .

ان طمأنينة الفكر التي يتصفح السيد تيبو بموجبها شقاء من يعيشون بعده كان لهافضيلة مهدئة ، معدية . ثم ان التعزية الكبيرة التي شعر بها السيد شاسل محت موقتاً كل قلق مستقبلي . وتألف وميض فرح وراء نظارتيه ، وهتف :

ـــ لأجل هذا يا سيد تستطيع ان تموت مطمئناً : سأزيل الصعوبة دائماً . هيا ! لدي عدة حبال كما يقال ! الحيلة ، الابتكارات العملية ـــ وضحك ـــ لدي فكرتي الصغيرة ؟ نعم .. عمل جاهز ـــ منذ ان تذهب ..

ففتح المريض عيناً . لقد اصابته ضربة السيد شاسل غير الارادية . « منذ ان تذهب .. » ماذا اراد ان يقول هذا الابله ؟

وكان السيد تيبو على وشك إلقاء سؤال حين ظهرت الراهبة وأدارت معكس التيار فأنيرت الغرفة فجأة . عندئذ ، كتلميذ لدى قرع الجرس المنقذ ، جمع السيد شاسل اوراقه بدورة يد وحيّا عدة تحيات صغيرة ، وانصرف .

٢

وجاءت ساعة الحقنة .

كانت الراهبة قد القت الاغطية جانباً ودارت حول السرير بحركات طقسية . وكان السيد تيبو يفكر . وتذكر عبارة السيد شاسل ، وخصوصاً الرنة : « منذ ان تذهب .. » رنة طبيعية جداً ! ان هذا الاختفاء بنظر السيد شاسل لا يمكن ان يكون موضع شك . وفكر السيد تيبو بغضب « الناكر الجميل ! » واستسلم لغضبه بلطف ليبعد عنه الاستفهام اللاصق به .

ـ هيا !

قالت الراهبة بمرح . وكانت قد شمرت كميّها .

كان تنفيذ المشروع صعباً . وكان يجب وضع فراش حقيقي من المناشف تحت المريض . وكان السيد تيبو ثقيلاً ولا يساعد ابداً . وقد تركهم يحركونه كالجثة . ولكن كل حركة كانت توقظ على طول الساق وفي تجويف الظهر ألماً حاداً ، يزيد من خطورته عذاب ذو طراز اخلاقي : فظروف هذه المحنة اليومية كانت تضع الكبرياء والحياء قيد العذاب .

اثناء انتظار النتيجة ، وكل يوم يزداد طولاً ، كان من عادة الاخت سيلين ان تجلس بدالّة على طرف السرير . وفي بادىء الامر فإن هذا الجوار ، في لحظة كهذه ، كان يثير سخط المريض اما الآن فقد كان يحتمله ، وربما اصبح يفضل الا يظل وحيداً .

الحاجبان مُقطبان ، والجفون مقفلة . كان السيد تيبو يدير ويدير في دماغه السؤال الرهيب : « أاكون حقيقةً مصاباً اصابة خطرة ؟ » وفتح عينيه ، واصطدم نظره على حين غفلة بوعاء البورسلين الذي وضعته الحارسة بتناول

اليد ، عرضة للأنظار ، على الخزانة ذات الادراج ، والذي كان مضحكاً ، فخماً ، يبدو انه ينتظر بوقاحة . واستدار إلى الناحية الثانية .

واغتنمت الراهبة هذه المهلة القصيرة لتمر بحبوب السبحة تحت ابهامها وهمس فجأة السيد تيبو بنبرة ملحّة ورصينة لم تكن عادية لديه :

ـ صلي لأجلي ايتها الاخت .

فأكملت « السلام عليك » واجابت :

ـ ولكن نعم يا سيدي . عدة مرات باليوم .

وساد صمت قطعه السيد تيبو فجأة :

ـ انا مريض جداً ايتها الاخت . اتعلمين ! مريض جداً !

وكان يتلجلج وعلى وشك البكاء . اما هي فقد اعترضت بابتسامة مغتصبة قليلاً :

ـ وبعد ، انها افكار !

وتابع المريض :

ـ انهم لا يريدون ان يقولوا لي ذلك . ولكني اشعر جيداً .. لن استعيد صحتي ابداً !

وبما انها لم تقاطعه ، فقد اضاف ، ليس بدون تحدٍّ :

ـ انا اعلم انني لن اعيش طويلاً .

وكان يراقبها ، فهزت رأسها وتابعت صلواتها . وخاف السيد تيبو فصرخ بصوت ابح :

ـ يجب ان ارى الأب فيكار .

فاعترضت الراهبة ببساطة :

ـ اوه ! لقد تناولت القربان نهار السبت . عليك ان تسير حسب الأصول مع الله .

فلم يجب السيد تيبو . وكان العرق يتلألأ على صدغيه ، وفكّه يرتجف . لقد اشتغلت الحقنة في جسده ، والرعب ايضاً . ونفخ :

ـــ الحوض !

وبعد دقيقة ، بين مغصين عميقين ، بين انتين ، قذف نحو الراهبة نظرة حقوداً وقال متلجلجاً :

ـــ قواي تنقص كل يوم . يجب ان ارى الأب الرئيس !

وكانت تعيد تسخين ماء الطست ولم تفطن إلى انه يراقب تعبير وجهها بوله. وقالت مراوغة :

ـــ اذا اردت .

ووضعت الإناء وجست الماء بطرف اصبعها ثم تمتمت شيئاً دون ان ترفع عينيها . وكان السيد تيبو يرهف السمع: «.. لا فائدة من كثرة الاحتياطات». فحنى رأسه على صدره وشد على اسنانه .

بعد قليل ، وقد غسل ، وبدل ملابسه ، وعاد إلى النوم على سرير طري ، لم يبق عليه ان يفعل شيئاً سوى ان يتألم .

كانت الأخت سيلين جالسة مستمرة في سبحتها ، وكان قنديل السقف قد انطفأ ؛ وهناك قنديل منخفض ينير الغرفة . وليس هناك اية ألهية ، ليس فقط لقلق المريض ، بل للآلام العصبية التي كانت اندفاعاتها الحادة اكثر فأكثر تحفر اثلاماً في الوجه الخلفي للفخذين ، وتسطع في جميع الاتجاهات ، لتنفجر فجأة ، كضربات سكين عنيفة ، في نقاط معينة ، في الاصلاب ، والرضفات ، وفي الكعاب . واثناء ثواني الهدوء الوقتي حيث يظل الألم مستمراً ولكنه خفي ـــ لان الالتهاب الجلدي لم يترك له اية راحة حقيقية ـــ كان السيد تيبو يفتح عينيه وينظر امامه . وكان تفكيره الواضح يدور في نفس الدائرة : « ماذا يفكرون، كلهم ؟ هل يمكن ان يكون المرء في خطر دون ان يشعر ؟ كيف يعرف ؟» .

ورأت الراهبة ازدياد الألم فقررت الا تنتظر المساء لتحقنه نصف حقنة مورفين .

ولم يفطن انها تركت الغرفة . ولكنه حين رأى نفسه وحيداً ، متروكاً

للقوى السيئة التي كانت تحوم في هذه الغرفة الصامتة المظلمة تقريباً ، اجتاحه الرعب . وأراد ان ينادي ولكن النوبة عادت بعنف جديد . فأمسك بالجرس ورن بيأس .

وكانت ادريان هي التي ركضت .

لم يكن يستطيع الكلام ، فالفكّان متشنجان . كان يزعق بشكل مبهم ، وبذل جهداً عنيفاً لينهض فانتهى بتمزيق خاصرتيه ، وسقط على الوسادة وهو يئن . وصرخ اخيراً :

– هل سيتركونني اموت هكذا؟ ايتها الأخت ! اطلبي الأب الرئيس ! كلا ، نادي انطوان ، بسرعة !

وانتاب الفتاة الخوف فنظرت إلى الهرم بعين كبيرة أرعبته .

– هيا ! آتيني بأنطوان ! حالاً .

وعادت الراهبة بالحقنة المعبأة . ولم تفهم ما حدث . ورأت الخادمة تذهب راكضة . والسيد تيبو الملقى على الوسادة كان يدفع ثمن حركته انتكاساً مؤلماً . وقد وجد نفسه جالساً بشكل ملائم لأجل الحقنة .

– لا تتحرك .

قالت الراهبة ذلك وهي تكشف عن كتفه . وبدون ان تنظر كثيراً غرزت الابرة .

اما انطوان الذي كان خارجاً فقد التقت به ادريان تحت القنطرة .

وصعد بسرعة .

وعند دخوله لفت السيد تيبو رأسه . فحضور انطوان ، الذي طلبه اثناء رعبه ، ودون أمل كبير ان يكون باستطاعته الاستجابة له، كان له اول تعزية. فتمتم آلياً :

– آه ! اهذا انت ؟

وبدأ يشعر بحسنة الحقنة . وكان قائماً على وسادتين ، ممدود الذراعين ،

يتنشق بضع قطرات من الأثير سكبتها له الراهبة على منديل . وفي تجويف القميص شاهد انطوان العنق المعروق ، وجوزة العنق الناتئة بين الحبال العضلية . وكان ارتجاف الفك يشي بجمود الجبهة الكالح : وتلك الجمجمة الضخمة ،وذانك الصدغان المسطحان ، وهاتان الاذنان ، كان فيها في تلك اللحظة شيء من الحيوانات الصفيقات الجلود .

وقال انطوان :

ـ وبعد ، يا ابي ؟

فلم يجب السيد تيبو بشيء ، ولكن خلال بضع ثوان اخذ يتأمله بثبات ؛ ثم اغمض عينيه وكان بوده ان يصيح به : « قل لي الحقيقة ! هل يخدعونني ؟ انقذني يا انطوان ». ولكن خجلاً متزايداً حيال ابنه امسكه ، وكذلك خوف مبهم من التشاؤم لو صاغ مخاوفه بصوت مرتفع وأكسبها واقعاً لا يمكن كسره .

وتلاقت عينا انطوان بنظرة الراهبة ؛ هذه النظرة كانت تشير إلى المنضدة. وقد شاهد انطوان عليها ميزان الحرارة . فاقترب وقرأ ٣٨،٩ درجة . لقـــد ادهشته هذه الدفعة المفاجئة : حتى الآن كان المرض يتطور بدون حرارة تقريباً. وعاد نحو السرير واخذ المعصم ، ولكن كان ذلك لتطمين المريض . وصرح على الأثر :

ـ النبض جيد . ما الذي تشكو منه ؟

فصاح السيد تيبو :

ـ ولكني اقاسي اشد العذاب . أتألم طول النهـــار . اني على وشك الموت أليس كذلك ؟

ورمق الراهبة بنظرة آمرة ؛ ثم غيّر صوته وأصبحت نظرته خائفة :

ـ يجب ألا تتركني يا انطوان. انا خائف كما ترى ! انا خائف.. ان يعود الألم.

وشعر انطوان بالشفقة . ووعد بالبقاء هناك حتى العشاء ، وقال :

ـ سأتكلم بالهاتف بأن لدي عائق .

وتبعته الأخت سيلين إلى المكتب حيث يوجد جهاز الهاتف .

ـ النهار ؟

ـ ليس جيداً. اضطررت إلى غرز الأبرة الاولى عند الظهر. وأعدت الكرة الآن. نصف الكمية. ـ وأضافت : ـ ولكن المعنويات يا سيد انطوان ! افكار رهيبة : « يكذبون علي ، اريد رؤية الاب الرئيس . اني امـــوت » . والله يعلم ماذا !

كانت نظرة انطوان القلقة تبدو انها تلقي سؤالاً واضحاً : « أتعتقدين ان من الممكن ان يساوره الريب ؟ » فهزت الراهبة رأسها ، ولم تجـــرؤ على الاجابة بالنفي :

وكان انطوان يفكر . وقال لنفسه : « هذا لا يكفي لإيضاح سبب الحرارة » .

ـ المهم .. ـ واتى بحركة نشيطة ـ هو ان نستأصل بذرة الشك حالاً .

واجتاز عقله مشروع جنوني ، وملك نفسه وصاح :

ـ نهيء له أولاً امسية هادئة . سوف تحقنينه بنصف سنتيغرام جديد حين اقول لك .. اني لاحق بك .

وهتف بمرح حين عاد الى غرفته : « ها أنا حر حتى الساعة السابعة » . كان له صوته المؤثر ، ووجهه المتشنج العزوم كما يكون في المستشفى . الا انه ابتسم :

ـ انها لم تكن وحدها ! ان جدة مريضتي الصغيرة هي التي وجدتها على طرف الخط . كانت يائسة ، السيدة المسكينة ؛ كانت تثغو في الجهاز : « كيف يا دكتور ، الن نراك هذا المساء ؟ » ـ وتظاهر فجأة بهيئة ذعـــر ـ عفواً يا سيدتي . لقد دعيت الى جانب والدي وهو اشد مرضـــاً .. (وتقلص وجه السيد تيبو فجأة) . ولكن المرء لا ينتهي مع النساء ! « ابوك ؟ آه ! يا الهي ، ما به اذن ؟ » .

وانتشى انطوان بجسارته . ولم يتردد ثانية قبل ان يجيب :

ـ ماذا اقول ؟ احزر ! لقد اجبتها دون قلق : « سرطان يا سيدتي !

سرطان البروستات ..» ـ وضحك بجَمَّى : – ولماذا لا ؟ بينما كنت هناك !
ورأى الراهبة تسكب ماء في قدح ولكنها توقفت . وفجأة وعى الدور الذي كان يلعبه. وانتابه الخوف. لم يعد من مجال للتراجع . وانفجر ضاحكاً:
ـ ولكن هذه الكذبة يا ابي ، انت تعلم اني احملها لحسابك .

وتشدد السيد تيبو ، وكان يسمع بكل كيانه . واخذت يده ترتجف على الغطاء . أن اكثر التصريحات وضوحاً لم تبدد قلقه بسرعة ولا كلّياً ! ولكن جسارة انطوان الشيطانية هزمت الاشباح على حين غفلة ، ومرة واحدة بعثت الامل في المريض ، ففتح عينيه ونظر الى ولده ؛ ولم يقرر ان يخفض الجفون . انها عاطفة جديدة، لهب من الحنو، لهب قلبه الهرم . واراد الكلام ؛ ولكن ما كان يشعر به شبيهاً بالدوار : فأعاد إطباق عينيه بعد ابتسامة مقتضبة التقطها انطوان بسرعة .

كل فرد غير انطوان كان يقول لنفسه مجففاً جبهته: « لقد نجوت بريشي..» اما هو فكان اكثر شحوباً من ذي قبل ، راضياً عن نفسه ، وكان يفكر فقط : « كل شيء في هذه الحيل هو ان يكون المرء مصمماً على النجاح » .

ومضت بضع دقائق .

وكان انطوان يتجنب نظر الراهبة .

وحرك السيد تيبو ذراعه . ثم قال كأنه يكمل مناقشة :

ـ اتشرح لي اذن لماذا يزداد ألمي ؟ هذا يبعث الظن ان امصالك تزيد الألم بدلاً من ان ..

فقاطعه انطوان :

ـ ولكن من الطبيعي ان تزيده . فهذا برهان على انها تعمل .

ـ آه ! .

لم يكن السيد تيبو يطلب سوى ان يقتنع . والصحيح ، بما ان فترة بعد الظهر لم تكن مؤلمة كما كان يدعي ، فانه اسف تقريباً لأنه لم يتألم وقتاً اطول .

وسأل انطوان . وكانت عوارض الحمى عند ابيه تشغل باله :
– بماذا تشعر في هذه اللحظة ؟
كان على السيد تيبو ، ليكون صادقاً ، ان يجيب : « براحة عظيمة » . ولكنه همهم : ألمي في الساقين .. ثم ثقل في الكلى ..
وقالت الاخت سيلين محددة :
ـ هناك استبار في الساعة الثالثة .
– ثم ثقل هنا .. ضيق نفس .
ووافق انطوان برأسه وصرح للراهبة :
– هذا عجيب (لم يكن يعرف هذه المرة مـــاذا يتخيـــل) اني افكر ببعض الملاحظات التي ادليت بها حول .. حول تناوب الادوية . وهكذا ، في الامراض الجلدية يتوصل المرء الى نتائج غير مأمولة بواسطة تناوب العلاجات . ومن الممكن اننا كنا على خطأ ، تيريفيه وانا ، بأن نأمر بهذا المصل الجديد ، بطريقة مستمرة ، ن – ١٧ .
فأكد السيد تيبو واثقاً :
– بالتأكيد قد أخطأتما .
فقاطعه انطوان بمزاج رائق :
– ولكنه خطأك يا ابي ! فقد كنت متعجلاً الشفاء ! وأسرعنا بالعمل !
وسأل الراهبة جاداً :
– اين وضعت البرشامات التي جلبتها اول البارحة ، الـ .. د ٩٢ ؟
فأتت بحركة خرقاء ؛ لا لأنها تشعر بأقل اشمئزاز من التلاعب بمـــريض ، ولكنها كانت تلاقي بعض الجهد في الاعتراف بكل تلك « الامصال » التي ابتكرها انطوان وفقاً لحاجات القضية .
– ستصنعين لي الآن حقنة من د ٩٢ . نعم ، قبل ان ينتهي مفعول ن ١٧ . اريد ان الاحظ مفعول المزيج في الدم .
وكان السيد تيبو قد لاحظ تردد الحارسة ،وفاجأ انطوان نظرته الفاحصة ،

فأضاف حالاً ليقطع المجال على كل حذر :

– هذه الابرة ستبدو لك اكثر ايلاماً دون شك يا ابي. و د ٩٢ اقل ميوعة من الاخريات . انها لحظة يجب ان تمضي . فاما ان اخطىء جداً ، او انك تشعربمزيد من الراحة هذا المساء .

وكان انطوان يؤكد بمعزل عنه : « اني اصبح كل يوم اكثر مهارة » . تقدم مهني لم يكن يسجله دون سرور . ثم ، هناك صعوبة في هذا اللعب المحزن تعود الى الظهور دون انقطاع ، نوع من المجازفة ايضاً . لم يكن انطوان يستطيع الامتناع عن الشعور بالميل اليها .

وعادت الراهبة .

ولم يرتضِ السيد تيبو بالعملية دون اضطراب : فقد اخذ يصيح بصوت حاد قبل ان يأخذ الابرة في ذراعه ، وما ان انتهى حتى قال متذمراً :

– آه ! انت تعرف مصلك ! ان هذا اكثر كثافة ! انه نار تدخل تحت الجلد ! وتلك الرائحة ، أتشمها ؟ ان الآخر لا رائحة له على الاقل .

وكان انطوان قد جلس . ولم يجب بشيء . لا يوجد اي تميز ممكن بين الابرة السابقة وهذه : زجاجتان متشابهتان ، نفس الابرة . نفس اليد ؛ ولكن اسم آخر .. يكفي توجيه الذهن نحو الخطأ حتى تدب الحمية حالاً في جميع الحواس ! آلات حقيرة لا نرتاب فيها ابداً ! وتلك الحاجة الصبيانية ، حتى النهاية، لإرضاء عقلنا ! وأسوأ شيء لمريض هو « عدم الفهم » . منذ ان يستطاع اعطاء اسم للظاهرة ، واعطاؤها سبباً قريباً من المعقول ، ومنذ ان يستطيع دماغنا المسكين جمع فكرتين بمنطق ظاهر ... قال انطوان لنفسه : « العقل ، العقل هو على كل حال نقطة ثابتة في العاصفة . وبدون العقل ، ماذا يبقى ؟ »

وكان السيد تيبو قد اعاد اطباق عينيه .

وأشار انطوان الى الاخت سيلين ان تنسحب . (لقد لاحظنا ان المريض يكون اكثر هياجاً عندما يكونان معاً الى جانب سريره) .

ومع أن الشاب يرى والده في جميع الأيام ، فقد تأكـــد اليوم من تغييرات ملحوظة . لقد كان للبشرة شفافية عنبرية ، رونق شؤم . والتورم قد ازداد ؛ وتشكلت جيوب رخوة تحت العينين . والأنف ، بالعكس ، قد ذاب ، مظهراً نتوءاً عظمياً يبدل تعبير الوجه بشكل غريب .

وتحرك المريض .

وكانت قسماته تنتعش شيئاً فشيئاً . ولم تكن له هيئته المكفهرة. ومن خلال الأهداب التي كانت تنفصل بكثرة ، كانت تسطع حدقة متمددة ، لامعة .

وفكر انطوان : « لقـــد بدأت الابرة المزدوجة تعمل ؛ وسيصبح كثير الكلام » . وبالفعل فقد أصبح السيد تيبو يشعر بنوع من الاسترخاء : حـــاجة للراحة ، لذيذة لأنها غير مصحوبة بأي تعب . ومع ذلك فلم ينقطع عن التفكير بموته ؛ ولكن ، بما أنه كف عن الاعتقاد به ، فقد أصبح من الممكن أن يتكلم عنه ، ويستلطف ذلك . وساعد تحريك المورفين ، فلم يقاوم الميـــل إلى ارتجال مشهد نهاية صالحة لنفسه ولولده . وسأل بغتة :

– أتسمعني يا انطوان ؟

كانت النبرة احتفالية . ودون أي استهلال آخر .

– في الوصية التي ستجدها بعد موتي .. (وقفة لا تكاد يُشعر بهـــا ، كوقفة الممثل الذي ينتظر جواباً) .

وقاطعه انطوان مازحاً :

– ولكن يا أبي . لم أكن أعتقد أنك تستعجل الموت – وضحك – لقـــد جعلتك تلاحظ منذ قليل ، كم أنت فارغ الصبر لاستعادة حياتك .

ورفع الهرم يده راضياً :

– دعني أتكلم يا عزيزي . لعلني بنظر العلم لست مريضاً محكوماً عليـــه بالموت . ولكنّ لدي شعور بأن .. بأنني .. من جهة أخرى ، الموت .. القليل من الخير الذي حاولت عمله في هذه الدنيا سيحسب لي .. نعم .. وإذا جـــاء اليوم .. (نظرة خاطفة ليتأكد من أن ابتسامة انطوان المستنكرة لم تكن قد

امحت) .. إيه ، ماذا تريد ؟ ليكن لدينا ثقة .. ان رحمة الله لا نهاية لها .

وكان انطوان يسمع بصمت .

– ليس هذا ما أردت قوله لك يا انطوان. في نهاية ترتيباتي المتعلقة بالوصية، ستجد لائحة بالهبات .. الخدم العجائز .. أحاول أن ألفت انتباهك إلى ملحق الوصية هذا يا عزيزي . يعود تاريخه إلى عدة سنوات . ربما لم اكن فيه كريماً كفاية . إني أفكر بالسيد شاسل . الرجل الشجاع مدين لي بالكثير ، وهذا غير قابل للمناقشة؛ مدين لي بكل شيء؛ ولكن هل هذا سبب لكي لا يجني إخلاصه مكافأة .. ومكافأة زائدة ؟

إن السعال الذي كان يقطع كلامه بين لحظة وأخرى أجبره على التوقف لحظة . وقال انطوان لنفسه : « يجب أن يتقدم تعميم المرض بسرعة كافية . وهذا السعال يزداد ، والقيء أيضاً . ويجب أن يكون الورم قد تكاثر منذ قليل من أسفل إلى أعلى .. الرئتان ، المعدة .. إننا تحت رحمة التعقيد الأول .

وتابع السيد تيبو الذي جعله الأفيون صاحياً وغير متلاحم معاً :

– كنت دائماً أشعر بالكبرياء لانتمائي إلى تلك الطبقة الميسورة التي عليها الدين والوطن ، كل وقت .. ولكن هذا اليسر يفرض بعض الواجبات يا عزيزي .. – وحاد تفكيره مرة أخرى – أنت ، إن لديك ميلاً مكدراً ، النزعة الفردية ! – قال ذلك فجأة ملقياً نحو انطوان نظرة ساخطة . – ستتغير دون شك عندما تصبح كبيراً . – وصحح : – عندما تشيخ ، عندما تؤسس عائلة ، أنت أيضاً .. – وردد : – عائلة .

هذه الكلمة التي لم يكن يلفظها أبداً دون تفخيم أيقظت فيه رنيناً مشوشاً ، شذرات من خطب ألقيت في الماضي . ومن جديد تفلتت بقية أفكاره منه ، ورفع صوته :

– في الواقع يا عزيزي ، لو قبلنا أن العائلة يجب أن تبقى هي الخلية الأولى للنسيج الاجتماعي ،الا يلزم.. الا يلزم أن تنشىء تلك.. تلك الارستقراطية الوسطى ، حيث تنضم النخبة فيما بعد ؟ العائلة ، العائلة .. أجب : ألسنا نحن المدار الذي

تدور عليه دولة اليوم البورجوازية ؟

فوافق انطوان بعذوبة :

– ولكني من رأيك يا أبي .

لم يبد الأب أنـه سمع . وشيئاً فشيئاً أصبحت النبرة أقـل فصاحة ، وفهم المقاصد أكثر سهولة .

– ستعود إلى ذلك يا عزيزي ! والأب الرئيس يعتمد على ذلـك ، مثلي . ستعود إلى ذلـك ببعض الأفكار . وأتمنى أن يكون هذا حالاً .. بودي أن يكون هذا قد جرى فعلاً يا انطوان .. في اللحظة التي أترك فيها الدنيا ، أليس من المؤلم لي أن ولدي ؟... لقد نشأت كما أنت أو عشت تحت هذا السقف . ألا يجب عليك ؟... حميّة دينية أخيراً . إيمان أكثر صلابة ، وأكثر ممارسة !

وفكر انطوان : « وإذا ارتاب بما صرت إليه » .

وتأوه السيد تيبو قائلاً :

– من يدري إذا كان الله يسألني .. لن يعاملني بقساوة؟ مع الأسف! لأجل هذه المهمة المسيحية ، فأن وجود أمك المقدسة قد سُلب مني .. قبل الأوان .

وسالت دمعتان من جفونه . رآهمـا انطوان تبرزان وتهبطان على طول الخدين . لم يكن ينتظر ذلك ، ولم يستطع مقاومة التأثر الذي ازداد حين سمع والده يتابع دون هذر ، بصوت منخفض ، ودّي ، ملحـاح لم يكن انطوان يعرفه :

– لدي حسابات أخرى يجب تقديمها . موت جاك . الولد المسكين .. هل قمت بكل واجبي ؟ كنت أريد أن أكون صلباً . وكنت قاسياً . يا إلهي ، إني اتهم نفسي لأنني كنت قاسياً مع ولدي..لم أعرف أبداً ان اربح ثقته.ولا ثقتك، يا انطوان .. كلا ، لا تعترض . إنها الحقيقة . الله اراد هذا ؛ والله لم يمنحني ابداً ثقة اولادي . كان لي ولدان . وكانا يحترمانني ، ويخافانني ؛ ولكنهما انفصلا عني منذ الطفولة .. كبرياء ، كبرياء ! كبريائي ؟ كبرياؤهما .. ومع ذلـك ، الم افعل كل ما يجب علي ؟ الم اوكل امرهما الى الكنيسة منذ بدء عمريهما ؟ الم اسهر

على تربيتها ؟ على تعليمها ؟ عقوق .. يا إلهي ، قاضيني : هل هي غلطتي ؟ كان جاك يقف دائماً ضدي ، حتى يومه الأخير ، حتى عشية موته ! ومع ذلك ، هل كنت استطيع ان ارضى عن الأمر ؟ كلا ، كلا ..

وصمت . وصرخ فجأة :

– اذهب ايها الابن الرديء !

وتأمله انطوان مندهشاً . لم يكن والده يوجه الكلام إليه . هل اخذ يهذي الآن ؟ الفك بارز ، والجبهة مبللة بالعرق ، والذراعان مرفوعان ، كان يبدو في غاية الاضطراب . وتابع :

– اذهب ! فقد نسيت كل ما انت مدين به لأبيك ، لاسمه ، لمركزه ! خلاص نفس ! شرف عائلة ! هناك اعمال ، اعمال تتجاوز شخصنا ؟ تعرّض جميع التقاليد للخطر ! سأحطمك ! اذهب ! – وقطع السعال عباراته ، فنفخ طويلاً ثم خفت الصوت : – يا إلهي . لست واثقاً من عفوك .. ماذا فعلت بولدك ؟

وجازف انطوان : ابي .

– لم اعرف كيف احميه .. التأثيرات ! دسائس الهيجنوت [1] .

وفكر انطوان : « آه ! الهيجنوت » !

(كانت هذه فكرة ثابتة عند الشيخ ، ولم يفهم احد اصلها ابداً . وما من شك – وهذا الافتراض من انطوان – انه على اثر رحيل جاك ، وفي بدء التحريات ، فإن حماقة كشفت للسيد تيبو العلاقات الدائمة التي عقدها جاك في ميزون ، اثناء الصيف الماضي ، مع آل فونتانان . ومنذ ذلك الوقت ، ودون ان يستطاع تعديل افكاره عن ذلك، فان الهرم لم ينقطع عن وضع كل مسؤولية المأساة على آل فونتانان،وقد اعماه كرهه للبروتستانت ، وعمرته ايضاً تذكارات الهرب الى مرسيليا مع دانيال ، وربما مزج الماضي بالحاضر) .

---

١ ـ البروتستانت .

وصاح ايضاً مجرباً النهوض :

ـ الى اين انت ذاهب ؟

وفتح عينيه . وبدا مطمئناً لوجود انطوان وادار نحـــوه نظره المغشّى بالدموع ، وتمتم :

ـ البائس . لقد اجتذبه اولئك الهيجنوت يا عزيزي .. اخذوه منا .. انهم هم ! لقد دفعوه الى الانتحار .

فهتف انطوان :

ـ ولكن يا ابي .. لماذا التخيل دائماً انه ...

ـ قتل نفسه ! لقد رحل . ذهب ليقتل نفسه .

(وظن انطوان انه سمع كلمة « ملعون ! » بصوت منخفض ، ولكنه يجب ان يكون مخطئاً . لماذا « ملعون ؟ » هذه بالحقيقة ليس لها معنى) . وضاعت بقية الجملة في نحيب يائس ، شبه صامت ، تحول الى نوبة سعال شديدة ، هدأت بسرعة .

وظن انطوان ان والده قد نام فتجنب القيام بأية حركة .

ومضت بضع دقائق .

ـ قل اذن !

فارتجف انطوان .

ـ ابن العمة .. إيه .. اتعرفه ؟ نعم ، ابن العمة ماري دي كيلليبيف .. ولكنك لم تستطع معرفته ، انت . وهو ايضاً ، انه .. كنت لا ازال صبياً حين حدث هذا .. ببندقيته ، في احدى امسيات الصيد . ما من احـــد عرف ابداً ..

كان السيد تيبو يبتسم ذاهلاً ، والذهن ناشط تجتاحه الذكريات .

ـ كانت تزعج الام بأغانيها ، دائماً بأغانيها.. إيه .. « المطية .. الجواد الصغير » . كيف اذن ؟ في كيلليبيف اثناء العطلة .. انت لم تعرف عربة الاب نيكو . هه ، هه ، هه ! يوم سقط صندوق امتعة الخادمات . هه ، هه ، هه ..

ونهص انطوان فجأة . هذه القهقهة المفاجئة كانت اكثر ايلاماً له من البكاء. في هذه الاسابيع الاخيرة كان يحدث للهرم في اغلب الاحيان ، وخصوصاً في المساء بعد حقنه بالابر ، ان يستحضر هكذا تفاصيل لا معنى لها عن الماضي ، وكانت تتجسم فجأة في ذاكراته الخالية ، كنخالة في نقوش الاصداف . وكان يتمسك بها عدة ايام ضاحكاً وحده كالطفل .

واستدار بمرح نحو انطوان واخذ يدندن بصوت فتي :

مطية بطرة .

هوب .. جيب .. ايها الجواد الصغير ..

لا .. لا .. لا .. لا موريت ..

هوب .. هوب .. في مكان اللقاء !

وقال منزعجاً :

ـآه ! لا أعرف شيئاً . انها اغنية كانت المدموازيل تعرفها جيداً ، هي ايضاً . وكانت تغنيها للصغيرة ..

ولم يكن يفكر بموتها ولا بموت جاك . وبدون ان يتعب حتى ذهاب انطوان ، كان يصطاد من ماضيه ذكريات كيلليبيف وبقايا الاغنية القديمة .

٣

ظل وحيداً مع الاخت سيلين ، فاستعاد وقاره . وطلب طعامه وتركها تلقمه دون ان ينطق بكلمة . ثم لما تليا معاً صلاة المساء اطفأ المصباح .

ـ تفضلي ايتها الاخت بدعوة المدموازيل لكي تأتي ونادي الخادمات لأكلمهن .

كانت المدموازيل دي ويز مستاءة لازعاجها في هذه الساعة ، فاجتازت عتبة الغرفة مسرعة بخطى قصيرة ، وتوقفت وقد ضاق نفسها . وجربت عبثاً ان ترفع نظرها حتى السرير ؛ فقد كان ظهرها المعقد يمنعها ؛ ولم تكن تشاهد سوى ارجل المفروشات ، وترميات الطنفسة في الفسحة المضاءة . وارادت الراهبة ان تقدم لها كنبة ولكن المدموازيل تقهقرت خطوة ؛ انها تظل كطائر

طويل الساق ، واقفة على قدم واحدة طوال عشر ساعات متوالية ولا تضع تنورتها على هذا المقعد الذي استعمرته الجراثيم !

والخادمتان قلقتان ، ظلت احداهما بقرب الاخرى ، مؤلفتين رهطاً معتماً كان يضيئه لهب النار .

وجمع السيد تيبو افكاره بضع ثوان . فاجتماعه بانطوان لم يشبعه ؛ وهناك رغبة لا تقاوم ، كانت تعذبه ، في اضافة مشهد آخر للمنظر . وبدأ وهو يسعل سعالاً خفيفاً :

ـ اشعر ان نهايتي ليست بعيدة .. وقد اردت الاستفادة من لحظة الهدوء الوقتي لآلامي .. للآلام التي عوقبت بها .. لأقول لكنّ وداعاً ..

كانت الراهبة تطوي المناشف فقطعت عملها بدهشة . وسكتت المدموازيل والخادمتان متأثرات . وظن السيد تيبو لحظة ان إعلان موته القريب لم يدهش احداً ، وعرف دقيقة من القلق الفظيع . ومن حسن حظه ان الراهبة ، وهي الاكثر جسارة ، هتفت :

ـ ولكن يا سيدي انت تسير من حسن الى احسن . فلماذا تتكلم عن الموت؟ لو سمعك الدكتور ..

فشعر السيد تيبو حالاً ان طاقته المعنوية قد توطدت ، وقطب حاجبيه وبذلت يده المتخدرة جهداً لتسكت الثرثارة. وتابع كأنه كان يتلو تلاوة :

ـ عشية الظهور امام المحكمة العليا ، اطلب الصفح . الصفح عن كل شيء . لقد كنت ابدو في اغلب الاحيان غير متساهل حيال الغير . وربما اكون قد جرحت بقساوتي محبة .. محبة كل اولئك الذين يعيشون في بيتي . اني اعترف .. بديون .. حيالكم كلكم .. حيالكما يا كلوتيلد ويا أدريان .. حيال والدتكما على الخصوص ، التي هي الآن مسمّرة .. التي هي مسمرة مثلي على سرير الألم .ْوالتي أعطتكما طوال عشرين سنة اجمل مثل عن العبودية .. وحيالك انت اخيراً يا مدموازيل ، انت التي ..

في تلك اللحظة انهمرت عينا ادريان بالدموع محدثة صخباً بحيث اضطرب

السيد تيبو وكاد هو نفسه ينفجر باكياً . وشهق ولكنه امتلك نفسه وقال وهو يزن كل كلمة :

– .. انت التي ضحيت بحياة متواضعة لتقيمي في بيتنا وهو في حالة حداد.. تسهرين على القنديل .. على قنديلنا العائلي .. من اذن كان أكثر جدارة منك بأن .. بجانب الأولاد .. بأن يحل محل تلك التي ربيتِها ؟

كان يُسمع بين الجمل بكاء النساء في الظلام حين كان يتوقف . وكان ظهر العجوز الصغيرة يزداد تقوساً ، ورأسها يهتز بلا انقطاع ، وارتجاف شفتيها كان يحدث في الصمت صوت امتصاص .

– بفضلك ، بفضل تيقظك استطاعت عائلتنا ان تكمل طريقها .. طريقها تحت نظر الرب . اني اشكرك علناً ؛ ولك انت، يا مدموازيل اريد ان أعرض إلتماسي الاخير عندما تأتي الساعة المحتومة ..

واضطرب من الكلام الذي لفظه فاضطر ، ليسيطر على هلعه ، ان يتوقف ويفكر بحالته الحاضرة ، وبالراحة التي شعر بها بعد الابرة . وتابع :

– عندما تدق الساعة المحتومة ، فإني اوصيك يا مدموازيل بأن تقرأي بنفسك ، وبصوت مرتفع ، تلك الصلاة الجميلة التي تعرفينها ، « طلبات الا .. الموت الصالح .. » التي قرأتها معك عند سرير زوجتي المسكينة .. في تلك الغرفة نفسها .. أليس كذلك .. تحت هذا المصلوب نفسه ..

وحاول نظره أن يجوس خلال الظلام. ان تلك الغرفة من الاكاجو والدهان الازرق كانت غرفته الدائمة ؛ تلك التي رأى اهله يموتون فيها سابقاً في روان ، في مدى بضع سنوات .. وقد تبعته الى باريس ، وكانت غرفته وهو شاب ! وكانت غرفته الزوجية .. وولد فيها انطوان في ليلة باردة من شهر آذار . ثم بعد أقل من عشر سنوات ، وفي ليلة أخرى من ليالي الشتاء ، ماتت فيها زوجته وهي تمنح الحياة لجاك . وقد رآها تموت ، في وسط السرير الكبير الذي نثر عليه البنفسج .

وارتجف صوته :

– .. وآمل ان قديستنا المحبوبة .. ستشاهدني من فوق .. وتنقـــل الي شجاعتها .. وخضوعها لارادة الله .. الشجاعة التي برهنت عنها .. نعم ..

وأطبق عينيه وضم يديه بشكل أخرق .

ويبدا انه ينام .

عندئذ أشارت الاخت سيلين الى الخادمتين ان تنسحبا دون ضجة . وقبل ان تتركا سيدهما تأملتاه بانتباه كما لو ان هـذا السرير الآن اصبح مضجع ميت . وكان يُشعر في الرواق بنحيب ادريان وقوقأة كلوتيلد المختنقة التي كانت تعطي ذراعها للمدموازيل العجوز. لم يكنّ يعرفن الى اين يذهبن. وجنحن الى المطبخ وجلسن بشكل دائرة. كن يبكين. وقررت كلوتيلد ضرورة السهر ليستطاع، عند اول نـداء ، الركض والمجيء بكاهن ؛ وبدون ان تضيع الوقت ، اخذت تطحن القهوة .

كانت الراهبة وحدها تعلم جلية الامر : فقد كانت معتادة . وفي نظرها ، فان صحو المحتضر يكون دائماً برهاناً على ان المريض ، في اعماق غريزته – وفي غالب الاحيان عن خطأ – لا يؤمن حقيقة بالموت الوشيك . وكذلك ، بعد ان رتبت الغرفة وغطت النار ، فتحت السرير المطوي التي ترتاح عليه . وبعد عشر دقائق ، في الغرفة المظلمة ، فان الراهبة ، دون ان تتبادل كلمة مع مريضها ، انزلقت بهدوء من الصلاة الى النوم .

اما السيد تيبو فلم ينم . فالابرة المزدوجة حققت له راحة طويلة ، ولكنها ابقته مستيقظاً . جمود لذيـذ ، مأهول بالأفكار ، والمشاريع . وبـذر الخوف حوله بدا انه طهّره نهائياً من قلقه النفسي . وكان تنفس الحارسة النـائمة يزعجه قليلا ؛ ولكنه كان يسر بأن يحلم باليوم الذي يصرفها فيه مع الشكر حين يشفى – مع تقدمة جميلة لديرها . كم ؟ سيرى ذلـك فيما بعد . آه ! كم كان فارغ الصبر ليعود الى الحياة! ماذا يحل بأعماله بدونه ؟

وانهارت حطبة كبيرة في الرماد . ففتح عيناً . لهب متجدد ، متردد، جعل الاشباح ترقص على السقف . ورأى نفسه فجأة ، مرتجفـاً ، وشمعة مضاءة في

يده، في كيليبيف، في الرواق الرطب الذي تفوح منه رائحة النطرون والتفاح: كانت ظلال كبيرة تولد امامه وتذهب هكذا لترقص في السقف. تلك العناكب المخيفة السوداء التي كان يوجد منها دائماً في المساء ، في غرف العمة ماري ! (بين الولد الذي يخاف آنذاك وهرم اليوم كان التشابه بنظره كاملاً تماماً بحيث كان يلازمه جهد ذهني ليميز الواحد عن الآخر) .

ودق المنبّه الساعة العاشرة . ثم النصف .

كيليبيف .. العربة العمومية .. حوش الدواجن .. ليونتين ..

هذه التذكارات التي بعثتها الصدفة من اعماق ذاكرته ، كانت تعوم باصرار على السطح ولا ترضى بالنزول ثانية الى الأعماق . وكان لحن الاغنية القديمة يشكل لهذه الذكريات الصبيانية المستحضرة مصاحبة متقطعة . كان الكلام كله تقريباً لا يزال ينقصه ، باستثناء الاستهلال الذي أعيد تأليفه شيئاً فشيئاً ، واللازمة التي انبثقت فجأة من الظلمات :

مطية بطرة ، تريلبي ، الجواد الصغير ،
ستكون حبي الوقتي
افضل من حصان المعركة الجميل .

هوب ! هوب ! تريلبي يركض بخطى قصيرة !
هوب ! بسرعة .. الى مكان اللقاء !

ودق المنبه احدى عشرة دقة .

مطية بطرة . تريلبي الجواد الصغير ..

٤

في الغد ، حوالي الساعة الرابعة. مر انطوان بالقرب من منزله، بين زيارتين، مغتنماً الفرصة ليعرف الأخبار . وكان في الصباح قد وجد السيد تيبو

كثير الضعف ، والحمّى مستمرة . هل كانت تعلن عن ظاهرة جديدة .. أم انها تشير فقط الى الخطوط العامة ؟

كان انطوان يريدألاّ يراه المريض،لأن هذه الزيارة الاضافية تكون مصدر قلق . فبلغ غرفة الزينة من الرواق . وكانت الاخت سيلين موجودة فيها. وقد طمأنته بصوت منخفض . لم يكن النهار كثير السوء حتى ذلك الوقت . وفي اللحظة الحاضرة كان السيد تيبو تحت مفعول الابرة . (هذه الجرعات المكررة من المورفين اصبحت لا غنى عنها لتتيح له احتمال الالم) .

من باب الغرفة الذي لم يكن مقفلاً تماماً ، كانت تأتي تمتمة ، غناء . وأرهف انطوان السمع . وهزت الراهبة كتفيها :

– لم يكن يقر له قراراً حتى أبحث له عن المدموازيل لتغني له اغنية مؤثرة لا اعرف عنها شيئاً . ولا يتكلم شيئاً آخر منذ هذا الصباح .

واقترب انطوان على رؤوس اصابعه . وكان صوت العجوز الصغيرة الرقيق يرتفع في الصمت :

مطية بطرة ،
تريلبي ، الجواد الصغير .
ستكون حبي الوقي
افضل منجواد المعركة الجميل !
بلطافة ؛ لأجل روزين ،
لأجل عينيها الاندلسيتين .
هوب ! هوب ! تريلبي يركض بخطى قصيرة .
هوب ! بسرعة ! الى مكان اللقاء !

عندئذ سمع انطوان صوت والده ، كجرس متصدع ، يعيد اللازمة وهو يلهث :

هوب ! بسرعة ! الى مكان اللقاء !

ثم تابع الناي المرتجف :

انظر الى تلك الزهرة الجذابة .
هناك ، على حاشية المرج .
اريد ان يزين ولدي .
جبهته بها !
انا اقطعها وانت فاقضم !
(لأن لكل فرد اذواقه) .

وقاطع السيد تيبو بلهجة انتصار :

ـ آه ! هكذا .. كانت العمة ماري تغني دائماً : لا .. لا .. لا .. وأنت فاقضم : لا .. لا .. لا.. وأنت فاقضم !

وتابعا معاً :

هوب ! هوب ! سر يا تريلبي !
هوب ! بسرعة ! الى مكان اللقاء !

وهمست الراهبة :

ـ انه أثناء هذا الوقت لا يشكو ابداً .

وابتعد انطوان منقبض القلب .

وحين مر أمام المنزل نادته حارسة البيت . كان موزع البريد قد جاء ووضع بعض الرسائل . فأخذها لاهياً . وكان تفكيره هناك ، فوق :

مطية بطرة ،
تريلبي ، الجواد الصغير ..

ودهش هو نفسه من عواطفه نحو المريض . وحين تكشف له ، بعد سنة ، ان السيد تيبو ميت ، اكتشف لهذا الاب ، الذي كان يعتقد انه لا يحبه ، محبةً مدهشة لا يمكن انكارها ، بدت له جديدة إلا انها شبيهة برأفةٍ قديمة جداً بعثها حيةً اقتراب ما لا يمكن تلافيه . عاطفة جاء يقويها أيضاً ، أثناء هذه الاشهر الطويلة ، ارتباط الطبيب بهذا المحكوم بالموت ، حيث كان هو الوحيد

الذي يعرف الحكم ، ويجب ان يوصله الى نهايته بأكبر هدوء ممكن .

وكان انطوان قد خطا بضع خطوات في الشارع حين سقطت عيناه على احد الغلافات التي كان يمسكها بيده .

وتوقف حالاً :

«السيد جاك تيبو
٤ مكرر ، شارع الجامعة ».

كان بين وقت وآخر تصل لائحة مكتبة او بيان باسم جاك . ولكن رسالة ! هذا الغلاف الازرق ، وهذه الكتابة من رجل — وربما من امرأة ؟ مرتفعة ، سريعة معتادة ، محتقرة قليلاً ! فدار نصف دورة . اولاً تفكير . وبلغ غرفته . ولكن قبل ان يجلس فض الرسالة بحركة حازمة .

ومنذ الكلمات الاولى تهلل وجهه .

١ . مكرر ، ساحة البانتيون
٢٥ تشرين الثاني ١٩١٣

« سيدي العزيز .

« قرأت اقصوصتك .. »

اقصوصة ؟ جاك يكتب ؟ وجاء اليقين حالاً : انه حي . وكانت الكلمات ترقص . وبحث انطوان عن التوقيع محموماً : « جاليكور » .

« قرأت اقصوصتك بعناية حارة . وانت تدرك جيداً التحفظات التي يمكن ان توحيها لجامعي قديم .. »

— آه ! جاليكور ! فالديو دي جاليكور ، الاستاذ . عضو المجمع العلمي .. كان انطوان يعرفه جيداً ، من شهرته ؛ ولديه ايضاً كتابان او ثلاثة من مؤلفات جاليكور في مكتبته .

« .. وانت تدرك جيداً التحفظات التي يمكن ان توحيها لجامعي قديم ، هو

انا ، صيغة روائية تصدم ، بالنسبة لثقـافي الكلاسيكية ، ومعظم اذواقي الشخصية . اني بالحقيقـة لا استطيع القبول لا بالمحتوى ولا بالشكل . ولكن يجب ان اعترف ان هذه الصفحات ، حتى في مغالاتها ، هي من عمـل شاعر ، وعالم نفساني . وقد فكرت اكثر من مرة وانا اقرؤك ، بتلك الكلمة من معـلم موسيقي من اصدقائي كان مؤلف موسيقي شاب ثوروي (يمكن ان يكون منكم) قد اراه محاولة ذات جرأة تبعث على الاضطراب : « خذ معك بسرعة كل هذا يا سيد . فسوف انتهي بأن أتذوقها » .

« جاليكور » .

كان انطوان يرتجف على ساقيـه ، فجلس . ولم يرفـع نظره عن الرسالة المنشورة امامه على مكتبه . في دخيلة نفسه لم يكن يدهشه وجود جاك حياً . ابداً ، لم يكن لديه اي سبب لافتراض الانتحـار . واليقظة الاولى ، لدى لمس هذه الرسالة ، كانت يقظة صيّاد : لقد شعر في مدى بضع ثوانٍ ، بغريزة كلب الصيد الذي اطلقه منـذ ثلاث سنوات ، ولعدة اشهر متتالية ، وراء جميع الآثار بحثاً عن الغائب ، انها بعثت فيه . ثم في الوقت نفسه بمحبةٍ لأخيـه ، وبحاجة لاهثة لرؤيته ، بحيث ظل متخدراً . — وفي اغلب الاحيـان في الايام الاخيرة ، وهذا الصباح بالذات — اضطر الى التشدد ضد شعور بالمرارة لرؤية نفسه وحيداً عند سرير المريض العجوز ! وامام مهمة بهذا الثقل كيف يمتنع عن ابداء حركة حقد حيال هذا الأخ الهارب الذي ترك مركزه في لحظـة كهذه ؟ ولكن هذه الرسالة !

وساوره امل : الوصول الى جاك ، وإعلامه ، واستدعاؤه ! فـلا يكون وحده ! واستعاد الورقة : ١ . مكرر ، ساحة البانتيون .. جاليكور ..

نظرة على المنبّه ، واخرى على دفتره الصغير .

« حسناً . ثلاث زيارات ايضاً هذا المساء . زيارة الساعة الرابعة والنصف ، جادة ساكس ، ضرورية يستحيل اهمالها . وبعد ذلـك بداية الحصبة في شارع

ارثوا : لا غنى عنها ايضاً . ولكن لا يوجد موعد . والثالثة نقاهة ، وهذه يمكن تأجيلها » . ونهض . « جادة ساكس حالاً . وبعد ذلك ، جاليكور » .

حوالي الساعة الخامسة وصل انطوان الى ساحة البانتيون . بيت قديم بدون مصعد . (إلا ان اهتياجه منعه من الصعود فيه) وتسلق الدرج اربعاً اربعاً .

— ان السيد جاليكور قد خرج . الاربعـــاء .. درسه في دار المعلمين من الخامسة حتى السادسة ..

وقال انطوان لنفسه وهو هابط :

— هدوءاً . تماماً الوقت الذي اذهب فيه لرؤية الحصبة .

قبل الساعة السادسة وثب من سيارة اجرة امام دار المعلمين .

وتذكر زيارته للمدير بعد اختفاء اخيه ؛ ثم ذلك النهار الصيفي الذي اصبح بعيداً حيث كان قد جاء الى هذا البناء القاتم ينتظر مع جاك ودانيـال نتيجة امتحان الدخول .

— الدرس لم ينته . إصعد الى سطح درج الطابق الاول وسترى التلامذة يخرجون .

كان مجرى هـواء مستمر ينفخ تحت الاقسام المسقوفة من الملعب ، وفي الادراج ، وفي الاروقة . والمصابيح الكهربائية الموزعة بتقتير كانت ذات هيئة داخنة كالمصابيح ذات الفتيل . وذلـك البلاط ، والاقواس ، وتلـك الابواب المقعقعة . وهذا الدرج الاثري المظلم الخرب ، حيث على جدران قذرة، اعلانات كبيرة ممزقة كانت تخفق في ريح الخريف ، وكثير من الاحتفالية ، وكثير من الصمت والاهمال كان يذكّر باحدى اسقفيات الاقاليم التي زالت حظوتهـا الى الابد .

ومضت بضع دقائق . وكان انطوان ينتظر جامداً . وتنزلق على البـلاط خطوة رخوة : تلميذ فظ ، خالع العذار يجر الحذاء ويؤرجح مكيالاً بحجم ليتر في طرف ذراعه ، وقد تطلع الى انطوان وذهب .

الصمت من جديد . وفجأة ، طنين : فتح باب القاعـــة ، في جلبة اصوات شديدة لاجتماع برلماني ؛ تلامذة مجتمعون كالعناقيد ، ضاحكون ، مستفهمون كان بعضهم يزحم البعض الآخر ؛ ثم تبعثروا بسرعة في الأروقة الجليدية .

وكان انطوان يترقب . (من الواضح ان الاستاذ يخرج آخر الجميـع) .وحين بدا له القفير فارغاً اقترب . في داخل قاعة مغطاة بالخشبيات ، مجهزة بتماثيل نصفية ومضاءة بشكل سيء فان رجلاً كبيراً ذا شعر ابيض ، واقفاً ومنحنياً ، كان يرتب اوراقاً على منضدة بتراخٍ . انه لايمكن ان يكون سوى السيد دي جاليكور .

كان يظن نفسه وحيداً . ولدى الضجة التي احـدثها انطوان انتصب مكشراً . كان كبيراً ويلتفت بجانب وجهه ليرى امامه ، لأنه لا يرى إلا بعين واحدة من خلال نظارة فردية كثيفة كالعدسة . وما إن شاهد احداً حتى ترك مكانه ، وبحركة مجاملة اشار الى الزائر ان يتقدم .

كان انطوان ينتظر ان يرى استاذاً هرماً . ومرأى هذا النبيل المرتدي لوناً فاتحاً والذي بدا كأنه مترجل عن الجواد اكثر منه عن المنبر ، قد أدهشه .

وقدم نفسه :

ـ .. ابن اوسكار تيبو ، زميلك في المعهد .. وشقيق جـــاك تيبو الذي كتبت اليه البارحة ..

وبما ان الآخر ظل منتصب الحاجبين بشوشاً ، شامخاً لم يتحرك ، فان انطوان اختصر المراحل :

ـ ماذا تعرف عن جاك يا سيدي ؟ اين هو ؟

وارتعشت جبهة جاليكور ارتعاشة حذرة . وتابع انطوان :

ـ ارجو ان تفهمني يا سيدي ، فقد سمحت لنفسي بفتح رسالتك . ان اخي اختفى ..

ـ كيف ، اختفى ؟

ـ اختفى منذ ثلاث سنوات .

وقدم جاليكور رأسه بشيء من الخشونة . ومن خلال النظارة الفردية كانت عينه النافذة الحسراء تتصفح الشاب عن قرب . وشعر انطوان بانفاس الاستاذ على خده . وتابع :

ـ نعم ، منذ ثلاث سنوات . دون تعليل لرحيله دون ان يعطي اشارة حياة لا لأبي ولا لي . ولا لأحد . الا لك يا سيدي . اذن انت تدرك ، فقد اسرعت .. اننا لم نكن نعلم اذا كان لا يزال حياً !

ـ حي ؟ انه حي ما دام قد نشر هذه الاقصوصة .

ـ متى ؟ اين ؟

فلم يجب جاليكور . كانت ذقنه المروسة ، الحليقة ، المحفورة بثلم شديد ، تظهر ، متعاظمة بشكل كاف ، اطرافاً عالية من الطوق المستعار . واصابعه النحيلة كانت تلعب بطرف الشارب الذي كان يتهدل طويلاً ، حريرياً وكثير البياض . وتمتم متملصاً :

ـ وبعد ، فاني لا اعـــلم . الاقصوصة لم تكن موقعة « تيبو » ، ولكني ظننت ان باستطاعتي اظهار هوية اسم مستعار ..

فقال انطوان متلجلجاً :

ـ اي اسم مستعار ؟

وكانت قد ضيقت عليه خيبة امل مخيفة .

اما جاليكور الذي لم يرفع نظره عنه فقد تأثر وقال مصححاً :

ـ ومع ذلك يا سيد ، فلا اعتقد اني اخطأت .

وظل مستعداً للموافقة ، لا لأنه يخشى زيادة المسؤوليات ؛ ولكن كان عنده اشمئزاز غريزي من عدم التبصر ، والخوف من التدخل في خصوصيات الناس . وادرك انطوان ان هناك حذراً يجب التغلب عليه ، فأوضح :

ـ وقد زاد بالطين بلة ان والدي على وشك الموت منذ سنة . والمرض يزداد . بضعة اسابيع ايضاً وينتهي الامر . لم نكن سوى ولدين . اذن ، انت تدرك لماذا فضضت رسالتك .. لو كان جاك حياً ، لو استطيع الوصول اليه واعلامه

بما يجري ، فأني اعرفه ، فسيعود الي .

وفكر جاليكو لحظة . وكانت تشنجات تعذب وجهه . ثم مـد يده تلقائياً ، وقال :

ـ هذا يختلف . وانا لا اطلب سوى مساعدتك ـ وبدا متردداً ، وطاف نظره في الغرفة ـ يستحيل الحديث هنا . أيرضيك ان ترافقني الى بيتي ياسيد ؟

واجتازا معاً ، بسرعة وبدون اية كلمة ، المـدرسة المقفرة التي تزمجر فيها الريح .

وما ان اصبحا في شارع اولم الهادىء حتى تابع جاليكور بنبرة صداقة :

ـ بودي لو استطيع مساعدتك . الاسم المستعار بدا لي واضحاً : « جاك بولتي[1]» اليس كذلك؟ يضاف الى هذا اني اعرف الخط جيداً ؛ وقـد كنت تلقيت مرة رسالة من اخيك .. وسأقول لك القليل الذي اعرفه . ولكن اوضح لي اولاً ، لمـاذا ذهب ؟

ـ آه ! لماذا ؟ لم استطع ابداً ان اجـد سبباً قريباً من المعقول . ان اخي عنيف ، قلق .. ولا اجرؤ على القول : صاحب خيالات واوهام . وجميع اعماله محيرة بشكل يكثر او يقل . تعتقد انك عرفته ولكنه في كل يوم يختلف عما كان عليه البارحة .. ويجب ان اقول لك ياسيدي ان جاك كان قد هرب وهو في سن الرابعة عشرة : فقد رحل في صباح جميل جاراً معه رفيقاً ، ووجدا بعد ثلاثة ايام على طريق طولون . وفي الطب ـ انا طبيب ـ فان عمليات الهرب المرضية قد وُصفت منذ وقت طويل وُحددت تحديداً دقيقاً . وهرب جاك الاول ، على وجه التدقيق ، يمكن ان يكون ناتجاً عن مرض . ولكن هذا الاختفاء ، مـدة ثلاث سنوات ؟ ومع ذلك فلم نجد شيئاً في حياته يمكن ان يعلل رحيله : كان يبدو سعيداً ؛ وكان يقضي عطلته المدرسية في الهدوء ، معنا ؛ وقد قُبل بنجاح باهر في دار المعلمين وكان عليه ان يدخل المدرسة في اول تشرين الثاني . ولا

---

١ - بولتي *Baulthy* : وهو تحريف لاسم تيبو *Thibault* .

يمكن لعمله ان يكون مدروساً مسبقاً لانه ذهب دون امتعة ، وبـــدون نقود تقريباً ، غير آخذ سوى اوراق . ولم يكن قد اخبر اي صديق . ولكنه ارسل الى مدير دار المعلمين رسالة استقالة كنت رأيتها ، وهي مؤرخة في يوم اختفائه.. وفي ذلك الوقت كنت اقوم برحلة استغرقت يومين : وأثناء غيابي اختفى جاك.

فقال جاليكور ملمحاً :

– ولكن .. يا سيد ، كان اخوك يتردد كثيراً في الدخول الى دار المعلمين ، أليس كذلك ؟

– أتعتقد هذا ؟

فلم يلحّ جاليكور ، وصمت انطوان .

كان تذكـُّر تلك الفترة المؤلمة يزعجه دائماً . والغياب الذي تحدث عنــه هو رحلته الى الهافر ، وراشيل و « رومانيا » ، والفراق .. وفي النهار نفسه الذي عاد فيه الى باريس لاهثاً ، وجد البيت منقلباً : ذهب اخوه منـــذ البارحة ؛ ووالده مهتاج ، عنيد ، أنذر الشرطة صائحاً : «لقد ذهب ليقتل نفسه !» دون ان يستطاع استخراج شيء آخر منه . وغطت مأساة العائلة على مأساة الحب . إلا أنه الآن أصبح يعتبر تلك الهزة نافعة له.والفكرة الثابتة في ايجاد أثر الهارب طردت الأفكار اللازمة الاخرى.وقد اشغله مستشفاه جيداً الا انه كان يستعمل وقته الحر في الركض الى مكاتب الشرطة ، ومعرض الجثث المجهولة، والوكالات الخاصة . وقد اضطر الى مجابهة كل شيء : من تحرك مرض ابيـــه الملبّك ؛ الى اليأس الذي جعله ذات لحظة يخشى على صحة جيز ؛ الى زيارات الاصدقاء ؛ الى البريد اليومي ؛ الى التحقيقات العديدة التي قام بهـــا عمـلاء اطلقوا في جميع الاتجاهات ، حتى في الخارج ، والتي كانت تعطي دائماً املاً خادعاً . وبالاجمـال فان تلك الحياة المتعبة قد انقذته من نفسه في تلك الفترة . وحين اضطر شيئـاً فشيئاً ، بعد اشهر من الجهود على غير طائل ، الى الاقـلاع عن التفتيش ، رأى انه اعتاد على العيش بدون راشيل .

كانا يسيران مسرعين ؛ الامر الذي لم يمنع جاليكور من مواصلة الحديث . كان ادبه لا يقتنع بالصمت . وكان يتكلم عن اشياء وعن اخرى بلطف فيه شيء من العجرفة . ولكن كلما بدا لطيفاً تشعر انه بعيد .

ووصلا الى ساحة البانتيون . وصعد جاليكور الطبقات الاربع دون ان ان يبطىء الخطى . وانتصب الرجل النبيل على سطح درجه ، ورفع قبعته وتنحى دافعاً امام انطوان مصراع بابه كأنه يوصل الى « رواق المرايا » .

كان الدهليز يعبق بروائح جميع خضار شورباء الخضار . ولم يتأخر فيه جاليكور بل ادخل زائره باحتفال الى قاعة الاستقبال التي تلي غرفة الشغل . وكانت الشقة الصغيرة مزدحمة بمفروشات منقوشة ، ومقاعد مغطاة بالطنافس ، وبأشياء صغيرة ، وصور قديمة . وكانت غرفة الشغل قاتمة ، وتبدو صغيرة ومنخفضة جداً لان الاطار في الداخل كان مشغولاً كله بطنفسة فخمة تمثل موكب ملكة سبأ عند الملك سليمان، ولا تتناسب ابداً مع ارتفاع الجدار ؛ وقد لزم طي الحواشي بنوع ان الاشخاص ، وهم اكبر من الطبيعة بكثير ، اصبحت عراقيبهم مقطوعة وتلامس افاريز تيجانهم .

واشار جاليكور الى انطوان بالجلوس . اما هو فقد جلس على الوسائد المسطحة والملونة لأريكة موضوعة امام مكتب من الاكاجو غير مرتب ابداً . وهنا كان يشتغل . وبين ساعدي الكنبة ، على تلك الارضية المخملية الزيتية ، فان رأسه المنقلب ، ووجهه العظمي ، والأنف الكبير الأعقف ، ومنظر الجبهة الهارب وتلك الفتائل البيضاء كأنها مرشوشة بالبودرة ، كانت تتخذ طرازاً خاصاً .

وقال وهو يلعب بالخاتم الذي كان ينزلق من اصبعه الهزيل :

– ها اني استدعي ذكرياتي .. العلاقات الاولى التي كانت لي مع السيد اخيك هي مراسلات . في تلك الفترة – وقد مر عليها اربع او خمس سنوات – كان على السيد اخيك ان يستعد لدار المعلمين . وكتب الي ، بقدر ما أتذكر ، بمناسبة كتاب نشرته في تلك الازمنة البعيدة .

فقال انطوان :

– نعم . كتاب « في فجر قرن » .

– وقد اضطررت الى حفظ رسالته . فقد استلفتت اللهجة نظري . وأجبته ؛ وحرّضته على المجيء لرؤيتي ، الامر الذي لم يفعله – على الاقل في ذلك العهد كان ينتظر ان يُقبل في امتحان الدخول ليمثل امامي : وهذه هي المرحلة الثانية من علاقاتنا . مرحلة قصيرة : ساعة حديث . فقد جاء السيد اخوك الي ذات مساء ، متأخراً جداً ، وعلى حين غفلة ، منذ ثلاث سنوات ، قبل العودة الى المدرسة بقليل ، اي في اول تشرين الثاني .

– قبل رحيله تماماً .

– واستقبلته ! اني استقبل الشبان دائماً . وسحنته النشيطة ، ذات الحدة ، شبه المحمومة في ذلك المساء ، ظلت ماثلة في ذهني . (لقد بدا له جاك متحمساً كثير الزهو) . كان متردداً بين مقصدين وجاء يطلب رأيي: هل يجب ان يدخل دار المعلمين وينهي فيها دراساته الجامعية بتعقل ؟ ام يجب ان يسير في طريق آخر؟ لم يستطع هو نفسه ان يوضحه ،وكان كما اعتقد ، هو الإقلاع عن الامتحانات وان يشتغل على هواه ، يكتب .

فتمتم انطوان : لم اكن ادري .

وتذكر ما كانت عليه حياته الخاصة اثناء ذلك الشهر الاخير قبل رحيل راشيل ؛ ولام نفسه لأنه ترك جاك كلياً الى نفسه .

وتابع جاليكور بشيء من الدلال مناسب جداً :

– اعترف لك انني لا اعرف تماماً بماذا نصحته . ومن الطبيعي اني اضطررت الى حثه على عدم ترك دار المعلمين .. وتدريسنا لكائنات من نوعه غير ضار : فهي تحسن الاختيار بالغريزة ؛ ولها – كيف اقول؟ – سيرة طليقة لعرق صالح لا تبقى على الهامش . ودار المعلمين ليست مشؤومة الا على الخجولين الموسوسين. وبعد ، فقد بدا لي ان السيد اخاك جاء يستشيرني من ناحية الشكل ، وانه قد اتخذ قراره . وهذه بالضبط اشارة الى دعوة اصبحت ملحة .

اليس كذلك ؟ وقد حدثني بعنف .. صبياني ، عن الروح الجامعية ، والنظام ، وبعض الاساتذة ؛ وحتى عن حياته العائلية اذا صدقت ذاكرتي ، وعن الحياة الاجتماعية .. ايدهشك هذا ؟ اني احب الشباب كثيراً . فهم يساعدونني على ان لا اشيخ بسرعة . ويدركون انه يوجد فيّ تحت استاذ الادب شاعر قديم غير تائب يستطيعون معه ان يتكلموا بجسارة ؛ والسيد اخوك ، اذا صدقت ذاكرتي ، لم يكن مخطئاً .. واني اتذوق تماماً تصلّب الشبان ، وهي علامة حسنة ان يكون يافع في حالة تمرد بطبيعته ضد كل شيء . والذين وصلوا الى شيء ما من تلامذتي كانوا كلهم من اولئك العصاة الداخلين الى الحياة « والشتيمة في افواههم » ، كما كان يقول معلمي السيد رينان .

ولكن لنعد الى السيد اخيك . لا أعرف جيداً كيف تركنا بعضنا البعض . وبعد ايام قليلة ، وربما بعد غد ذلك النهار ، تلقيت منه ورقة صغيرة لا تزال عندي . عادة قديمة لجامع منتخبات ..

ونهض ، وفتح خزانة في حائط وعاد بملفٍّ وضعه على المائدة .

— انها ليست رسالة : نسخ بسيط لقصيدة لويتمان دون توقيع آخر. ولكن خط اخيك ليس من الخطوط التي تنسى : انه خط جميل اليس كذلك ؟

وكان وهو يتكلم يجيل عينيه بالورقة التي نشرها . وناولها لانطوان الذي تلقى صدمة : هذه الكتابة العصبية ، المبسطة بافراط إلا انها منتظمة ، مستديرة ، فخمة ! كتابة جاك ..

وتابع جاليكور :

— من سوء الحظ انني اضطررت إلى إلقاء الغلاف. من أين كتب إلي؟ وبعد ، فان هذه التلاوة من ويتمان لم تتخذ عندي معناها الحقيقي إلا اليوم .

واعترف انطوان :

— لست قوياً كفاية بالانكليزية لأفهم هذا عند قراءته .

فاستعاد جاليكور الورقة وادناها من نظارته وقال مترجماً :

« على قدمي ، والقلب خفيف ، سرت على الطريق المفتوح ، الطريق الكبير .

صحيح الجسم ، حراً ، والعالم امامي !

« أمامي الطريق الطويل الأسمر الذي يقود لا يهم إلى أين .. لا يهم إلى أين أريد !

« من الآن فصاعداً لن أطلب الحظ السعيد .. لن التمس الحظ السعيد ، فأنا هو الحظ السعيد !

« من الآن فصاعداً لن ابكي ولن اتمهل، ولست بحاجة إلى شيء ! لقد انتهت الشكايات الداخلية ، والمكتبات ، والمناقشات النقدية !

« قوي وراضٍ .. اني انطلق .. واقيس الطريق الكبير ! » .

وتأوه انطوان ، وساد صمت قصير قطعه :

— والاقصوصة ؟

فسحب جاليكور من الملف عدداً من مجلة .

— ها هي . لقد ظهرت في مجلة « كاليوب » في أيلول . و « كاليوب » هي مجلة الشباب ، حية جداً وتنشر في جنيف .

وامسك انطوان بالمجلة وحركها بيد محمومة . وفجأة اصطدم من جديد بكتابة أخيه . فقد كتب جاك هذه الأسطر فوق عنوان الاقصوصة : « لاسوريللينا » :

« ألم تقل لي في ذلك المساء الشهير من تشرين الثاني : كل شيء خاضع لعمل القطبين ؛ وللحقيقة دائماً وجهان ؟

« والحب أيضاً في بعض المرات .

« جاك بولتي » .

لم يفهم انطوان . فيما بعد . مجلة من جنيف . أيكون جاك في سويسرا ؟

« كاليوب » .. ١٦١ ، شارع الرون ، في جنيف .

آه ! انه الشيطان بالتأكيد اذا لم يوجد عنوانه في المجلة !

ولم يكن يثبت في مكان ، فنهض . وأوضح جاليكور :

— لقد تلقيت هذا العدد في نهاية العطلة . وتأخرت بالجواب ، ولم استطع ان

انفـذ سوى أمس . ومع ذلك فقد كدت ابعث برسالتي إلى «كاليوب» ورجعت عن رأيي صدفة : الكتابة في مجـلة سويسرية لا تقتضي طبيعياً ان اكون قد تركت باريس ... (كان يهمل القول ان دفع الاجرة سلفاً أثر على عزمه) .

لم يكن انطوان يسمع . كان مشوش البال فارغ الصبر ، في خديه نار ، متلقفاً من هنا وهناك عبارة مضطربة ، لغزية ، ويقلّب آلياً تلك الصفحات التي هي من أخيه ، والتي هي جاك وقد بعث حياً. وكان متعجلاً ليكون وحيداً كما لو انه ينتظر من هذه القراءة ان تكشف له شيئاً . واستأذن باقتضاب .

وقد وجد جاليكور، وهو يقوده إلى الباب، وسيلة ليقوم بألف امر محبب، فعباراته ، وحركاته ، كانت تبدو انها تنتمي إلى العادات الاحتفالية .

وفي الدهليز توقف وصوّب سبابته إلى « لاسوريللينا » التي كان انطوان يمسكها تحت ابطه وقال :

– سترى .. سترى .. اشعر جيداً انها مليئة بالموهبة . ولكـن انا ، اعترف .. كلا ! انا كبير في السن – وبما ان انطوان رسم اشارة مجاملة : – نعم . اني لافهم ابداً ما هو كثير الجدة .. يجب تكوين رأي . والمرء يجمد .. ففي الموسيقى لا يزال لدي حظ في استطاعتي ان اتطور. فبعد ان كنت فاغنرياً مجنوناً فاني مع ذلك فهمت ديبوسي *Debussy* . ولكن كان لدي وقت ! اترى انني اخطأت ديبوسي ؟ لا بأس ، فاليوم انا متأكد يا سيد انني سوف اخطىء ديبوسي في الادب .

وكان قد انتصب . وانطوان يتأمله بفضول اعجابي : بالحقيقة ، يستطيع الهرم النبيل ان يكون ذا مظهر عظيم. كان واقفاً تحت المصباح : الجبهة والشعر يلمعان؛ وقوسا حاجبيه ينحنيان على تجويفين ، احدهما مزجج ويتألق بين لحظة واخرى بانعكاس نور ذهبي ، كنافذةٍ عند المغيب .

واراد انطوان ان يصرح مرة اخيرة باعترافه بالجميل . ولكن جاليكور بدا انه يحتفظ باحتكار إظهار المجاملة . وقد فارقه فجأة ، مطيلاً ذراعه ، مـاداً يده المفتوحة بشيء من الغطرسة :

– تفضل بتذكير السيد تيبو بي ثم ، يا سيدي العزيز ، لا تدعني بدون اخبار . ارجوك ..

٥

كانت الريح قد هدأت . وانهمر المطر رذاذاً . ولم يكن وميض المصابيح سوى هالة في الضباب . والوقت متأخر للشروع ببعض المساعي ؛ ولم يكن انطوان يفكر الا بالعودة بأسرع ما يمكن .

لا يوجد سيارة اجرة في المحطة ، فاضطر الى هبوط شارع سوفلو سيراً على الاقدام ، ضاماً « لاسوريللينا » اليه ؛ ولكن فراغ صبره كان يتزايد لدى كل خطوة وأصبح لا يمكن مقاومته. وفي زاوية الشارع كان محل «لاغراند براسيري» متألقاً. وكان يقدم، ان لم يكن العزلة، فعلى الاقل ملجأ آنياً رضي به انطوان.

وعند المدخل التقى اثنين من الفتيان المرد متخاصرين يضحكان وهما يتكلمان ؛ عن الحب دون شك ؛ وسمع انطوان : « كلا يا صديقي . لو كان العقل البشري يستطيع ان يتمخض عن علاقة بين هذين الحدين .. » وشعر انطوان انه في قلب الحي اللاتيني .

في الطابق الارضي كانت الطاولات كلها مشغولة . ولكي يبلغ الدرج عليه ان يجتاز سحابة من الدخان الفاتر . وكان (الانترسول) محفوظاً للّعب. وحول البليارات لم يكن سوى نداءات وضحكات ومخاصمات : « ١٣ ! ١٤ ! ١٥ ! – حظ سيء ! – ضربة خاطئة ايضاً – قدح جعة يا اوجين ! » مرح صاخب كانت قرقعة الكرات فيه تتميز ككلمات جهاز مورس المتقطعة .

كان كل شيء صبيانياً على هذه الوجوه : تورد الخدود تحت اللحى النابتة ، والعين الغضة وراء النظارات ، والخرق ، والرشاقة ، وغنائية الابتسامات التي تنادي بسرور المتفتح ، وبالامل بكل شيء ، وبالوجود .

كان انطوان يسير بخط متعرج بين اللاعبين باحثاً عن مكان منعزل . وكان تحرك هذه الكائنات الفتية يلهيه لحظة عن شواغله ، وللمرة الاولى شعر بسنيه

الثلاثين تثقل عليه .

وكان قد فكر : « ١٩١٣ .. حضنة جميلة .. اكثر صحة وربما ايضاً اكثر ملائمة من الشباب منذ عشر سنوات ، شبابي » ..

وبما انه لم يسافر الا قليلاً فانه لم يكن يفكر ببلاده ابداً اذا صح القول . الا انه هذا المساء شعر نحو فرنسا ، ونحو المستقبل الوطني ، بعاطفة جديدة ، بثقة ، بكبرياء . وامتزج فجأة بالكآبة : كان بامكان جاك ان يكون احد آماله .. اين هو ؟ ماذا يفعل في هذه اللحظة ؟

كان في داخل القاعة بضع مناضد فارغة تستعمل لوضع الثياب . وفكر بأن الأمر لن يكون سيئاً تحت هذه الزينة ، ووراء هذا المتراس من المعاطف. ما من احد في الجوار ، سوى ثنائي وديع : الذكر غـــلام ، في فمه غليون ، يقرأ جريدة « الانسانية » غير مبالٍ برفيقته التي تحسو حليباً ساخناً وتلهو وحدها بتلميع اظافرها وعدّ نقودها، وبتفتيش اسنانها في مرآة الجيب الموجودة معها، وملاحظة الآتين الجدد بزاوية عينها : وذلك الطالب القديم المهموم الذي كان غارقاً في كتابٍ قبل ان يختار مشروبه ، اقلقها بضع ثوان .

واخذ انطوان يقرأ، ولكنه لم يتوصل الى ان يجمع انتباهه. وبحركة آلية، جسّ نبضه الذي كان يضرب بسرعة؛وكان من النادر ان يجد نفسه غير مسيطر تماماً على نفسه .

ومع ذلك فقد كان في الاستهلال ما يحير :

« حرارة كثيرة . رائحة ارض جافة ، غبـــار . الطريق تتسلق . والشرر ينبجس من الصخر تحت سنابك الخيل . سيبيل في المقدمة . والساعـــة تدق العاشرة في سان باولو . والشاطىء ذو الخيوط المستلـّة يتقطع على زرقة خشنة. لازورد وذهب . الى اليمين على مدى البصر خليج نابولي . والى الشمال ، قليـل من الذهب المتجمد يطفو فوق ذهب مائع . جزيرة كابري » .

جاك في ايطاليا ؟

وقفز انطوان عدة صفحات بفارغ الصبر . نسق إنشائي غريب ..

«والده . عواطف جيزيب حيال والده . زاوية من نفسه صعبة المنال، دغل من الشوك ، حرق . سنوات من عبادة الاصنام اللاشعورية، المهتاجة ، الجرون . جميع الاندفاعات الطبيعية المكبوحة . عشرون سنة ، قبل ان ينقاد للحقد . عشرون سنة قبل ان يفهم بان من اللازم ان يكره جيـــداً . الكراهية من كل القلب » .

وتوقف انطوان غير مرتاح . جيزيب هذا ؟ وعـاد الى الصفحات الاولى ؛ وحاول الهدوء .

كان المشهد الاول نزهة شابين على الخيـل . نزهة جيزيب هـذا الذي يشبه جاك ، مع سيبيل ، وهي فتاة يجب ان تكون انـكليزية لأنها تقول :

« في انكلترا ، منذ ان يحتاج الامر ، فاننا نكتفي بوضعيات احتياطية . وهذا يتيح لنا ان نصمم وان نعمل . اما انتم الايطاليون ، فانـكم تريدون اولاً شيئاً نهائياً حاسماً . انها تفكر : في هذا على الاقل سأصبح ايطالية ، ولا فائدة من ان يعرف ذلك » .

وعلى المرتفع ترجل الشابان عن الجواد ليرتاحا .

« قفزت الى الأرض قبل جيزيب ، ضاربة العشب الأمغر بسوطها لتطرد الحراذين وجلست . مستقيمة على الارض المحرقة .

« — في الشمس يا سيبيل ؟

« وجيزيب يتمدد بمحاذاة حائـــط ، في الظل الضيق . ويسند رأسه الى الطلاء الحار ، وينظر . وفكر بأن حركاتها لن تطلب الا أن تكون ظريفة ، ولكنها هي غير راضية عن نفسها » .

وانطوان محموم جداً فأخذ ينتقل من فقرة الى اخرى محاولاً ان يفهم قبـــل ان يقرأ . وعلق نظره بعبارة .

« انها انكليزية وبروتستانتية » .

وقرأ المقطع :

« بالنسبة إليه ، كل شيء فيها غير عادي ، معبود ، مقيت . جاذبية ، سواء

أكانت مولودة ، او عاشت ، او تعيش في عـــالم شبه مجهول منه . حزن سيبيل . طهارتها . تلك الرقة . ابتسامتها ، كلا ، انهـا تبتسم بالعينين وليس بالشفاه . هذه العاطفة التي يشعر بها نحوها، صارمة ، ساخطة ، متجهمة، انها تجرحه . تبدو انها ترغب ان يكون من عرق ادنى ، ولكن وهو يتعذب . وتقول : انتم الايطاليون . جماعتكم من اهـــالي الجنوب . انهـــا انكليزية وبروتستانتية » .

امرأة التقى بها جاك ، محبوبة ؟ وربما يعيش معها ؟

« هبوط خلال الكروم واشجار الليمون . الشاطىء . قطيـع يدفعه طفل ، نظرة قاتمة . الكتف عار تحت الخرق . انه يصفر منادياً كلبين ابيضين ليلحقـا به ؛ جرس البقرة التي تقود ، انه يرن . اتساع غـير محدود . شمس . الاقدام تصنع ثقوب ماء في الرمل » .

هذه الأوصاف تزعج انطوان الذي قفز صفحتين . هـذه هي سيبيل الفتية في بيتها :

« دارة لونادورو . بنـــاء منهار ، محاصر بالورد . قسم مزدوج مخصص للازهار مليء بالزهور المعمرة » .

ادب .. وقلب انطوان الصفحة وهذه اوقفته لحظة :

« حقل الورود، انهيار الارجوان، قبة منخفضة من زهور في باقات، حيث رائحتها في الشمس لا تكاد تحتمل، تخترق الجلد وتلج رويداً رويداً الى الشرايين، فتشوّش النظر . وتبطىء نبضات القلب وتجعلها تسرع » .

بماذا يذكره حقل الورود هذه ؟ انه يقود الى قفص الطيور « حيث تختلج الحمائم البيضاء » . ميزون – لافيت ؟ فعلاً . بروتستانتية ! أتكون سيبيل ؟ هذه هي :

« سيبيل في ثياب أمازونية، ارتمت على مقعد . منفصلة الذراعين، مضمومة الشفتين ، قاسية العين . ما ان تصبح وحدها حتى يصبح كل شيء واضحـاً . لم تُعط لها الحياة الا لتجعل جبزيب سعيداً . اني احبه حين لا يكون موجوداً .

الأيام التي أنتظر مجيئه فيها بأكبر قدر من اليأس . أنا واثقة من اني أجعله يتألم . مشادّة مطلقة . خجل . انهن محظوظات اولئك اللواتي يستطعن البكاء . أنا ، هذا القلب المقفل ، المتصلب » .

متصلب ؟ وابتسم انطوان : كلمة طبيب . كلمة جاءت منه دون شك .

« أيحزرني ؟ لكم أود ان يحزرني . وحين يبدو انه حزرني فإني لا استطيع ، لا استطيع ابداً ، أحيد ، اكذب ، لا يهم ، لا يهم ماذا ؛ يجب ان انجو » .

والآن ، هذه هي الام :

« هبطت مسز بويل الدرجات ذات السطح . شمس في شعرها الابيض . تحمي عينيها بيدها وتبتسم قبل ان تتكلم . قبل ان تشاهد سيبيل . تقول ، رسالة من وليم . رسالة جميلة . لقد بدأ دروسه . سيبقى بضعة اسابيع ايضاً في بيستوم ».

« سيبيل تعض شفتيها . يأس . هل كانت تنتظر عودة اخيها لكي يُحَل لغزها ؟ لتصبح مفهومة ..؟».

ليس هناك شك : مدام دي فونتانان ، جني ، دانيال ، مجموعة ذكريات . وانتقل انطوان .

انه يقلب صفحات الفصل التالي . كان يود ان يجد تلك الصفحة عن الاب سيرنغو . هذه هي .. كلا . الامر يتعلق بقصر سيرنغو . مسكن قديم على ضفة الخليج .

« .. النوافذ الطويلة ذات العقود والتي تؤطرها نقوش على اشكال أغصان مرسومة على الجدار .. »

أوصاف : خليج فيزوف .

وقفز انطوان الصفحات ، قارئاً عبارة من هنا ، ومن هناك لكي يفهم .

ان جيزيب هذا يسكن وحيداً مع الخدم ، في ذلك البيت الصيفي . واخته انيتا في خارج البلاد . والام ميتة ـ وهذا طبيعي . والاب ، المستشار سيرنغو ، تبقيه في نابولي وظيفة حاكم كبيرة ، ولا يأتي الا نهار الاحد واحياناً

امسية واحدة في الاسبوع. ولاحظ انطوان: «هذا ما كان يفعله ابي في ميزون».

« كان ينزل من القارب ليتناول عشاءه . هضم . سكاير ، والمئة خطوة في الرواق ذي الاعمدة . ينهض عاجلاً ليوبخ خدم الاسطبل ، وعمال الحديقة. وكان يركب صامتاً في اول زورق صباحي .. »

آه ! صورة الاب .. انطوان يدنو منها مرتجفاً :

« المستشار سيرنغو . نجاح اجتماعي . كل شيء فيه يتداخـــل ويتكامل . وضعية العائلة ، وضعية الثروة ، ذكاء مهـني ، روح التنظيم . سلطة رسمية ، مقدسة ، هجومية . نزاهة من جميع النواحي . اكثر الفضائل قسوة . والمظهر الجسدي ايضاً. اطمئنان . قوة. عنف تحت ضغط، يهدد دائماً. ويملك نفسه دائماً . صورة هزلية مهيبة تفرض نفسها على احترام الجميـع ، وعلى الخوف. ابن الكنيسة الروحي ، ومـــواطن نموذجي . في الفاتيـكان ، كما في البلاط ، في المحكمة ، في مكتبه ، في العائلة ، على المائدة ، في كل مكان ، جلي ، قـادر ، بعيد المنال ، راض ، جامد . قوة . والافضل ، وزن . ليس قوة متحركة بل قوة جامدة ، تزن . مجموع تام . كل . اثر تذكاري » .

« آه ! ضحكته الصغيرة ، الباردة ، الداخلية .. »

وتشوش كل شيء للحظة امام عيني انطوان . لقد دهش لجرأة جاك . كم تبدو له الصفحة الثأرية حقودة حين يتمثل العجوز الساقط عن مقامه :

مطية بطرة . تريلبي ، الجواد الصغير ..

وازدادت المسافة فجأة بينه وبين اخيه .

« آه ! ضحكته الصغيرة ، الباردة، الداخلية، ليتمم صمتا مهيناً. عشرون سنة على التوالي . احتمل جيزيب هذا الصمت ، وتلك الضحكات . في التمرد .

«نعم . حقد وتمرد ، كل ما في ماضي جيزيب . اذا فكر في صباه يتصاعد فيه ذوق للانتقام . منذ الطفولة الاولى ، فان غرائزه كلها تدخل في صراع ضد الاب بقدر ما تتخذ شكلاً . كل شيء . فوضى ، عدم احترام ، كسل ، كان

يتصنعها بداعي رد الفعل . كسول ، وخجل من كونه هكذا . ولكنه يتمرد هكذا بشكل افضل ضد القانون المقيت . شهية لا تقاوم للسوء . ان للعصيان طعم الثأر .

« كانوا يقولون : ولد لا قلب له . هو الذي كانت صرخة حيوان جريح ، وكان متسول ، وابتسامة سيدة يلتقي بها تحت مدخل كنيسة ، تجعله يبكي في المساء في سريره . وحدة ، قفر ، طفولة ملعونة . لقد استطاع عمر الرجل ان يأتي دون ان يقطف جيزيب عن فم ٍ آخر غير فم اخته الصغيرة كلمة عذبة تقال له » .

وفكر انطوان : وانا ؟

وتميزت النبرة بالحنو عند التكلم عن الاخت الصغيرة :

« انيتا ، انيتا ، سوريللينا . اعجوبة جعلتها تزهر في هذا الجفاف.

« الاخت الصغرى . اخت يأسه كولد ، وتمرده . الانارة الوحيدة ، الينبوع البارد ، الينبوع الوحيد في هذا الظل القاحل » .

وأنا ؟ ها انا : بعيد قليلاً . المقصود اخ مسن ، همبرتو :

« احياناً في نظرة اخيه البكر.كان جيزيب يميز جهداً لاظهار تعاطف ..»

جهد ؟ الناكر الجميل !

« .. لتعاطف يفسده التساهـل . ولكن ، بينهما عشر سنوات ، مهواة . كان همبرتو يختبىء من جيزيب الذي كان يكذب على همبرتو » .

وتوقف انطوان . لقد تبدد اضطراب النفس الذي شعر به في البدء ؛ قليلاً ما يهم ان تكون مادة هــــذه الصفحات شخصية . انه يسأل نفسه : ما قيمة احكام جاك ؟ وبالاجمال ، فان كل هذا ، حتى ما يتعلق بهمبرتو ، هو صحيح . ولكن يا لها من نسمة كراهية ! بعد ثلاث سنوات من الفراق ، والعزلة . ثلاث سنوات دون إخبار من اهله ، ايجب ان يكره جاك ماضيه ليحصل على لهجات كهذه ؟ وشعر انطوان بالقلق : اذا وجد اثر اخيه ، فهل سيجد طريق قلبه ؟

وقلب اوراق بقية الاقصوصة ليرى اذا كان همبرتو .. كلا ان اسمه لا يكاد

يظهر فيها . خيبة امل خفية ..

ولكن عينيه سقطتا على مقطع اثارت لهجته فضوله :

« بدون اصدقاء ، متكور كالكرة ، منحن على فوضاه ، متروك للزعازع.. »

حياة جيزيب ، وحده في روما . حياة جاك في احدى المدن الاجنبية ؟

« في بعض الامسيات . في غرفته ، هواء ثقيل جداً . الكتاب يسقط . ينفخ القنديل ويسير في الليل ، ذئب صغير . روما ميسالين ، احياء قذرة مبذورة بالاشراك ومفاتن النساء . مبهماتها تحت ستار قد أسدل بوقاحة . ظل مأهول ، ظلال تعرض نفسها ، ظلال تبحث ، دعارة . يتسلل على محاذاة الجدران المثقوبة بالكمائن . ايهرب من نفسه ؟ اية تهدئة لهذا العطش ؟ ساعات ، والذهن معمور بجنونيات لم تُرتكب . انه يتوه ، غير شاعر ، والعينان ملتهبتان ، والحمى في اليدين ، والحلقوم بالٍ غريب عليه كما لو انه باع الروح والجسد . عرق قلق ، عرق الميل الى الشر . انه يلتفت مستديراً ، ويجول في الازقة . ويمس نفس فخاخ الطيور ويعود الى مسها . ساعات . ساعات .

« فات الوقت ، الانوار تطفأ تحت الستائر المريبة . والشوارع تفرغ. وحده مع شيطانه . مستعد الى اية سقطت كانت . فات الوقت . عاجز عن الافراط الدماغي للرغبة .

« وينتهي الليل . نقاوة صمت متأخرة . عزلة فجر دينية . فات الوقت .

« متقزز ، عاجز ، غير راض . ذليل ، جر نفسه حتى غرفته ، وانزلق بين اغطيته . دون توبيخ ضمير « مخاتل . يمضغ مرارة عدم جرأته حتى شحوب النهار » .

لماذا كانت هذه الصفحة مؤلمة لانطوان ؟ كان يشك في ان صغيره قد عاش ، وانه تلوث بكثير من اللقاءات ؛ انه مستعد للقول : « ما يهم ! » . أو ايضاً : « احسن ! » إلا انه ..

واسرع يقلب بعض الصفحات . ولم يتوصل إلى ان يقرأ بتتابع ويـدرك سير الاعمال بقدر الامكان .

ان دارة بويل ، على شاطىء الخليج ، قليلة البعد عن قصر سيرنغو . واثناء العطلة ، فإن جيزيب وسيبيل يتجـاوران . سباق على الحصان ، أمسيات في الزورق ..

« كان جيزيب يأتي كل يوم إلى دارة لونادورو . ولم تكن سيبيل ترفض أي لقاء . لغز سيبيل . جيزيب يدور حولها دون سرور » .

ان حب جيزيب هذا يزحم القصة ؛ وكان انطوان قد انزعج منه .

الا انه ألزم نفسه بالقراءة ، على اقسام ، مشهداً طويلاً كفاية. يتبع التظاهر بالانفصال بين الشابين .

« الساعة السادسة مساء . يصل جيزيب الى الدارة . سيبيل . الحـــديقة السكرى بالروائح تخمر نهارها بالشمس . امير الاسطورة ، جيزيب يتقدم بين جدارين من نار ، ممشى الرمان المزدهر الذي يلهبه المغيب . سيبيل ، سيبيل . لا احد . نوافذ مقفلة ، ستائر مسدلة . توقف . السنونوات المجنونة حوله تثقب الهواء برشقات تصفر . لا احد . ربما تحت العريش ، وراء البيت ؟ امسك نفسه عن الركض .

« عند زاوية الدارة ، نفخة في الوجه « صوت البيانو . سيبيل . باب قاعة الاستقبال مفتوح . ماذا تعزف ؟ آهات مؤثرة ، استفهام شاكٍ يرتفع في عذوبة المساء . انعطافات بشرية ، عبارة محكاة ومع ذلك لا تدرك ، ولا تترجم ابداً بلغة واضحة . انه يسمع ، ويقترب ، ويضع رجله على العتبة . سيبيل لم تسمع شيئاً . الوجه مكشوف بقحة . جفون ترف ، فم ممدود . كل شيء ليس سوى إقرار . النفس، تحت هذا القناع ، النفس والحب هما هذا القناع نفسه . عـزلة شفافة، سر اكتُشف ، فضح . حضنة خفية . انها تعزف . وحلزونية الاصوات تلتف رائعة في تلك اللحظة . نحيب ُخنق بسرعة ، ضيقة تخف وتحوم وتظل

معلقة ، قبل ان تنحلّ في الصمت باعجوبة ، كما في الفضاء طيران عصافير هاربة .

« ورفعت سيبيل يديها. البيانو يرن ، اذا وضع المرء عليه الكف يشعر بجلبة قلب يعيش . انها تظن نفسها وحيدة . تدير رأسها . بطء ، كياسة مجهولة منه . فجأة .. »

أدب ! أدب ! هذا القسم المأخوذ بلمسات مقتضبة وعنيفة هو مثير للسخط. هل كان جاك فعلاً مشغوفاً بجني ؟

ان مخيلة انطوان تتقدم القصة . وعاد إلى النص .

واخيراً استلفت نظره من جديد اسم همبرتو . مشهد قصير في قصر سيرنغو. ذات مساء حيث جاء المستشار يتناول عشاءه بغتة ؛ مصحوباً بولده البكر :

« غرفة الطعام الفسيحة . ثلاث نوافذ ذات أقواس ، على سماء وردية يدخن عليها فيزوف . جدران من كلس ورخام ، ركائز خضراء تحمل القبة في صورة تخدع النظر .

« صلاة قبل الطعام . شفتا المستشار الضخمتان تتحركان . رسمه لإشارة الصليب ملأ القاعة . رسم همبرتو إشارة الصليب بدافع اللياقة . جيزيب تشدد ولم يرسم إشارة الصليب . وجلسوا . تقشف السماط الكبير الأبيض . لوازم المائدة الثلاثة متباعدة . فيليبو ينتعل اللبّاد وصحافة من فضة » .

وفي مكان أكثر بعداً :

« أمام الأب ، لم يلفظ اسم آل بويل ابداً . وقد رفض ان يعرف وليم . وهذا الغريب . رسام . مسكينة إيطاليا ، مفترق طرق ، فريسة التائهين . السنة الماضية للقطع في اللحم الحي : اني أمنعك من رؤية هؤلاء الهراطقة .

« هل يرتاب في انه يُعصى ؟ »

وتجمل انطوّان بالصبر ، وقلب الصفحات .

وها هو الأخ الاكبر من جديد :

« ألقى همبرتو بعض الأخبار غير الضارّة . وأطبق الصمت . جبهة جميلة ،

همبرتو . نظرة تأملية فخور . ما من شك انه في الخارج شاب ومحتدم . لقد قام بدراسات . أمامه مستقبل اكليل غار . جيزيب يحب أخاه . لا كأخ . كعم. يستطيع ان يصبح صديقاً. لو كانا وحيدين لمدة طويلة كافية من الممكن ان يتكلم جيزيب . ان انفرادهما ببعضهما البعض نادر ومركّب مقدماً . ليس هناك مودة خالصة ممكنة مع همبرتو » .

وقال انطوان لنفسه متذكراً صيف ١٩١٠ : « بالتأكيد . ذلـــك بسبب راشيل . إنها غلطتي .. »

وقطع القراءة واخذ يفكر مسنداً رأسه باسترخاء على مسند المقعد . لقـد اخفق : هذه الثرثرة الادبية لا تقود إلى شيء . وتترك سر الرحيل كاملاً .

الاوركسترا تعزف لازمة أوبريت من فينا ترددها جميـــع الشفاه سراً . ويرافقها هنا وهناك صافرون غير مرئيين . والثنائي الوديع لم يتحرك : المرأة شربت حليبها ؛ انها تدخن وتضجر ؛ ومن وقت إلى آخر ، واضعـــة ذراعها العاري على كتف صديقها الذي نشر « حقوق الانسان » ، وتداعب شحمة اذنه لاهية وتتثاءب كهرة .

ولاحظ انطوان: « قليل من النساء. تقريباً كلهن ناضرات ولكنهن مبعدات إلى المخطط الثاني .. شريكات بسيطات باللذة » .

وارتفعت مناقشة بين جلساء طاولتين من الطلبة ؛ وانفجرت أسماء بيغي وجوريس[1] كالصواريخ ..

وهناك اسرائيلي شاب ذو ذقن زرقاء جاء يجلس بـين « حقوق الإنسان » والهرة المتضجرة .

وبذل انطوان جهداً ليعود إلى القراءة . وأضاع صفحته . وعند تصفحه المجلة وقع على الأسطر الأخيرة من « لاسوريللينا » .

---

١ ـ سياسي فرنسي ولد في كاستر (١٨٥٩ ـ ١٩١٤) خطيب لامع وأحد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي ومدير جريدة الاومانيته ، ومؤسس الحزب الاشتراكي الموحد. اغتيل في اول الحرب العالمية الاولى .

« .. هنا ، الحياة والحب مستحيلان . وداعاً

« ..توق المجهول، توق غدٍ جديد . سكر. نسيان.البدء بكل شيءجديد

« أول قطار إلى روما. روما،أول قطار إلى جنوى. جنوى أول مركب».

لم يلزم أكثر من ذلك لإثارة اهتمام انطوان دفعة واحدة . صبراً ، فسر جاك هنا ، مخبأ بين السطور ! يجب السير حتى النهاية ، والقراءة بهدوء ، صفحة بعد صفحة .

عاد إلى الوراء ، ووضع جبهته بين يديه ، وأنهمك .

هذا هو وصول انيتا ، لاسوريللينا ، التي جاءت من دير سويسري حيث كانت تنهي دروسها :

«انيتا، متغيرة قليلاً. في الماضي كانت الخادمات فخورات بها . النابوليتانية الصغيرة . كتفان سمينان . البشرة داكنة . الفم لحيم . العينان أيضاً تنفجران بالضحك . بمناسبة كل شيء ، بمناسبة لا شيء » .

لماذا إذن إشراك جيز في هذه الحكاية ؟ ولماذا جعل منها اختاً حقيقية لجيزيب ؟ ومع ذلك فقد شعر انطوان ببعض القلق منذ المشهد الأول بين الأخ والأخت .

وقد ذهب جيزيب لملاقاة انيتا ، وعادا في عربة إلى قصر سيرنغو .

« واختفت الشمس وراء الذرى . هدهدة العربة القديمة تحت المظلة المهتزة . ظل . رطوبة مفاجئة .

« انيتا وثرثرتها . أدخلت ذراعها تحت ذراع جيزيب . وثرثرت . ضحك . لقد كان وحيداً حتى هذا المساء ، سيبيل لا تبدد الوحدة ، سيبيل ، سيبيل ، ماء قاتم صافٍ ابدياً ، دوار الطهارة ، سيبيل .

« المناظر الطبيعية تضيق حول العربة . انزلق من الغسق إلى الليل .

« وأنيتا متكومة كما في السابق . قبلة سريعة . شفتان حارتان . مطاطتان، خشنتان من الغبار . كما في السابق . في الدير ايضاً ، ضحك ، ثرثرات ، قُبَل .

كما في السابق . أخ وأخت . جيزيب شغوف بسيبيل ، أية عذوبة حارة يجدها في مداعبة لاسوريللينا. يرد إليها قبلاتها. لا يهم ، على العين ، في الشعر . قبلات أخوية تفرقع . الحوذي يضحك . وهي تثرثر ، الدير ، الامتحانات . وجيزيب أيضاً ، عدة مرات ، الأب ، الخريف القريب ، المستقبل . وامتلك نفسه ، ولم يلفظ اسم آل بويل . انيتا ورعة . في غرفتها ، ست شمعات زرقاء لهيكل العذراء . اليهود صلبوا المسيح ، ولم يسبروا غور ابن الله . ولكن الهراطقة كانوا يعلمون . وقد انكروا الحقيقة بدافع الكبرياء . »

في غياب الأب يسكن الأخ والأخت قصر سيرنغو .

وهناك بعض الصفحات لم ترق لانطوان من أولها إلى آخرها :

« في الغد ، جيزيب لا يزال نائماً . انيتا تدخل . لقد تغيرت انيتا قليـــلاً . دائماً تلك النظرة الواسعة الطاهرة ، المندهشة بشكل مشوش ، ولكنها اكـثر حرارة ، اي شيء تافه يشوشها إلى النهاية. جاءت إلى سريره. لا تزال مسترخية فاترة . مضطربة ، غير مغناجة ، طفلة . كما في السابق . كانت قد اخرجت من الصناديق تذكاراتها عن سويسرا ، صور. شفتاها تروحان وتجيئان على الاسنان المصفوفة . وسقطتها في التزحلق على الجليد . رأس صخرة في الثلج . لا تزال العلامة في الركبة ، انظر . ربـــلة ساقها تحت المئزر . فخذها عار . لامست الندبة ، عروة شاحبة في البشرة السمراء . سهو . انها تسر بملامسة بشرتها . تحب مرآتها صباحاً ومساء وتبتسم لجسدها . انها تثرثر . تفكر بألف شيء . دروس في ترويض الخيل . سوف أحب ركوب الخيل معك ، او ايضاً ، جواد صغير وملابس امازونية ونجعل الخيل تخب على الشاطىء . انها تجس دائـماً . وتطوي وتمد ركبتها اللامعة . وجيزيب يطرف بأهدابه ويتمدد في سريره . المئزر يسقط اخيراً . تركض إلى النافذة . بريق الصباح على الخليج . كسول . الساعة التاسعة ، لنركض ونسبح . »

« وامتدت هذه المودة الخالصة عدة ايام . جيزيب يقسم وقته بين سوريللينا

والانكليزية الغامضة ».

وطاف انطوان الصفحات دون ان يتوقف .

وذات يوم جاء جيزيب باحثاً عن سيبيل لاجل نزهة على الخليج ، لقد حدث مشهد يبدو حاسماً . وقرأه انطوان بكامله رغم « المحسنات » التي لا تحتمل :

« سيبيل تحت المظلة ، على حافة الشمس . مفكرة . يدها التي في النور مستندة الى عمود ابيض ، اكانت تترقب ؟ ـ لقد انتظرتك البارحة . ـ لقد بقيت بجانب انيتا . ـ لماذا لم تأت بها ؟ النبرة لم تعجب جيزيب ».

وقفز انطوان الى مكان ابعد قليلاً :

« .. جيزيب يتوقف عن التجذيف . الهواء يتوقف حولها صمت مجنح . الخليج من زئبق ، روعة . اصطدام رخو للماء بالزورق . ـ بماذا تفكر ؟ ـ وانت ؟ صمت . صمت طويل . ـ وانا ايضاً افكر فيك . ـ انه يرتجف . ـ للحياة كلها يا سيبيل ؟ آه ! انها تقلب جبهتها . ويرى الشفتين تنفصلان بعذوبة ، واليد تمسك حافة الخشب . ارتباط صامت ، شبه كئيب . الخليج يشوي تحت نار عمودية . انعكاسات اضواء ، غشاوة من لمعان الشمس . حرارة. جمود . الزمن، الحياة معلقان. ضيق نفس لا يحتمل. من حسن الحظ ان طيران زمّج الماء اثار حركة حولها . كانت تنطلق ، وتنخفض ، وتلامس الماء وتغمس منقارها ، وترتفع . لمعان الاجنحة في الشمس ، صليل سيوف ، اننا لا نفكر بالاشياء نفسها يا سيبيل » .

بالفعل ، فقد كان جاك يذهب كثيراً الى بيت آل فونتانان ، في ذلك الصيف . هل حب جاك لجني ، الذي ربما اخفق، يمكن ان يسبب رحيل جاك ؟

عدة صفحات ايضاً . وفجأة يبدو العمل مسرعاً .

من خلال مشاهد الحياة اليومية التي تذكر انطوان بحياة جاك وجيز في ميزون ، تابع التطّور المقلق لهذا الحب بين الاخ والاخت . هل كانا يعيان صفة هذه المودة الخالصة ؟ بالنسبة لأنيتا ، كانت تعرف ان حياتها منجذبة نحو حياة جيزيب ؛ ولكن هذا بدافع من سلامة الطوية ما دام نقاء سريرتها حقيقياً ،

بحيث تسبغ على حرارتها قناع عاطفة مسموح بها . وبالنسبة لجيزيب، فان الحب الظاهر الذي يحمله لسيبيل ، بدا في أول الأمر أنه يشغله ويعميه كفاية لكي لا يميز الجاذبية الطبيعية التي تمارسها اخته عليه . ولكن كم من الوقت يستطيع ان يظل مخدوعاً حول طبيعة حبه ؟

في نهاية ما بعد الظهر يقترح جيزيب على لاسوريللينا :

« أتريدين نزهة في هذا الطقس المعتدل ، غداء في مطعم ، سباق كبير حتى في الليل ؟ انها تضرب بيديها . احبك يا بيبينو حين تكون مرحاً » .

هل تبصر جيزيب فيما سيفعل ؟

بعد وليمة مرتجلة في قرية صائدي سمك ، سار بالفتاة على طرقات لا تعرفها .

« انه يمشي بسرعة خلال أشجار الليمون ، طرقات ضيقة من الحجارة سار فيها عشرين مرة مع سيبيل . انيتا تصاب بالدهشة . الأنت واثق من الطريق ؟ دار إلى الشمال . منحدر . جدار قديم ، باب منخفض مستدير . توقف جيزيب وضحك . تعالي وانظري . اقتربت دون حذر . دفع الباب . جرس صغير يرن . أنت مجنون . قادها ضاحكاً تحت الصنوبر . الحديقة سوداء . شعرت بالخوف ، لم تفهم جيزيب .

« ودخلت إلى دارة لونادورو » .

الباب المنخفض ، المستدير ، الجرس الصغير ، هذه الكتلة من أشجار الصنوبر ، جميع التفاصيل ، هذه المرة ، كلها امينة جداً ..

« السيدة بويل وسيبيل تحت المظلة . اقدم لك اختي الصغيره . أجلست ، وسئلت ، واحتُفل بها . انيتا تظن انها تحلم . انيتا بين هرطوقيتين . استقبال الام ، شعرها الأبيض ، ابتسامتها . تعالي معي لأعطيك ورداً يا بنيتي . حقل الورد ، قبة مظلمة تنشر عنفها وعذوبتها فيما حولها .

سيبيل وجيزيب ظلا وحيدين . ايأخذ يدها ؟ سوف تتهرب ، هذا التحفظ

المتصلب اكثر قوة من إرادتها ، اكثر من حبها . انـــه يفكر : لتدع نفسها تحب بمشقة .

« السيدة بويل قطفت وروداً لأنيتا . ورود ارجوانية ، صغيرة ، مضمومة دون شوك ، ورود أرجوانيـــة ذات قلب اسود . يجب ان نعود يا عزيزتي ، سيبيل تعيش وحدها ، وانيتا تعتقد انها تحلم . انها هنا تلك القبيلة الملعونة ؟ أمن الممكن ان تخاف من هؤلاء الناس كرقية مؤذية ؟ »

وقفز انطوان صفحة .

ها هما ، انيتا وجيزيب ، على طريق العودة :

« القمر مختبىء . الليل اكثر دكنة . انيتا تشعر انها خفيفة ، منتشية . آل بويل هؤلاء . انيتا تعلّق ثقـــل جسمها الشاب في ذراع جيزيب ، وجيزيب يقودها ، مرتفع الرأس ، والقلب في مكان بعيد ، في حلمه . هل سيتواكل ؟ لا يتمسك بذلك ، ينحني . انت تعلمين انني لا اذهب إلى هناك لأجل وليم فقط .

« لم تميز وجهه ، غنائية صوته المنخفضة . ليس لأجل وليم فقط ؟ وتسارع الدم في شرايينها . انها لم تدرك شيئاً . سيبيل ؟ سيبيل وجيزيب ؟ انها تختنق ، وتتملص ، وتود الهرب مجروحة ، السهم في الخاصرة . بدون قوة . أسنانـها تصر . بضع خطى . انها ترتخي ، تترنح ، وتهبـــط على العشب تحت أشجار الزيزفون المرتفعة ، قالبةً رقبتها .

« وهو يركع . لم يفهم . ما الأمر ؟ ولكنها تلقي ذراعيها كالمجسّات . آه ! هذه المرة لقد فهم . انها تنخطف وتنهض ، وتشد نفسها إليـــه ، وتنتحب جيزيب ، جيزيب .

« صرخة حب . لم يكن قد سمعها ابداً ، ابداً ، سيبيل محاطة بلغزهـا سيبيل ، الغريبة . وهذا الشقاء بقربه ، انيتا . بقربه هـذا الجسد الفتي ، الشهواني ، الممتلىء ، المستسلم . ألف فكرة معاً في رأسه ، طفولتها الحبية ، كثير من الثقة ، كثير من الحنو ، يستطيع ان يحبها ، انها من مناخه ، ويريد التخفيف عنها ، وشفاءها . وبقربه ذلك الفتور الحيواني الذي يشد وثاقه ، السيقان فجأة . موجة عنيفة

تحمل كل شيء ، والضمير . تحت منخريه رائحة الشعر المعروفة والجديدة ، وتحت شفتيه وجه راشح بالعرق ، وشفة مضطربة . شراكة بالليل ، بالعطور ، بالدم ، فورة لا تقهر . انه يحني فم عاشق على ذلك الفم الرطب ، المفتوح قليلاً ، الذي ينتظر ولا يعرف ماذا . تتلقى القبلة ولا تردها . ولكن كما تستسلم لهـــا تعود إليها . أي انطلاقة مزدوجة وغاضبة تصطدم عند التقـاء هذين الفمين . رزانة فاجعة ، عذوبة . اختلاط انفاس ، وأعضاء ، ورغبـات . الاشجار فوقهما تحوم ، والنجوم تتلاشى . ملابس مرفوعة ، متناثرة ، جاذبية لا تقاوم ، مكشوفة ، احتـكاك بشرات مجهولة ، انسحاق ، احتـكاك ، سحق رجـولي ، رضى متواضع ، عنيف ، مأخوذ ، مأخوذ ، سكر مؤلم ، زواجي .

« آه ! نفس وحيد والوقت معلق .

« صمت مزمجر بالاصداء ، طنين ، قلق نفسي منتشر ، جمود . وجه الرجل ، لاهث ، منهار على الصدر الرؤوم ، جلبة القلوب التي تنبض ، الضجات المعاكسة الناتجة عن قلبيهما المميزين اللذين لا يتوافقان .

« وهذا الشعاع القمري الحاد المفاجىء . نظرة غير متحفظة ، شرسة تفصلهما بضربة سوط .

« ونهضا بسرعة . تيهان . أفواه ملتوية . انهما يرتجفان . ليس من الخجل . بل من السرور . من السرور والمفاجأة . من السرور والرغبة ايضاً .

« في تجويف السرير العشبي ، الورد بشكل باقة يتناثر ورقه تحت القمر . وعندئذٍ ، هذه الحركة الرومنتيكية . انيتا تمسك الباقة ، تهزها . طيران وريقات التويج يغطي العشب المداس الذي يحتفظ بطابع جسد واحد » .

وتوقف انطوان مرتعشاً ، ثائراً .

ذهول ! جيز ؟ هل هذا معقول ؟

ومع ذلك فهذا المقطع كله يرشح بالحدّة : ليس فقط الجدار القديم ، والجرس الصغير ، وحقل الورد ، بل حين تتردد كلها معاً ، متعانقة ، فإن كل وهم يزول . وهذا ليس على طريق حجري في إيطاليا ، ولا حتى في ظلال الليمون ، انه في

ذلك العشب الملتف في ميزون ، والذي يتخيله انطوان جيداً ، انـــه تحت زيزفونات الجادة العريقة في القدم. نعم، جاك ذهب بجيز إلى بيت آل فونتانان، وفي ليلة مماثلة من ليالي الصيف ، عند العودة .. سذاجـــة ! يعيش بقربها ، بالقرب من جيز ولا يرتاب بشيء! جيز؟ لـكم استطاع هذا الجسد الصغير الطاهر ان يخفي سراً كهذا ، كلا ، كلا ..

في اعماقه ، كان انطوان يقاوم ولا يزال يرفض ان يصدّق .

ومع ذلك فكثير من التفاصيل ! الورود .. الورد الاحمر ! آه ! ادرك الآن تأثر جيز حين تلقت ذلك الطرد المقفل من بائع زهور في لندن ، ولماذا كانت تطلب اجراء تحقيق آني في انكلترا حول هذا الاثر الذي لا معنى له تقريباً ؟ بالتأكيد كانت وحدها تفهم رسالة هذه الورود الارجوانية، سنة ، يوماً بعد يوم تقريباً ، بعد السقوط تحت أشجار الزيزفون !

إذن فجاك سكن لندن ؟ وايطاليا ؟ وسويسرا ؟ الا يزال في انكلترا ؟ بالامكان مراسلة تلك المجلة في جنيف من هناك .

وفجأة ، انيرت اجزاء اخرى كما تنهار ، واحداً اثر واحـــد ، ذيول الظل الواسعة حول نقطة مضيئة بشكل مشوش . غياب جيز . إصرارها على ان تُرسَل إلى ذلك الدير الانكليزي ، لتقوم بالبحث عن جاك ! (وانطوان يلوم نفسه الآن لأنه أهمل أثر بائع الورد اللندني ، منذ الاخفاق الاول) .

اخذ يحاول التفكير بشيء من التنسيق ، ولكن كثيراً من الافتراضات ، كثيراً من الذكريات ايضاً قد قامت تغزو رأسه . ان الماضي كله يبدو له هـذا المساء تحت نور جديد . انه يفسر الآن يأس جـــيز بعد اختفاء جاك . يأس لم يداخله اية ريبة بمعناه ولكنه سعى لتلطيفه . ويتذكر علاقاته بجيز ، ورأفته ، ومع ذلك ألم تولد عاطفته نحو جيز تدريجياً من هذه الشفقة ؟ في ذلك العهد لم يكن انطوان يستطيع التحدث عن جاك لا مع والده المصدوم لافتراض الانتحار ولا مع المدموازيل العجوز المنصرفة إلى صلاتها ، والى تساعياتها [1] . اما جيز

١ ـ صلوات منها ما هو بشكل طلبات من القديسين ، ومنها ما يتلى قبل العيد بتسعة أيام .

فبالعكس ، كان يشعر بها قريبة جداً ، متحمسة جداً ! كل يوم ، بعد العشاء ، كانت تنزل لتتسقط الاخبار . وكان يشعر بسرور حـــين يخبرها عن آماله ، ومساعيه ، ألم يكن قد بدأ يستسيغ هذا الكائن المرتعش ، المنطوي على سرة الغرامي ، في تلك السهرات ذات المودة الخالصة ؟ ومن يدري اذا لم يكن قد تعرض ، خلسة ، للفتنة المسكرة المنبعثة من هذا الجسد الفتي المقدس آنذاك ؟ انه يتذكر حركات الصغيرة الودود ولمسات حبها الرقيقة كطفلة تتألم . انيتا .. لكم خدعته ! وهـــو الذي تركه غياب راشيل في املاق عاطفي ، لكم تخيل بسرعة .. شقاء ! ويهز كتفيه ، ويشغف حباً بجيز ببساطة لأن لديه حباً بدون استعمال ؛ وظن ان جيز تميل إليه ، لأنها في هذا الحب المبتور ، في هذا التشوش كانت مرتبطة بالكائن الوحيد القادر على ان يجد لها حبيبها !

وحاول انطوان طرد هذه الافكار . وقال لنفسه: « حتى هنا ، فما من شيء أوضح لي رحيل جاك المفاجيء بعد » .

وبذل جهداً ليتابع قراءته .

لقد عاد الأخ والأخت إلى قصر سيرنغو تاركين الورود مبعثرة على العشب .

« العودة ، جيزيب يشدد خطى انيتا . يذهبان نحو ماذا ؟ حضنة مقتضبة لا يمكن ان تكون سوى تمهيد . ذلك الليل الطويل الذي يسيران نحوه . ماذا سيجري في غرفتيها تلك الليلة ؟ » .

ويتعثر انطوان في السطور الاولى . وصعدت الى وجهه دفقة جـديدة من الدم .

والصحيح ، ان مـا يشعر به لا يشبه النفور . ان حصافته تلقي سلاحها بسرعة امام عاطفة مشبوبة تتوطد . ولكنه لم يسيطر على دهشة مهتاجة يتدخل فيها الحقد : انه لم ينس ذلك اليوم الذي ثار فيه ثائر جيز امام مقدماته الخجولة. وهذه القراءة توقظ رغبته فيها : رغبة جسدية بحتة ، رغبة متحررة . الى درجة انه احتاج ، لاستعادة انتباهه ، الى ان يبعد رؤيا الجسد الفتي اللدن الاسمر .

« .. تلك الليلة الطويلة التي يسيران نحوها ، مـاذا سيجري في غرفتيهما تلك الليلة ؟

« الحب يطويهما تحت انفاسه . يتقدمان صامتين ، معمورين ، متخدرين من اذى السحر . والقمر المتقطع يرافقهما . انه ينير قصر سيرنغو ، ويخرج الاعمدة الرخامية من الظلمات . ويجتازان السطيحة الاولى . خداهما يتلامسان وهمـا يسيران . خد أنيتا محرق . اية جسارة باتجاه الخطيئة في جسد الطفلة آنذاك .

« وانفصلا فجأة . فقد انتصب خيال بين الاعمدة .

« الاب هناك .

« الاب يسمع . فقد نزل من الـزورق خلسة . اين الاولاد اذن ؟ تناول العشاء وحده في القاعة الكبرى . كان يقرع برجليه رخـام رواق الاعمدة . الاولاد لم يعودوا .

« وانفجر الصوت في الصمت :

« ـ من اين آتيان ؟

« لا وقت لاستنباط كذبة . بريق تمرد . ويصرخ جيزيب :

« ـ من عند آل بويل » .

وارتجف انطوان : هل السيد تيبو ؟

« ويصرخ جيزيب : من عند آل بويل .

«انيتا تهرب بين الاعمدة ، تجتاز الدهليز وتصل الى الدرج ، غرفتها،تسحب المزلاج . تسقط في الظلام على سريرها الضيق ، سرير العذراء .

« وتحت ، وللمرة الاولى ، يجابه الابن الأب ، والأكثر غرابة ، يعلن بدافع سروره في اقتحام الخطر ، عن ذلك الحب الآخر الشاحب الذي لا يؤمن به .

ـ أخذت انيتا الى بيت آل بويل . وتوقف لحظة . وقـال مفصلاً المقاطع : انا خطيب سيبيل .

« وينفجر الاب ضاحكاً . ضحكة مخيفة . انه واقف ، منتصب ، كبير بالظل الذي اطاله ، واسع ومسرحي . تيتان [1] محاط بهالة القمر . ويضحك. ويسحق جيزيب يديه . الضحك ينقطع . صمت . ستعودان كلاكما معي الى نابولي ـ كلا ـ غداً . ـ كلا . ـ جيزيب . ـ انا لا انتمي اليك . انا خطيب سيبيل بويل .

« لم يحدث للاب ان اصطدم بمقاومة لم يسحقها . تصنع الهدوء . اسكت . لقد جاؤوا هنا يأكلون خبزنا ، ويشترون اراضينا ، ويأخذون اولادنا . هـذا كثير . اكنت تعتقد ان هرطوقية ستحمل اسمنا؟ ـ اسمي ـ أبله . ابداً مكيدة بروتستانتية . خلاص نفس ، شرف آل سيرنغو . لقد عملوا حسابهم بدوني . انا اسهر . ـ ابي . ـ سأحطم ارادتك . سأقطع عيشك ، سأجعلك تتطوع في جيش البيامون . ـ ابي . ـ سأحطمك . اصعد الى غرفتك . ستترك هذه البلاد غداً .

« وشدد جيزيب قبضتيه .. »

وحبس انطوان انفاسه :

« انه يتمنى .. موت الاب .

« لقد وجد القوة ليضحك في سبيل إهانة عظمى : أنت مضحك .

« ومر أمام الاب مرتفع الرأس ، متشنج الشفة وضحك وهبط الدرجات.

« ـ إلى اين ذاهب ؟

« توقف الولد . أي سهم مسموم سيرشقه قبل ان يختفي ؟ لقد أوحت إليه الغريزة بالأسوأ :

« ـ انا ذاهب لأقتل نفسي .

---

١ - Titan : في الميثولوجيا شخص ضخم . او ابناء السماء والارض تمردوا على الآلهة وحاولوا تسلق السماء فكدسوا جبلاً فوق جبل . ولكن جوبيتر صعقهم .

« وقفز الدرجات بوثبة . ورفع الأب يده :
« ـ اذهب ايها الولد الشرير .
« ولم يلفت جيزيب رأسه . وارتفع صوت الاب مرة اخيرة : ـ ملعون .. ويجتاز جيزيب السطيحة راكضاً ويختفي في الليل » .
كان يود انطوان ان يتوقف من جديد ويفكر . ولكن لم يبق سوى اربع صفحات . وتسلط عليه فراغ صبره .
« كان جيزيب يركض امامه حسب الصدف . توقف لاهثاً ، مندهشاً ، غائباً . وفي البعيد ، تحت احدى شرفات فندق ، كانت عـــدة ماندولينات مختلطة ترسل غناء ضعيفاً فيه حنين . فتور يبعث على التقزز . تفتح الشرايين في هدوء حمّام .
« لم تكن سيبيل تحب الماندولينات النابوليتانية . سيبيل كانت اجنبية . سيبيل غير واقعية وبعيدة ، كبطلة كان قد احبها في كتاب .
« انيتا . لا شيء سوى ذكرى الذراع العاري تحت كفه . أُذنٌ تطن . عطش .
« ان لجيزيب خطته . مع الفجر عودة إلى القصر ، واختطاف أنيتا ، والهرب معاً . سوف يسير حتى الغرفة . وستثب خارج السرير لملاقاته ، عارية الساقين . الاحتكاك بها من جديد ، عضلاتها الفاترة الملساء ، رائحتها الحارة . انيتا . انه يشعر بها الآن ترتمي عليه . فمها مشقوق ، فمها الرطب ، فمها.
« جيزيب يندفع في طريق مختصرة . أوردته تنبض . طريق صغيرة صخرية تسلقها بوثبة ، برودة الحقول المنعشة تحت ضوء القمر .
« على حافة منحدر ، على ظهره ، والذراعان متصالبان . يحس ويداعب ببطء صدره الحي من القميص المشقوق وفوقه سماء حليبية ملأى بالنجوم . سلام . نقاء .
« نقاء . سيبيل . سيبيل . نفس ، ماء ينبوع بارد وعميق ، ليلة من ليالي الشمال باردة وصافية .

« سيبيل ؟

« جيزيب واقف . هبط التلة بخطوات عريضة . سيبيل . مرة اخيرة ، مرة اخيرة قبل الفجر .

« لونادورو . هذا هو الجدار ، الباب المستدير . مكان القبلة بالضبط ، على الجدار المجصص . اقراره الاول . هنا ، مساء مماثل ، مساء قمري . سيبيل كانت قد جاءت ترافقه . خيالها الواضح يُقَص على الجبس الابيض . وقد تجرأ وانحنى فجأة ، وقبل الصورة الجانبية على الحائط ، فهربت . مساء مماثل .

« انيتا ، لماذا عدت الى الباب الصغير ؟وجه سيبيل الشاحب ، وجه إرادة. سيبيل ، بعيدة قليلاً ، قريبة جداً ، حقيقية ولا تزال مجهولة كلياً . الاقلاع عن سيبيل ؟ آه ! كلا . ولكن الحل بسبب المحبة ، حلُّ هذه العقدة . حلُّ وثاق تلك النفس المقفلة . مقفلة على اي سر ؟ حلم نقي منعتق من الغرائز : حب حقيقي . محبة سيبيل . محبة .

« انيتا ، لماذا هذه النظرة الراضية ، لماذا هذا الفم الكثير الخضوع ؟ كثير من النار في هذا الجسد المقدّم . رغبة ، رغبة مقتضبة جداً . حب بدون سر ، دون كثافة ، دون افق ، دون غد .

« انيتا ، انيتا ، نسيان تلك المداعبات السهلة ، استعادة الماضي ، العودة الى الطفولة. انيتا ، فتاة صغيرة ناعمة ، اخت محبوبة . ولكنها اخت ، اخت ، اخت صغيرة .

« فم خاضع بالتأكيد ، فم مشقوق ، فم رطب ، ذائب ، شريك بالذنب . آه ! رغبة سفاح ، رغبة مميتة ، من ينقذنا ؟

« انيتا ، سيبيل .من الواحدة إلى الاخرى المجزأة: ايهما ؟ ولماذا الاختيار؟ لم ارد الشر . جاذبية مزدوجة .توازن جوهري ، مقدس . اندفاعات متشابهة ، شرعية ايضاً لانها تسيل من اعماقي . لماذا ، في الواقع، لا يمكن التوفيق بينهما ؟ كم سيصبح كل شيء نقياً في وضح النهار الراضي . لماذا هذا المنع اذا كان كل شيء منسجماً في قلبي ؟

«مخرج وحيد . واحد من الثلاثة زائد . أيهم ؟

« سيبيل ؟ آه ! سيبيل مجروحة ، رؤيا لا تحتمل . ليس سيبيل . بل انيتا.

« انيتا ، ايتها الاخت الصغيرة ، عفواً . اقبل عينيك ، جفونك ، عفواً ، ليس هذه بدون تلك ، اذن ، لا هذه ولا تلك . اقلاع ، نسيان ، موت . كلا ، بدون موت . ان يكون المرء ميتاً ، ان يختفي . هنا الرقية ، العائق الذي لا يمكن اجتيازه ، الممنوع .

« هنا ، الحياة والحب مستحيلان .

« وداعاً .

« توق الى المجهول ، توق الى غد جديد . سكر ، نسيان ، بدء كل شيء من جديد .

« نصف دورة على الاعقاب . السير حتى المحطة . أول قطار الى روما ، اول قطار الى جنوى . جنوى ، اول مركب . الى اميركا . الى اوستراليا .

« وفجأة ، ضحك .

« حب ؟ إيه كلا . ان الحياة هي التي احبها .

« الى الامام » .

جاك بولتي

أطبق انطوان النشرة بعنف ، ووضعها في جيبه وقام متخدراً . وظل واقفاً لحظة ، وطرف بعينيه في الضوء ؛ ثم انتبه الى ذهوله فعاد الى الجلوس .

حين كان يقرأ ، كان الانترسول كله فارغاً . فاللاعبون تناولوا طعامهم ؛ والاوركسترا صمتت . والاسرائيلي و « حقوق الانسان » ، وحدهما في زاويتهما قد أنهيا دورة نرد تحت عيني الهرة المبتهجة . وسحب الصديق غليونه المطفأ . وفي كل مرة يلقي الزهر فيها كانت الهرة تنام على كتف اليهودي ضاحكة ضحكات صغيرة مشتركة .

ومد انطوان ساقيه ، وأشعل سيكارة وسعى ليجمع أفكاره . ولكن في

مدى بضع دقائق فان تفكيره المنتشر قد تاه كنظراته ، دون أن يستطيع تثبيته . وتوصل أخيراً الى ابعاد صورة جاك وجيز ، ووجد قليلاً من الهدوء .

المهم ، كان بالامكان تمييز ما هو حقيقة مما هو مخيلة روائية . حقيقة دون شك ذلك الحديث العاصف بين الاب والابن . في كلام المستشار سيرنغو بعض خطوط صحيحة لا يمكن إنكارها : «مكيدة بروتستانتية! سأحطمك، سأقطع عيشك ، سأجعلك تتطوع ! » وهذه : « هرطوقية تحمل اسمي ؟ » كان انطوان يعتقد أنه يسمع صوت أبيه الهائج ، واقفاً ، منتصباً ، قاذفاً لعنته في الليل . وحقيقة ، بالتأكيد ، صرخة جيزيب : « أنا ذاهب لأقتل نفسي ! » التي كانت توضح أخيراً فكرة السيد تيبو الثابتة . فمنذ اليوم الاول من التفتيش لم يشأ ابداً الافتراض أن جاك حي . وقد تكلم هو نفسه بالهاتف اربع مرات باليوم الى معرض الجثث.هذه الصرخة كانت توضح أيضاً توبيخ ضميره المكشوف عنه بشكل مشوش. لأنه كان سبباً في اختفاء جاك . وربما لم تكن تلك التوبة الصامتة غريبة تماماً عن نوبة الألبومين ، التي أضعفت العجوز كثيراً عشية العملية . وهكذا كان الكثير من حوادث هذه السنوات الثلاث يتخذ مظهراً آخر تحت هذا الضوء .

وأخذ انطوان النشرة من جديد وبحث عن اهداء المؤلف :

« ألم تقل لي في ذلك المساء الشهير من تشرين الثاني: ان كل شيء خاضع لعمل القطبين . وان للحقيقة وجهين دائماً ؟

« والحب أيضاً في بعض المرات » .

وقال لنفسه : « بصراحة ، ان تعايش هذا الحب المزدوج .. بصراحة .. إذا كانت جيز عشيقة لجاك ، واذا كان جاك ، من ناحية أخرى ، يشعر أنه شغوف بجني، فان الحياة بالنسبة اليه تصبح صعبة . ومع ذلك ..

واستمر انطوان في الاصطدام بشيء كثيف . ورغم كل شيء فقد كان مستحيلاً عليه القبول بان الرحيل يمكن أن يتوضح بكامله بما علمه عن حياة جاك

العاطفية . فهناك عوامل أخرى ، لا وزن لها ، ومتكدسة ، تذهب بهـذا التحديد الغريب . ولكن ما هي ؟

وخطر بباله فجأة أن هذه الانعكاسات ليس فيها شيء ضروري . أما ما يتوجب التعجيل فهو استخراج أفضل شيء من هذه الادلة وإيجاد أثر أخيه بأسرع ما يمكن .

كان التوجه الى ادارة المجلة عملاً غير حكيم . وإذا كان جاك لم يعط أية اشارة حياة ؛ فذلك لانه لا يزال مصراً على الاختباء . والمجازفة في ان يعلم باكتشاف عزلته هي الخطر في أن يهرب الى مكان أبعد ، والى فقدان أثره . والطريقة الوحيدة للنجاح هي العمل المفاجىء – وشخصياً . (لم يكن انطوان يثق إلا بنفسه) . وتخيل حالاً انه سافر الى جنيف . ولكن ماذا سيفعل فيها ؟ وإذا كان جاك يقطن لندن؟ كلا: من المناسب أن يرسل أولاً رجلاً محترفاً الى سويسرا يعرف كيف يحصل على عنوان جاك . وقال وهو ينهض : « وعندئذ اذهب انا الى هناك، حيث هو، لأتوصل فقط الى مفاجأته وسنرى إذا كان سيفلت مني!»

في المساء نفسه اعطى تعليماته لشرطي خاص .

وبعد ثلاثة ايام تلقى المعلومات الاولى :

(سرّي)

« ان السيد جاك بولتي يسكن فعلاً في سويسرا . وهو غير قاطن في جنيف وانما في لوزان . وهي مدينة دلت التحريات على انه شغل فيها عدة منازل . وهو يسكن منذ نيسان الماضي ، ١٠ ، شارع اسكاليه – دي – مارشيه ، بنسيون كامرزين .

« لم نوفق بعد لإيجاد تاريخ وصوله الى الأراضي السويسرية . ولكننا عكفنا على معرفة وضعه العسكري .

« وفقاً لدلالات سرية حصلنا عليها من القنصلية الفرنسية ، فان السيد بولتي قد مثل في كانون الثاني ١٩١٢ لدى المكتب العسكري في تلك القنصلية ، مصحوباً بأوراق الهوية وغيرها ، باسم جاك – جان – بول – اوسكار تيبو ،

من التابعية الفرنسية ، مولود في باريس عام ١٨٩٠ ، الخ . . وبطاقته ، التي لم نستطع ان ننقل عنها الاوصاف (وهي مطابقة للاوصاف التي حصلنا عليها من مكان آخر) تحمل اشارة بانه استفاد من أول تأجيل بسبب عدم الكفاية ، عام ١٩١٠ ، بموجب قرار مجلس المراجعة في الدائرة السابعة في باريس ، ومن تأجيل ثان على أثر تقرير طبي قدم عام ١٩١١ الى القنصلية الفرنسية في فيينا (النمسا). وعلى أثر فحص جديد تعرض له في لوزان في شباط ١٩١٢ والذي انتقل بالطريق الاداري الى المكتب المختص بالتجنيد في مقاطعة السين ، منح تأجيلاً ثالثاً وأخيراً . . سوّى اموره نهائياً حسب القانون مع سلطات بلاده الاصلية فيما يتعلق بالاعفاء من الخدمة العسكرية .

« ويبدو السيد بولتي أنه يعيش حياة تدعو الى الاحترام ويعاشر بصورة رئيسية الطلاب والصحفيين . وهو مسجل كعضو مشايع في نادي الصحافة السويسري ، وعمل المساعدة وغيره الذي يقوم به ، كما قيل ، في عدة صحف ومجلات دورية يمكن أن يكفي لتأمين وسائل معيشة شريفة . وقد أكدوا لنا أن السيد بولتي يكتب تحت عدة أسماء غير اسمه الخاص ، أسماء من الممكن معرفة هويتها لو أرسلت الينا معلومات تالية حول هذا الموضوع » .

هناك مستخدم في الوكالة ازعج نفسه يوم الأحد في الساعة العاشرة مساءً ليحمل فوراً هذه الوثيقة .

الذهاب مستحيل منذ صباح الاثنين . ومع ذلك فحالة السيد تيبو لم تكن تسمح أبداً بالتأجيل .

وراجع انطوان مفكرته ، ثم الدليل . وعزم ان يأخذ قطار لوزان السريع منذ مساء الغد . ولم يستطع اغماض عينيه طوال الليل .

٣

كان نهار الغد مثقلاً ؛ ومع ذلك فقد اضطر انطوان ، بسبب سفره ، ان

يضيف اليه عدة زيارات . وقد ذهب مسرعاً إلى مستشفاه . وركض خلال باريس طول النهار دون ان يعود لتناول الغداء في بيته . ولم يعد إلى البيت إلا بعد الساعة السابعة مساءً . وكان موعد القطار في الساعة الثامنة والنصف .

وبينما كان ليون يجهز حقيبة للسفر ، صعد انطوان بسرعة الى ابيه الذي لم يكن قد رآه منذ البارحة .

كانت الحالة العامة قد ازدادت سوءاً . فالسيد تيبو الذي لم يتغذى ، اصبح ضعيفاً ولا ينقطع عن الألم .

واضطر انطوان إلى بذل الجهد ليقول كالعادة : « صباح الخير يا ابي ! » والتي كانت للمريض كجرعة يومية مقوية . وجلس في مكانه المعتاد ، وباشر اسئلته اليومية بهيئة منتبهة ، متجنباً اقل صمت كأنه فخ . وكان ينظر الى ابيه مبتسماً ، مع انه لم يتوصل هذا المساء الى إبعاد هذه الفكرة الثانية : « سيموت عما قريب » .

ومرة بعد مرة ، دهش من النظر الهالك الذي كان والده يديره نحوه :كانت هذه النظرة كأنها تلقي سؤالاً .

وكان انطوان يتساءل : « الى اية درجة هو قلق من حالته ! » كان السيد تيبو يلفظ عن موته في اغلب الاحيان كلمات خاضعة واحتفالية . ولكن في دخيلة نفسه ، ماذا كان يفكر ؟

اثناء بضع دقائق والاب والابن يستر كل منهما سره عن الآخر ـ وربما كان هذا السر واحداً ـ ويتبادلان احاديث لا معنى لها حول المرض ، وحول احدث الادوية . ثم نهض انطوان متعللاً بزيارة ضرورية يقوم بها قبل العشاء . والسيد تيبو الذي كان يتألم لم يحاول ان يبقيه .

لم يكن انطوان قد اخبر احداً بعد بسفره . كان في نيته ان يخبر الراهبة فقط بانه سيغيب لمدة ست وثلاثين ساعة . ولكنها كانت مشغولة ، من سوء الصدف ، بجانب المريض حين ترك غرفته .

كان الوقت يتعجله . فانتظر بضع دقائق في الرواق ؛ وبما ان الراهبة لم تأت

فانه ذهب الى المدموازيل دي ويز التي كانت تكتب رسالة في غرفتها .
وقالت له :
— آه ! ستساعدني يا انطوان لدي حزمة ضائعة من الخضار .
وبذل كثيراً من الجهد ليفهمها انه مطلوب هذه الليلة الى الارياف بسبب حالة خطيرة ، وانه لن يكون هنا في الغد ، ولكن يجب الا تقلق من شيء : الدكتور تيريفيه على علم بهذا الغياب وهو مستعد للاسراع عند اول نداء .

مضت الساعة الثامنة . وكان لدى انطوان الوقت الذي يمكنه من الوصول الى القطار .
كانت سيارة الاجرة تسير بسرعة نحو المحطة ؛ والارصفة المقفرة ، والجسر الاسود اللامع ، وساحة كاروزيل تتوالى على ايقاع متسارع لفيلم مغامرات ؛ وبالنسبة لانطوان الذي لا يسافر الا نادراً ، فان الحث على هذا الركض في الليل ، وقلق الساعة ، والف فكرة كانت تلازمه ، والخطر ايضاً مما هو بصدد محاولته ، كل هذا جعله يخرج عن طوره ، في جو من الجرأة والشجاعة .
والمقصورة التي حجز مكانه فيها كانت ملأى تقريباً . حاول ان ينام . عبثاً . فاهتاجت اعصابه ، واخذ يعدّ وقفات القطار ، وفي نهاية الليل ، وقد غفا ، فان القاطرة صفرت بيأس وخفف القطار سيره ليدخل الى محطة فالوبر . وبعد شكليات الجمرك ، والرواح والمجيء في القاعة المثلجة ، والقهوة السويسرية بالحليب ، كيف يجد النوم ؟
وبدأ العالم الخارجي يستعيد شكله في فجر كانون الاول المتأخر . وكان الخط الحديدي يتبع اعماق واد صغير تتميز فيه التلال . ليس هناك اي لون : تحت مطلع الفجر المتردد العنيف لم يكن هناك سوى منظر شجيرات ، اسود على أبيض .
ورضي نظر انطوان بما يقدّم اليه . كان الثلج يغطي قمم التلال ويجري صفائح نصف ذائبة في تجويف ارض متحولة الى كلس ، وخيالات اشجار صنوبر

تتقطع فجأة على ارضية شاحبة. ثم امّحى كل شيء: كان القطار يسير في سحابة. وعادت الحقول الى الظهور ؛ واضواء صغيرة صفراء ، مغروزة في الضباب ، كانت تبرز ، في كل مكان ، الحياة الصباحية لمنطقة مكتظة بالسكان . والآن اصبحت جزر البيوت اكثر وضوحاً ، وبقايا الشموع اكثر نـدرة في الابنية الاقل دكنة . وسواد الارض تحول الى اخضرار بشكل لاشعوري ؛ وعلى الاثر لم يعد السهل سوى بساط من المراعي الغنية ، عليها خطوط ثلجية كانت تدل على كل انخفاض ، وكل ساقية ، واقل ثلم . والمزارع المنخفضة المقعية كدجاجات تحضن البيض وملتصقة بشكل واسع بالاراضي التابعة لها ، تفتح كل مصاريـع نوافذها الصغيرة . لقد طلع النهار .

وانطوان غير منتبه . والجبهة على الزجاج ، وقد اجتاحته الكآبة من هـذا المنظر الغريب ، كان يشعر انه مجرد من كل شيء . وانتصبت صعوبات محاولته امامه ، مرهقة . وكان يتخوف من الخطّة التي حكمت عليه بها هـذه الليلة من الارق .

الا انه كان يقترب من لوزان . كانت الطريق تجتاز الضاحية الآن . واخذ يتأمل الواجهات التي لا تزال مغلقة لهـذه البيوت المكعبة المؤطرة بالشرفات والمنعزلة بعضها عن بعض كناطحات سحاب صغيرة . من يدري اذا لم يكن جاك قد استيقظ في هذه اللحظة وراء احدى تلك الشعريات من الصنوبر الاشقر؟

وتوقف القطار . وكانت رياح باردة تكنس الرصيف . وارتعش انطوان . وكان الجمهور يغيب في الممر تحت الارض . اما هو فمحموم ، متخدر ، متخل لأول مرة عن سلوك عقله وارادته ، فتبع الناس ، جاراً حقيبته ، متحيراً حول ما يجب ان يفعله. مغاسل .حمامات ، غسل بالماء البارد (دوش) . حمام ساخن للاسترخاء ، حمام بارد للسيطرة على نفسه ؟ يحلق . يغير ملابسه الداخلية ؟ لقد كان ذلك اخر حظ للبعث .

كانت الفكرة حسنة ؛ وخرج من عمليات الغسل هذه كمن يخرج من ينبوع عجائبي : عاد جديداً . واسرع الى مستودع الحقائب فترك فيه حقيبته واندفع

بعزم لمجابهة الصدف .

المطر ينهمر كالسياط الآن . وثب الى قطار كهربائي ليصعد الى المدينة . ومع ان الساعة لم تتجاوز الثامنة فان الدكاكين كانت مفتوحة ؛ وشعب شغيل ، صامت ،يرتدي معاطف لا تنفذ اليها المياه ، وينتعل المطاط ، كان يجول آنذاك ، مالئاً الارصفة ولكنه منتبه لئلا يعتدي على الطريق ، مع انها مقفرة من العربات . وقال انطوان ، الذي يعمم الكلام بسرعة ، لنفسه : « مدينة مجتهدة دون وهم » . وسار مقاداً بخريطته فوجد طريقه حتى الساحة الصغرى لقصر البلدية . ورفع انفه نحو ساعة البرج حيث كانت تدق النصف . كان الشارع الذي يقطنه جاك في نهاية الساحة .

ان شارع اسكاليه – دي – مارشيه هذا يجب ان يكون أقدم شوارع لوزان . وهو مع ذلك أقل من شارع ، قطعة زقاق ذات درجات صغيرة ليس فيها بيوت الا من ناحية اليسار . وامام البيوت يتسلق « الشارع » المصنوع من سطوح أدراج متتابعة ؛ ومقابل البيوت يرتفع جدار يمتد على محاذاته درج قديم خشبي ، مغطى بسقف خشبي من طراز القرون الوسطى مدهون باللون الأحمر الخمري . وهذه الدرجات المختبئة تقدم مركز مراقبة غير متوقع . ودخل انطوان فيها . وكانت البيوت القليلة في هذا الزقاق بيوتاً حقيرة ضيقة مصفوفة بشكل سيء ، وطوابقها الارضية يجب أن تكون مستعملة كحوانيت صغيرة منذ القرن السادس عشر . ويُدخل الى الرقم ١٠ بواسطة باب منخفض ، مسحوق تحت عتبة عليا ناتئة . والآرمة تقرأ بشكل سيء على مصراع الباب المفتوح . وحلّ انطوان رموزها : « بنسيون ج – ه – كامرزين » . هذا هو المكان .

بعد أن حلّ به الضنى ثلاث سنوات دون أخبار ، وبعد أن شعر بالدنيا فاصلة بين أخيه وبينه ، ها هو يجد نفسه على بعد بضعة امتار من جاك ، بضعة دقائق تفصله عن اللحظة التي سيراه فيها .. ولكن انطوان كان يسيطر جيداً

على تأثره . فقد دربته المهنة : وكلما جمع طاقته يصبح غير حساس وصاحياً . وقال لنفسه : « الساعة الثامنة والنصف . يجب أن يكون هنا، ربما في السرير. الساعة الكلاسيكية للتوقيفات . اذا كان في بيته فسأتعلل بموعد ، واذهب الى غرفته دون أن اظهر نفسي ، وأدخل ». واستتر بمظلته واجتاز الطريق بخطوة ثابتة واجتاز حجري الدرج المسطح .

رواق مبلط . ثم درج قديم ذو قوائم واسعة ، مصان جيداً ولكنه مظلم . لا يوجد ابواب . اخذ انطوان يتسلق الدرجات . وميز بشكل غير واضح جلبة اصوات . وحين تجاوز رأسه مستوى سطح الدرج شاهد من خلال باب غرفة طعام مزجج دزينة من المدعوين حول مائدة . وكان لديه الوقت الكافي ليقول لنفسه : « من حسن الحظ أن الدرج مظلم فلا يراني أحد » . ثم : « الترويقة المشتركة . انه ليس فيها . سينزل » . وفجأة .. جاك .. رنة صوته لقد تكلم جاك ! جاك هنا ، حي ، غير قابل للمناقشة كواقعة ثابتة ؛ وارتجف انطوان ، وخضع للذعر هنيهة . ونزل بضع درجات بسرعة . كان يتنفس بجهد : حنو ، منبثق من الاعماق ، امتد فجأة في صدره وضيق نفسه . كل هؤلاء المجهولين .. ما العمل ؟ الذهاب ؟ وامتلك نفسه: كان الميل الى الكفاح قد دفعه الى الامام : عدم الرجوع ، العمل ، ورفع رأسه بحكمة فبدا له جاك جانبياً وذلك بشكل متناوب بسبب الجيران . شيخ قميء ذو لحية بيضاء ، كان يترأس ؛ وخمسة او ستة رجال من مختلف الاعمار كانوا يجلسون الى الطاولة ؛ وقبالة الشيخ امرأة شقراء ، جميلة ، لا تزال فتية ، بين فتاتين . وكان جاك ينحني ، وكلامه سريع حي ، حر ؛ وبالنسبة لانطوان الذي كان وجوده كتهديد وشيك الوقوع يحوم فوق اخيه ، فقد كان من المؤلم ان يتأكد بأي اطمئنان او بأي شعور بالدقيقة التي ستلي ، يستطيع الانسان ان يعيش لحظات القدر الاكثر حملا للاحداث . الا أن المائدة كانت تهتم بالمجادلة : كان الهرم يضحك ؛ وبدا جاك انه يتصدى للشابين الجالسين قبالته . لم يلتفت ابداً لناحية انطوان . وميز اقواله مرتين متتاليتين بتلك الحركة القاطعة من يده اليمنى التي كان انطوان قد نسيها ؛

وفجأة ، بعد تبادل كلمات حامية ، ابتسم . ابتسامة جاك .

عندئذ ، وبدون ان يفكر طويلاً ، صعد انطوان الدرجات وبلغ الباب الزجاجي وفتحه بهدوء ورفع قبعته .

والتفتت نحوه عشرة وجوه ولكنه لم يرها ؛ لم ينتبه الا الى ان الهرم القميء ترك مكانه والقى عليه سؤالاً . وكانت عيناه الجريئتان الفرحتان مثبتتين على جاك ؛ وجاك ، وقد تمددت حدقتاه ، وانفتحت شفتاه ، كان ينظر هو ايضاً الى اخيه. وقد قوطع فجأة في منتصف عبارة ، واحتفظ على وجهه المنذهل بتعبير بهجة لم يبق منها سوى الكشرة . وهذا لم يدم سوى عشر ثوان. وكان جاك قد وقف بحركة هم واحد : المداراة واجتناب الفضيحة .

وبخطوة صلبة ومسرعة ، وبلطف أخرق يبعث على الظن أنه كان ينتظر الزائر ، هجم على انطوان الذي تراجع حتى سطح الدرج مستعداً للمداراة . ولحق به جاك مقفلاً وراءه المصراع الزجاجي . وتصافحا بحركة آلية لم يشعر بها اي منهما ؛ ولكن لم تستطع اية كلمة اجتياز شفاههما .

وبدا جاك متردداً . ورسم حركة شرسة بدت انه يدعو انطوان لمرافقته . وصعد الدرج .

٧

طابق ، وثانٍ ، وثالث .

كان جاك يصعد بتثاقل ، متعلقاً بالدرابزين غير ملتفت . وانطوان يتبعه . وقد سيطر على نفسه الى درجة انه دهش لشعوره بالتأثر القليل في لحظة كهذه . وكان قد تساءل بقلق عدة مرات : « ما معنى هذا الدم البارد الكثير السهولة ؟ اهو حضور الذهن ، ام غياب العاطفة ، ام برود ؟

على سطح الدرج الثالث ، باب وحيد فتحه جاك . وحين اصبحا في الغرفة اقفل الباب بالمفتاح ، ثم رفع عينيه اخيراً نحو اخيه ونفخ بصوت أبح :

— ماذا تريد مني ؟

ولكن نظرته الهجومية اصطدمت بابتسامة انطوان المحبة ، والذي كان تحت هذا القناع المفرط بالحلم حريصاً محترزاً عازماً على التأني ، ولكنه مستعد لكل شيء .

وخفض جاك رأسه مكرراً :

– ماذا ؟ ماذا يراد مني ؟

كانت اللهجة تستوجب الرأفة ، ثقيلة بالكراهية ، مرتجفة بالقلق النفسي ؛ ولكن انطوان ، وقد جف قلبه بشكل غريب ، اضطر الى التظاهر بالتأثر . وتمتم وقد زاد من اقترابه :

– جاك .

وكان وهو يمثل دوره يلاحظ اخاه بعين عاملة ، صافية ودهش من ان يجد له جسماً ضخماً قوياً ، وقسمات . ونظرة ،تختلف عن تلك التي كانت في الماضي، وتختلف عن تلك التي كان يتخيلها .

وانقبض حاجبا جاك ! وحاول عبثاً ان يتشدد ؛ وفمه المتشنج توصل الى رسم انتحابة ؛ ثم بآهة سطع فيها غضبه استسلم فجأة ، وكأن ضعفه اخمد شجاعته ، وأسقط جبهته على كتف انطوان ، وردد من جديد شاداً على اسنانه :

– ولكن ماذا يراد مني ؟ ماذا يراد مني ؟

وادرك انطوان ان من اللازم ان يجيب حالاً ؛ ويسير الى الهدف رأساً : .

– ابي في اسوأ حالات المرض . انه على وشك الموت . – واتخذ وقتاً وأضاف : – وقد جئت في طلبك يا صغيري .

لم يتحرك جاك . ابوه ؟ ايعتقدون ان موت والده يمكن ان يصل اليه في تلك الحياة الجديدة التي صنعها لنفسه ويخرجه من ملجأه ويغير شيئاً من الاسباب التي استوجبت اختفاءه ؟ في كل اقوال انطوان ، فان الشيء الوحيد الذي بعث فيه الاضطراب بعمق هي الكلمة الاخيرة : « يا صغيري » التي لم يسمعها منذ سنوات :

كان الصمت مؤلماً جداً بحيث تابع انطوان :

ـ ليس لي اي شخص بجانبي .. ـ وفجأة هبط عليه الوحي فأوضح : فالمدموازيل ليست في الحساب . وجير في انكلترا .

فرفع جاك جبهته :

ـ في انكلترا ؟

ـ نعم . انها تعد شهادة في احـــد الاديرة بالقرب من لندن ولا تستطيع المجيء ، وانا وحدي . اني بحاجة اليك .

لقد اهتز شيء في عناد جاك دون ان يعلم ؛ وبدون ان يتوضح ذلك في عقله فان فكرة العودة لم تعد جذرياً غير مقبولة . وتخلص . وخطا خطوتين مترددتين ، ثم ، كما لو انه كان يفضل ان يسير الى اعماق المه ، هبط على كرسي امام طاولة عمله.ولم يشعر باليد التي وضعها انطوان على كتفه ؛كان يبكي ورأسه مختبىء بين ذراعيه . لقد بدا له انه يرى انهيار هذا المأوى الذي بني منذ ثلاث سنوات بيديه ، حجراً حجراً ، في العذاب . في الكبرياء ، في وحدته ؛ وكان يحتفظ بما يكفي من فطنته في هذا التشوش لكي يواجه القدر ، وليفهم ان كل مقاومة سوف تنتهي بالاخفاق ، وانهم سيحصلون على عودته عاجلاً ام آجلاً ، وان عزلته الجميلة ، او بالاحرى حريته ، قـد بلغت نهايتها ، وان من الافضل ان ينسجم مع مما لا بد منه ؛ ولكن هـذا العجز جعله يختنق من الالم والحزن الغاضب .

وانطوان ، واقف ، لم ينقطع عن الملاحظة والتفكير ، كما لو ان رأفته ظلت على حدة بصورة موقتة . كان يتأمل هذه الرقبة المهتزة بالنحيب ، وتذكر يأس جاك الولد ؛ ولكنه كان يحسب بهدوء درجة امكان انتصاره . وكلـما امتدت النوبة كان يخيل اليه ان جاك سوف يجد نفسه عاجزاً عن الانقياد .

وكان قد سحب يده . وأخذ يجيل أنظاره فيما حوله ويفكر بسرعة بمـائة شيء . كانت هـذه الغرفة افضل من نظيفة : مريحة . وكان السقف منخفضاً ، والغرفة روعيت فيها زحمة الامتعة ؛ ولكنهـا كانت واسعة ، مضاءة ، ذات

لون اصهب لطيف . والارض الخشبية بلون الشمع ولامعة ، تقرقع من تلقاء نفسها دون شك على حرارة وجاق صغير من الخزف المطلي الابيض حيث تزفر نار حطب كبيرة. وكنبتان من الكتان الابيض؛ وعدة طاولات مثقلة بالاوراق والصحف . وقليل من الكتب : خمسون تقريباً على رف فوق السرير الذي لم يكن مرتباً بعد . وليس هناك اية صورة ؛ ولا اي شيء يذكر بالماضي . حر ، وحيد، صعب المنال على الذكريات !— وجاء شيء من الغيرة يمتزج بنفور انطوان .

وأدرك ان جاك قد هدأ . هل رُبحت القضية ؟ ايعود بأخيه الى باريس ؟ في اعماقه لم يكن هناك اي شك حقيقي بنجاحه. وكان ذلك كسد قد اجتيز: واستولت عليه موجة من المحبة ، اندفاعة عظيمة من الحب ، من الرأفة ، كان يريد ان يضم هذا البائس بين ذراعيه . وانحنى نحو تلك الرقبة الملتوية ؛ ونادى بصوت منخفض جداً :

ـ جاك .

ولكن الآخر اصبح واقفاً بوثبة . ومسح عينيه بهياج وتطلع الى اخيه . فقال انطوان :

ـ انت تحقد علي .

لا جواب .

فتابع انطوان باسلوب اعتذار :

ـ ابي على وشك الموت .

ولفت جاك رأسه لحظة ، وسأل :

ـ متى ؟

وكان صوته عنيفاً ، ذاهلاً ؛ ووجهه مغتماً . ووعى ما قاله حين التقى نظره بنظر انطوان . وخفض الجبهة وقال مصححاً :

ـ متى .. تفكر ان تذهب ؟

ـ بأسرع ما يمكن . كل شيء يدعو الى الخوف .

ـ غداً ؟

فتردد انطوان .

ــ هذا المساء اذا كان ذلك ممكناً .

وتطلعا الى بعضهما البعض لحظة . وهز جاك كتفيه هزة خفيفة . هذا المساء ، غداً ، ماذا يهم الآن ؟ ولفظ بصوت لا رنة فيه :

ــ في قطار الليل السريع .

وادرك انطوان ان رحيلهما قد تحدد موعده . ولكنه كان يتوقع دائماً ما كان يرغب به بشدة ، وفي الواقع لم يشعر بدهشة ولا بسرور .

وكانا قد ظلا واقفين في منتصف الغرفة . ما من ضجة كانت تتصاعد من الشارع ، حتى ليظن المرء نفسه في الريف . والماء يجري بهدوء على زوايا السطح ، ونفخات من الريح كانت تتدخل بشكل متواتر ، مزمجرة تحت قرميد مخزن الحبوب . وكان القلق يشتد بينهما بين دقيقة واخرى .

واعتقد انطوان ان جاك يتمنى ان يظل وحيداً فقال :

ــ ربما كان عليك ما تقوم به . سأتركك .

فاحمر الآخر فجأة :

ــ انا ! ولكن كلا ، لماذا ؟

وجلس بسرعة :

ــ صحيح ؟

فهز جاك رأسه . وقال انطوان ساعياً وراء عاطفة خاطئة .

ــ اذن فاني اجلس ... لدينا الكثير مما نقوله .

في الواقع ، كان يفكر على الخصوص بأن يسأل . ولكنه لم يجرؤ ولكي يربح الوقت اندفع في سرد حكاية مسهبة ، وفنية رغماً عنه ، عن مختلف مراحل مرض الاب . هذه التفاصيل بنظره لم تكن تستحضر حالة يائسة فقط : بل كانت تستحضر الغرفة نفسها ، وسرير المريض ، وجسداً متورماً ، شاحباً ، متألماً ، وقسمات متشنجة ، وصرخات ، وألم لم يتوصل إلى تهدئته . والآن ، كان هو الذي ترتجف لهجته ، بينما جاك متكوم في كنبته ، يمد نحو الوجاق

وجهاً نفوراً يبدو انه يقول : « الأب على وشك الموت ، وقد اتيت تنتزعني من هنا ، حسناً ، سأذهب ، ولكن يجب الا يطلب مني اكثر من ذلك » . وهناك لحظة واحدة ظن فيها انطوان انه استمال عدم الحساسية هذا : ذلك حين ذكر اليوم الذي سمع فيه ، من خلال الباب ، المريض والمدموازيل يتلجلجان بالاغنية القديمة. وكان جاك يتذكر اللازمة ،لأنه ابتسم بدون سرعة ، والعينان مثبتتان دائماً على الوجاق . هذه الابتسامة الموجعة ، المحزنة .. كانت هي ابتسامة جاك الصغير .

ولكن على الاثر تقريباً ، حين اختتم انطوان : « بعد كل ما تعذبه فأن الموت يصبح خلاصاً » ، فان جاك الذي لم يكن قد قال شيئاً حتى الآن رفع صوته بقساوة :

ــ لنا ، بدون اي شك .

فتكدر انطوان وصمت . كان في هذه الوقاحة يأخذ ناحية التحدي ، ولكنه شعر فيها بشعور جديد يطفىء الغضب . وهذا الحقد حيال مريضه ، حيال محتضر ، كان غير محتمل بالنسبة اليه ، ووجده غير عادل . واقل ما يمكن ان يقال عنه انه ينكر المآثر . وتذكر المساء الذي كان السيد تيبو فيه يتهم نفسه وهو يبكي بانه كان سبب انتحار ولده . ولم يستطع ان ينسى التأثير الذي احدثه اختفاء جاك على صحة السيد تيبو : ماذا كان تأثير الغم ، وتوبيخ الضمير في اصل هذا الانحطاط العصبي الذي كان له اكبر الاثر في بدء اضطراباته . وربما بدونه ، ما كان المرض الحالي يتطور بهذه السرعة .

وبما أن جاك كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء اخيه من الكلام ، فانه نهض بعنف وسأل :

ــ كيف اكتشفت مكاني ؟

التستر مستحيل .

ــ بواسطة جاليكور .

ــ جاليكور ؟

لم يكن لأي اسم ان يفاجئه اكثر من ذلك . وردد مقطعاً :

ـ جا ـ لي ـ كور ؟

وكان انطوان قد سحب محفظته وأخذ رسالة جاليكور التي فتحها سابقاً وناولها لأخيه . كان ذلك هو الامر الاكثر بساطة : فهذه الحركة تغني عن كل ايضاح .

اخذ جاك الرسالة ، واجال نظره فيها ، ثم اقترب من النافذة واخذ يقرؤها بتمهل ، والجفون مسبلة ، والفم مطبق ، لا يمكن النفاذ الى داخله .

وكان انطوان يتفحصه . هذا الوجه الذي كان قبل ثلاث سنوات يعرض قسمات المراهق المترددة ، والذي لم يبد مختلفاً وهو اليوم حليق ، قد استرعى انتباهه دون أن يستطيع ايضاح ما اكتشف فيه من جديد : كثير من القوة وقليل من الكبرياء ، وقليل من القلق ايضاً ؛ وربما قليل من العناد ، وكثير من الصلابة . بالتأكيد أن جاك فقد شيئاً من جاذبيته ولكنه اكتسب القوة . وهو الآن غلام ربعة تقريباً . وقد اتخذ الرأس حجماً ، ينعتق بشكل سيء من الكتفين العريضين . وكان من عادة جاك ان يبقيه ملقى الى الوراء ، في هيئة متكبرة قليلاً ، او محاربة على الاقل . وكان الفك نحيفاً ، والفم عزوماً ذا عضل ، ولكن برسم كئيب . وتعبير هذا الفم قد تغير كثيراً ، واحتفظت الصبغة ببياضها ، مع بعض بقع نمش على الوجنتين . ولكن الشعر ، وهو كثيف ، أصبح الآن كستنائياً أكثر منه أمغر ؛ كان يشكل حول الوجه القوي كتلة غير منظمة تزيد فيه التناسب ؛ وخصلة داكنة ، ذات انعكاسات مذهبة ، واليد ترفعها بلل دون انقطاع ، كانت تسقط دائماً على الصدغ وتظلل قسماً من الجبهة .

ورأى انطوان تلك الجبهة ترتجف وينحفر غضنان بين الحاجبين . فأدرك صدمة الأفكار التي يمكن ان توحيها هذه القراءة الى جاك ولم يؤخذ على حين غرة حين اسقط هذا يده الممسكة بالرسالة والتفت نحوه :

ـ اذن ، انت ايضاً قرأت .. قرأت اقصوصتي ؟

فاكتفى انطوان بخفض جفنيه ورفعهما ، مبتسماً بالعينين اكثر من الشفاه ،

واخضع تحت نظرته المحبة غضب اخيه الذي اكتفى بان يضيف بشكل اقل هجوماً :

– و .. من غيرك ايضاً ؟

– لا احد .

فظلت نظرة جاك مرتابة .

وصرح انطوان : بشرفي .

فأدخل جاك يديه في جيوبه وصمت . في الواقع كان قد اعتاد بسرعة على فكرة قراءة اخيه لاقصوصة « لاسوريللينا » . حتى انه كان راغباً في معرفة رأيه . اما هو ، فقد كان صارماً على هذا الاثر الذي كتبه بحالة احتداد منذ سنة ونصف . وكان يعتبر انه تقدم تقدماً كبيراً منذ ذلك العهد ، ويعتبر تلك الابحاث ، وذلك الشعر ، ومبالغات الشباب كلها لا تحتمل . والاكثر غرابة هو انه لم يكن يفكر ابداً بالموضوع ، بعلاقة هذا الموضوع مع تاريخه الخاص ، ومنذ ان اعطى وجوداً فنياً لهذا الماضي كان يعتقد انه فصله عن ذاته ، وحين كان يفكر صدفة بتلك التجارب المؤلمة ، فذلك لكي يؤكد حالاً : « لقد شفيت من كل هذا » . وهكذا ، فحين قال له انطوان : « اني آتٍ في طلبك » كان أول انعكاس لتفكيره : « على كل حال قد شُفيت » . واضاف فيما بعد : « وثم ، ان جيز في انكلترا » . « كان يحتمل عند اللزوم تذكر جيز ، وتذكر اسمها ؛ ولكنه يرفض بنفور اية اشارة عابرة الى جني » .

بعد دقيقة صمت قضاها امام النافذة ، واقفاً ، جامداً ، والعين الى بعيد ، التفت من جديد :

– من يعلم بوجودك هنا ؟

– لا أحد .

وألحّ هذه المرة :

– وأبي ؟

– ولكن كلا .

– جيز ؟
– كلا ، لا احد .
وتردد انطوان ثم قال ليطمئن اخاه ؟
– بعد الذي جرى ، وبما ان جيز في لندن ، فمن الافضل الا تعرف شيئاً .
كان جاك يلاحظ اخاه البكر ؛ وقد شع في نظرته وميض استفهامي وانطفأ . وساد الصمت .
وكان انطوان يخاف هذا الصمت ؛ ولكن كلما ازدادت رغبته بقطعه يقل ايجاد الفرصة. كان هناك عشرون سؤالاً تلازمه؛ ولكنه لم يجازف بالاستجواب. كان يبحث عن موضوع بسيط دون خطر يسير بهما نحو زيادة في المودة ؛ ولكن لا شيء من ذلك خطر بالبال .
وكادت الوضعية تصبح صعبة حين فتح جاك الشباك فجأة وتراجع في الغرفة . وقفز باسترخاء على أرض الغرفة هرّ سيامي مغطى بشكل كثيف بفروة رمادية ، وخرطومه اسود .
وقال انطوان وقد استهوته الألهية :
– زائر ؟
فابتسم جاك :
– صديق . – وأضاف . – ومن نوع ثمين : صديق متناوب .
– من اين جاء ؟
– لم يستطع أحد ان يزودني بمعلومات . انه من بعيد دون شك : في الحي لا يعرفونه .
وقام الهر الجميل بدورة في الغرفة كما ينبغي ، وهو يموء ، كخذروف الماني .
ولاحظ انطوان ، شاعراً هو ايضاً بالصمت يدور حولهما :
– ان صديقك مبلل .
فقال جاك :
– عموماً ، اتلقى زيارته عندما تمطر . واحياناً في وقت متأخر جداً ، عند

منتصف الليل . يخمش الزجاج ، ويدخل ، ويلحس نفسه امام الوجاق ، وحين يجف يطلب الذهاب . لم استطع ابداً ان اداعبه ولا ان اجعله يأخذ شيئاً .

وبعد ان قام الحيوان بدورته التفتيشية عاد إلى قرب النافـــذة التي ظلت مفتوحة قليلاً .

وقال جاك بمرح تقريباً :

ـ انظر ، انه لم يكن ينتظر وجودك هنا . يريد الذهاب .

وبالفعل فان الهر وثب على حافة الزنك وبلغ السطح دون ان يلتفت .

وقال انطوان نصف جاد :

ـ جعلني ، بقساوة ، اشعر انني دخيل .

واغتنم جاك فرصة قيامه باقفال النافذة لكي لا يجيب . ولكن حين التفت كان يلوّنه احمرار حاد . واخذ يمشي بهدوء ، طولاً وعرضاً .

وكاد الصمت يهدد .

عندئذ اخذ انطوان يتكلم عن ابيه لعجزه عن قول مـــا هو خير من ذلك ـ مع الامل دون شك ان يبدل عواطف جاك ، ولأن التفكير بالمريض كان يعمره ـ ؛ وألح على ان طباع السيد تيبو قد تبدلت منذ عمليته ، وجازف ايضاً بالقول :

ـ ربما كنت تحكم عليه بشكل آخر لو كنت رأيته مثلي وهو يشيخ ، اثناء هذه السنوات الثلاث .

فقال جاك مراوغاً : ربما .

ولم تكن همة انطوان تخمد بسهولة ، فتابـع :

ـ الا اني كنت اتساءل احياناً اذا كنا عرفناه جيداً كما كان في دخيلة نفسه . .

وخطرت له فكرة ، وهو متعلق بموضوعه ، ان يقص على جاك حادثاً صغيراً قريب العهد جداً ، فقال :

ـ انت تعرف فوبوا الحلاق مقابل البيت ، بالقرب من نجار الابنوس ، قبل شارع بريه ـ او ـ كليرك .

وكان جاك يروح ويجيء منخفض الرأس ، فتوقف حالاً . فوبوا .. شارع بريه ـ او ـ كليرك .. كان ذلك هو العرض الفجائي في ظلام عزلته المقصودة ، لعالم ظنه منسياً . وها هو يعود ويرى فيه اقل التفاصيل ، وكل بلاطة من الرصيف ، وكل واجهة ، ونجار الابنوس الهرم ذا الاصابع بلون قشرة الجوز الخضراء ، وتاجر الاثريات الشاحب وابنته ، ثم « البيت » ، نفس اطار ماضيه « البيت » وبابه الكبير المفتوح نصف فتحة ، والمنزل ، والطابق الارضي ، وليزبيت ، واكثر بعداً ايضاً ، كل طفولته المبعدة .. ليزبيت ، تجربته الاولى.. في فيينا عرف ليزبيت اخرى كان زوجها غيوراً ، فقتل نفسه .. وفكر فجأة ان من اللازم ان يعلن عن رحيله لصوفي ، ابنة الاب كامرزين ..

وكان انطوان يتابع حكايته :

اذن ، ذات يوم وكان على عجلة من امره ، دخل الى عند فوبوا ، ذلك الحلاق الذي كان جاك ، وهو ، قد رفضا ان يكونا من زبائنه ، لأن الحلاق فوبوا كان منذ عشرين سنة يشذب كل اسبوع لحية والدهما . والهرم ، الذي كان يعرف انطوان بالنظر ، اخذ حالاً يحدثه عن السيد تيبو . وشيئاً فشيئاً ، حين يكون لدى انطوان وقت فراغ ، والمنشفة في عنقه ، كان يصاب بالدهشة لرؤيته وجهاً ابوياً لم يكن يتوقعه قد ارتسم في احاديث الحلاق . واوضح : « هكذا كان ابي يحدث فوبوا عنّا دون انقطاع . وعنك بشكل خاص ... وفوبوا يتذكر جيداً ذلك اليوم من ايام الصيف حيث « غلام السيد تيبو » ـ وهو انت ـ نجح في البكالوريا ، وحيث شق الاب باب الدكان ليعلن ببساطة : « لقد نجح الصغير يا سيد فوبوا » . وفوبوا يقول : « لقد رفع الاب الطيب عرفه بحيث كان هذا مسراً للنظر ! » غير منتظر ، اليس كذلك ؟ ولكن الذي هو ادعى للحيرة بالنسبة الى ذلك الذي حدث منذ ثلاث سنوات .

وتقلص وجه جاك بشكل خفيف ، وتساءل انطوان اذا كان لم يخطىء باستمراره . ولكنه كان قد انطلق :

ـ نعم ، منذ رحيلك ، انتهيت الى الادراك بأن ابي لم ينبس بكلمة من

الحقيقة ، وبأنه ابتكر ايضاً رواية لكي يخدع الحي . مثلاً ، قال لي فوبوا اشياء كهذه : « الرحلات هي افضل من كل شيء ! في اللحظة التي استطاع فيها والدك ان يدفع لغلامـه اجور التعليم في الخارج ، فقد فعل حسناً بارساله الى هناك . اولاً ، بواسطة البريد يمكن للمرء ان يكتب من كل مكان ؛ وهكذا ، كان يقول لي بأنك لن تمكث ابداً اكثر من اسبوع دون اخبار من الصغير .. »

وتجنب انطوان النظر الى جـاك . وقـال ليبتعد قليلاً عن هذا الموضوع الكثير الدقة :

ـ كان ابي يحدثه عني ايضاً : « ولدي البكر سيصبح ذات يوم استاذاً في كلية الطب » . وعن المدموازيل والخادمات . وفوبوا يعرف البيت كله . وعن جيز . اسمع . هذا عجيب ايضـاً : يبدو ان ابي كان يتكلم عن جيز في أغلب الاحيان (كان لفوبوا ابنة بنفس السن ، واعتقد انه فهم انها ميتة). كان يقول لأبي : « ابنتي فعلت هذا » . وابي يقول له : « وابنتي فعلت ذلك » . أتصدق؟ لقد ذكرني فوبوا بكدسة من الشيطنات ، بكلمات صبيانية ، كان والدي يقصها عليه ، وقد نسيتها انا. من كان يظن في تلك الفترة أن والدي كان يلاحظ تلك الصبيانيات ؟ وبعد ، فان فوبوا قال لي حرفياً : « لقـد كانت حسرة والدك انه لم يرزق بابنة . ولكنه كان غالباً مـا يقول : « ان تلك الصغيرة ، يا سيد فوبوا ، هي الآن كما لو كان لي ابنة » . حرفياً . وأؤكد لك ان هـذا أدهشني تماماً . حساسية شكسة اجمالاً ، وربما خجولة ومؤلمة ـ لم يكن يعرفها أحداً .

كان جاك مستمراً في رواحه ومجيئه ، دون اية كلمة ، ودون ان يرفع رأسه؛ ومع انه لم يتطلع ابداً بأخيه تقريباً فان اية حركة من حركات انطوان لم تفته . لم يكن متأثراً ، كان مهزوزاً بحرضات عنيفة ومتناقضة . اما ما كان اكثر إيلاماً له ـ بين الكثير ـ فهو شعوره بأن الماضي ، طوعـاً أو كرهاً ، يغزو حياته ؛

وخمدت همة انطوان امام صمت جاك: من المستحيل التمهيد لأي حديث.ولم يكن يرفع بصره عن اخيه محاولاً ان يكشف دلالة تفكيرٍ على تلك القسمات

التي لا توضح سوى عزمٍ على اللامبالاة ، متجهم . الا انه لم يتوصل الى الحقد عليه . كان يحب هذا الوجه الذي وجده بعد ضياع ، ولو كان متصلباً ومنحرفاً عنه . ليس هناك اي وجه في الدنيا كان اعز عليه منه . وامتلأ قلبه من جديد بمحبة جديدة ، دون ان يفشي سره بكلمة ولا بحركة .

الا ان الصمت قد حل ـ منتصراً ، راضياً ، مزعجاً . لم يكن يُسمع شيء سوى سيلان الماء في المزاريب ، وزفير النار ، واحياناً لوح خشبي يجعله جاك يفرقع تحت وقع خطاه .

وذات لحظة اقترب من الوجاق ، وفتحه ، والقى فيه عودين من الحطب ؛ وعند ذلك ، وهو راكع نصف ركعة ، التفت نحو اخيه الذي كان يتبعه بنظره وتمتم فجأة بنبرة وقحة :

ـ انت تقاضيني بصرامة . لا فرق عندي . فأنا لا أستحق ذلك .

فأسرع انطوان مصححاً : ولكن كلا .

وتابع جاك :

ـ لي كل الحق في ان اكون سعيداً على طريقتي .

ونهض بحركة عنيفة ، وصمت لحظة ، ثم قال صارّاً على اسنانه :

ـ كنت هنا سعيداً كل السعادة .

فانحنى انطوان :

ـ أصحيح هذا ؟

ـ كل السعادة .

بعد كل تبادل كلام كانا يتطلعان ببعضهما البعض لحظة ، بفضول رصين ، وتحفظٍ صادق ومفكر . وقال انطوان :

ـ اصدقـك . الا ان رحيلك .. مع ذلك لا يزال هناك كثير من الامور التي .. فسرتها بشكل سيء .. ـ وهتف بحيطة : ـ اوه ! اني لم آت لأوجه اليك اقل لوم يا صغيري ..

عندئذ فقط لاحظ جاك ابتسامة اخيه . كان يتذكر انطوان المنكمش ،

النشيط بشراسة ؛ وكانت هذة الابتسامة بالنسبة اليه ذات جدة مؤثرة . ايخاف ان يرق قلبه فجأة ؟ وشنج قبضتيه وهز ذراعه ، وأضاف كملطّف :

ـ اسكت يا انطوان ، دع كل هذا .. ليس الآن .

ومر على وجهه تعبير ألمٍ حقيقي ؛ فأدار رأسه نحو الظل ، وخفض جفونه، وتمتم :

ـ لا تستطيع ان تفهم .

وبعد ذلك عاد كل شيء صامتاً . ولكن الهواء اصبح صالحاً للتنفس .

ونهض انطوان ، وسأل دون ان يتعدى طبيعته :

ـ الا تدخن ؟ اني راغب جداً في ان اولع سيكارة ، أتسمح ؟

لقد رأى ان من الجوهري الا يضفي على شيء ثوب المأساة ، وان يؤقلم شيئاً فشيئاً هذه الوحشية بقوة العاطفة ورحابة الصدر .

وسحب بضعة انفاس ، ثم تقدم نحو النافذة . كانت جميع سطوح لوزان القديمة تنحدر نحو البحيرة في تشابك كثير التعقد مما يشبه البرادع السوداء التي يؤسس البخار المتصاعد نطاقاتها ؛ وذلك القرميد الذي قرضته الأشنة *Lichen* كان يبدو انه منقوع بالماء كاللباد . والافق البعيد النهائي كان مغلقاً بسلسلة جبال بعكس وجهة النور . وعلى الذرى كان الثلج يرتفع أبيض على سماء كلها رمادية على نسق واحد ؛ وعلى طول المنحدرات يذوب نقياً على المساحات الرصاصية اللون . حتى كأنها براكين داكنة من الحليب ، تسيل قشدتها .

وكان جاك قد اقترب . وقال ماداً ذراعه :

ـ أسنان أوش[١] .

كانت المدينة المدرجة تغطي من البحيرة الضفة الاقرب ؛ والضفة الاخرى المعاكسة للنور لم تكن سوى جرف من الظل وراء نقاب من المطر .

وقال انطوان محققاً :

---

١ - *Les Dents d'Oche* : وهو اسم علم لمكان كما يبدو

ـ بحيرتك الجميلة تزبد اليوم كبحر هائج .

وابتسم جاك ابتسامة مجاملة . وتأخر ، جامداً ، دون ان يستطيع فصل عينيه عن ذلك الشاطىء حيث كان يشاهد ، في حلم ، مجموعات من الاشجار ، والقرى ، والاساطيل الصغيرة الراسية بالقرب من الجسور العائمة ، والطرقات الضيقة كالحبال نحو فنادق الجبل ... اطار للتشرد والمغامرات عليه ان يتركه

ـ الى كم من الوقت ؟ .

وأراد انطوان تحويل انتباهه فقال :

ـ انا متأكد ان لديك ما تعمله هذا الصباح ، خصوصاً اذا .. ـ واراد ان يضيف : ـ خصوصاً اذا ذهبنا هذا المساء .

ولكنه لم يكمل .

وهز جاك رأسه منزعجاً :

ـ ولكن كلا ، أؤكد لك . لا أهتم الا بنفسي . ليس هناك اي شيء معقد حين يعيش المرء وحيداً . حين يحتفظ **بحريته** .

ورنت الكلمة في الصمت . ثم ، من جديد ، ولكن بلهجة اخرى ، كئيبة ، مع نظرة ملحة ، وتأوه :

ـ لا تستطيع ان تفهم .

وتساءل انطوان : « اية حياة يعيش هنا اذن ؟ اشغاله ، نعم .. ولكن مم يعيش ؟ » وافترض عدة افتراضات ، مستسلماً لحظة لمجرى افكاره . وانتهى الى القول بصوت منخفض :

ـ منذ ان تصبح راشداً يصير باستطاعتك أخذ نصيبك من ثروة امنا ..

ومر وميض لهو في نظرة جاك . وكاد يلقي سؤالاً ، ولكن شيئاً من الحسرة أمسكه : لقد فكر انه سيصبح باستطاعته ذات يوم ان يتجنب بعض الاعمال.. احواض تونس .. غـــرفة تحت الارض في الادرياتيكا ، في تريستا .. دوتش بوخدروكري في أنسبروك .. وهذا لم يدم سوى ثانية ؛ ولم تخطر بباله الفكرة القائلة ان موت السيد تيبو سيريحه نهائياً . كلا ! بـــدون اموالهم . بدونهم !

وحده !

وجازف انطوان :

ـ كيف تتغلب على مصاعبك ؟ هل تربح بسهولة ما تعيش به ؟

فأجال جاك نظره حوله :

ـ ترى جيداً .

ولم يتمالك انطوان عن الالحاح :

ـ ولكن ماذا ؟ ماذا تفعل ؟

واستعاد وجه جاك تعبيره المقنع العنيد . وتشكل غضن وامحى على جبهته . واسرع انطوان معترضاً :

ـ لم اسألك لأتدخل في شؤونك . ليس لي سوى رغبة واحدة يا صغيري ، هي ان تنظم حياتك على افضل ما يكون وان تكون سعيداً .

فأفلت جاك بصوت منخفض . ولا شك بان النبرة كانت ذات دلالة :

ـ هذا ـ ان اكون سعيداً ـ هذا مستحيل !

وتابع حالاً بصوت مكدود ، هازاً كتفيه :

ـ دع عنك هذا يا انطوان ، دع عنك ... لن تفهمني جيداً .

وبذل جهداً ليبتسم . وبعد عدة خطوات حائرة عاد الى النافذة تائه النظرات ، دون ان يظهر انه لاحظ تناقض اقواله ، وأكد من جديد :

ـ كنت سعيداً هنا كل السعادة ... كل السعادة .

ثم تطلع الى ساعته ، والتفت نحو انطوان دون ان يترك له الوقت لمواصلة الحديث :

ـ يجب ان اقدمك الى الأب كامرزين . والى ابنته اذا كانت هناك . وبعد ذلك سنذهب لنتناول فطورنا . ليس هنا ، كلا : في الخارج . ـ وكان قد فتح الوجاق من جديد وحشاه بالحطب وهو يتكلم :ـ خيـــاط قديم .. والآن مستشار بلدي .. ونقابي متحمس ايضاً .. وقد اسس صحيفة اسبوعية يحررها وحده تقريباً ... رجل باسل جداً ، سترى .

الشيخ كامرزين بالقميص ، في مكتبه الدافىء ، كان يصحح المسوّدات ، مجهزاً بنظارات غريبة مستطيلة ، كان طرفاها الذهبيان اللدنان كالشعر يلتفان حول اذنيه الصغيرتين اللحميتين . نبيه تحت مظاهره الصبيانية . يأتي بحكمٍ وأمثال في أحاديثه ولكنه كيّس في مواقفه . كان يضحك كل لحظة ، ومن فوق نظارتيه كان ينظر بالحاح الى الناس في عيونهم . وطلب جعة . ونادى انطوان بكلمة ؛ « سيدي العزيز » ! ثم بعد ذلك بقليل : « ولدي العزيز » .

وأعلن جاك ببرود ان صحة والده تضطره الى التغيب « لبعض الوقت » وانه سوف يذهب هذا المساء . ولكنه يحتفظ بغرفته حيث سيدفع اجارها عن الشهر الحالي مقدماً ، وحيث سيترك فيها « كل امتعته » . اما انطوان فلم يأت بحركة .

وهز الهرم الصغير الاوراق التي كانت امامه ، واندفع يرتجل خطاباً كثير الالتفاف حول مشروع مطبعة تعاونية لأجل صحف « الحزب » . وبدا أن جاك مهتم بذلك فأعطى جوابه. وكان انطوان يصغي. ولم يبد جاك انه متعجل للخلوة بأخيه . هل كان ينتظر احداً لم يظهر ؟

واخيراً أعطى اشارة الرحيل .

٨

في الخارج ريح شديدة تنقل ثلجاً ذائباً .

وقال جاك .

— هذا يثير الاعصاب .

وحاول ان يبدو اقل صمتاً . وعند هبوطهما ادراجاً عريضة من الحجر تحاذي بناية عمومية ، اوضح من تلقاء نفسه انها الجامعة . وكانت النبرة تشي بشيء من الكبرياء بسبب المدينة التي اختارها . وتعجب انطوان . ولكن نفخات المطر والثلج التي كانت تتوالى بهباتٍ شديدة حثتها على طلب ملجأ بأقصى سرعة .

في زاوية شارعين ضيقين خدّدهما راكبو الدراجات والمشاة سار جاك نحو طابق أرضي مزجج يحمل بدل الآرمة بحروف كبيرة بيضاء على زجاج الباب .

غاسترونوميكا [1]

والغرفة المصفحة بخشب السنديان القديم كانت كلها مشمعة . وصاحب المطعم ، وهو رجل ضخم نشيط ، دموي اللون ، ضيق النفس ولكنه مسرور من نفسه ، من صحته ، من خدمه ، من اطعمته ، كان يسرع الى زبائنه الذين يعاملهم كمدعوين طارئين . وكانت الجدران مزينة بخطوط مكتوبة بحروف قوطية : «في غاسترونوميكا، المطبخ ليس كيمياء!» او ايضاً : «في غاسترونوميكا لا يوجد خردل جاف على حافة إناء الخردل ! »

وجاك الذي كان يبدو أقل تقطباً منذ زيارة كامرزين وبعد السير تحت المطر ، كان يبتسم بطيبة خاطر لتسلية اخيه . ولم يكن منتظراً فضول انطوان إزاء العالم الخارجي ، ولا تلك النظرة النهمة . وتلك الهيئة المستعدة لتلقف وتذوق كل ما لا معنى له . وفي الماضي ، في غليان الحي اللاتيني ، حيث سنحت الفرصة للأخوين ان يتناولا فطورهما معاً ، فان انطوان لم يكن يلاحظ شيئاً . وكانت اولى حركاته أن يضع أمامه مجلة طبية ، مسندة الى زجاجة الماء .

وشعر انطوان ان جاك يتفحصه فسأل :

ـ هل تجدني متغيراً ؟

فأتى الآخر بحركة مراوغة . نعم ، لقد بدا له انطوان متغيراً ، متغيراً جداً . ولكن بماذا ؟ أليس ان جاك كان قد نسي اثناء هذه السنوات الثلاث كثيراً من خصائص اخيه البكر ؟ كان يستعيدها واحدة واحدة . وبين لحظة واخرى فان اية حركة من انطوان ـ هزة الكتف تلك، وذلك الطرف بالجفون ، وتلك

---

١ ـ اي اختصاصي بالاطعمة الفاخرة .

الطريقة في فتح اليد حين يقدم ايضاحــــاً ـ كانت تدهشه فجأة كلقاء صورة مألوفة في السابق وقد محيت كلياً من ذاكرته . الا ان بعض المستغربات كانت تبعث فيه الاضطراب دون ان تذكره بشيء قد نسيه : التعبير العام للسحنة ، للهيئة ، تلك الطلاقة الطبيعية وذلك المزاج المتساهل ، وتلك النظرة الخالية من العنف والقساوة. كل هذا كثير الجدة.وجرب ان يقول له ذلك ببعض الكلمات المشوشة . فابتسم انطوان . وكان يعلم ان هذا من تأثير راشيل . ان العـاطفة المنتصرة ، اثناء عدة اشهر ، قد طبعت على وجهه ، وهو المتمرد حتى الآن على كل اقرار بالسعادة ، نوعاً من الاطمئنان المتفائل ، ربما رضى حبيب ذي ميزة ـ غضناً لم يختف تماماً .

كان الفطور جيداً ؛ والجعة ، مائعة ، خفيفة ، مثلجة ؛ والقاعة ذات حفاوة . وكان انطوان يندهش مبتهجاً بالخصائص المحلية . وقد تأكد ان صمت اخيه على هذا الصعيد ينحني مختاراً . (مع ان جاك في كل مرة يفتح فمه ، كان يبدو انه يندفع في الحديث بيأس . وكلامه متردد منقطع ، يصبح بين لحظة واخرى ، وبدون سبب ، صاخباً ، مرتجفاً مع وقفات عنيفة ، ويغمس نظره في نظر اخيه الاكبر وهو يتكلم) .

وأجاب على فكاهة من انطوان

ـ كلا يا انطوان ! انت تخطىء الظن .. لا يمكن القول أن في سويسرا .. هكذا ، قد رأيت بلداناً اخرى كثيرة ، وبعد ، أؤكد لك ..

لقد استوقفه الفضول اللاإرادي الذي التقطه على وجه انطوان . وتابع من تلقاء نفسه بعد ذلك بقليل ، وربما كان متأسفاً بسبب هذا المزاج الحذر :

ـ اليك هذا . ويمكن أن يتخذ كنموذج : ذلك السيد الوحيد الذي يحدث صاحب المحل ، الى يميننا . نموذج شعبي ممتـاز من سويسرا . المظهر ، الهيئة ، اللهجة .. .

ـ تلك اللهجة لرجل مزكوم ؟

فصحح جاك بتقطب متشكك :

ـ كلا نبرة ملحــة ، ذات نغم واحـــد ، تشير الى التفكير . ولكن على الخصوص ، انت ترى هذه السحنة المنطوية على نفسها ، لامبالية بمـا يجري . هذا ، انه سويسري جداً . وأيضاً تلك الهيئة الدالة على أن يكون المرء في امان أينما كان ..

فقال انطوان مسلماً بالأمر .

ـ العين ذكية ولكنها خالية من النشاط الى درجة لا تصدق .

ـ في لوزان هم هكذا ، ألوف . انهم يعلمون ما يجب ان يعلموه ، من الصباح إلى المساء دون ان يندفعوا او يضيعوا دقيقة واحدة . ويلتقون بحيوات اخرى دون ان يختلطوا بها . ولا يتجاوزون حدودهم ابداً ، وينصرفون كلياً ، في كل لحظة من حياتهم ، الى الشيء الذي سيفعلونه في اللحظة القادمة .

كان انطوان يصغي اليه دون ان يقاطعه ؛ وهذا الانتباه كان يخجل جاك قليلاً ، ولكنه يسنده ايضاً ، ويوقظ فيه عاطفة خفية من الأهمية تجعله اكثر ثرثرة . وتابـع :

ـ لقد قلت « النشاط » .. يظنونهم ثقلاء . وهذا قول قيل بسرعة ، وهو خاطىء . انهم من مزاج آخر غير .. مزاجك .. وربمـا اكثر كثافة ، واكثر مرونة عند الاستعمال .. ليسوا ثقلاء ، كلا : « مستقرون » وليس الامران سواء .

وقال انطوان ساحباً سيكارة من جيبه :

ـ ما يدهشني هو ان اراك ، انت ، مرتاحاً في هذه المنملة .

فهتف جاك : ولكن تماماً .

ونقل الفنجان الفارغ الذي كاد يقلبه .

ـ اني سكنت في كل مكان ، في إيطاليا ، في المانيا ، في النمسا .

فجازف انطوان دون ان يرفع عينيه ، ويده على عود ثقابه :

ـ وفي انكلترا .

ـ في انكلترا ؟ كلا . لماذا انكلترا ؟

وقفة قصيرة كانت افكارهما خلالها تسعى للتعرف على بعضها البعض . ولم يرفع انطوان عينيه ، الا ان جاك استمر ، مندهشاً :

ـ وبعد ، اعتقد انني لن استطيع البقاء في اي من تلك البلدان . لا يمكن العمل فيها .. والمرء يحترق فيها . لم اجد التوازن إلا هنا ..

وبالفعل ، فقد بدا في تلك اللحظة كأنه بلغ شيئاً من التوازن . كان جالساً بانحراف ، في وضعية بدت عادية بالنسبة اليه ، الرأس منحن من ناحية الذؤابة المتمردة ، كما لو ان ثقل الشعر قد اثقل عليه . وكان الكتف الايمن متقدماً ، وكلا النصف الاعلى من جسده مستند الى الذراع الايمن الذي كان كفه المبتعد يستند على الفخذ بقوة . اما المرفق الايسر فبالعكس ، كان موضوعاً بخفة على الطاولة واصابع اليد اليسرى تلعب ببعض الفتات المتناثر على السماط . ان هاتين اليدين اصبحتا يدي رجل ، عصبيتين ، قويتي الدلالة .

كان يفكر بما قاله . وقال بنوع من عرفان الجميل :

ـ الناس هنا مريحون . ومن الراهن ان غياب العاطفة ليس سوى ظاهري . فالعواطف هنا موجودة في الهواء ، كما في الخارج . ولكن انت تعلم ان العواطف التي تكبح يومياً لا تشكل خطراً كبيراً .. وهذا امر ليس معدياً ..

وقاطع نفسه ايضاً وقد احمر فجأة ، وقال بصوت منخفض :

ـ ذلك انه منذ ثلاث سنوات ، كما تعلم ..

وبدون ان ينظر الى انطوان ابعد ذؤابته بحركة عنيفة من قفا يده ، وبدل وضعيته ، وصمت .

هل كانت اول خطوة نحو الاعتراف ؟ وانتظر انطوان دون ان يأتي بحركة، شاملاً اخاه بنظرة محرّضة ،ولكن جاك قطع الحديث عمداً. وقال وهو ينهض:

ـ لا يزال المطر ينهمر . من الافضل ان نعود الى البيت ، اليس كذلك ؟

وعند خروجهما من المطعم مر امامهما راكب دراجة . ونزل عن دراجته وركض نحو جاك ، وسأله لاهثاً دون ان يلقي تحية الصباح :

ـ هل رأيت احداً من هناك

ان المعطف الجبلي الذي كان يكافح الريح ، وهو يصالب يديه على صدره ، كان مبللاً بالمطر . واجاب جاك دون ان يبدي دهشة :

ـ كلا .

وأشار الى مدخل بيت كان بابه الكبير مفتوحاً ، وقال مقترحاً :

ــ لنقف هنا .

وبما ان انطوان كان قد بقي جانباً بدافع الرصانة ، فقد التفت ليناديه . ولكنه لم يقم بأي تعارف حين اصبح الثلاثة في الملجأ .

واسقط القـــادم الجديد ، بحركة من رأسه ، على كتفيه قلنسوته التي كانت تغطي عينيـــه . كان رجلاً تجاوز الثلاثين . ورغم هذا الدخول الخشن في الموضوع ، فان نظرته ظلت هادئة ، مداعبة تقريباً ، والهواء الشديد جعل الوجه احمر . كان مجروحاً بندبة قديمة وكانت سحبتها الخالية من الدم تقفل نصف العين اليمنى ، وتقطع الحاجب بانحراف وتختفي تحت القبعة .

وتابع بصوت محموم ، دون ان يبدو مكترثاً بوجود انطوان :

ــ انهم يرهقونني باللوم . ولكني لم اكن استحق هذا ، اليس كذلك ؟

كان يبدو انه يعلق اهمية خاصة على حكم انطوان الذي اتى بحركة متساهلة :

ــ ماذا يريدون ؟ يقولون انهم اناس مأجورون ، فهل الخطأ مني ؟ وهم الآن بعيدون ويعلمون جيداً ان ليس هناك من يشي بهم .

فلفظ جاك بعد تفكير :

ــ لا يمكن لحيلتهم ان تنجح . فهناك واحد من اثنين ...

وهتف الآخر ، دون ان ينتظر ، بنوع من الاعتراف بالجميل والحرارة غير المتوقعة :

ــ نعم ، هذا ما يمكن ان يقال ! ولكن يجب على الصحافة السيـــاسية الا تعزلنا مقدماً .

فقال جاك خافضاً صوته :

ــ منذ ان يتنسم ساباكين شيئاً فسيختفي . وبيسون ايضاً ، وسترى .

- بيسون ؟ ربما .

ـ ولكن ، تلك المسدسات ؟

ـ كلا ، فهذا سهل اثباته ، كان عشيقها القديم قد اشترى هذه المسدسات من مدينة بال ، عند مبيع مخزن اسلحة ، بسبب الوفاة .

فقال جاك :

ـ اسمع يا راير. لا تعتمد علي في هذه الايام، فأنا لن استطيع، لبعض الوقت، ان اكتب شيئاً . ولكن اذهب الى ريشاردلي. وليعطك الاوراق . وقل له انها لي . واذا كان بحاجة الى توقيع فليتكلم هاتفياً مع ماك لاهير ، اليس كذلك !

فأخذ راير يد جاك وشد عليها دون ان يجيب . وقال جاك محتفظاً بيد راير في يديه :

ـ ولوت ؟

فخفض الآخر رأسه ، وقال بضحكة خجولة :

ـ لا استطيع لها شيئاً .

ورفع عينيه وردد بغضب :

ـ لا استطيع لها شيئاً ، اني احبها .

فأفلت جاك يد راير . ثم دمدم بعد وقفة :

ـ الى اين سيقودكما ذلك ، كلاكما ؟

فابتسم راير :

ـ ان ولادتها صعبة جداً ، ولن تستعيد صحتها ابداً . وعلى كل حال فلن تستعيد صحتها بشكل كاف لتستطيع العمل .

فقاطعه جاك :

ـ لقد قالت لي : « لو كانت لدي الشجاعة لكانت هناك وسيلة للانتهاء من ذلك » .

ـ أرأيت ؟ اذن ماذا تريدني ان افعل ؟

ـ ولكن شنيباخ ؟

فأتى الرجل بحركة تهديد . واشتعل وميض حقد في نظرته .

وقدم جاك يده ووضعها على ذراع راير : ضغطة صداقة ولكنها شديدة ، شبه آمرة ، وكرر بقساوة :

ـ الى اين سيقودكم هذا يا راير ؟

فهز الآخر كتفيه بهيئة حانقة ، وسحب جاك يده . وبعد صمت رفع راير ذراعه بنوع من الاحتفال ، واختتم بصوت منخفض :

ـ بالنسبة الينا كما هو بالنسبة اليهم . الموت في النهاية . هذا ما يمكن قوله ـ وضحك بصمت ، كما لو ان ما قاله شديد الوضوح : ـ وبدون ذلك فالأحياء يصبحون هم الأموات والاموات يصبحون هم الاحياء ..

وأمسك بدراجته من مقعدها ورفعها بذراع واحـــد . واصبحت ندبته بشكل حلقة ، بنفسجية اللون . ثم خفض قلنسوة معطفه بحيث لا يظهر سوى عينيه ، ومد يده قائلاً :

ـ شكراً . سأذهب الى ريشاردلي .انت رجل كبير ، حقيقي وظريف .ـ وعادت لهجته واثقة وسعيدة : ـ لا شيء سوى ان اراك يا بولتي ، فهذا يصلح اموري مع العالم كله تقريباً ، مع الرجل ، مع الادب .. حتى مع الصحافة ، نعم .. إلى اللقاء .

لم يكن انطوان قد فهم شيئاً من حديثهما ، ولكن لم تفته كلمة ، ولا حركة. وقد لاحظ منذ البدء هيئة ذلك الرجل الذي يكبر جاك بشكل محسوس ، ومع ذلك فهو يشهد له بهذا النوع من الاعتبار الودود الذي يمنح فقط لبعض المشاهير الاكبر سناً . اما ما لم يكف عن اثارة دهشته ، اثناء هذا الحديث كله ، ويبعث فيه الاضطراب ، فهو وجهـــه المرحِّب ، وجبهته المسترخية ، المفكرة ، ونضجُ نظرته ، والسلطة غير المنتظرة الصادرة عن شخصه . انـه اكتشاف بالنسبة لانطوان . لقد كان تحت نظره ، ولبضع دقائق ، جاك آخر لم يكن يعرفه مطلقـــاً ، وما من شيء حتى الآن كان يستطيـع ان يجعله يرتاب

بوجوده ، والذي كان دون شك هو جاك اليوم بالنسبة الى جميع « الجاكات » الحقيقيين .

وكان راير قد امتطى دراجته ، وابتعد بين كتلتي وحل دون ان يفكر بتحية انطوان .

٩

وتابع الاخوان طريقهما دون ان يقدم جاك اقل شرح حول هذا اللقاء . الا ان الريح التي كانت تغور في ثيابهما ، وتبدو ضاريةً بشكل خاص ضد مظلة انطوان ، جعلت كل محادثة مستصعبة .

وفي اسوأ لحظة ، بينما كانا يزحفان نحو ساحة لاريبون ـ وهي ساحة واسعة يبدو ان جميع رياح السماء جاءت تتجابه فيها ـ فان جاك خفض الخطى فجأة ، غير مبالٍ بالمطر المنهال عليه ، وسأل :

ـ لماذا اذن قلت على المائدة منذ لحظة : وانكلترا ؟

فاشتمّ انطوان نية عدوانية ، وشعر بالاضطراب . واحتج ببضع كلمات مبهمة حملتها الريح . فقال جاك الذي لم يسمع شيئاً :

ـ ماذا تقول ؟

وكان قد اقترب ومشى منحرفاً ، مقدماً كتفه ليقطع الهواء ؛ والعين المستفهمة المثبتة على اخيه كانت تشير الى كثير من الالحاح بحيث لم يعد بامكان انطوان التقهقر ، وتردد في الكذب ، واعترف :

ـ حسناً ، ولكن . بسبب .. الورود الحمراء !

كان في اللهجة من الخشونة اكثرمما يريد . ومرة اخرى فرضت نفسها عليه شهوة السفاح بين جيزيب وأنيتا ، وسقوطهما على العشب ، انه موكب من الرؤى اصبح مألوفاً دون ان ينقطع عن ان يكون مؤلماً له . وكان مستاءً ، عصبياً ، منحياً باللوم على هبّات الريح الشديدة التي كانت تزعجه . وهمهم بتجديفة وأطبق مظلته بغضب .

وكان جاك قد ظل جامداً مكانه لحظة : من الراهن انه كان على بعدمئة ميل من توقع هذا الجواب ، فعض على شفتيه وخطا بضع خطوات دون ان ينبس بكلمة . (كم مرة اشفق على نفسه من تلك الســـاعة من الضعف الذي لا يمكن تصوره ، وأسف على تلك السلة من الورود ، التي اشتراها من مكان بعيد جداً بواسطة صديق ـ رسالة تعرض للخطر ، وتعلن بصوت مرتفــع : « انا حي وأنا افكر بك» في الوقت الذي كان جميع اهله يظنونه ميتاً ! ولكنه استطاع على الاقل الاعتقاد حتى الآن ان تلك الحركة الطائشة ظلت سرية . وعدم كتمان جيز للسر ، وهو غير منتظر بالنسبة اليه وغير مفهوم ، قد اسخطه) . فلم يعرف كيف يكبح جماح كدره . وقال ضاحكا :

ـ لقد اخطأتَ موهبتك . انك خلقت لتكون شرطياً .

وعاند انطوان وقد اغاظته النبرة :

ـ عندما يحرص المرء كثيراً على اخفاء حياته الخاصة ياصديقي ، فلا ينشرها في وضح النهار ، على صفحات مجلة .

فأحس جاك باللسعة وصاح في وجهه :

ـ آه ! ايمكن ان تكون اقصوصتي هي التي جعلتك على علم بارسال الزهور؟

ولم يكن انطوان مالكا نفسه ، فقال متصنعاً الهدوء ، مفصلاً المقاطع بصوت لاذع :

ـ كلا . ولكن اقصوصتك اتاحت لي على الاقل ان اتذوق كل ما في ارسال الورود من معنى .

وبعد ان رشق سهمه ، سار معاكساً الريح ، واسرع الخطى .

ولكن شعوره على الاثر بأنه ارتكب خطأً لا يمكن اصلاحه قد قفز الى امام عينيه بكثير من الوضوح بحيث قطع نفسه . بضع كلمات زيادة ويفسد كل شيء: لقد كاد جاك يفلت منه نهائياً .. لماذا اضاع اتجاهه فجأة ،وخضع لهذه النوبة من الغضب؟ ألأن جيز كانت السبب؟ وما العمل الآن؟ ايصرح بفكره؟أيعتذر؟ الا يزال هناك متسع من الوقت ؟ آه ! لقد شـــعر انه على استعداد لجميع

التكفيرات !

وكاد يلتفت نحو اخيه ويعترف بخطأه بأكثر ما يمكن من الرقة حين شعر فجأة بجاك يمسك ذراعه ويتعلق به بكل قواه : ضغطة عاطفية غير منتظرة مطلقاً ، وحضنة متشنجة ، اخوية ابطلت بثانية ، ليس فقط ذلك التبادل الخشن للحديث ، بل كل صمت هذه السنوات الثلاث من البعد . وكان على أذنه فم مرتجف يتمتم بصوت متقطع :

– ولكن ماذا يأنطوان ؟ ماذا استطعت ان تفترض ؟ هل ظننت ان جيز.. اني .. ؟ أظننت ذلك ممكناً ؟ انت مجنون .

ونفذت النظرات الى بعضها البعض . وكانت نظرة جاك مؤلمة ، ولكنها متطهرة ، مجدّدة . وعلى وجهه كان الحياء المهان يمتزج بالاشمئزاز والألم. وكان ذلك بالنسبة لانطوان موجة محسنة من النور . فشد اليه ذراع اخيه الصغير متهللاً . هل شك حقيقة بهذين الصغيرين ؟ لم يكن يعلم . كان يفكر بجيز بتأثر شديد . وقد شعر انه تعزى وأنقذ ، وانه سعيد بشكل غير عادي . انه اخيراً وجد اخاه .

وصمت جاك . ولم تكن تمر امام عينيه سوى تذكارات مؤلمة : تلك الامسية في ميزون – لافيت حيث اكتشف في نفس الوقت حب جيز ، والجاذبية الجسدية التي لا تقهر ، والـــتي ايقظتها فيه ؛ وقبلتها المضطربة المقتضبة تحت الزيزفون في الليل ؛ ثم حركة جيز الرومنتيكية ، وهي تسقط اوراق الورد في ذلك المكان حيث عقد هذا الرهن الخجول للحب ..

وانطوان ايضاً كان صامتاً . كان يريد ان يقطع هذا الصمت ؛ ولكنه ظل صامتاً ، خجولاً . وبانقباض ذراعه على الاقل جرب ان يقول لجاك : « نعم ، كنت مجنوناً ، اني اصدقك ، وكم انا سعيد ! » ورد الآخر الضغطة ، وتفاهما افضل مما لو كانا بالكلام .

واستمرا في التقدم تحت المطر ، ملتصقين ببعضهما البعض ، ومضطربين من هذا الاحتكاك الكثير الرأفة ، الكثير الامتداد ؛ ولكن لا هذا ولا ذاك كان

يجرؤ على اخذ المبادرة بالانفصال . وحين كانا يسيران بمحاذاة جدار يؤويهما من الريح ، فتح انطوان مظلته ، واصبحا كأنهما تقاربا ليكونا في مأمن .

ووصلا إلى البنسيون دون ان يتبادلا كلمة . ولكن انطوان توقف امـــام البيت ، وأعتق ذراعه وقال بصوت طبيعي :

ـ هل لديك حقيقة بعض الاعمال التي تقوم بها قبل هذا المساء ؟ سأتركك ، وسأزور المدينة ..

فقال جاك :

ـ في مثل هذا الطقس ؟

وكان يبتسم . ولكن انطوان شعر بوميض تردد . (في الواقع كان الاثنان يتهيبان فترة بعد الظهر الطويلة وهما يختليان وجهاً لوجه) . وتابع :

ـ كلا ، لدي رسالتان او ثلاث اكتبها ، وهـــذا يحتاج الى عشرين دقيقة ؛ وربما اقوم بجولة قبل الساعة الخامسة .

وبدا ان هذا ألقى دكنة على محياه . الا انه انتصب وقال : انا حر من الآن حتى ذلك الوقت . لنصعد .

كانت الغرفة قد رتبت في غيابهما. والوجاق وقد جدد حطبه ، كان يزفر . ومدا امام النار معطفيهما المبللين ، وساعدا بعضهما البعض برفقة جديدة .

كانت احدى النوافذ قد ظلت مفتوحة ، فاقترب انطوان منها . وكان يبرز بين هذه السطوح الهابطة نحو البحيرة برج عظيم ، متوج بزينة ذات شكل هرمي ، تلمع حربتها الصدئة تحت المطر . فأشار اليها باصبعه ، وقال جاك :

ـ سان فرنسوا ، اترى الساعة ؟

على احد أوجه برج الجرس تنفتح مينا ساعة مدهونة ، حمراء وذهبية اللون.

ـ الساعة الثانية والربع .

ـ انت محظوظ. فقد خف نظري كثيراً ولا استطيع الاعتياد على النظارات بسبب صداعي .

فهتف انطوان الذي اقفل النافذة: « صداعك ؟ » والتفت برشاقة ، ووجهه

المستفهم جعل جاك يبتسم :

ـ نعم يا دكتور ، عندي صداع هائل ؛ ولم اشف منه تماماً .

ـ اي نوع من الصداع ؟

ـ ألم هنا .

ـ دائماً الى اليسار ؟

ـ كلا .

ـ دوار ؟ اضطرابات في العين ؟

فقال جاك الذي بدأ هذا الحديث يقلقه :

ـ إطمئن . انا الآن احسن بكثير .

فصرح انطوان الذي لم يكن يمزح :

ـ يجب ان تُفحص بدقة وان تُدرس الظاهرات الهضمية .

ومع انه لم يكن يفكر بالبدء بهذا الفحص ، الا انه خطا خطوة آلية نحو جاك . وهذا لم يستطع الامتناع عن القيام بحركة تراجع . لقد فقد عادة اهتمام احد به ، وكان اقل انتباه يبدو له خرقاً لاستقلاله ، الا انه خضع للصواب حالاً ؛ وسببت له هذه العناية شعوراً عـــذباً ، كما لو ان في داخله نسمة باردة جاءت تغمر العروق التي طال تخدّرها .

وتابع انطوان :

ـ الم تُصَب بشيء مماثل في الماضي ؟ من اين جاءك هذا ؟

وأسف جاك على حركة التقهقر التي قام بها ، واراد ان يجيب ، ويعطي بعض الايضاحات . ولكن هل كان يستطيع قول الحقيقة ؟

ـ لقد جاء هذا بعد نوع من المرض.. كصدمة .. زكام ، لا ادري .. وربما ايضاً من الملاريا .. لقد ظللت شهراً في المستشفى تقريباً .

ـ في المستشفى ؟ اين ؟

ـ في قابس .

ـ قابس ؟ في تونس ؟

ـ نعم . اصبت بالهذيان كما يبدو . وبعد ذلك تألمت من رأسي بشكل مخيف طوال اشهر .

لم يقل انطوان شيئاً ولكن بدا واضحاً انه يفكر : « يكون له في باريس بيت مريح ، ويكون اخاً لطبيب ، ويركب الاخطار ليموت في مستشفى في افريقيا ! »

وتابع جاك ، راغباً ان يتكلم بشيء آخر .

ـ اما ما انقذني فهو الخوف ، الخوف من الموت في ذلك الأتون . كنت افكر بايطاليا كما يفكر الغريق على طوفه بالارض ، بآبار الماء العذب .. لم يكن لدي سوى فكرة : ميت ام حي ، اركب السفينة وأبلغ نابولي .

نابولي .. وتذكر انطوان لونادورو ، وسيبيل ، ونزهـــات جيزيب على الخليج . وجازف :

ـ ولماذا نابولي ؟

فاحمر وجه جاك . وبدا انه يناضل لحظة ضد نفسه ليشرح شيئاً ، ثم جمد نظره الازرق .

وأسرع انطوان يقطع الصمت :

ـ اعتقد ان ما كان يلزمك هو الراحة ، ولكن في مناخ نشيط .

فتابع جاك ، وقد بدا واضحاً انه لم يكن يصغي :

ـ اولاً ، في نابولي كانت لدي توصية لواحـــد من القنصلية ، والاقامة في الخارج اكثر سهولة . وكنت افضل ان اكون ضمن النظام ـ واستقام كتفاه ـ الا اني احببت ان اظل هارباً من الجندية ولا اعود الى فرنسا لأُحشر في ثكناتهم !

ولم يحرك انطوان ساكناً وغيّر الموضوع :

ـ ولكن لهذه الرحلات .. هل كان لديك مال ؟

ـ يا له من سؤال ! ومنك انت ! ـ واخذ يروح ويجيء ويداه في جيوبه : ـ لم اجد نفسي ابداً بدون نقود لوقت طويل . الضروري . في البدء ، هناك ، كان من اللازم ان اقوم بأي عمل ـ واحمر من جديد وتوارت نظرته ـ اوه ! ببضعة

ايام يتخلص المرء من ورطته بسرعة .

– ولكن ماذا ؟ كيف ؟

– مثلاً .. اعطاء دروس بالفرنسية في مدرسة مهنية .. تصحيح مسودّات ليلاً في صحيفة « البريد التونسي » و « باريس – تونس .. » وقد افادني ذلك بأن اصبحت اكتب الايطالية بسرعة كالفرنسية .. واستطعت بعد قليل ان اقدم اليهم مقالات . وصرت اراجع الطبع في مجلة اسبوعية . ثم الاصداء ، والشغل .. ثم الريبورتاج حين اصبحت قادراً . – ولمعت عيناه – آه ! هذا ، لو كنت اتمتع بالصحة الكافية لبقيت فيه ! يا لها من حياة !واذكر في فيترب.. (اجلس اذن ، كلا ، انا احب ان امشي .) .. لقد ارسلوني الى فيترب ، حيث لم يكن يجرؤ احد ، لأجل دعوى كامورا غير العادية ، اتذكر ؟ اذار ١٩١١ .. يا لها من مغامرة ! سكنت عند نابوليتانيين. مغارة لصوص حقيقية . وفي ليل ١٣ و ١٤رحل الجميع: وحين جاء البوليس كنت نائماً . كنت وحدي ، واضطررت ..

وقاطع نفسه في وسط عبارته رغم انتباه انطوان ، وربما كان بسبب هذا الانتباه . كيف يستطيع بواسطة الكلام ان يعيد ما كانته طوال اشهر تلك الحياة التي تسبب الدوار ! ومع ان نظر اخيه كان ضاغطاً فانه غيّر الاتجاه :

– كل هذا اصبح بعيداً . فلندعه .. يجب الا نفكر به .

ولكي يهرب هو نفسه من اذى هذه الذكريات اضطر الى التكلم من جديد ولكن بهدوء :

– قلت لي : آلام الرأس تلك ؟ حسناً ، انظر ، لم استطع ابداً احتمال الربيع في ايطاليا . وما ان استطعت ، ما ان اصبحت حراً ..

وقطب حاجبيه ؛ ما من شك في انه كان يصطدم هنا ايضاً بذكريات مؤلمة ، وقال مع حركة عنيفة من ذراعه :

– ما ان استطعت الهرب من كل هذا حتى صعدت إلى الشمال .

وسكت ، وكان واقفاً ويداه في جيوبه ، والعينان منخفضتان على الوجاق.

وسأل انطوان :

ـ شمال إيطاليا ؟

فهتف جاك مرتجفاً :

ـ كلا ، فيينّا ، بست .. ثم الساكس ، دريسد . ثم مونيخ .

وتجهم وجهه فجأة ؛ وألقى هذه المرة نحو اخيه نظرة حادة وبدا حقيقة انه يتردد : ارتعشت شفتاه . ولكن مضت بضع ثوانٍ ، فعوج فمه واكتفى بالتمتمة ، واسنانه مضمومة جداً بحيث كانت الكلمة الاخيرة لا تكاد تفهم .

ـ آه ! مونيخ .. مونيخ ايضاً مدينة مخيفة .

واسرع انطوان وقطع الحديث :

ـ على كل حال ، يجب عليك .. ما دام السبب لم يظهر .. فالصداع ليس مرضاً ، انه اعراض .

ولم يسمعه جاك . وصمت انطوان . لقد نتجت نفس الظاهرة في عدة مناسبات : من المؤكد ان جاك كان يشعر فجأة بالحاجة ليفجر من تلقاء نفسه سراً متعباً ؛ فيتحرك فمه ، ويبدو على وشك الاعتراف ؛ ثم يقف فجأة ، كأن الكلام محاصر في حنجرته . وفي كل مرة ، فان انطوان ، وقد شلّه خوف مبهم ، بدلاً من ان يساعد أخاه على اجتياز العقبة ، كان يغتاظ هو نفسه ويحيد عن الوجهة المقصودة ويرتمي بطيش على أي اثرٍ كان .

وكان يتساءل كيف يعيد جاك إلى الطريق حين سمع وقع أقدامٍ خفيفة على الدرج . وطرق الباب وُفتح على الأثر . وشاهد انطوان وجهاً مشعثاً لولد .

ـ أوه ! عفواً . لقد ازعجتكم .

فقال جاك مجتازاً الغرفة : ادخل .

انه ليس غلاماً . بل هو رجل صغير ليس له عمر واضح ، ذو ذقن حليقة ، وصبغة بلون الحليب ، وشعر اشعث بلون القنّب الجاف . وقد تردد على العتبة وأرسل نحو انطوان نظرة قلقة ؛ ولكن عينيه كانتا ذاتِ أهداب لا لون لها كثيرة الكثافة بحيث لم تكن تتميز حركة الحدقتين .

وقال جاك وهو يخلّص الزائر من معطفه المبلل :

ـ اقترب من الوجاق .

وبدا مرة أخرى ايضاً انه غير عازم على تقديم أخيه . ولكنه كان يبتسم بدون ضيق ولم يظهر ان وجود انطوان يضايقه .

وقال القادم الجديد موضحاً :

ـ جئت أقول لك ان ميتورغ قد وصل ، وانه يحمل رسالة .

كان يتكلم بصوت صافر ، سريع ، ولكن بنبرة منخفضة ، شبه خائفة .

ـ رسالة ؟

ـ من فلاديمير كنيابروفسكي !

فهتف جاك وقد انفرجت اساريره :

ـ من كنيابروفسكي ؟ اجلس . تبدو تعباً . أتريد جعة ؟ شاياً ؟

ـ كلا ، شكراً ، ميتورغ وصل هذه الليلة . جاء من هناك .. إذن ، ماذا عليّ أن أعمل ، انا ؟ بماذا تشير عليّ ؟ أيجب ان اجرّب ؟

ففكر جاك طويلاً قبل ان يجيب :

ـ نعم . انها الوسيلة الوحيدة الآن للمعرفة .

فاهتز الآخر :

ـ حسناً ! كنت أشك في ذلك ! لقد ثبط انياس عزمي ، وشينافون أيضاً . ولكن انت ، أنت ! حسناً !

وظل ملتفتاً نحو جاك ووجهه الصغير يتألق بالثقة

وقال جاك بحزم وهو رافع إصبعه :

ـ الا إذا ...

فهز الشاحب اللون رأسه من أعلى إلى أسفل علامة الموافقة . ولفظ بوقار :

ـ باللطف ؟ باللطف ..

وقد يدرك المرء تصلّب الحديد في هذا الجسم الهش .

وتفحصه جاك :

– ألا تشعر بألم يا فانهيد ؟

– كلا ، كلا .. متعب قليلاً – وأضاف مبتسماً بجقد : – انت تعلم انني اشعر بانحراف مزاج في كوخهم الكبير .

– ألا يزال بريزل هنا ؟

– نعم .

– وكيلوف ؟ ستقول لكيلوف عن لساني ان يتكلم كثيراً . أليس كذلك؟ وسيفهم .

– اوه ! كيلوف ! لقد قلت له صادقاً : « أنتم تتصرفون كأنكم كائنات خسيسة » . وقد وزع بيان روزنغارد دون ان يقرأه ! لقد فسد كل شيء هناك.

وكرر : « فسد كل شيء » بصوت خفي ساخط . ولكن في الوقت نفسه فإن ابتسامة ذات تسامح ملائكي تألقت على شفتيه اللتين تشبهان شفتي فتاة .

وتابع بنبرة صافرة :

– سافريو ! تورساي ، باترسون ! الجميع ! وحتى سوزان ! يشتمّ منهم الفساد.

فهز جاك رأسه :

– جوزيفا ، ربما . ولكن سوزان ، كلا . جوزيفا مخلوقة بائسة كما ترى . ستفسدكم كلكم .

كان فانهيد يلاحظه صامتاً . وكان يحرك على ركبتيه الصغيرتين يديه اللتين تشبهان يدي الدمية .. ويظهر معصماه ، الواهيان الشاحبان بشكل لا يُصدّق.

– اعرف جيداً . ولكن ماذا ؟ أيمكن إلقاؤها في الساقية الآن ؟ أكنت تفعلها ، قل ؟ وهل هذا سبب ؟ انها بعد كل شيء كائن ليس رديئاً في دخيلة نفسه ، كلا .. وهي تضع نفسها تحت حراستنا .. إذن ؟ باللطف ، ربما باللطف ،

– وتأوه – لكم التقيت بمخلوقات مثلها ! كل شيء فاسد .

وتأوه من جديد ، ولامس انطوان بنظرته التي لا تُرى ، ثم نهض واقترب من جاك وقال بحمّى مفاجئة :

– رسالة فلاديمير كنيابروفسكي جميلة لو تعلم ..

فسأل جاك :
ـ وبعد . ماذا ينوي أن يفعل الآن ؟
ـ انه يعتني بنفسه . فقد استعاد زوجته وامه والاولاد ، وهو يتهيأ ليعيش مرة أخرى .

وأخذ فانهيد يمشي أمام الوجاق، وكان بين لحظةواخرى يشد يديه بعصبية، الواحدة على الأخرى . وقال بتعبير متأمل كأنه يحدث نفسه :
ـ قلب نقي جداً ، كنيابروفسكي .
فردد جاك على الأثر بنفس الرنة
ـ نقي جداً .
وأضاف بعد صمت :
ـ متى يفكر ان ينشر كتابه ؟
ـ لم يقل .
ـ يزعم روسكينوف ان هذا شيء يبعث على الاضطراب ، كما تعلم .
ـ وكيف يكون غير ذلك ؟ لقد كتب كتابه كله في السجن ـ ومشى بضع خطوات ـ لم احمل اليك رسالته اليوم : لقد اعرتها لأولغا لكي تأخذها الى النادي . وستكون لدي هذا المساء .

وبدون ان يتطلع الى جاك ،وبخفة شهاب، كان يروح ويجيء مرتفع الرأس: كانت هيئته كمن يبتسم للملائكة .
ـ يقول فلاديمير انه لم يكن هو نفسه حقيقة الا في السجن . وحده مع وحدته .

وأصبح الصوت متناسقاً أكثر فأكثر ولكنه انخفض تدريجياً :
ـ يقول أن زنزانته كانت جميلة ومضاءة جيداً في أعلى البناية ، وانه كان يتسلق ألواح المضجع الخشبية ليبلغ بجبهته أسفل النافذة المسدودة بقضبان حديدية . ويقول انه كان يبقى هناك ساعات وهو يفكر ، ناظـــراً إلى نتف الثلج وهي تزوبع في السماء . ويقول انه لم يكن يستطيع رؤية شيء آخر ، حتى

ولا سطح ، ولا رأس شجرة ، لا شيء ، لا شيء أبداً . ولكن منذ الربيع ، وكل الصيف، في نهاية بعد الظهر ، وطوال ساعة ، كان شيء من الشمس يلامس وجهه . ويقول انه كان ينتظر تلك الساعة طول النهار . وستقـــرأ رسالته . ويقول انه سمع مرة ، في البعيد ، بكاء طفل رضيـع .. ومرة اخرى سمع دوي انفجار .

وألقى فانهيد نظرة نحو انطوان الذي كان يصغي إليه ولم يستطع الامتناع عن متابعته بعينيه بفضول . وقال وقد عاد إلى الجلوس :

ـ ولكن سآتيك بالرسالة كلها غداً .

فقال جاك :

ـ ليس غداً . لن اكون هنا غداً .

فلم يظهر فانهيد أية دهشة ولكنه أدار رأسه نحو انطوان من جديد . وبعد وقفة قصيرة ، نهض واقفاً :

ـ عفواً. لقد أزعجتكم دون شك. كنت أريد تزويدك حالاً بأخبار فلاديمير.

وكان جاك قد نهض أيضاً .

ـ انت تشتغل كثيراً في هذه الفترة يا فانهيد ؛ وعليك أن تترفق بنفسك .

ـ ولكن كلا .

ـ ألا تزال عند شومبرغ وريث ؟

ـ دائماً ـ وابتسم بخبث ـ اني اضرب على الآلة . وأقول : « نعم يا سيدي» من الصباح إلى المساء ، واضرب . ما فائدة ذلك ؟ ويأتي المساء فأجد نفسي . وعندئذ أنا حرٌ في التفكير : « كلا يا سيد » ، كل الليل وحتى صباح الغد .

كان فانهيد الصغير في تلك اللحظة يحمل رأسه الصغير عالياً ، وذؤابته من القنّب المشعث تكسبه دائماً هيئة النهوض. وأتى بحركة، كأنه هذه المرة يتوجه بالكلام إلى انطوان :

ـ لقد متُّ من الجوع طوال عشر سنوات يا سادة لأجل هذه الافكار : ولا أزال متمسكاً بها .

ثم عاد إلى جاك ومدّ له يده ، وفجأة ، اضطرب صوته الزامر :

– يمكن انك مسافر .. لا يهم . ان مجيئي يسبب لي الخير . اتعلم ؟

وتأثر جاك ولم يجب بشيء؛ ولكنه وضع يده بحركة مودة على ذراع الرجل. وتذكر انطوان الرجل ذا الندبة . وكان لجاك الآن نفس الحركة ، الحبيبة ، المغرية ، الواقية نوعاً. وكان يبدو فعلاً انه يحتل بين هذه الجماعات الغريبة مركزاً على حدة ؛ فهم يستشيرونه ، ويطلبون موافقته ، ويخشون لومه ؛ والظاهر ايضاً انهم يأتون ينشّطون قلوبهم بالقرب منه .

وقال انطوان لنفسه مسروراً؛ « انه من آل تيبو !» ولكن كآبة اجتاحته على الأثر ، وفكر : « جاك لن يبقى في باريس . سيعود ليعيش في سويسرا ، وهذا لا شك فيه » . وقال لنفسه : « سنتكاتب ، وسآتي لأراه ، ولن يكون الامر كما كان في تلك السنوات الثلاث » . وشعر بقلق نفسي ممضّ : « ولكن ماذا سيكون عمله ، ماذا ستكون حياته بين هؤلاء الناس ؟ ماذا سيفعل بقوته؟ هل هذا هو المستقبل الرائع الذي حلمت له به ؟ »

وكان جاك قد أخذ ذراع صديقه وسار به ، بخطى قصيرة ، نحو الباب . وهناك ، التفت فانهيد ، وحيا انطوان بانحناءة رأس خجولة واختفى على سطح الدرج ، يتبعه جاك .

وسمع انطوان الصوت الصغير الصافر لآخر مرة :

– .. كل شيء قد فسد .. لا يتعذب حولهم سوى الأذلاّء ، سوى كلاب نائمة ..

١٠

وعاد جاك ، ولم يقدم أي إيضاح حول تلك الزيارة ولا حول لقائه مع راكب الدراجة في المعطف . وكان قد سكب لنفسه قدح ماء شربه بجرعات صغيرة .

وأولع انطوان سيكارة ، ونهض ليلقي عود الثقاب في الوجاق ، وجاء يلقي

نظرة من النافذة ، ثم عاد إلى الجلوس .

ودام الصمت بضع دقائق . وتابع جاك سيره خلال الغرفة . وقال بشكل فجائي ، دون ان يقطع رواحه ومجيئه :

ـ ماذا تريد ؟ يجب محاولة فهمي يا انطوان ! كيف كان بامكاني ان اعطي ثلاث سنوات من عمري في مدرستهم ؟

ودهش انطوان ، واتخذ هيئة منتبهة ومتساهلة سلفاً ؛ وتابع جاك :

ـ هذا الامتداد التنكري للمدرسة ! تلك الصفوف ، تلك الدروس ، تلك الشروحات التي لا نهاية لها ! هذا الاحترام لكل شيء ! وذلك الاختلاط العديم الترتيب ، وجميع الافكار المشتركة التي داسها القطيع ، في تلك الاماكن المظلمة الخالية من الهواء ، «غرفهم» ! لا شيء سوى مفرداتهم «القفداء» ، و «أوعيتهم» و « تماسيحهم » ! كلا ، ابداً لم اكن استطيع .

إفهمني يا انطوان .. اني لا أقول .. بالتأكيد ، اني اعتبرهم .. مهنة الاستاذ تلك ، لا يمكن ممارستها إلا بأمانة ، بقوة الايمـــان . انهم يبعثون على التأثر ، بالتأكيد ، بسبب جدارتهم ، وجهدهم الروحي. وذلك الاخلاص المكافأ بشكل سيء جداً . نعم ، ولكن ـ وتمتم بعد وقفة : ـ كلا ، لا تستطيع فهمي . ليس فقط للإفلات من هذا الانضمام إلى فرقة ، ولا بدافع التقزز من هـــذا الجهاز المدرسي ، كلا .. ولكن تلك الحياة الهازئة يا انطوان !

وتوقف ، وكرر : « هزء لاذع » ، محملقاً بالارض بنظرة عنيدة .

وسأل انطوان .

ـ حين ذهبت لرؤية جاليكور ، هل كنت مصمماً على ..

ـ ابداً .

وظل واقفاً ، جامداً ، منتصب الحاجب ، وعينه في الارض ، محـــاولاً بصدق ان يتذكر الماضي .

ـ آه ! شهر تشرين الأول ذاك ! كنت قد عدت من ميزون ـ لافيت في حالة .. في حالة تستحق الرثاء .. ـ واستدار كتفاه كا تحت حمل ، وهمهم : ـ

كثير من الامور لا يمكن التوفيق بينها
فقال انطوان الذي كان يفكر براشيل :
ـ نعم ، تشرين الاول .
ـ عندئذ ، عشية العودة ، وامام هذه الزيادة : تهديد المدرسة . اجتاحني خوف مبهم . انظر كم هو غريب! واليوم فاني أفهم بوضوح انه كان لدي فقط، حتى موعد زيارتي لجاليكور ، خوف مبهم ، ليس اكثر . ومما لا شك فيه انني، وقد تعبت من كل شيء ، فكرت في عدة مناسبات بترك المدرسة ، وبالرحيل.. نعم .. ولكنها لم تكن سوى احلام مبهمة لا يمكن تحقيقها . إلا اني صممت على كل شيء بعد سهرتي عند جاليكور . أيدهشك هذا ؟ ـ قال ذلك رافعاً عينيه أخيراً ليشاهد وجه أخيه المنذهل: ـ وبعد ، فسأعطيك الملاحظات التي اخذتها في ذلك المساء ، عند عودتي إلى البيت ، لتقرأها . لأني عدت ووجدتها ذات يوم .
وعاد إلى السير بهيئة قاتمة ؛ وقد بدت ذكرى هذه الزيارة انها لا تزال تبعث فيه الاضطراب على البعد . وقال هازاً رأسه :
ـ حين افكر في ذلك .. ولكن انت ، اية علاقة لك به ؟ هل تراسلتما ؟ اكنت تراه كثيراً ؟ انطباعك ؟
فاكتفى انطوان بحركة مراوغة . وقال جاك ، معتقداً ان رأي اخيه معاكس :
ـ نعم ، يجب ان تجد صعوبة في فهم ما كان يمثل في عيون جيلي !
وبدل موقفه ، وجاء يجلس قبالة انطوان على الكنبة التي كانت قريبة من الوجاق . وقال مبتسماً فجأة : « جاليكور هذا ! » وكان صوته قد تلطف ، ومد ساقيه بلذة نحو الحرارة وقال :
ـ منذ سنوات يا انطوان كنا نقول : « حين اصبح تلميذاً لجاليكور .. » وكنا نفكر ايضاً : « تلميذه ! » وانا ، كنت اقول لنفسي في كل مرة اتردد بالدخول الى المدرسة : « نعم ، ولكن يوجد جاليكور » . كان الوحيد الذي

بدا لنا انه يستحق الجهد ، افهمت ؟ كنا نعرف اشعاره عن ظاهر قلب ، وكنا نتناقل اقواله ، ونتلو كلماته ، وكان يقال ان زملاءه يغارون منه . فقد عرف كيف يجعل الجامعة تقبل ليس فقط بدروسه التي كانت ذات بداهة غنائية طويلة ملأى بالنظرات الجريئة ، والاستطرادات، والمناجاة العنيفة ، والكلمات الجافة ـ ولكن ايضاً بفورات غضبه ، واناقته كنبيل قديم ، ونظارته المنفردة، وحتى قبعته المصنوعة من اللباد ! نموذج متحمس ، ارعن ، اهوس ، ولكنه غني وكريم ، وضمير عظيم حديث ، ذاك الذي عرف بالنسبة الينا ان يضع الاصبع على جميع النقاط الحساسة ؛ وقـــد كتبت اليه . ولدي منه خمس رسائل ؛ كبريائي ، ، كنز ؛ خمس رسائل ، بينها ثلاث ، وحتى اربع هي اليوم لا تزال تستحق الاعجاب .

اسمع : ذات صباح من فصل الربيع، حوالي الساعة الحادية عشرة ، التقينا.. صديق وأنا . كيف انسى ذلـــك ؟ كان يصعد شارع سوفلو بخطوات طويلة مرنة . واني لأذكر سترته في الهواء وطاقه القصير اللامع ، وشعره الابيض تحت حافة القبعة العريضة ، كثير الاستقامة ، والنظارة مـــرفوعة ، والانف اعقف كجؤجؤ السفينة ، والشارب ابيض على الطريقة الغاليّة .. ووجه جانبي لنسر عتيق مستعد للعب بمنقاره . طائر من الكواسر، ولكنه متولد من الطيور الطويلة الساق . لورد قديم ايضاً . لا يُنسى .

وهتف انطوان :

ـ رأيته .

ـ سرنا معه حتى بابه . وكنا مسحورين . وكنا قـــد طفنا عشر دكاكين باحثين عن صورته . ـ واعاد حالاً ساقيه الى تحته بحركة عنيفة ـ آه ! حين افكر في ذلك اكرهه ! ـ ثم انحنى الى الامام ويداه ممدودتان نحو الوجاق . واضاف مفكراً : ـ ومع ذلك كنت املك الشجاعة على الرحيل . وانا مدين له بذلك .

ولاحظ انطوان ؟

ـ اعتقد تماماً انه لا يرتاب في هذا .

ولم يكن جاك يسمعه ، فقد التفت نحو النار ، وعلى شفتيه ابتسامة ذاهلة ، والصوت مختف ، وقال :

ـ اتريد ان اقص عليك ؟ حسناً . ذات مساء ، بعد تناول العشاء ، صممت خلسة على الذهاب اليه ، وان اشرح له .. كل شيء . وذهبت دون ان انتظر ، دون ان افكر .. وفي الساعة التاسعة رننت الجرس عنده في ساحة البانتيون . اتعرف ! دهليز اسود ، بريتونية غبية ، غرفة الطعام ، هرب تنورة . كانت المائدة قد رفع الطعام عنها ، ولكن كان عليها سلة للشغل ، وملابس للرتق . رائحة طعام ، وغليون ، وحرارة ثقيلة . وفتح الباب : جاليكور . لا يوجد اية علاقة بنسر شارع سوفلو القديم . ولا بمؤلف الرسائل ، ولا بالشاعر ، ولا بالضمير الكبير ، ولا بأي جاليكور معروف . لا شيء . جاليكور متقوس ، دون نظارة ، درّاعة قديمة رقيقة ، غليون منطفىء ، الشفة مقطبة . يحدث ضجة وهو يهضم الملفوف ، وانفه الكبير على الوجاق ! وبالتأكيد فانه لم يكن ليستقبلني لو ان الخادمة الصغيرة .. ولكنه فوجىء ، وأُخذ على غفلة ، فأدخلني الى غرفته .

والتهبت دفعة واحدة : « جئت اليك ، الخ . » فانتصب واستعاد شيئاً من نشاطه : رأيت انبثاق النسر العتيق . ووضع نظارته ، وقدم لي مقعداً : ورأيت انبثاق اللورد القديم . وقال لي بهيئة مندهشة : « نصيحة ؟ » وكأنه يقول : « اليس لديك احد تستشيره اذن ؟ » وكان هذا صحيحاً . لم اكن قد فكرت بذلك . ماذا تريد يا انطوان ؟ اننا لا نستطيع شيئاً . لم اكن استطيع ابداً ان اتبع نصائحك .. ولا نصائح احد .. فقد سرت وحيداً ، وهكذا خلقت . وهذا ما اجبت به جاليكور . وقد شجعني انتباهه . فاندفعت الى الاعماق : « اريد ان اكون روائياً ، روائياً كبيراً .. » وكان يجب البدء بذلك . فلم يحرك ساكناً . وتابعت عرض بضاعتي ، وأوضحت له .. كل شيء اخيراً .. بأني اشعر في نفسي بقوة ، بشيء خاص ، بمركز ، هو في نفسي ، موجود ! وان

كل جهد للثقافة منذ سنوات كان يمارس دائماً على حساب هذه القيمة العميقة ! وانني كرهت الدروس ، والمدارس ، والعلم الواسع ، والشرح ، والثرثرة ، وانه كان لهذا النفور عنف غريزة الدفاع ، والوقاية ! كنت محلول اللجام ، وقلت له : « كل هذا يثقل علي يا سيدي ، كل هذا يخيفني ، كل هذا يحيد باندفاعي عن الطريق » .

وكان يثبت على انطوان عينيه المتغيرتين دون انقطاع واللتين تكونان في نفس الوقت قاسيتين وعاطفيتين ، واصبحتا مؤلمتين حنونتين ، شبه رقيقتين .

وهتف :

ـ أنت تعلم ان هذا صحيح يا انطوان .

ـ ولكني أشعر جيداً يا صغيري .

وتابع جاك :

ـ حقيقة ، ان هذا ليس من الكبرياء . ليس هناك أية رغبة في السيطرة ، لا شيء مما يدعونه بصورة عامة طمعاً . والبرهان : حياتي هنا ! ومع ذلك ، أقسم لك يا انطوان انني كنت هنا سعيداً حتى منتهى السعادة !

وبعد بضع لحظات من الصمت تدخل انطوان :

ـ قص علي الباقي ، بماذا اجابك ؟

ـ انتظر . لم يجب بشيء إذا كنت اذكر جيداً . نعم : ولكني انتهي اخرجت له مقطعاً من « الينبوع » نوع من الشعر المنثور كنت قد بدأت به غباوة ـ وقال وقد احمر وجهه : ـ ان يستطيع المرء اخيراً « الانحناء على نفسه كما على حافة ينبوع ، إلخ.. وتنحية الاعشاب ، وتخليص كأس الطهارة ، حيث الماء ينبجس من الاعماق .. » عندئذ قاطعني هنا : « جميلة ، صورتك .. » هذا كل ما وجده ! السرطان الهرم ! وبحثت عند نظره ، كان يتجنب نظرتي وكان يلعب بخاتمه .

فقال انطوان : لقد رأيته .

ـ .. بدأ بخطاب : « لا تحتقر كثيراً الطريق المعبد .. فالفائدة ، والمرونة التي تكتسب بالخضوع للانظمة ، الخ .. » آه ! لقد كان كالآخرين : ليس عنده

شيء ، لا شيء مفهوم ! لم يجد ما يقدمه إلي سوى أفـكار مجترّة ! واغتظت لمجيئي ، ولأني تكلمت ! واستمر بعض الوقت على نفس النبرة . وكان يبدو انه ليس لديه سوى هم وحيد : ان يضع لي حدوداً . وكان يقول لي : « انت من اولئك الذين .. الشبان في مثل سنك هم .. يمكن تصنيفكم بين الطبائع التي .. » عندئذٍ غضبت : « اني اكره التصنيف، واكره المصنفين! بحجة تصنيفك يجعلون لك حدوداً، ويقضمونك، ويخرج المرء من بين براثنهم ناقصاً ، مبتوراً، مع بقايا اعضاء مجدوعة ! » وكان يبتسم ، ويجب ان يكون قد صمم على قبول كل شيء ! وهنا صحت به : « اني اكره الاساتذة يا سيد! ولأجل هذا جئت لأراك، انت! » وكان يبتسم دائماً . واتخذ هيئة متملقة . وليكون محبوباً القى علي اسئلة مغيظة ! ما كنت فعلته ؟ — « لاشيء » . ما كنت اريد ان افعله ؟ — « كل شيء ! » انه لم يجرؤ حتى على الضحك ،المضحك ، كان يخاف من ان يقاضيه شاب ! لأن هذه كانت هي فكرته الثابتة ؛رأي الشبان !ومنذ ان دخلت لم يكن يفكر بسوى شيء واحد ، في اعماقه : في ذلك الكتاب الذي كان على اهبة كتابته: «تجاربي» (وقد ظهر بعد ذلك ولكني لن اقرأه أبداً) . وكان يرشح عرقاً خوفـاً على كتابه من الاخفاق . وما ان يرى شـاباً تسلطت عليه ملازمة الاخفاق حتى يتساءل : « ماذا سيكون رأي هذا بكتابي ! »

فقال انطوان : يا له من نموذج بائس !

— ولكن نعم . وربما كان هذا مؤثراً . فقط اني لم آت لأراه يرتجف كنت لا ازال آمل ، كنت انتظر جاليكوري ، واحد من « جاليكوراتي » لايهم ، الشاعر ، الفيلسوف ، الرجل ، لا يهم أيهم ، ولكن ليس هذا ! واخيراً نهضت . لقد كانت لحظة هزلية . وقد رافقني بتحياته : « من الصعب جداً نصيحة الشبان .. ليس هناك حقيقة « للجميع » ، وعلى كل فرد ان يبحث عن حقيقته، الخ . » وكنت اسير في المقدمة صامتاً ، متشنجاً ، وانت تدرك قاعة الاستقبال ، قاعة الطعام ، الغرفة الملاصقة ، فتحت الابواب بنفسي في الظلام ، واصطدمت بأمتعته العتيقة . ولم يكد الوقت يتسع له لإيجاد الزر الكهربائي .

وابتسم انطوان . وتذكر تجهيزات الامكنة، والاثاث المنقوش والمقاعد ذات الطنافس ، والاشياء الصغيرة . ولكن جاك استمر، واتخذوجهه تعبيراً مشدوهاً :

– اذن .. انتظر .. لم اعرف كيف حدث ذلك . هل فهم فجـــأة لماذا هربت منه ؟ لقد سمعت ورائي صوته المتفسخ : « ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ انت ترى جيداً انني فرغت ، انتهيت ! » كنا في الدهليز وقد التفت مندهشاً . ياله من وجه يستحق الشفقة ! كان يردد : « فرغت ، انتهيت ! وبدون ان افعل شيئاً ! » عندئذٍ ، اعترضت . نعم ، كنت صادقاً . لم اكن احقد عليه ولكنه كان طيباً : « لا شيء ، لاشيء ! انا وحدي اعرف ذلك ! » وبما انني ألححت بحماقة فقد انتابه نوع من الهياج : « ما الذي جعلك تتوهم ؟ كتبي ؟ صفر ! لم اضع فيها شيئاً ، لا شيء مما كان باستطاعتي ! اذن ماذا ؟ قل ، ألقابي؟ دروسي ؟ عضو المجمع العلمي ؟ ماذا اذن ؟ هذا ؟ – وأمسك القفا حيث كانت زينته بشكل وردة ، وهزها منهمكا – « هذا ؟ قل ؟. هذا ؟ » .

(ونهض جاك متأثراً من قصته ، ومثّل المشهد بالايماء بفورة متزايدة . وتذكر انطوان جاليكور الذي تصوره في نفس ذلك المكان ، منتصباً ، متألقاً تحت نور مصباح السقف) .

وتابع جاك :

– وهدأ فجأة . واعتقد انه خاف ان يسمعه احد . وفتح باباً . ودفعني إلى نوع من المكتب تشتم منه رائحة البرتقال ودهان المفروشات . كانت فتحة فمه كرجل يضحك ، ولكن النظر شرس ، والعين محتقنة وراء النظارة المفردة . وكان مستنداً الى لوح خشبي عليه اقداح وصحن لتقديم الفواكه ! ولا ادري كيف لم يلق شيئاً الى الارض . بعد ثلاث سنوات لا ازال اذكر لهجته ، وكلماته في الاذن . لقد اخذ يتكلم ، يتكلم بصوت خفي : « انظر ، الحقيقة ، هـــذه هي . وانا ايضاً ، في مثل سنك ، ربما اكبر بقليل : عند خروجي من المدرسة . انا ايضاً ، هذه الدعوة للروائي ، انا ايضاً ، تلك القوة المحتاجة لأن تكون حرة لكي تتفتح ! وانا ايضاً ، كنت احدس انني اسير في طريق خاطىء . لحظة .

وانا ايضاً جاءتني فكرة طلب النصيحة . الا اني بحثت عن روائي ، انا . اتحرز من ؟ كلا ، لن تفهم ، لا تستطيع ان تتصور ما كان يمثله للشبان في عام ١٨٨٠ ، كنت عنده ، وتركني اتكلم . وكان يلاحظني بعينيه الحيتين ، باحثاً في لحيته ؛ دائم التعجل ، ونهض دون ان ينتظر النهاية . آه ! لم يتردد ، هو ! قـــال لي بصوته المفاجىء الذي تصبح فيه حروف « س » حروف « ف » : « ليس لنا سوى تلميذة واحدة : الصحافة ! » نعم ، قال لي ذلك . وكان عمري ثلاثاً وعشرين سنة . وبعد ، فقد ذهبت كما اتيت يا سيد ؛ كالأبله ! وعدت من جديد الى كتبي ، واساتذتي ، ورفاقي ، والمباراة ، ومجلات الطليعة ، والاحاديث ـ مستقبل جميل ! مستقبل جميل ! » ووقعت يد جاليكور على كتفي . وسأرى دائماً تلك العين ، تلك العين لعملاق ، وهي تلتهب وراء زجاجها . وكان قد انتصب بكل قامته وساقني في وجهي : « ماذا تريـــد مني يا سيد ! نصيحة ؟ إحذر ، ها هي ! اترك الكتب واتبع غريزتك ! تعلّم شيئاً ياسيد : واذا كان لديك فضلة من عبقرية فلن تستطيع النمو الا من الداخل بدافع قوتك الخاصة ! ربما لا يزال هناك متسع من الوقت . اعمل بسرعة . اذهب وعش ! لا يهم كيف، ولا يهم اين ! لك عشرون سنة من العمر ،وعينان، وساقان.اسمع من جاليكور. ادخل في صحيفة . اركض وراء الاعمال المتنوعة . اتسمعني ؟ انا لست مجنوناً. الاعمال المتنوعة ! الغطس في الحفرة المشتركة ! ولا شيء آخر يزيل وسخك . ابذل جهدك من الصباح الى المساء،لا يفوتنك حادث، ولا انتحار ، ولا دعوى، ولا مأساة ، دنيوية ، ولا جريمة ماخور ! افتح العينين وانظر الى كل ما تجره المدنية وراءها ، الجيد والرديء ، ومن ليس موضع ريبة ، وما يمكن ابتكاره! وربما بعد ذلك يصبح باستطاعتك ان تتيح لنفسك قول شيء عن الناس ، عن المجتمع ـ عن نفسك !

يا صديقي . لم اكن انظر اليه ، كنت اشربه ، كنت مكهرباً كلياً ، ولكن كل شيء عاد الى السقوط دفعة واحدة . وبدون اية كلمة ، فتح الباب وطردني تقريباً امامه ، خلال الدهليز حتى سطح الدرج . ولم استطع تفسير ذلك ابداً .

هل عاد عن كلامه ؟ هل اسف على هذه الشعلة ؟ اكان يخاف ان استرد ذلك ؟ لا ازال ارى فكه الطويل يهتز . كان يدندن بسرعة خانقاً صوته : « اذهب .. اذهب .. اذهب ! عد الى مكتباتك يا سيد ! »

وصرّ الباب . وهربت . وهبطت الطوابق الاربعة ، وبلغت الشارع . وركضت في الليل كمهر وضعوه في مرج .

وخنقه التأثر . فسكب لنفسه قدحاً ثانياً من الماء وشربه دفعة واحدة . وكانت يده ترتجف ؛ وحين وضع القدح جعله يقرع زجاجة ماء . وفي الصمت لم ينته هذا الصوت البلوري الى التلاشي .

ما زال انطوان مرتعشاً ، وهو يحاول ربط الحوادث التي سبقت الهرب . كان ينقص الكثير من العناصر . وكان بوده لو يثير بعض الاعترافات حول حب جيزيب المزدوج.ولكن هذا الموضوع ..« اشياء كثيرة لايمكن التوفيق بينها ». هكذا كان جاك قد قال متأوها منذ لحظة ؛ وكان هذا كل شيء ، صمت نفور كان يبرهن بشكل كاف عن الدور الذي كان لهذه التعقيدات العاطفية في عزم الهارب . وتساءل انطوان : « والآن ، اي مكان تحتله في قلبه ؟ »

وكان يسعى لجمع الوقائع باختصار ، في تشرين الأول كان جاك قد عاد إلى ميزون . ماذا كانت علاقته بجيز في تلك الاوقات ، ولقاءاته مع جني ؟ هل حاول قطع العلاقة ؟ ام انه التزم بتعهدات يستحيل القيام بها ؟ وتخيل انطوان أخاه في باريس : دون أطار معين للدرس ، وحده ، وكثير الحرية ، يدير ويعيد في قلبه المشكلة التي لا حلّ لها . وقد اضطر إلى العيش في هوس ، في قلق نفسي لا يحتمل . وليس له سوى رؤية وحيـــدة هي العودة إلى المدرسة ، والدخول كتلميذ داخلي في دار المعلمين التي اصابته بالغثيان . وهناك زيارة إلى جاليكور : وفجأة ، مخرج ، فرجة واسعة في الافق : التخلص ، التنكر لكل شيء ، الذهاب في مغامرة ، العيش ! وقال انطوان لنفسه : « نعم ، هذا هو ما يفسر ، ليس فقط رحيل جاك ، بل استطاعته التنحّي ثلاث سنوات في صمت الموت .

بدء كل شيء من جديد ! ولاستطاعة البدء من جديـد ، يجب نسيان كل شيء
ـ وان يكون منسياً من الجميع ؟

وفكر : « وعلى كل حال فقد اغتنم فرصة رحيلي إلى الهـافر ، ولم ينتظر اربعاً وعشرين ساعة ليراني ويكلمني ! » كان حقده مستعداً للاستيقاظ ؛ فبذل جهداً ، وأبعد كل شكاية محاولاً اعادة عقد الحديث ومعرفة الباقي ، فتابـع :

ـ و .. اكان ذلك في غد تلك الامسية ؟

وكان جاك قد عاد إلى الجلوس بقرب الوجاق ؛ المرفقان على الركبتين ، والكتفان مستديران ، والرأس منخفض . وكان يصفر صفيراً خفيفاً .

ورفع عينيه .

ـ الغد ، نعم . ـ ثم أضاف بنبرة مكتومة : ـ على اثر الحادث مع ..

الحادث مع الاب . حادث قصر سيرنغو ! وكان انطوان قد نسيه . وقال بحدة :

ـ لم يكلمني ابي اية كلمة .

وبدا جاك مندهشاً . إلا انه أدار عينيه وكانت الحركة التي قام بها تبدو انها تقول : « وبعد ، لا يهمني .. ليس لي قلب للعودة إلى هناك » .

وفكر انطوان بسرور تقريباً : « ولكن هذا هو السبب الذي دفعه إلى عدم انتظار عودتي من الهافر » .

واستعاد جاك هيئته المفكرة وأخذ يصفر من جديد . وهناك غضن جديد كان يشوش خط الحاجبين . وببضع ثوانٍ ، ورغماً عنه، عاد يعيش تلك الدقائق الفاجعة : الأب والابن وجهاً لوجه في قاعة الطعام ؛ والفطور قد انتهى ؛ وكان السيد تيبو قد ألقى سؤالاً حول الدخول إلى المدرسة ، وكان جاك عنيفاً فأعلن انه استقال ؛ وتتابعت الاجوبة جارحة اكثر فأكثر ؛ وضربت قبضة الأب على المنضدة .. أما جاك فقد سار حتى النهاية ، خاضعاً لجنون غير مفهوم ، وقذف اسم جني متحدياً ؛ ثم أثار جميع ما هناك من تهديد ، وهــدد نفسه ، مضيعاً صوابه ، وكدس كل الأقوال التي لا يمكن اصلاحها ، حتى اللحظة التي قطع فيها

وراءه جميع الجسور وجعل كل عودة مستحيلة ، وكان ثملاً بالعصيان واليأس ، فاختفى وهو يصرخ :
ـ سأقتل نفسي !
كان تصور ذلك واضحاً مؤثراً ، بحيث نهض كأنه قد لُسع . واتسع الوقت لانطوان ليفاجىء في عيني أخيه وميض تيهان . ولكن جــاك امتلك نفسه بلمحة عين . وقال :
ـ ها قد مضت الساعة الرابعة إذا اردت القيام بهـذه الجولة . ـ وارتدى معطفه وبدا متعجلاً الهرب . ـ تبقى هنا ، أليس كذلك ؟ سأعود قبل الساعة الخامسة ، وسوف اجهز حقيبتي بسرعة . ونتناول عشاءنا في المقصف ، فهذا أفضل . ـ ووضع على الطاولة عدة محفظات أوراق وأضاف : ـ خذ ، هـذا يسلـّيك .. مقالات ، قصص قصيرة . اقل الاشياء التي كتبتها رداءة في هذه السنوات الاخيرة ..
واجتاز العتبة . وحين التفت ، قال بنبرة خفيفة :
ـ بالفعل ، لم تحدثني عن .. دانيال .
وشعر انطوان انه كان يقول : دي فونتانان .
ـ دانيال ؟ ولكن تصور اننا اصبحنا صديقين كبيرين ! بعد رحيلك بدا كثير الاخلاص ، كثيرة المودة .
ولكي يخفي جاك اضطرابه تصنع الدهشة وتظاهر انطوان انه خُدع بها ، وقال ضاحكاً :
ـ أيدهشك هذا ؟ صحيح اننا مختلفان جداً ، هو وانا . ولكني انتهيت إلى قبول مفهومه عن الحياة : هذا المفهوم يبدو مشروعاً حين يكون المرء فناناً مثله . انت تعلم انه نجح فوق كل تخمين . ومعرضه عام ١٩١١ عند لودفيكسون قد دفعه في طريق الشهرة ، وكان بامكانه ان يبيع اكثر لو أراد ؛ ولكنه ينتج قليلاً .. نحن مختلفان ، ـ « كنا » على الخصوص كذلك .
قال هذا مخصصاً ، سعيداً لايجاد هذه الفرصة ليتحدث قليـلاً عن نفسه ،

وليظهر لجاك ان صورة همبرتو لم تعد تشبهه .

ـ انت تعلم ، انني لا اسير تماماً في اتجاهاتي ، ولا اعتقد ان من الضروري ..

فقاطعه جاك بعنف :

ـ أهو في باريس ؟ أيعلم ان ..

واضطر انطوان ان يكبح حركة غضب :

ـ ولكن كلا . انه يقوم بخدمة العلم . وهو برتبة رقيب في لونيفيل . لمدة اثني عشر شهراً بعد : ١٤ تشرين الاول . ولم اره منذ سنة الا في النادر .

وصمت ، متجمداً من النظر القاتمة ، الغائبة التي أثبتها اخوه عليه .

وما ان شعر جاك ان صوته لم يعد يشي باضطرابه حتى قال :

ـ لا تدع الوجاق ينطفىء يا انطوان .

ثم خرج .

١١

ظل انطوان وحده فاقترب من المنضدة وفتح الملفات بفضول .

جميع انواع الوثائق كانت مكدسة فيها بدون ترتيب . اولاً مختارات من مقالات حول مواضيع حوادث جديدة مقطوعة من الصحف وموقعة باسم : « جاك لوفاتاليست» ثم تتمة قصائد عن الجبل كما يبدو، ظهرت في مجلة بلجيكية باسم ج . موهلانبرغ المستعار . واخيراً سلسلة من القصص القصيرة باسم « صفحات من الدفتر الاسود » ، انواع من الرسوم الخفيفة صنعت على هامش الربورتاج وموقعة باسم : جاك بولتي . وقرأ انطوان عدة أقاصيص منها : « الثانيني ، انتحار ولد ، غيرة اعمى ، غضب » . والاشخاص مأخوذون من الحياة اليومية ، مرسومون بسرعة ويفرضون انفسهم بوضوحهم . والنسق الانشائي سريع وعادي ، مقطع على نسق « لاسوريللينا » وخال هذه المرة من كل غنائية ، يمنح هذه الملاحظات طابع الحقيقة الذي يسترعي الاهتمام .

ولكن رغم مذاق هذه الصفحات ، فان انتباه انطوان بدا متمرداً . فقد

عرضت له منذ الصباح كثير من الأمور غير المنتظرة . وعلى الخصوص ، فمنذ ان أصبح وحيداً اتجه تفكيره بشكل لا يرد نحو غرفة المريض التي تركها البارحة ،حيث يمكن ان تكون الأمور المخيفة قد بدأت. اكان مخطئاً بالذهاب؟ كلا ما دام سيصطحب جاك .

وألهته ضربة صغيرة ، رصينة ، حازمة على الباب فقال :

ـ ادخل .

ودهش لرؤيته طيفاً نسائياً ينفصل عن الدرج الداكن . وظن انه يعرف هذه المرأة التي توقعها عند تناول الفطور في الصباح . كانت تحمل سلة حطب اسرعت في نزعها . فقال :

ـ لقد خرج اخي .

فأتت باشارة من رأسها تعني: « أعرف ذلك جيداً » . وربما ايضاً : «لأجل ذلك صعدت » . وتطلعت في وجه انطوان دون ان تخفي فضولها ؛ ولكن الموقف ليس فيه التباس ما دامت هذه الجسارة جاءت بعد تفكير وعللت باسباب خطيرة . وشعر انطوان ان تينك العينين قد بكتا . ورفت الأهداب فجأة : وسألت دون مقدمات ، وبصوت مهتز باللوم :

ـ هل تأخذه معك ؟

ـ نعم .. فأبي مريض جداً .

فلم تبد انها سمعت ؛ وقالت بحدة وقد ضربت الارض برجلها :

ـ لماذا ؟ لا أريد .

فردد انطوان :

ـ ان ابي على وشك الموت .

ولكن لم يكن عليها الا ان تقدم ايضاحات. وامتلأت عيناها بالدمع ببطء. ولفتت نصفها الاعلى نحو النافذة ، وصالبت يديها ، ولوتهما ، ثم تركت الذراعين يسقطان . ولفظت بصوت خفي :

ـ لن يعود !

كانت كبيرة ، عريضة الكتفين، سمينة قليلاً ، محمومة في حركاتها ، وجامدة في وضعياتها . وهناك ضفيرتان ، ملساوان وثقيلتان ، بلون الرماد الاشقر ، كانتا تتوجان جبهتها المنخفضة وتنعقدان بشكل حلزوني على الرقبة . وقسماتها المنتظمة الكثيفة تتخذ تحت هذا التاج طابعاً سامياً يزيد منه رسم فم على نسق الاقدمين ، مكفوف ومنعطف ولكنه عنيد توقفه ثنيتان شهوانيتان .

والتفتت نحو انطوان :

ـ اقسم لي ، اقسم على المسيح انك لن تمنعه من العودة !

فقال انطوان بابتسامة متساهلة :

ـ ولكن كلا ، لماذا ؟

فلم تجب على تلك الابتسامة . وكانت تتأمل الشاب محدقة به ، خلال دموعها اللامعة . وكان صدرها يتنفس بعنف تحت الثوب الذي يقولبها . وتركته يتفحصها بوقاحة . واخذت من تجويف صدرها منديلاً صغيراً ضغطته على عينيها ، ثم على منخريها ، وهي تزفر . وحدقتاها العاطلتان ، السائلتان بين الجفون كانتا ذات تعبير محلي شهواني . الماء الراكد : كان يحدث بين لحظة واخرى جيشاناً من الافكار التي لا تحل طلاسمها . وعندئذ كانت تنحني وتلفت رأسها .

ـ هل حدثك عني ؟ صوفي ؟

ـ كلا .

وانزلق بريق ازرق بين الاهداب .

ـ لن تقول له اني قلت لك كل هذا ..

فابتسم انطوان من جديد :

ـ ولكنك لم تقولي لي شيئاً يا سيدتي .

ـ اوه ! بلى .

قالت ذلك ، ملقية الرأس الى الوراء ، والجفون نصف منخفضة .

وبحثت بعينيها عن مقعد ممكن نقله وادنته من انطوان ، وجلست بسرعة

كأن ليس لديها سوى دقيقة تعطيها ، وصرحت :

ـ يجب ان تكون احد رجال المسرح ـ فأتى باشارة سلبية ـ بلى ، فأنت تشبه بطاقة بريدية معي .. ممثل تراجيدي كبير من باريس .

وابتسمت الآن : ابتســـامة مليئة بالفتور . فقال دون ان يضيع وقته في ارجاعها عن خطأها :

ـ اتحبين المسرح؟

ـ السينما ، المأساة ! نعم !

وكان هناك تشويش غير متوقع يلقي احياناً الاضطراب في هذه القسمات التي لاتتأثر ؛ وعند ذلك ، فان الفم الذي ينفتح عريضاً لدى اقل عبارة كان يبدو انه يتسع ايضاً ، عارضاً لوحـــات بيضاء ولثة بلون المرجان . وبقي متحفظاً :

ـ يجب ان يكون لديكم فرق تمثيلية جيدة هنا .

فالحنت :

ـ هل جئت قبلاً الى لوزان ؟ (حين كانت تقف هكذا منحنية ، متكلمة بسرعة حابسة صوتها كانت تبدو انها تطلب ادق الخفايا ، وأن تبديها) .

وقال :

ـ أبداً .

ـ هل ستعود إليها ؟

ـ دون شك .

برهة ، عززت فيها نظرها الذي أصبح قاسياً في عينيه ؛ وهزت رأسها عدة مرات ، وقالت أخيراً :

ـ كلا .

ثم ذهبت نحو الوجاق وفتحته لتعيد تعبئته بالحطب . فاعترض انطوان :

ـ اوه ! الطقس حار جداً .

فقالت وهي تلمس خدها بقفا يدها :

ـ جاك يحب هذا .

وظلت راكعة، مديرة ظهرها، والعينان في اللهب الذي كان يحمّص وجهها. وهبط النهار . وكان انطوان يداعب بعينيه هذين الكتفين الحيين، وتلك الرقبة وذلك الشعر المحاط بهالة من نار . ماذا كانت تنتظر ؟ الظاهر ، كانت تشعر ان هناك من ينظر إليها . وظن انه فاجأ ابتسامة حول ذلك الوجه الجانبي الضائع. ولكنها نهضت بحركة تموّج واحدة من جذعها . ودفعت برجلها باب الوجاق ، وخطت بضع خطوات في الغرفة . ولمحت وعاء السكر الذي كان على منضدة . وبحركة نهمة تناولت قطعة واخذت تقضمها ثم اخرى مدت يدها بها اليه من بعيد. فقال ضاحكاً :

ـ كلا ، شكراً .

وصاحت وهي تقذفه بقطعة السكر التي التقطها من الهواء :

ـ انه بدون ذلك بجلبة للشر .

واصطدمت نظرتاهما . كانت نظرة صوفي تبدو مستفهمة : « من انت ؟ » وايضاً : « ماذا سيحدث بينك وبيني ؟ » . وكانت حدقتاها المتراخيتان ، الجشعتان ، المذهبتان بشفافية الاهداب ، تبعثان على التفكير بالرمـــل في ايام الصيف قبل المطر ؛ وكانتا محملتين بالقلق اكثر من الرغبة. وقال انطوان لنفسه: « واحدة من تلك المخلوقات التي ما ان تلامسها .. ولكنها تعضك في الوقت نفسه ، وبعد ذلك تكرهك . وتلاحقك بأشنع الانتقام .. »

ولفتت وجهها عنه كأنها ادركت فكرته ، واقتربت من النافذة . وقد زاد المطر من ذهاب النهار .

وبعد صمت طويل سأل انطوان مضطرباً :

ـ بماذا تفكرين ؟

فاعترفت وهي جامدة :

ـ اوه ! في اغلب الاحيان لا افكر .

وقال ملحاً :

ـ ولكن حين تفكرين ، فماذا يكون ذلك ؟
ـ بلا شيء .
وسمعها تضحك ، وتركت النافذة وابتسمت برقة . ولم تبد انها متعجلة . وبعد بضع خطوات حسب الصدف ، وهي متدلية الذراعين ، وجدت نفسها امام الباب ولمست يدها القفل بذهول .
وظن انطوان انها تدير المفتاح فصعد الدم الى وجهه . وتمتمت دون ان ترفع عينيها :
ـ وداعاً ..
وكانت قد فتحت الباب .
ودهش انطوان ، وقد خاب امله ، فانحنى مستعداً ليلتقط نظرتها ، إلا أنها تمتمت كالصدى ، بدافع اللعب ، وبنبرة مداعبة تشبه النداء :
ـ وداعاً .
وأقفل الباب من جديد ، واختفت بدون أن تلتفت .
وسمع حفيف التنورة على الحاجز الحديدي للدرج وكذلك الأغنية التي كانت تحاول أن تدندن بها وهي هابطة .

١٣

واستولى الليل شيئاً فشيئاً على الغرفة .
وكان انطوان يحلم دون أن تكون لديه القدرة على ترك مقعده لإشعال النور. لقد مضى على ذهاب جاك أكثر من ساعة ونصف . وهناك شك لاارادي ، حاول إبعاده ، وكان يحاصر تفكير انطوان ، وقلق نفسي يتزايد من دقيقة الى اخرى كان يضيق عليه ؛ وقد تبدد دفعة واحدة حين عرف خطوة أخيه على سطح الدرج .
ودخل جاك ، ولم يقل شيئاً . حتى انه لم يلاحظ ان الغرفة كانت في ظلام . وسقط على كرسي ، بقرب الباب . وأمائره لا تكاد تتميز على ألق الوجاق .

وكانت جبهته مغطاة بقبعته ، ويحمل معطفه على ذراعه .

وتأوه فجأة وقال :

– دعني هنا يا انطوان . اذهب ودعني . أكاد لا أعود ..

ولكنه صاح قبل أن يستطيع انطوان قول كلمة :

– اسكت ، اسكت ، انا اعلم ، لا تقل شيئاً . سأذهب معك .

ثم نهض واشعل النور .

وتجنب انطوان التطلع اليه . وتظاهر بمواصلة القراءة .

كان جاك يتوه خلال الغرفة بخطوة متعبة . والقى بعض الامتعة على السرير ، وفتح حقيبة ووضع فيها ملابس داخلية ، واشياء متنوعة . وكان يصفر بين لحظة واخرى : نفس اللحن دائماً . ورآه انطوان يلقي رزمة من الرسائل في النار ويرتب في خزانة اخذ مفتاحها ، جميع الاوراق الملقاة . ثم جلس في زاوية وتكوم على نفسه ، الرأس في الكتفين ، يدفع ذؤابته بعصبية ، وكتب عدة بطاقات – رسائل على ركبتيه .

وكان قلب انطوان مضطرباً . لو كان جاك قال له : « ارجوك ، اذهب بدوني » لكان شده بين ذراعيه وسار وحده دون ان ينبس بكلمة .

وكان جاك هو الذي قطع الصمت . فحين بدّل حذاءه وحزم امتعته اقترب من اخيه :

– الساعة السابعة كما تعلم . يجب ان ننزل .

واستعد انطوان دون ان يجيب ، وحين انتهى ، سأل :

أأستطيع مساعدتك ؟

– شكراً .

كانا يتكلمان بصوت أقل ارتفاعاً من النهار .

– اعطني حقيبتك .

– ليست ثقيلة .. سر .

واجتازا الغرفة دون ضجة تقريباً . وخرج انطوان اولاً . وسمع جاك

وراءه يدير معكس التيار الكهربائي ويقفل الباب بهدوء .

كان العشاء في المقصف سريعاً.ولم يقل جاك شيئاً، ولما يكد يلمس الصحون؛ وانطوان مهموم اكثر من اخيه ، وكان يحترم هذا الصمت دون أن يحاول التجاهل .

وكان القطار على الرصيف . فمشيا المئة خطوة منتظرين الساعة . وقد انبثق من الممر تحت الارض موجة من المسافرين . وقال انطوان :

– سيكون القطار مليئاً .

فلم يجب جاك بشيء . ولكنه قال فجأة :

– ها قد مضى علي سنتان ونصف في هذه البلاد .

– في لوزان ؟

– كلا .. وانا اسكن سويسرا . – وتمتم بعد بضع خطوات : – ربيعي الجميل عام ١٩١١ .

وطاف في طول القطار مرة اخرى دون ان يتكلم . وتوقف جاك عند الافكار نفسها لأنه اوضح تلقائياً :

– كنت اصاب بصداعات كهذه في المانيا ، حيث كنت اقتصد في كل شيء لأهرب ، لأهرب الى سويسرا ، الى الهواء الطلق . وقد وصلت الى هنا في أواخر ايار ، في اوج الربيع . في الجبل . الى موهلانبرغ في اقليم لوسيرف .

– موهلانبرغ ؟

– نعم ، وقد كتبت هناك كل تلك القصائد تقريباً والتي وقعتها باسم « موهلانبرغ » لقد اشتغلت كثيراً في تلك الفترة .

– هل ظللت طويلاً هناك ؟

– ستة اشهر عند مزارعين . عجوزان بدون اولاد . ستة اشهر رائعة . اي ربيع واي صيف ! من نافذتي ، يوم وصولي ، هذا السحر ! منظر طبيعي فضفاض ، متموج ، بخطوط بسيطة ـ نبل ! كنت أظل في الخارج من الصباح الى المساء . المروج ملأى بالزهور ، والنحل البرّي ، والمراعي الكبيرة المنحدرة

مع ابقارها ، والجسور الخشبية على السواقي .. كنت امشي ، واشتغل وانا أمشي، كنت امشي كل النهار، وأحياناً المساء ، في تلك الليالي .. تلك الليالي..

وارتفع ذراعه ببطء ورسم خطاً منحنياً ، وسقط .

ـ ولكن صداعك ؟

ـ اوه ! ما كدت اقيم حتى شعرت بالتحسن ! ان موهلانبرغ هي التي شفتني . حتى لأستطيع القول ان رأسي لم يكن ابداً اكثر حرية واكثر خفة ! ـ وابتسم لتذكره . ـ خفيف إلا انه مليء بالأفكار والمشاريع ، بالجنونيات .. وأعتقد ان كل ما استطيع كتابته في مجرى حياتي قد نبت في ذلك الهواء النقي، أثناء ذلك الصيف . واذكر اياماً كنت اثناءها في حالة هيجان نفس .. آه ! تلك الايام . لقد عرفت حقيقة نشوة كوني سعيداً ! وكان يحدث لي ـ لا أكاد اجرؤ على قول ذلك ـ كان يحدث لي ان أثب ، واركض بدون سبب . ثم انبطح على بطني في العشب .. لأنتحب ، لأنتحب بلذة ، اتعتقد اني ابالغ ؟ انه صحيح كل الصحة بحيث اذكر بعض ايام بكيت فيها كثيراً وقمت بدورة لأستطيع غسل عيني في ينبوع صغير اكتشفته في الجبل ..

وخفض رأسه ، ومشى بعض الوقت صامتاً ، وكرر دون ان يستقيم :

ـ نعم ، لقد مضى على ذلك سنتان ونصف .

ثم صمت حتى الرحيل .

وحين تحرك القطار دون أن يصفر، بذلك الامان الذي لا يلين وتلك القدرة المنفعلة للآلة المتحركة حسب التوقيت ، رأى جاك بعينيه الجافتين اختفاء الرصيف الفارغ ، وهروب الضاحية المغروزة بالاضواء ، على إيقاع متسارع ؛ ثم أصبح كل شيء اسود ، وشعر انه محمول في الليل ، دون مقاومة .

بين اولئك الغرباء الذين يحشرونه ، كانت عيناه تبحثان عن انطوان الذي كان واقفاً في الرواق ، على بضعة امتار منه، مديراً ظهره نصف دورة، ويبدو ، هو ايضاً ، انه اضاع نظره في الحقول المظلمة . واجتاحته رغبة في التقارب ، ومن جديد تلك الحاجة التي لا تقاوم الى الاعتراف .

وتوصل الى التقدم حتى بلغ اخاه ولمس ذراعه بجدة . وظن انطوان ، وقد حوصر بين المسافرين والأمتعة التي تملأ الممر ، ان لدى جاك كلمة فقط يقولها له . وبدون ان يحاول الالتفات ،فقد لفت عنقه فقط وحنى رأسه . وعندئذ ، في ذلك الرواق حيث كانوا كالبهائم في حظيرة مع ارتجاج القطار وضجيجه ، تمتم جاك ، وفمه قريب من اذن انطوان :

ـ اسمع يا انطوان ، يجب ان تعلم .. في البدء عشت .. عشت .

كان يريد ان يصرخ : « عشت عيشة مشينة .. وتدنيت .. ترجمان .. دليل .. وعشت بالحيل .. وأسوأ ايضاً ، السفلة ، و « شارع اليهود » .. وكأصدقاء : البؤساء ، والاب كروجر ، وسيلادونيو ، وكارولينا .. وليلة في المرفأ صرعت بضربة مطرقة ، وبعد ذلك المستشفى . وآلام رأسي كانت بسبب ذلك .. وفي نابولي .. وفي المانيا . ريبير وروزا الصغيرة ، هذا الثنائي .. في مونيخ ، بسبب ولفريد ، دخلت السجن الاحتياطي .. » . ولكن كلما تزاحمت الاعترافات على شفتيه ، ونهضت الذكريات عديدة ومضطربة ، فان هذا الماضي المشين كان يبدو له فعلاً انه « مشين » ـ يستحيل استيعابه في عبارات .

وعندئذ خمدت عزيمته فاكتفى بأن تمتم :

ـ لقد عشت حياة مشينة يا انطوان .. مشيـ...نة (هذه الكلمة التي حمّلها كل ما في العالم من خزي ، هذه الكلمة الثقيلة الرخوة التي كان يرددها بصوت يائس ، هدأته شيئاً فشيئاً كالاعتراف) .

وكان انطوان قد التفت بكل جسمه ، منزعجاً ، قلقاً لوجود جيران ، خائفاً ان يرفع جاك نبرته ، مرتجفاً مما سيعلمه . وكان مع ذلك يحاول ان يظهر بحالة مرضية .

ولكن جاك ، وكتفه مستند الى الحاجز ، لم يبد انه سيوضح اكثر من ذلك .

كان المسافرون يخلون الرواق ويتكدسون في المقاصير . وبعد قليل رأى انطوان وجاك نفسيهما منعزلين يستطيعان الكلام دون ان يسمعهما احد .

الا ان جاك الذي كان صامتاً حتى الآن بدا قليل الاستعجال لمواصلة الحديث ،

وقد انحنى فجأة نحو اخيه :

ـ اترى يا انطوان، المخيف هو عدم معرفة ما هو .. عادي .. كلا ، ليس « عادياً » ، فهذه بلاهة .. كيف اقول ؟ عدم معرفة ما اذا كانت العواطف .. او بالاحرى الغرائز .. ولكن انت طبيب ، تعرف ذلك ، انت ..». وقطب حاجبيه ، وضاع نظره في الليل ، وكان يتكلم بصوت خفي ويصطدم لدى كل كلمة. وتابع :ـ«اسمع. يشعر المرء احياناً بأشياء.. ويكون لديه نوع من الاندفاعات نحو هذا او ذاك.. اندفاعات تنبجس من الاعماق.. أليس كذلك؟ ولا يعرف اذا كان الآخرون يشعرون بنفس الشيء ، او ايضاً اذا كان .. هناك مسخ ! هل تفهم ما اريد قوله يا انطوان ؟ انت رأيت كثيراً من الافـــراد ، وكثيراً من الحالات ، وتعرف دون شك ما هو .. لنقل .. عام ، وما هو شاذ . ولكن بالنسبة الينا نحن الذين لا نعلم فان ذلك مدعاة للقلق بشكل مخيف ، كما ترى .. وهكذا .. مثلاً : عندما يكون عمر المرء ثلاث عشرة ، اربع عشرة سنة ، فان هذه الرغبات المجهولة التي تصعد كالانفاس ، وتلك الافكار المضطربة التي تجتاحك دون ان تستطيع دفعها ، والتي تخجل منها وتخفيها بشكل مـــؤلم كالعيوب .. وثم ، يكتشف ذات يوم ان ليس هناك شيء اكثر طبيعية ، ولا شيء اكثر جمالاً ايضاً .. وان الجميع ، الجميع ، مثلنا ، هم سواء . اتفهم ؟ اذن اسمع . يوجد ايضاً اشياء غامضة .. غرائز .. تنتصب . ويتساءل المرء عنها ، حتى في مثل سني يا انطوان ، حتى في مثل سني .. ولا يعرف شيئاً ..

وفجأة تقلصت قسماته ، وسيطرت عليه فكرة اخرى خلسة : فقد شاهد كيف تعلق باخيه بسرعة رغماً عنه ، بذلك الصديق الابدي ، وبواسطة هـــذا الأخ تعلق بالماضي كله ! البارحة ايضاً ، حفرة لا يمكن اجتيازها .. ونصف النهار كان كافياً . فشنج قبضتيه ، وخفض رأسه ، وصمت .

بعد بضع دقائق ، وبدون ان يرخي اسنانه المشدودة ، او يرفع عينيه ،

بلغ مكانه في المقصورة .

وحين اراد انطوان اللحاق به ، وقد دهش من هذا التراجع المفاجىء ، شاهده جامداً في الظلام : الجفون مقفلة بعناد على دموعه . وقد بدا جـــاك انه ينام .

موت الأب

١

في المساء الذي جاء انطوان فيه ليعلم المدموازيل دي ويز ، قبل ان يركب القطار الى سويسرا ، انه سيتغيب لمدة اربع وعشرين ساعة ، فان الآنسة العجوز لم تعره اولاً سوى انتباهٍ ساهٍ : كانت جالسة امام مكتبها الصغير ، تتعب منذ ساعة في كتابة طلبٍ يتعلق بسلة خضار ضاعت بين ميزون ـ لافيت وباريس ؛ وكان غضبها يمنعها من التفكير بشيء آخر. الا انها فيما بعد، بعد ان انهت رسالتها كيفما اتفق ، وقامت بزينتها الليلية ، وبدأت صلواتها ، عادت عبارة انطوان فجأة الى ذاكرتها : « ستقولين للاخت سيلين ان الدكتور تيريفيه قد أُنبىء وهو مستعد للمجيء عند اقل نداء » . عندئذ ، دون ان تهتم بالوقت ، وحتى دون ان تنهي ادعيتها ، اجتازت الشقة لتذهب وتكلم الراهبة ، جازعة لانها منذ ذلك المساء أعفيت من تلك المسؤولية .

وكانت الساعة تقرب من العاشرة .

وفي غرفة السيد تيبو كانت الكهرباء مطفأة ، ولم تكن الغرفة مضاءة الا بألق نار الحطب التي ابقوها في الموقد لجعل الهواء صحياً ـ وهي حيطة اصبحت لا غنى عنها كل يوم ، مع انها لم تتوصل إلى التغلب على بخار « اللزقة » الحاد ، ولا على رائحة الاثير ، واليود ، والفينول ، ولا على الرائحة المزوجة بالمنتول للدهان الذي يزيل الألم ، ولا على عفونات هذا الجسم المنهار بشكل خاص.

في تلك اللحظة لم يكن المريض يتألم ؛ كان يغفو شاخرا متأوهاً . منذ شهور لم يعرف النوم ولا هدوء الراحة . وليس النوم بالنسبة إليه أن يفقد وعيه ، بل ان ينقطع فقط ، في فترات مقتضبة ، عن تسجيل مجرى الزمن دقيقة دقيقة ! وأن يترك أيضاً اعضاءه في تخدرٍ نصفي ، ولكن بدون أن يقلع دماغه ، ولو ثانية واحدة ، عن خلق صور ، وعرض فيلم غير متلاحم تتتابع فيه ، بدون نظام ، قطع من حياته الماضية : مشهد هو معاً مؤثر كاستعراض تذكارات ، ومتعب كالكابوس .

في ذلك المساء لم يتوصل الغفو الى انقاذ النائم من الشعور باضطراب نفسي كان يضغط عليه ، ويمتزج بأوهامه ، ويتزايد من لحظة الى اخرى ، ويجعله يهرب فجأة ، ويلاحق في ابنية المدرسة ، خلال قاعة النوم ، والساحة المسقوفة ، والكنيسة ، حتى في ساحة فرصة التنفس .. وهناك ، امام تمثال القديس يوسف ، عند مدخل الملعب الرياضي ، قد انهار ورأسه بين ذراعيه . وعندئذٍ ، فان ذلك الشيء الرهيب الذي لا إسم له والذي يحوم فوقه منذ عدة أيام ، برز فجأة من قلب الظلمات ، وحين كاد يسحقه استيقظ مرتجفاً .

وخلف الستار بقية من شمعة غير عادية كانت تنير زاويةً هي على العموم مظلمة في الغرفة ، حيث امتد ظلان حتى الافريز . وشعر بهمس . كان ذلك صوت المدموازيل . ففي احدى المرات في السابق ، وفي ليلة مماثلة ، كانت قد جاءت تناديه .. جاك ، اضطراباته .. أيكون احد الاولاد مريضاً ؟ كم كانت الساعة ؟

وتناهت اليه بعض المقاطع الاكثر وضوحاً : « .. قال انطوان ان الدكتور قد أنبيء . وسيصل حالاً .. »

ولكن كلا ، فالمريض ، انه هو ! لماذا الدكتور ؟

وعاد الشيء الرهيب الى التحويم . هل تفاقم مرضه ؟ ماذا حدث؟ هل نام؟ انه لم يلاحظ ان حالته قد ساءت . لقد استدعي الدكتور . وفي جنح الظلام . انه هالك ! على وشك الموت !

عندئذ عاد الى ذهنه كل ما كان يقوله ـ دون ان يؤمن بـه ـ ليعلن بشكل احتفالي اقتراب اجله ، وتغطى جسده بالعرق .

اراد ان ينادي : « الي ! النجـدة ! يا انطوان ! » ولكن حنجرته لم تتح المرور لبعض الاصوات الا بالجهد ؛ وكان الامر فاجعـاً بحيث قلبت الاخت سيلين الستار حين ركضت وأشعلت النور .

واعتقدت حالاً بوجود نوبة . فوجه العجوز ، الذي هو عادةً بلون الشمع، اصبح ارجوانياً ؛ وظلت العين مفتوحة ومستديرة ؛ ولم يتوصل الفم الى لفظ كلمة .

إلا ان السيد تيبو لم يعر اي انتباهٍ لمـا يجري حوله . ودماغـه المسدد نحو الفكرة الثابتة كان يشتغل بوضوح لا يرحم. وببضع ثوانٍ راجع تاريخ مرضه : العملية ، اشهر الراحة ، الانتكاس ؛ ثم اشتداد المرض المتزايد ، والآلام تتملص من الدواء بين يوم وآخر . كل الاعراض اخـذ بعضها برقاب بعض واتخذت اتجاهها اخيراً . هذه المرة ، هذه المرة ليس هناك اي شك ! فراغ الحفر فجأة في المكان الذي كانت تسيطر فيـه منذ دقائق تلك الطمأنينة التي يصبح العيش مستحيلاً بدونها ؛ وذلـك الفراغ كان مباغتاً بحيث اختل كل توازن . حتى الوضوح تفلّت منـه فلم يتوصل الى ان يفكر . والذكاء البشري يتغذى من المستقبل بشكل جوهري بحيث ان كل اندفاع للروح ، في اللحظة التي بطلت فيها كل امكانيـة للمستقبل ، يصطدم بالموت بشكل غـير واضح ، ولا يكون هناك اي تفكير ممكن .

وتتشنج يدا المريض على الشراشف . والخوف يحثه . كان بوده أن يصيح ؛ فلا يستطيـع . يشعر انـه محمول كالعصافة في تهـافت ثلوج : يستحيل التعلق بشيء . كل شي منقلب كل شيء يهلك معه ... اخيراً ارتخت حنجرته وفتح الخوف ممراً فيها ، وسالت بصرخة رعب اختنقت حالاً .

لم تستطع المدموازيل ان تقدّم ظهرهـا المنحني لترى مـا حدث ؛ فصاحت بصوت كريه :

– ماذا جري ؟ ماذا جرى ايتها الاخت ؟
ولما لم تجبها الراهبة هربت .
ما العمل ؟ من تنادي ؟ انطوان غائب . الاب الرئيس ! الاب فيكار .

الخادمات ما زلن في المطبخ ، فلم يسمعن شيئاً . ولدى اولى كلمات الآنسة العجوز رسمت ادريان اشارة الصليب ؛ ولكن كلوتيلد ثبتت شالها بدبوس ، واخذت حافظة نقودها ، ومفتاحها وذهبت راكضة .

٢

كان الاب فيكار يسكن في شارع غرينيل بقرب مكاتب الابرشية حيث يدير الآن مصلحة اعمال الابرشية . وكان لا يزال على مكتبه .

واوصلته سيارة كلوتيلد ببضع دقائق الى شارع الجامعة . وكانت المدموازيل تنتظرهما ، جاثمةً على كرسي في الدهليز . لم يعرفها الكاهن اولاً بجبهتها العارية من العصائب ، وشعرها المسحوب الى الوراء والمفتول على صدرتها الليلية . وقالت متأوهة :

– آه ! سر بسرعة يا سيدي الاب .. وذلك ليقلّ خوفه ..

فحياها دون ان يتوقف ودخل الى الغرفة .

كان السيد تيبو ، وقد رُفع الغطاء ، يريد الافلات من هذا السرير ، من هذا البيت ، ويهرب في الليل ، يهرب من التهديد الفظيع . وكان قد استعاد صوته وأخذ يصيح بألفاظ خشنة :

– الفاجرات ! الكلبات ! الزواني !. آه ! البقر ! القذرات !

وفجأة سقط نظره على الكاهن ، في ضوء الباب المفتوح ، ولم يبد المريض اية دهشة ، ولكنه قاطع نفسه لحظة ليصيح :

– ليس انت ! انطوان ! اين انطوان !

وألقى الكاهن قبعته على الكرسي وتقدم بسرعة . وقسماته الجامدة ، كما هو

الأمر دائماً ، لم تكن تكشف مقدار تأثره ؛ ولكن ذراعيه المرفوعين قليلاً ، ويديه المفتوحتين ، كانت توضح رغبته في النجدة . وجاء حتى السرير ، ودون ان يفوه بكلمة ، وببساطة ، بارك السيد تيبو الذي كان يتطلع اليه .

ثم قال بصوت مرتفع ، في الصمت :

ـ « ابانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك .. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض [1] » .

وكان السيد تيبو قد انقطع عن الحركة . وعيناه تتوهان من الكاهن إلى الراهبة . وشفتاه مسترخيتان ، واتخذ وجهه تعبيراً مكشراً ، تعبير الولد الذي يكاد يبكي . وترنح رأسه يميناً وشمالاً ، واخيراً انهار على الوسادة . وانتحاباته الشبيهة بالضحك اصبحت متباعدة شيئاً فشيئاً . ثم صمت .

وكان الكاهن قد اقترب من الراهبة وسأل دون ان يرفع صوته :

ـ هل يتألم الآن ؟

ـ ليس كثيراً ، فقد حقنته بأبرة ، وعلى العموم فان الآلام لا تعود الا بعد منتصف الليل .

ـ حسناً ، دعينا وحدنا .. ولكن اطلبي الطبيب هاتفياً .

وبدت حركته كأنها تقول : « لا استطيع كل شيء وحدي » .

وانسحبت الاخت سيلين وادريان دون ضجة .

وبدا السيد تيبو انه ينام . كان قد غاب عن وعيه عدة مرات قبل مجيء الاب فيكار . ولكن هذه الغيبات الفجائية كانت قصيرة ؛ وكان يعود الى الصعود على السطح دفعة واحدة . ويستعيد رعبه ، ويعود الى التحرك من جديد بقوى جديدة .

وأحس الاب ان الهدنة سوف تكون قصيرة وان عليه ان يستفيد منها. وهبت نسمة حارة على وجهه : في جميع واجبات منصبه الكهنوتي كانت مساعدته

١ـ باللاتينية في الاصل .

للمحتضرين هي الواجب الذي يتهيبه اكثر من غيره .

واقترب من السرير .

ـ انت تتعذب يا صديقي .. انك تجتاز ساعة قاسية .. لاتبق وحدك مع نفسك ؛ افتح قلبك للرب .

فالتفت السيد تيبو ، وأثبت على معرّفه نظرة مضطربة رفت لها اهداب الكاهن ، ولكن عين المريض كانت مشحونة بالغضب ، بالحقد ، بالاحتقار . ثانية واحدة فقط : وبدا عليه الرعب حالاً . وتعبير القلق كان غير محتمل هذه المرة بحيث اضطر الكاهن الى ان يخفض جفونه ويشيح عنه قليلاً .

وصر المحتضر بأسنانه ، وقال متلجلجاً :

ـ اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا ! لا ! اني خائف .

وامتلك الكاهن نفسه وقال بلطف :

ـ اني اتيت لمساعدتك .. لنصلِّ اولاً .. لنناد وجود الله فينا .. لنصلِّ معاً يا صديقي .

فقطع السيد تيبو كلامه :

ـ ولكن ! انظر .. انا . انا . اكاد ..(لم تكن لديه الشجاعة لاقتحام الموت بكلمات واضحة) .

وغمس نظراً غريبـــاً في زوايا الغرفة المظلمة . اين يجد النجدة ؟ وتكاثفت الظلمات حوله . وأطلق صرخة انفجرت في الصمت وكانت للكاهن شبه تعزية ، ثم نادى بكل قوته :

ـ انطوان ! اين انطوان ؟

وحين احدث الكاهن حركة بيديه ، قال :

ـ دعني انت ! يا انطوان !

عندئذ غيّر الكاهن الخطة . فانتصب ، وتتطلع الى التائب بألم ، ثم باركه مرة ثانية بحركة كبيرة من ذراعه ، كمن يخرج الارواح الشريرة من ممسوس .

وهذا الهدوء اثار غضب السيد تيبو ، فنهض متكـئاً على مرفق رغم الالم

الذي كان يمزق الكلى ، ومد قبضته :

ـ الفاجرون ! القذرون ! وانتم ، حكاياتكم ! كفى . ـ ثم بيأس : ـ سأموت اقول ، لكم ! النجدة .

وكان الكاهن واقفاً يتأمله دون ان يعارضه ؛ ومهما كان العجوز مقتنعاً انه اصبح في نهاية حياته ، فان الصمت حمل الضربة الاخيرة. كان مهتزاً من الرعشة ، شاعراً بقواه تخور ، إلى درجة انه غير قادر على امساك لعابه الذي كان يبلل ذقنه ، مردداً بنبرة متوسلة كأن الكاهن لم يسمعه جيداً ، او انه لم يفهمه :

ـ اني اموت .. اني اموت ..

وتنهد الكاهن ولكنه لم يأت بحركة إنكار . كان يفكر ان الحسنة الحقيقية ليست دائماً في اغداق الاوهام الواهنة على المحتضرين ، وان الدواء الوحيد للرعب البشري عند اقتراب الساعة الاخيرة ليس في انكار ذلك الموت الآتي الذي يتمرد امامه الجهاز العضوي وقد أنبىء به بشكل خفي : بل بالعكس ، ان تواجهه وترضى باستقباله .

وترك بضع ثوان تمر ، ثم جمع شجاعته ولفظ بوضوع :

ـ وحين يحدث ذلك يا صديقي ، فهل هذا سبب لنخافه هذا الخوف الشديد ؟

فسقط الهرم على الوسادة متأوهاً كأنه صفع على وجهه

ـ اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا ! لا !

لقد انتهى الامر : فقد انتزعه الاعصار وتدحرج دون رحمة ، وشعر انه هلك نهائياً ، والوميض الاخير لوعيه لم يفده الا في قياس العدم بشكل افضل ! وكان الموت بالنسبة للآخرين فكرة دارجة ، غير شخصية : كلمة بين الكلمات. اما بالنسبة اليه فهو الحاضر كله ، الواقع ! انه هو نفسه ! وشاهد بعينيه المفتوحتين على الهاوية واللتين كبرتا بسبب الاختلال ، وجه الكاهن بعيداً جداً ، مفصولاً عنه بالهاوية ، ذلك الوجه الحي ـ الغريب . كونه وحيداً ، مبعداً عن الكون . وحيداً مع رعبه . يلمس اعماق الوحدة المطلقة .

وارتفع صوت الكاهن في الصمت :

ـ انظر : لم يشأ الرب ان يهبط المـــوت بغتة عليك ، كاللص . يجب أن تكون جديراً بهذه الرحمة ، لانها رحمة ـ واكبر رحمة بامكان الرب ان يمنحها لنا نحن الخطاة ـ هذا التنبيه على عتبة الحياة الابدية .

كان السيد تيبو يسمع ، من بعيد جداً ، هـــذه العبارات التي تأتي عبثاً ، كالامواج على صخرة ، تضرب دماغه المتجمد من الخوف . وبدافع الرتابة ، حاول تفكيره لحظة استحضار فكرة الله ليجد فيها ملجأ ؛ ولكن هـــذه الاندفاعة تحطمت عند الانطلاق . الحياة الابدية ، رحمة الله ـ لقد اصبحت لا تفهم : كلمات فارغة لا تتناسب مع الواقع المخيف .وتابع الاب :

ـ لنشكر الله . سعداء اولئك الذين ينتزعهم من ارادتهم الخاصة ليربطهم بارادته . لنصلّ . لنصلّ معاً يا صديقي .. لنصل مـــن كل نفوسنا ، وسيساعدك الله .

ولفت السيد تيبو رأسه .لا تزال بقية من العنف تغلي في اعماق رعبه . كان بوده ان يقتل الكاهن لو استطاع . وصعد التجديف الى شفتيه :

ـ الرب ؟ ماذا ؟ اية مساعدة ؟ انها في النهاية بلاهة ! اليس هو ، بالضبط ؟ اليس هو الذي يريد ؟ـ وكاد يختنق فصاح بهياج : ـ اذن ماذا ، اية مساعدة ؟

واستولت عليه شهوة الجدال الى درجة نسيانه ان قلقه النفسي قد انكر الله منذ لحظة . وتأوه :

ـ آه ! كيف فعل الرب بي هكذا ؟

فهز الكاهن رأسه وقال :

ـ يقول كتاب الاقتداء بالمسيح : « حين تؤمنون بعيداً عني ، فهذا يعني في اغلب الاحيان انني قريب جداً منكم » .

وكان السيد تيبو يصغي . وظل صامتاً بضع ثوان ، ثم التفت الى معرّفه ، ولكن بحركة ضيق هذه المرة ، وقال متوسلاً :

ـ ايها الاب. أيها الأب . افعل شيئاً، صلِّ ، انت. ليس هذا ممكناً ، قل ؟

إمنعني من الموت .

وأدنى الكاهن كرسياً وجلس ، واخذ تلك اليد المتورمة التي يترك عليها اقل ضغط خطاً شاحبا . وهتف الهرم:

آه ! سترى ذلك ايها الاب ، سترى حينما يأتي دورك !

وتأوه الكاهن :

— ما من احد يستطيع القول : « ستوفرني التجربة » . ولكني اتوسل الى الله ان يرسل الي في موتي صديقا يساعدني على امتلاك نفسي في الوقت المناسب .

واطبق السيد تيبو عينيه . والحركات التي قام بها انعشت في تجويف الظهر تلك القروح التي كانت تحرقه كحديدة محمّاة . وتمدد وظل ساكنا ، مردداً بين فكيه المشدودين : « اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا ! لا ! » .

وتابع الاب بصوته الحذر الحزين :

—انت المسيحي تعرف جيداً ان هذه الحياة الارضية يجب ان تنتهي. غبار. هل نسيت ان هذا الوجود ليس ملكا لنا ؟ انك تتمرد كأنك ستجرّد من مالٍ قد اكتسبته. ولكنك تعلم ان حياتنا مستعارة من الله . وفي الساعة التي يجب ان تدفع دينك فيها فمن العقوق ان تساوم .

وفتح السيد تيبو جفونه قليلاً وألقى على الكاهن نظرة ملأى بالحقد . ثم جالت عيناه ببطء في الغرفة ، ووقعتا على كل تلك الامتعة التي كان يميزها جيداً رغم الظلام ، والتي هي امتعته التي كان يراها كل يوم طوال سنوات كثيرة . ويمتلكها كل يوم . وتمتم :

— ان اترك كل هذا ! لا اريد !

وهزته رعشة شديدة فردد ! اني خائف !

وشعر الكاهن بالشفقة وزاد من انحنائه :

— والمعلم الالهي هو ايضاً عرف آلام النزع وعرق الدم ، وهو ايضاً ، في لحظة ، لحظة قصيرة ، شكّ بطيبة ابيه . « إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » فكر يا صديقي : الا يوجد بين آلامك وآلام إلهنا تشابهٌ مؤثر ؟ ولكن يسوع استغرق

في الصلاة ، وهتف باندفاعة حب : ابي ، ها أنذا ؟ ابي ، اني أؤمن بك ! ابي ، اني اترك نفسي ! لتكن مشيئتك وليس مشيئتي !

وشعر الكاهن باليد الكبيرة تختلج تحت اصابعه . فتوقف قليلاً ثم تابع دون ان يرفع صوته :

– هل فكرت بأن انسانيتنا المسكينة قد اتمت اجلها على الارض منذ قرون، منذ ألوف القرون ؟

ثم ادرك ان هذا الدليل الكثير الغموض لم يبلغ هدفه فقال موضحاً :

– فكّر فقط بعائلتك ، بأبيك ، بجدك ، بأجدادك ، بكل اولئك الرجال الشبيهين بك ، الذين سبقوك ، الذين عاشوا ، وكافحوا ، وتألموا ، وأملوا ، مثلك ، والذين ذهبوا كلهم الى غير رجعة ، بعضهم وراء بعض ، وعادوا الى نقطتهم الاصلية في الساعة المعينة منذ البدء . أليست هذه الرجعة العمومية فكرة مهدئة يا صديقي في صدر ابينا القدير ؟

فتأوه السيد تيبو وقال :

– نعم .. ولكن .. بعد !

– انك تشكو ! ومع ذلك فكم بين هؤلاء الرجال ممن لم ينالوا نصيبك ! لقد كان لك من الامتياز انك بلغت سناً رُفض على كثيرين . وانعم الله عليك بأن منحك حياة طويلة لتعمل على خلاص نفسك .

فارتجف السيد تيبو ، وتمتم :

– ايها الاب ! ان هذا لرهيب .

– رهيب ، نعم . ولكن حقك بالخوف هو اقل من اي انسان غيرك .

فسحب المريض يده بعنف وقال :

– كلا .

وألحّ الكاهن بطيبة :

– ولكن بلى ، ولكن بلى . فقد رأيتك أثناء العمل ، كنت دائماً تسعى لوضع هدفك فوق المنافع الارضية . وقد كافحت ضد البؤس ، والانحطاط

الاخلاقي . بواسطة محبة القريب . وحياة كحياتك يا صديقي هي حياة رجل خير . ويجب ان تنتهي بك الى موت مطمئن .

فردد المريض بصوت خفي :

ـ كلا .

ولما كان الكاهن يحاول ان يأخذ يده من جديد ، فانه تخلص بحدة .

لقد جرحته هذه الاقوال . كلا . انه لم يرتفع فوق المنافع الارضية ! فقد خدع في هذا جميع الناس ، والكاهن ، ونفسه دائماً . وفي الواقع فقد ضحى بكل شيء في سبيل نيل اعتبار الناس . ولم يكن يملك سوى عواطف منحطة ، منحطة ، منحطة ـ وقد أخفاها ! انانية ، صلف ! عطش ليصبح غنياً ، ليقود ! نشر الاحسان ليكتسب التكريم ، ليلعب دوراً ! دنس ، مظهر كاذب . كذب ـ كذب ! كم كان بوده لو يستطيع محو كل شيء وبدء كل شيء من جديد ! آه ! ان حياته كرجل خير تسبب له الخجل . وقد رآها اخيراً كما هي ، بعد فوات الاوان ! لقد جاء يوم الحساب .

ـ مسيحي مثلك ..

فانفجر السيد تيبو :

ـ اسكت اذن ! مسيحي ؟ كلا . انا لست مسيحياً . كل حياتي .. كنت اريد .. حب القريب ؟ اسكت ! اني لم اعرف ابداً ان احب ! لا أحد ، كلا ، ابداً ..

فقال الكاهن :

ـ يا صديقي ، يا صديقي .

كان من المنتظر ان يتهم السيد تيبو نفسه مرة اخرى ايضاً بانه دفع جاك الى الانتحار . ولكن كلا : ما من مرة فكر الاب بالولد المختفي في هذه الايام الاخيرة . فقد توصل فقط الى استحضار اقدم ادوار الماضي : شبابه الذي التهمه الطمع ، دخوله بين الناس ، الصراعات الاولى ، التمييزات الاولى : واحياناً درجات النضوج السامية ؛ ولكن السنوات العشر الاخيرة فانها اختفت في

ظلام الفسق .

ورفع السيد تيبو ذراعه رغم الألم وقال فجأة :

ـ انها غلطتك ! لماذا لم تقل لي شيئاً حين كان لا يزال يوجد متسع من الوقت ؟

ولكن الضيق حمله حالاً على الهياج ، وانهمرت دموعه . وكان نحيبه يهزه كالضحك . وانحنى الكاهن :

ـ في كل حياة بشرية ، يأتي يوم ، ساعة ، هنيهة قصيرة ، يتفضل الله بها ويظهر بكل جلائه ويمد إلينا يده فجأة . ويكون هذا أحياناً بعد حياة كفر ، وأحياناً في نهاية حياة طويلة ظننت انها مسيحية . . من يعلم يا صديقي ؟ ربما تمتد إليك يد الله حقيقة هذا المساء لأول مرة .

ففتح السيد تيبو جفونه . كان في دماغه المتعب اختلاط بين يد الله ويد الكاهن الحية ، القريبة . ورفع ذراعه ليمسك بها وتمتم بصوت لاهث :

ـ ما العمل ؟ .. ما العمل ؟ ..

لم تكن اللهجة هي نفسها : لم يكن أبداً ذلك الذعر المرعب أمام الموت ؛ بل كان استجواباً يمكن أن يتلقى جواباً ، كان خوفاً محملاً بالتوبة ويستطيع الغفران أن يبدده .

واقتربت ساعة الرب .

ولكنها كانت بالنسبة إلى الكاهن هي الساعة الصعبة . فاستجم دقيقة ، كما يفعل على المنبر عند بدء موعظة . فقد أصابه توبيخ السيد تيبو في الصميم دون أن يبدو عليه ذلك . ماذا كانت فعالية تأثيره على هذه الطبيعة المتكبرة التي أوكلت إليه منذ سنين كثيرة : كيف قام بمهمته ؟ لا يزال هناك متسع من الوقت لاصلاح النواقص ، نواقص المدير ، يجب إمساك هذه النفس المرتجفة اليوم والسير بها إلى قدمي المسيح .

عندئذ أوحت إليه عادته كرجل مهارة ورعة ، فقال :

ـ ان ما يجب الرثاء له ، لا لأن حياتك الارضية تنتهي : ذلك لأنها لم تكن

كما يجب ان تكون .. ولكن ، إذا لم تكن طوال حياتك قد أصبحت عامل بناء ، فنهاية مسيحية حقيقة تترك وراءك على الاقل مثالاً جميلاً يقتدى به ! ليكن موقفك ساعة الموت نموذجاً ، تعليماً لجميع اولئك الذين عرفوك .

وتململ المريض وخلص يده . لقد نفذت إليه هذه الفكرة ، نعم ! يجب ان يستطاع القول : « لقد مات أوسكار تيبو كالقديس » . وجمع اصابعه كيفما اتفق ، واطبق عينيه . ورأى الكاهن انه يحرك ذقنه : كان يصلّي إلى الله ليمنحه نعمة موتٍ يكون قدوة .

اما ما كان يشعر به فهو نوع من الخور اكثر مما هو خوف: فقد كان يشعر انه شيء حقير بين جميع الاشياء الفانية ؛ وهذه الشفقة على نفسه والتي تلت ارتعاشات الرعب تلك ، لم تكن دون عذوبة .

ورفع الكاهن رأسه وقال :

— قال القديس بولس : « لا تحزنوا كما يفعل اولئك الذين ليس لديهم امل ». انت من هؤلاء يا صديقي المسكين ، في ساعة خطيرة كهذه ، ها انا اجدك عارياً من الأمل . فقد نسيت ان الله هو أبوك قبل ان يكون قاضيك ؛ وها انت توجه إلى أبيك هذه الاهانة بأن تنكر رحمته !

فألقى المريض نحو الكاهن نظرة مضطربة وتأوه . وتابع الكاهن :

— هيا ، امتلك نفسك ! اقنع نفسك بالمرحمة الالهية . وفكر بان عفو اللحظة الاخيرة أمام ندامة صادقة وكلية يكفي لمحو خطايا حياة بكاملها . انت مخلوق من مخلوقات الله : ألا يعرف أفضل منا من اي طين قد صنعنا ؟ انه يحبنا كما نحن ، هيا ، هذا اليقين يجب ان يكون المبدأ الأساسي لشجاعتنا ، لثقتنا ، نعم ، « الثقة » ان كل سر ميتةٍ صالحة يا صديقي يكمن في هذه الكلمة .. الثقة بالله ، بطيبته ، برحمته التي لا نهاية لها !

كان للكاهن طريقة خاصة ، رزينة وهادئة في ان يشد على بعض الكلمات؛ وفي تلك اللحظات كانت يده ترتفع نصف ارتفاعة بإلحاح مقنع . ولكن قليلا من الحرارة كان يصدر عن هذه الطريقة الرتيبة في الكلام ، وعن ذلك الوجه

الذي لا يتأثر ، ذي الانف الطويل . وكان يجب ان تكون هذه الاقوال المقدسة مؤثرة من تلقاء نفسها ، وكان يجب بعد قرون طويلة ان تكون صالحة تماماً لرهبة الاحتضار لكي تؤثر بهذه السرعة ، ومباشرةً ، على هذا الرعب العظيم على تمرد كهذا .

وأسقط السيد تيبو رأسه ؛ ولامست لحيته صدره . وكانت عاطفة جديدة تنساب فيه خفية ، اقل عمقاً من الشفقة على النفس او اليأس . وتدحرجت دموع جديدة على خديه . ورفعته اندفاعة نحو هذه القدرة التي تفرج الغم ، ولم يعد يتوق الا الى التسليم ، الى التخلي ..

وفجأة شد على اسنانه : فقد حاصر ساقه ألم كان يعرفه جيداً ، من الخصر حتى ربلة الساق . وكف عن الاصغاء ، وتصلب : وخفت وطأة الألم في مدى لحظة . وتابع الكاهن :

ـ .. كما يفعل المسافر الذي يصل الى الذروة ، ويلتفت ليتفحص الطريق التي اجتازها . يا له من منظر بائس منظر الحياة البشرية ! دائماً ودائماً يُبدأ من جديد بنفس الجهود ، في حقل عملٍ ضيق بشكل مضحك ! بلبلات وهمية ، مسرّات رديئة ، تعطش للسعادة يتجدد عبثاً ولا تروى غلته ابداً ! هل انا ابالغ ؟ هذا ما كانته حياتك يا صديقي . وأستطيع القول : وهذا ما تكونه كل حياة على هذه الارض . فهل هذه الحياة يمكن ان ترضي مخلوقاً خلقه الله ؟ هل يوجد في كل ذلك شيء يستحق الأسف؟ اذن؟ بماذا تستطيع ان تتمسك؟ قل.. أبجسدك المتألم الخائر دون انقطاع، بذلك الجسد المسكين الذي يستحق الشفقة، والذي يتملص من مهمته باستمرار ولا يمكن لشيء ان يمنع الألم ، والذبول ؟ آه ! لنعترف بذلك : انه احسان فانٍ ! احسان بعد ان ظللت وقتاً طويلاً عبداً له ، اسيره ، استطعنا اخيراً رميه ، وتعريته ، والهرب منه ، وتركه على حافة الطريق كثوب رث .

كانت هذه الكلمات ، بالنسبة للمحتضر ،مشحونة بواقع آني بحيث ان فكرة هذا الهرب ابتسمت له فجأة كالوعد .. ماذا كانت اذن تلك العذوبة التي نفذت

اليه قبلاً ، اذا لم تكن ، من جديد وتحت قناع آخر ، هي الامل بالعيش، الامل الوحيد العنيد بالعيش ؟ هذه الفكرة لامست روح الكاهن . الامل في الماوراء، امل الحياة الابدية في الله ، الذي هو ضروري في ساعة الموت ضرورة الامل في عيش الدقيقة الآتية اثناء الحياة .

وتابع الكاهن بعد وقفة قصيرة :

ـ إلفت عينيك الآن نحو السماء يا صديقي ! فبعد ان وزنت القليل الذي تتركه انظر ما ينتظرك. لقد انتهت الصغائر، وعدم المساواة ، والمظالم ! انتهت التجارب والمسؤوليات ! انتهت اخطاء كل يوم وما يواكبها من توبيخ الضمير ! انتهت تلك التجزئة للمذنب بين الخير والشر ! ها انت ستجد الهدوء ، والاستقرار ، والنظام السامي . وملكوت الله ! ستتخلى عما هو زائل وسريع العطب لتقترب اخيراً مما هو دائم وابدي ! اتفهم يا صديقي ! الانتقال الى الحياة الابدية .. كان الموت يخيفك : فمخيلتك تمثل لك ما لا ادري من مخيف ، من الظلمات ! ان الامر على العكس ، فموت المسيحي رؤية مشرقة . انه السلام ، سلام الراحة ، سلام الراحة الابدية . ماذا اقول ؟ إنه اكثر من ذلك ! انه تفتح الحياة ، انه فصل الروح عن الجسد ! « انا أبعث حياً واعيش » .. ليس هو خلاص فقط ، نوم ، نسيان : بل اليقظة ، بل البزوغ ! الموت هو الولادة من جديد . انه البعث للحياة الجديدة في المعرفة الكلية ، في غبطة المختارين. الموت يا صديقي ليس فقط مكافأة المساء بعد نهار من العناء : انه ارتقاء في النور ، في فجر ابدي !

واتى تيبو ، وهو مطبق الجفون ، بحركة رضى مرة بعد مرة . وعلى وجهه تتوه ابتسامة . وبعض الساعات الماضية ، المتألقة قد استعيدت في الضوء ، فرأى نفسه صغيراً جداً ، رائعاً بقرب سرير امه ـ هذا السرير نفسه الذي يتمدد عليه الآن محتضراً ـ ضاماً يديه كطفل الى يدي امه ، تالياً في صباح مجيد من ايام الصيف هذه الصلوات الاولى التي كانت تفتح له السماء : « ايها المسيح الطيب الموجود في الجنة .. » ورأى نفسه وقد تناول القربان لأول مرة في

الكنيسة مرتجفاً من التأثر امام الذبيحة التي اقتربت منه لأول مرة .. ورأى نفسه ايضاً عريساً في صباح عيد العنصرة ، بعد القداس ، في الممشى المغروس بورود عود الصليب في حديقة دارنيتال .. كان يبتسم لتلك البرودة . ونسي جسده .

ليس فقط لم يعد يخشى الموت ، بل كان يقلقه في تلك الدقيقة ان عليه ان يعيش مهما كانت المدة قصيرة . لم يعد هواء الدنيا صالحاً للتنفس بالنسبة إليه . قليل من الصبر أيضاً وينتهي كل شيء . كان يبدو له انه وجد مركز ثقله الحقيقي ، وانه يشغل الآن قلب نفسه ، وانه أخيراً على سدّة ذاتيته . ونتج من ذلك راحة لم يعرفها أبداً . الا ان قواه كانت تبدو متفرقة ، مبعثرة ، وإذا صح القول مضطجعة حوله . وماذا يهم ؟ انه لا ينتمي إليها الآن . لقد كانت بقايا شخص من أحد الكواكب يشعر انه انفصل عنها نهائياً . ورؤية تفككك أكثر كمالاً وقريب كانت تسبب له النشوة الوحيدة التي يمكن انها لا تزال مقبولة.

وكانت الروح القدس تحوم . والكاهن قد نهض ، وأراد أن يشكر الله . وامتزج بفعله للغفران كبرياء بشرية ، سرور محام ربح الدعوى . وانتابه من ذلك راحة وجدان وتوبيخ ضمير معاً . ولكنها لم تكن اللحظة التي يعود فيها إلى نفسه : خاطىء يمثل أمام الله .

وحنى رأسه ، وضم يديه تحت ذقنه ، وأخذ يصلي بكل روحه بصوت مرتفع :

ـ اوه ! يا إلهي ، ها هي الساعة ! اني ساجدٌ أمامك يا رب ، يا رب الطيبة وأب الرحمة ، جئت أسألك آخر جميع المراحم . أوه ، يا إلهي ، ها هي الساعة . امنحني الموت في حبك .

من الأعماق ... من أعماق الظلمات ، من أعماق الهاوية حيث أرتجف من الرعب ، يا رب ، لقد ناديت ، وصرخت نحوك ... ها هي الساعة ! أنا على حافة أبديتك ، سأتأملك أخيراً وجهاً لوجه أيها الإله العظيم القدرة ! أنظر توبتي ، وتقبّل صلاتي ، ولا تلقني في قباحتي ! إلق نظرك علي ، كعفو !

اني أسلم نفسي إليك ، وأتضرع إليـــك . . ها هي الساعة ! يا أبي ، يا ابي لا تتركني .

وردد المحتضر كالصدى :

ـ لا تتركني .

وساد صمت طويل ، ثم انحنى الكاهن نحو السرير :

ـ سآتيك بالزيت المقدس غداً صباحاً . فاعترف هـــذا المساء يا صديقي لأستطيع أن أمنحك الغفران .

ومنذ أن حرك السيد تيبـو شفتيه المنتفختين وتلجلج بحمية لم تُعرف عنه أبداً ببعض العبارات التي كان مكان الخطأ فيها أقل من تعبـير توبته العنيف ، فان الكاهن انحنى نحوه ورفع يده وتمتم الكلام الذي يمحو :

ـ اني أحلك من كل ذنوبك باسم الأب والابن والروح القدس[1] ....

وكان المريض قد صمت . وظلت عيناه مفتوحتين ـ مفتوحتين كما لو انهما يجب أن يظلا دائماً هكذا ـ لا تكادان تتميزان باستفهام أو بدهشة ، وتشعان بثقة ساذجة تجعله فجأة يشبّه ذلك الرجل العجوز المحتضر بصورة جاك الصغير المعلق في الجدار فوق المصباح .

كان يشعر جيـداً بتمدد آخر الاربطة التي تمسك روحه في هذه الدنيـا . ولكنه كان يتذوق بلذة ذلـك الاستنزاف ، وتلـك الهشاشة . لم يكن سوى نسمة تتذبذب قبل أن تتلاشى . وتستمر الحياة بدونه كما يستمر النهر في جريانه بنظر السابح الذي يبلغ الضفة . وكان يجد نفسه ، ليس فقط خارج الحيـاة ، بل خارج الموت تقريباً ! كان يرتفع ، يرتفع في سمـــاء سابحة في النور الفائق الطبيعة كبعض سموات الصيف .

هناك من يطرق .

والكاهن الذي كان يصلي رسم اشارة الصليب وسار نحو الباب .

---

١ ـ باللاتينية في الأصل .

كانت هي الاخت سيلين ؛ يرافقها الطبيب الذي وصـــل حديثاً . وقال تيريفيه حين شاهد الكاهن :

– قم بعملك ، قم بعملك يا سيدي الاب .

فتطلع الكاهن الى الاخت سيلين وتمتم وقد انتحى جانباً :

– ادخل يا دكتور . لقد انتهيت .

وتقدم تيريفيه نحو مريضه . وظن ان من واجبه ان يتخذ هيئة واثقـــة ونبرة صديقة ككل يوم :

– وبعد ؟ ما عدا مما بدا هذا المساء ؟ نوبة صغيرة من الحمّى ؟ انها من تأثير المصل الجديد بالتأكيد .

وفرك يديه ، وجاست يده خلال لحيته ، واتخذ الراهبة كشاهد :

– سيعود انطوان حالاً ، فلا تقلق من شيء . سأخفف عنك .. هذا المصل كما ترى ..

كان السيد تيبو ثابت الحدقتين ، ينظر صامتاً الى هذا الرجل وهو يكذب

كانت صبيانية هذه العبارات التي أُخذ بها مرات كثيرة ، هذه الأقوال غير المسؤولة ، هـذه الصور الظاهرية كانت كلهـا شفافة بالنسبة اليه . كان يلمس الاقنعة باصبعه ، وأخيراً اظهر الى النور تلك المهزلة المشؤومة التي كانوا يمثلونها عليه منذ شهور . هل صحيح ان انطوان سيأتي ؟ مستحيل ان يصدق شيئاً .. وبعد، ماذا يهمه ؟ كل شيء اصبح متساوياً بالنسبة اليه : نهائياً ، أصبح متساوياً كلياً . حتى انه لم يكن يشعر بالدهشة لقراءته الكائنات بوضوح . كان الكون يؤلف كلاً ، غريباً مسدوداً سداً محكماً حيث لم يكن له ، هو الميت ، مكان . كان وحيداً ، وحيداً مع اللغز ، وحيداً مع الله . وحيداً الى درجة ان وجود الله نفسه لم يستطع التغلب على هذه الوحدة .

وانخفضت جفونه دون ان يلقي بالاً . لم يعـد يهتم بتمييز الواقع من الحلم . كان يسبح في سلام موسيقي . وتركهم يتفحصونه ، ويجسّونه دون أقل ملل ، عادم الحركة ، هادئاً غائباً – في مكان آخر .

٣

في عربة القطار التي أقلعت بهما إلى باريس ، وبعد ان امتنعا عن النوم بوقت طويل ، فان الاخوين ، وهما غائصان في زاويتيهما ، متخدران من جو المقصورة المظلم ، أصرّا على التظاهر بالنوم ليقيا وحدتهما ويمدداها .

ولم يستطع انطوان اغماض عينيه . فقلقه من ترك والده متألماً جداً قد انتعش من جديد منذ ان شعر انه على طريق العودة ، وطوال ساعات ، في الليل ، وفي قرقعة القطار ، أسلمه تعبه وأرقه ، دون مقاومة ، إلى أسوأ التخيلات . الا ان مخاوفه كانت تتبدد بقدر اقترابه من مريضه : بامكانه ، وهو في مكانه ، ان يتروى فيما يجب عمله ، ويعمل . وعندئذ تتحدد صعوبات أخرى . كيف يعلن للسيد تيبو عودة الهارب ؟ .. كيف ينبىء جيز ؟ .. والرسالة التي اقترح على نفسه ارسالها منذ اليوم إلى لندن لم تكن كتابتها سهلة : كان يجب اعلام جيز ان جاك حي ، وقد وُجد وعاد إلى باريس ، ومنع الفتاة من الاسراع .

ان بلبلة المسافرين الآخرين الذين يشخرون ، ويزيلون الغطاء عن المصابيح جعلت الاثنين يفتحان عيونهما . وتلاقت نظراتهما . كان وجه جاك مرتعشاً ، مستسلماً وقلقاً معاً بحيث شعر انطوان بالشفقة . وقال لامساً ركبة أخيه :

– نمت نوماً سيئاً ، أليس كذلك ؟

وبدون أن يحاول جاك الابتسام ، رفع كتفيه بلا مبالاة ، ثم أدار جبهته نحو الزجاج والتجأ إلى صمت غاف بدا على الأثر انه لا يريد ولا يستطيع الخروج منه . الفطور في العربة ـ المطعم بينما كان القطار يجتاز الضاحية الكبرى التي لا تزال غارقة في الظلمات ؛ التوقف ، الهبوط على الرصيف في برد الليل المنتهي ؛ والخطوات القليلة خارج المحطة منقاداً لأنطوان الذي كان يبحث عن سيارة أجرة ؛ كل هذه الأعمال التي تكاد لا تكون واقعية ، والغارقة في الضباب الليلي ، تتتابع بالنسبة إليه مع طابع ضرورة كان يعفيه من كل

رضى بها .

وكان انطوان يتكلم قليلاً ، بالقدر الذي يجنبه القلق . ولكنه كمن يحدث شخصاً خارج المشهد وبطريقة لا يحتاج جـــاك فيها إلى أن يجيب ، كان يدير الحركة بكثير من الطلاقة ، بحيث بدت هذه العودة كأنها الشيء الأقل خرقاً للعادة . ووجد جاك نفسه على رصيف شارع الجامعة ، ثم في دهليز الطابق الأرضي دون أن يعي شيئاً بوضوح ، حتى ولا جموده .

وحين اسرع ليون على الضجة وفتح باب المطبخ ، كان ذلك بجنـــان ثابت طبيعي ، بحيث ان انطوان ، وقد تجنب نظرة الخادم، انحنى على الطاولة حيث تكوم البريد ، وقال بصوت ذاهل :

ـ صباح الخير يا ليون . لقد عاد السيد جاك معي . ويجب ..

لكن ليون قطع كلامه :

ـ السيد لا يعرف ؟ السيد لم يصعد بعد ؟

فانتصب انطوان وقد شحب وجهه .

ـ .. حالة السيدتيبو سيئة جداً .. وقد قضى الدكتور تيريفيه الليل .. والخادمات يقلن ..

كان انطوان قد اجتاز الباب . وظل جاك واقفاً في وسط الدهليز : لقد ازداد تأثير الوهم ، الكابوس . وتردد لحظة ثم اندفع وراء اخيه .

وكان الدرج مظلماً .

وهمس انطوان وهو يدفع جاك الى المصعد : بسرعة .

قرقعة حاجز القضبان الحديدية ، وفتح المصاريع الزجاجية ، والصوت الذي يحدثه سير المصعد ، كل هذه الجلبات المعروفة ـ المتتابعة دائمـــاً بنفس النظام ، والتي نفذت اليه واحدة واحدة بعد قرن من النسيان ـ جعلت جاك يغوص في الماضي. وفجأة ، تذكار معين ، مؤلم : ذلك الاعتقال في ذلك القفص الزجاجي بجانب انطوان ، تلك الخطفة الصامتة : العودة من مرسيليـــا بعد الهرب مع دانيال !

وتمتم انطوان : انتظرني على سطح الدرج .

لقد احبطت الصدف كل حيطة . فالمدموازيل دي ويز الــــتي كانت تقفز بخطى قصيرة ، دون راحة ، في الشقة من طرف الى آخــر ، سمعت وقوف المصعد . اخيراً انطوان ! فركضت بالسرعة التي يسمح لها بها ظهرها المقوس . ورأت اربعة سيقان فتوقفت مندهشة ولم تعرف جاك الا حين انحنى ليصافحها. وقالت بنبرة مجاملة : ياللرب الطيب !

(كانت تعيش منذ اول البارحة في اضطراب لا يمكن ان تزيد من خطورته كل زيادة غير منتظرة) .

كانت الشقة مضاءة ؛ والابواب مفتوحة . وعلى عتبة المكتب يبرز وجه السيد شاسل المضطرب ؛ فتفحص جاك بفضول ، ورفت اهدابه وقذف عبارته التي لا تتغير :

ـ آه ! اهذا انت ؟

وفكر انطوان رغماً عنه : « كان الظرف كافياً لهذه المرة » ، وقد اسرع وحده نحو الغرفة دون ان يهتم بأخيه .

وهناك كان كل شيء مظلماً ، صامتاً.فدفع الباب المشقوق ، ولم ير اولاً سوى ضوء القنديل الصغير ، ثم وجه ابيه على الوسادة . ورغم العينين المطبقتين والجمود فليس هناك شك : انه حي .

ودخل . ومنذ ان خطا خطوة في الغرفة شاهد حوله تيريفيه ، والاخت سيلين ، وادريان وراهبة جديدة مسنة لم يكن يعرفها ، واقفين كأن شيئاً قد حدث .

وانفصل تيريفيه عن الظل واقترب من انطوان وسار به الى غرفة الزينة . وقال بعجلة :

ـ كنت خائفاً ألا تعود في الوقت المناسب . فالكِلية قد سُدّت يا صديقي ، انها لا ترشح أبداً . . . ومن سوء الحظ فان التسمم اتخذ شكلاً مصحوباً بتشنج . وقد قضيت الليل هنا حتى لا أترك النساء وحدهن ؛ ولكني كنّت مستعداً

لأن أرسل في طلب ممرض لولم تأت . وقد أصابته ثلاث نوبات هذه الليلة ، وكانت الأخيرة شديدة .

ـ منذ متى توقفت الكلية عن ....

ـ منذ أربع وعشرين ساعة . منذ صباح البارحة على الأقل فطنت الراهبة إلى ذلك . ومن الطبيعي انها ألغت الحقن .

فقال انطوان هازاً رأسه : نعم .

وتطلعا ببعضها البعض . وكان تيريفيه يقرأ بوضوح ما يفكر به انطوان : « حين قبلنا ، طوال شهرين متتاليين ان نحشو بالسم مريضاً ليس له سوى كلية واحدة ، فهذا يعني تقريباً الانصياع إلى وسواس متأخر عن .... » ومد جبهته وأبعد ذراعيه .

ـ مهما كان الأمر يا صديقي ، فليس هناك قتلة .... في التسمم البولي يستحيل الاستمرار بالمورفين !

ووافق انطوان دون ان يجيب ، فقال تيريفيه عندئذ :

ـ اني ذاهب . وسوف اتكلم بالهاتف عند الظهر . ـ ثم فجأة : ـ وأخوك ؟

فتألق وميض في حدقتي انطوان المذهبتين ، وخفض جفونه ورفعها ، وقال بابتسامة سريعة :

ـ لقد جئت به ، انه هنا .

فأدخل تيريفيه يده السمينة في لحيته وحدّقت نظرته الحادة المرحة بأنطوان ، ولكن ليس الزمان ولا المكان ملائمين لإلقاء الأسئلة . إلا ان الأخت سيلين دخلت تحمل بلوزة لانطوان . ونظر تيريفيه إلى الراهبة ، ثم إلى صديقه ، وقال دون تحفظ :

ـ هيا ، اني اتركك . سيكون النهار قاسياً .

وقطب انطوان حاجبيه ، وقال موجهاً الكلام الى الراهبة .

ـ سوف يتعذب بشكل هائل بدون المورفين .

ـ لقد وضعت له رفادات ساخنة جداً .. لصقات خردل . ـ وحين بدا انطوان مشككاً : ـ هذا يخفف عنه قليلاً رغم كل شيء .

ـ ضعي لودانوم على رفاداتك على الاقل . كلا ؟

كان يعلم جيداً انه بدون المورفين .. ولكنه لا يعترف انه أصبح منزوع السلاح ، فقال للراهبة :

ـ عندي ، تحت ، كل ما يلزم . سأعود .

ودفع تيريفيه نحو الباب قائلاً : سر .

وفكر وهو يجتاز الشقة : « ماذا صار بجاك ؟ » ولكن وقته لا يتسع للاهتمام بأخيه .

وهبط الطبيبان الدرج بسرعة دون كلمة . وعلى الدرجات الاخيرة التفت تيريفيه ومد يده ، فأخذها انطوان وسأل فجأة ؟

ـ قل لي يا تيريفيه .. بصراحة . ماذا تتوقع ؟ الا يجب ان يتم الامر الآن بسرعة ؟

ـ بالتأكيد ، اذا استمر التسمم البولي .

فأجاب انطوان بضغطة يدٍ شديدة . نعم ، فقد شعر انه صبور ، شجاع . ولم تكن سوى قضية ساعات .. وجاك قد وُجد ..

وفي الغرفة ، فوق ، فان ادريان والراهبة المسنة الباقيتين وحدهما بجانب سرير السيد تيبو لم يفطنا الى نوبة في دور التأهب . وحين استلفت انتباههما لهاث المريض كانت القبضتان تتشنجان ، والرقبة متصلبة سحبت الرأس الى الوراء .

وقفزت ادريان إلى الرواق :

ـ ايتها الاخت !

لا أحد . فركضت حتى الدهليز :

ـ ايتها الاخت سيلين ! يا سيد انطوان ! بسرعة !

وسمع جاك من المكتب الذي كان موجوداً فيه مع السيد شاسل فأسرع راكضاً دون تفكير ، نحو الغرفة .

كان الباب مفتوحاً ، فاصطدم بكرسي . لم يكن يرى شيئاً . جمهور كان يتحرك في النور . واخيراً ميز كتلة ساقطة على السرير ، وذراعين يضربان الهواء . كان المريض قد انزلق حتى حافة الفراش ؛ وكانت ادريان والحارسة تحاولان رفعه عبثاً . فأسرع جاك ووضع ركبة على الاغطية وأمسك والده من وسط جسده وتوصل الى رفع النصف الاعلى ، ثم إلى وضعه من جديد على الوسائد : وأحس على جسده بهذا الجسد الحار ، وبلهاثه ؛ ورأى منقلباً تحته ذلك الوجه ذا العينين البيضاوين ، بدون احداق ، وكان ينظر اليه من قريب ولا يكاد يعرفه ؛ وظل هناك ، منحنياً ، مجمداً بين ذراعيه هذا الجسد الذي تهزه التشنجات .

وكانت الحركات العصبية قد خفت ، وعادت الدورةالدموية الى دورانها ، والحدقتان تعومان زائفتين ، وتظهران من جديد ، وتحدقان . والمريض ، بعينيه اللتين دبت فيهما الحياة ، بدا انه اكتشف شيئاً فشيئاً ذلك الوجه الفتي المنحني فوق وجهه . هل عرف الوجه الضائع ؟ واذا كان لديه هذا البريق من الوضوح فهل لا يزال يستطيع التمييز بين الواقع وهذه الرؤى غير المتلاحمة التي تعمر هذيانه ؟ شفتاه تتحركان ، والحدقتان اتسعتا . وفجأة ، في تلك العين العابسة وجد جاك ثانية تذكاراً معيناً : في السابق ، حين كان والده يبحث عن تاريخ منسي ، عن اسم ، فان نظرته كانت تتخذ هذا التعبير المنتبه المبهم ، وذلك المظهر الزائغ .

وكان جاك منتصباً على رسغيه ، منقبض الحنجرة ، فتمتم آلياً :

– وبعد ، يا ابي ؟ وبعد ؟ كيف حالك يا ابي ؟

فانخفضت جفون السيد تيبو ببطء ، وحركت شفته السفلى ولحيته رجفة لا تكاد ترى ؛ ثم هزة اكثر قوة هزت الوجه والكتفين والجذع ؛ كان يبكي . ومن فمه المرتخي تفلّت صوت يشبه صوت زجاجة فارغة غطست في الماء . بلو ، بلو ، بلو . . ومدت الراهبة المسنة يدها لتمسح الذقن بشيء من القطن . ولم يجرؤ جاك على القيام بأية حركة ، وعيناه معميتان بالدموع ، وظل منحنياً على هذه

الحركة المتموجة ، وردد بصوت بليد :

— وبعد يا ابي .. كيف الحال ؟ ها ؟ كيف حالك يا ابي ؟

وانطوان الذي دخل تتبعه الاخت سيلين ، توقف لمشاهدة اخيه . لم يفهم ما جرى . الا انه لم يحاول ان يفهم . كان يمسك بيده قدحاً مرقماً حسب الدرجات ، نصف ملآن . وكانت الراهبة تحمل طستاً ، ومناشف .

ونهض جاك . وأبعدوه . وأمسكوا بالمريض ، ورفعوا الاغطية . فتراجع من داخل الغرفة ، ولم ينتبه اليه احد . ايبقى ، وينظر ، ويتألم ، ويسمع ، ويصرخ ؟ كلا .. وبلغ الباب ؛ وما ان اجتاز العتبة حتى شعر انه نجا.

كان الرواق مظلماً . إلى اين يسير ؟ ... ألى غرفة الشغل ؟ لقد استطاب قبلاً انفراده بالسيد شاسل الذي كان مغروساً على كرسيه ، مستدير الكتفين ، ويداه على ركبتيه ، يبتسم للملائكة ويبدو انه ينتظر رصاصة الرحمة . وكانت المدموازيل لا تزال كثيرة السخط : منطوية إلى نصفين ، وانفها في الأرض ، تترقب الضوضاء ، وكانت تسير تائهة من غرفة إلى غرفة ككلب ضائع ، ناقلة خطاها إلى كل ما هو بمتناولها : لقد توصلت إلى أن تزحم بشخصها الصغير كل هذه الشقة المقفرة .

غرفة واحدة ظلت مقفلة وتقدم ملجأ : غرفة جيز ، ولكن ماذا يهم ؟ .. فجيز في انكلترا .

والتجأ جاك إليها على رؤوس أصابعه ودفع المزلاج .

وشعر حالاً بالتهدئة . انه وحده اخيراً ، بعد يوم وليلة من المضايقة التي لا تنقطع ! كانت الغرفة باردة . والكهرباء لا تضيء . ولا يكاد نهار كانون الأول المتأخر يُدرَك من بين صفائح مصاريع الأبواب ، ولم يشرك ذكرى جيز بهذا المأوى المظلم ... واصطدم بكرسي ، وجلس وصالب ذراعيه بحركة مهتاجة . وظل هناك متكوماً على نفسه ، غير مفكر بشيء .

وحين استعاد صوابه ، كان النهار لا يزال يظهر من خلال الستائر ، حيث عرف فجأة المشجّرات الزرقاء ، باريس ... جيز ... لقد انبجست زينة

منسية حوله ، أثناء نومه ، وتطلّع . كل متاع من هذه الأمتعة كان قد لمسه قبلاً بيديه – في حياة سابقة ... وصورته ماذا حل بها ؟.. على الجدار مستطيل أكثر وضوحاً تعلقت فيه صورة انطوان . هل رفعتها جـيز اذن ؟ .. بدافع الحزن ؟ .. كلا ! .. لتأخذها معها ! لتأخذها إلى انكلترا ، وهذا طبيعي . آه ! هل سيبدأ كل شيء من جديد ؟ هز كتفيه كحيوان في شبكة ، تزيد كل قفزة من شربكته . جيز في انكلترا . من حسن الحظ ! وفجأة كرهها . ما ان يفكر بها حتى يشعر حالاً انه قد نقص .

كان شديد الرغبة في كبح جماح ذكرياته بحيث نهض بوثبة ليهرب من هذه الغرفة ، ولكنه نسي والده ، وذلك الاحتضار ... هنا على الأقل لا يصطدم بسوى خيال : انها العزلة تقريباً. وعاد إلى وسط الغرفة وجلس بقرب الطاولة. كان خط جيز قد ترك آثاراً على ورقة النشّاف : حبرها بنفسجي.. واضطرب ، وحاول لحظة ان يحل رموز هذه الإشارات المقلوبة . ثم دفع القرطاس ، وامتلأت عيناه بالدموع من جديد آه ! النسيان ، النوم ! صالب ذراعيه على الطاولة وخفض رأسه . لوزان . أصدقاؤه ، وحدته ... العودة بأسرع ما يمكن ، العودة ، العودة ...

وهناك من كان يجرب فتح الباب انتشله من نعاسه .

كان انطوان يبحث عنه . وقد دقت ساعة الظهر منذ وقت طويل ويجب اغتنام فرصة الهدوء الوقتي لتناول شيء من الطعام .

ووضعت لوازم مائدة لشخصين في غرفة الطعام . وكانت المدموازيل قد أرسلت السيد شاسل ليأكل في بيته . أما هي، فلديها « أمور كثيرة تفكر بها » لتستطيع الجلوس إلى المائدة .

لم يكن جاك جائعاً . أما انطوان فالتهم طعامه صامتاً . وكانا يتجنبان النظر إلى بعضهما البعض . منذ كم من الوقت لم يجلسا إلى المائدة ، الواحد مواجه للآخر ؟.. كانت الحوادث تتسارع دون أن تترك لهما فرصة للتأثر .

وسأل انطوان :

ـ هل عرفك ؟

ـ لا أعلم .

وبعد صمت جديد ، أبعد جاك صحنه ورفع رأسه :

ـ اوضح لي يا انطوان .. ماذا يمكن ان نتوقع ؟ ماذا سيحدث ؟

ـ ايه .. ها قـــد مضت ست وثلاثون ساعة والمصفاة الكلوية لا تعمل ! وانت تفهم !

ـ نعم ، اذن ؟

ـ اذن ، اذا لم يوقف التسمم شيء .. هذا صعب ايضاحه ، ولكني اعتقد انه في الغد . وربما هذه الليلة نفسها .

فكبح جاك آهة راحة .

ـ والآلام ؟

ـ اوه ! هذه !

قال انطوان ذلك ودكنت جبهته . ولزم الصمت بسبب المدموازيل الـــتي حملت القهوة بنفسها . وحين اضطرت الى الاقتراب من جاك لتملأ فنجانه اخذ اناء القهوة يرتجف بشدة مما اضطر جاك الى اخذه من يديها . ان منظر هذه الاصابع المعروقة المصفرة ، التي يظل كثير من ذكريات الطفولة متعلقاً بها ، قد نفخت قلبه فجأة ، فجرب ان يبتسم للعجوز الصغيرة ، ولم يتوصل إلى ذلك ، ولا الى الانحناء ليلتقي بنظرها . لقد رضيت دون اي سؤال بعودة « جاكها » ولكنها بكت موته طوال ثلاث سنوات . ومنذ ان عاد لم تكن قـــد صممت بعد على رفع عينيها نحو هذا الشبح .

وتابع انطوان حين اصبحا وحيدين من جديد :

ـ الآلام . يجب ان نتوقع زيادة حدتها ، وعلى العموم فان التسمم البولي يحدث زوالاً متزايداً للاحساس ، وموتاً هادئاً . ولكن حين يأخذ هذا الشكل التشنجي ..

فسأل جاك :

ـ لماذا ُمنع المورفين اذن ؟
ـ لأنه لا يمنع شيئاً . وهذا سيقتله بالتأكيد .
وفتح الباب كما بهبة ريح . وظهر وجه الوصيفة المشدوه واختفى . وبذلت جهداً لتنادي ، ولكن لم يخرج من فمها اي صوت .
واندفع انطوان وراءها يرفعه امل لاارادي كان يشعر به . وترك جاك مكانه . ولامسه نفس الامل . فتردد لحظة ثم تبع اخاه .
كلا : لم تكن هي النهاية . كانت فقط نوبة جديـــدة ، ولكنها مباغتة وشديدة جداً .
كان الفكـّان مضمومين بقوة بحيث سمع جاك من الباب صرير الاسنان . وكان الوجه ارجوانياً والعينان مقلوبتين . وفي التنفس اختلال ، وانقطاعات كانت تبدو انها لن تنتهي ، وحياة جاك اثناءها معلقة ، فيلتفت نحو اخيه دون ان يستطيع ، هـــو نفسه، استعادة انفاسه. وكان تصلب الاعضاء بشكل ٍ لم يكن الجسد المتصلب فيه يمس الفراش الا في العقبين والقذال ؛ وفضلاً عن ذلك ، فمن دقيقة الى اخرى كان يزداد تقوسه ؛ وحين يتوصل التوتر العضلي الى ذروة قوته فأنه يتجمد بنوع من التوازن المتذبذب الذي يوضح منتهى الجهد .
وقال انطوان :
ـ قليل من الاثير .
وبدا صوته لجاك هادئا بشكل غير عادي .
وتطورت النوبة . زمجرة تزداد اكثر فأكثر ، كانت تتفلت بهزات ، من الفم الملتوي ، واخذ الرأس يتقلب يميناً وشمالاً : حركة غير منتظمة استولـــت على جميع الاعضاء . وصاح انطوان :
ـ امسك الذراع .
وأمسك هو بالمعصم الآخر بينما كانت الراهبة تحاول امساك الساقين اللذين كانا يهتزان وينزعان الاغطية .
وامتد الصراع بضع دقائق . ثم خف عنف التشنجـــات ، وتباعدت

الحركات الصرعية ، وكفّ الرأس عن الاهتزاز ، وارتخى الساقان ، وتمدد الجسد مهزوماً .

عندئذ عاد الانين من جديد :

— اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا ! لا !

واراح جاك الذراع الذي كان ممسكا به على السرير وفطن الى ان اصابعه كانت تطبع عليه اشارات . وكان كم قميصه ممزقاً، وينقصه زر من طوق الرقبة. ولم يستطع جاك ان يفصل عينيه عن تينك الشفتين الرخوتين المبللتين اللتين تتفلت منها الشكوى نفسها بإصرار : « اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا!لا!» وفجأة. التأثر ، الغداء الذي لم يكمل ، بخار الاثير . فاضطرب قلبه . واراد ان يتمالك ويقف : فشعر بشحوب لونه . ولم تكد قوته تجعله يبلغ الباب وهو يترنح .

والاخت سيلين التي بدأت بترتيب السرير بمساعدة الراهبة المسنة ، التفتت فجأة نحو انطوان . كانت تمسك الشرشف مرفوعاً ، هناك بقعة كبيرة في المكان الذي ينتفض فيه المريض كانت تنتشر مصبوغة بالدم صبغة خفيفة . ولم يقم انطوان بحركة . ولكنه ابتعد عن السرير بعد قليل وجاء يستند الى المدخنة . فالكلية ، بعد ان عادت الى وظيفتها علقت مفعول التسمم ، ولكن الى متى ؟ من الراهن ان الاجل ظل محتوماً ، ولكنه تراجع،وربما لعدة ايام .. وانتصب. لم يكن يقبل التريث بسبب التأكيدات غير المشجعة . اذن فالصراع سيصبح اطول مما توقع . ماذا يمكن ان يعمل له ؟ وكلما طال الصراع يصبح من المهم التنظيم بشكل افضل . قبل كل شيء الاقتصاد في القوى المهيأة . وتقرير مناوبة منظمة بجانب المحتضر من فرقتين ترتاحان بالدور . والإتيان بليون كمَدَد. وهو ، انطوان ، سوف يكون مع الفرقتين ! لم يكن يريد الابتعاد عن الغرفة . ومن حسن الحظ انه كان حراً لبضعة ايام قبل ان يذهب الى سويسرا . واذاعرضت لزبائنه حالة ضرّورية فسيرسل تيريفيه . — وماذا ايضاً ؟ — إعلام فيليب . التكلم بالهاتف مع المستشفى . — وبعد ؟ — كان يشعر انه نسي شيئاً هاماً . (علامة التعب ؛ اعداد شاي بارد) . آه ! جيز بالتأكيد ! يكتب الى جيز

قبل هذا المساء . من حسن الحظ ان المدموازيل العجوز لم تتكلم بعد عن الإتيان بابنة اخيها .

ظل واقفاً امام الموقد ويداه على الحافة الرخامية ، مقدماً رجله بحركة آلية ، ثم الاخرى ، الى النار . التنظيم هو العمل . لقد استعاد رباطة جأشه .

في داخل الغرفة كان السيد تيبو ، المتروك لآلامــه ، يزداد انينه ويشتد . والراهبتان جالستان . ليغتنم فرصة هذه الاستراحة ويتكلم بالهاتف .. وكان على وشك الخروج حين غير رأيه وجاء يفحص المريض عن قرب . هذا اللهاث، هذا الاحمرار المتزايد في الوجه .. أنوبة جديدة الآن ؟ اين اصبح جاك ؟

وعلى الأثر سمعت تمتمة اصوات في الرواق ، وفتح الباب . ودخل الاب فيكار مصحوباً بجاك . ولاحظ انطوان هيئة اخيه المضطربة ، بينما كانت العينان تلمعان في وجه الكاهن الذي لا يبدو عليه اي اثر . ولكن انين السيد تيبو تسارع ؛ وفجأة ، مد ذراعيه امامه ، وتقلصت اصابعه محدثة صوتــاً كصوت جوزة كسرت .

— جاك .

قال انطوان ماداً يده نحو زجاجة الاثير .

وتردد الكاهن ، ورسم اشارة الصليب ، وتوارى دون ضجة .

٤

المساء كله ، والليل كله ، وصباح الغد كله ، كانت الفرقتان اللتان نظمهما انطوان تتناوبان دون انقطاع ، كل ثلاث ساعات ، بجانب سرير السيد تيبو . وكانت الفرقة الاولى مؤلفة من جاك والوصيفة والراهبة المسنة ؛ والثانية من الاخت سيلين وليون وكلوتيلد الطاهية . ولم يكن انطوان قد نال اي راحة .

وتكاثرت النوبات ، وكانت تثور بكثير من العنف حتى ان اولئك الساهرين على المريض كانوا بعد كل نوبة يجلسون مبهوري الانفاس مثله ، وينظرون اليه وهو يتألم دون ان يفعلوا شيئاً . لا يمكن عمــل اي شيء . واستأنفت الآلام

العصبية عملها اثناء فترة التشنجات ؛ واصبحت كل نقطة في الجسد تقريباً مركز ألم . وبين نوبة واخرى لم يكن سوى صياح . كان دماغ البائس قد ضعف كثيراً فلا يعي ما يحدث ؛ وكان يهذي بوضوح بين لحظة واخرى ؛ ولكن حساسيته ظلت حية ولم ينقطع عن الحركات والاشارة الى الاماكن التي ينتقل اليها الالم . ودهش انطوان من القوة التي يتمتع بها هذا الهرم الذي يلازم الفراش منذ شهور . والراهبتان المتمرستان بجميع مشاهـــد المرض ظلتا مضطربتين . وكانتا تأتيان عدة مرات بالساعة تتأكدان من جفاف السرير ومن ان الكلية لم تستعد وظيفتها منذ اربع وعشرين ساعة ، وهما مقتنعتان ان التسمم البولي وحده هو سبب هذه المقاومة غير العادية .

ومنذ اليوم الاول كانت حارسة البناية قد جاءت تطلب اذا كان بالامكان ليس اغلاق النوافذ فقط ، بل المصاريع ايضاً لأجل خنق جلبة الانين التي ترن في الساحة وتملأ البناية بالرعب . والمستأجرة في الطابق الثالث ، وهي امـــرأة شابة حبلى تقع غرفتها فوق غرفة المحتضر ، قد ازعجتها هذه الصرخات واضطرت في منتصف الليل ان تذهب وتلجأ الى بيت اهلها . ولهذا كانوا يبقون جميع الفتحات مقفلة ، والغرفة لم تكن مضاءة بسوى قنديل السرير . والعفونات المنتشرة في الغرفة اصبح استنشاقها صعباً ، رغم نار الحطب الـــتي تشتعل دون انقطاع لأجل التهوية . وفي اغلب الاحيان ، فان جاك الذي خدره هذا الهواء الفاسد ، والضوء القليل ، وأنهكه التأثر الذي ابقاه لاهثاً منـــذ ثلاثة ايام ، كان ينام ربع دقيقة ، وهو واقف مرفوع اليد ، ثم يستيقظ مرتجفاً ، ويكمل الحركة التي قطعت .

وفي الساعات التي كان يستطيع الافلات ؛ كان يهبط الى شقة انطوان التي استعار مفتاحها ، حيث يكون واثقاً من انه وحيد . وكان يسرع ويختبىء في غرفته القديمة ، ويرتمي بملابسه على كنبته ـ السرير ، ولكن دون ان يستطيع ايجاد الراحة عليها . وكان من خلال ستار النافذة يرى دوران رقاقات الثلج التي كانت تخفي عنه واجهات البيوت وتلبد اصداء الشارع . وعندئذ كان يستعيد في

ذهنه صورة لوزان ، وزقاق الادراج ، وبنسيون كامرزين، وصوفي، والاصدقاء. كان كل شيء يختلط : الحاضر والذكريات ، وثلج باريس ، وفصول الشتاء هناك ، وحرارة تلك الغرفة ، وحرارة وجاقه الصغير السويسري ، ورائحة الأثير التي ظلت في ملابسه ، والعطر الصمغي لخشبية ارض غرفته من الصنوبر الاشقر .. ونهض ليغير الملجأ ، وسار نحو غرفة انطوان ، وكان منهوكاً من التعب فسقط على كنبة ، متقززاً كما لو انه انتظر طويلاً على غير طائل ، مع شعور بالرغبة العقيمة وعدم الاستقرار ، ومع الشعور بان كل شيء ، وفي كل مكان ، كان غريباً عنه بشكل لا دواء له .

ابتداءً من وقت الظهر بدأت النوبات تتلاحق دون مهادنة وكانت الخطورة ظاهرة . وحين جاء جاك مع فرقته ليأخذ دوره في الحراسة دهش من التغير الحاصل منذ الصباح : الالتواء الدائم غير المنتظم لعضلات الوجه ، وخصوصاً التورم الناتج عن التسمم ، قد نقلا جميع القسمات من اماكنها وجعلا وجه المحتضر يكاد لا يُعرف .

وكان بود جاك ان يسأل اخاه ، ولكن العنايات المستمرة كانت تستدعي انتباههما المزدوج . ومع ذلك ، ففي حالة الخمود الناتجة عن تعبه كانت ترجمة افكاره الى عبارات مفهومة تشكل عنده جهداً حقيقياً . وبين لحظة واخرى ، بين نوبتين ، وهو واله من الشفقة امام هذا الالم الذي لا ينقطع ، كان يرفع نحو اخيه نظرة ملأى بالاستفهام ، ولكن انطوان كان يصر على اسنانه ويدير عينيه .

بعد ليلة من التشنجات ذات العنف المتزايد ، فان جاك المنهوك ، ذا الجبهة المبللة بالعرق ، اصبح عرضة للهياج فسار رأساً نحو اخيه ، وامسك بذراعه وقاده الى داخل الغرفة :

ـ هذا لا يمكن ان يستمر يا انطوان !

كانت نبرته تهتز بالتوبيخ . فلفت انطوان رأسه وحرك كتفه حركة عجز . وتابع جاك وهو يهز ذراع اخيه :

ـ ولكن حاول ! يجب التخفيف عنه ! يجب إيجاد شيء ! يجب ذلك .

فرفع انطوان حاجبيه بهيئة استخفاف ، وتطلع إلى المريض الذي كان يصرخ صراخاً طويلاً . ماذا يحاول ؟ حمام ؟ من المؤكد ان الفكرة خطرت له عدة مرات . هل هي ممكنة التحقيق ؟ كانت غرفة الحمام في الطرف الآخر من الشقة بالقرب من المطبخ ، في نهاية رواق ضيق ينعطف بزاوية قائمة . انها محاولة مخيفة .. ومع ذلك ..

في بضع ثوان وازن بين حسنات الفكرة وسيئاتها . واتخذ قراره . وكان في رأسه مخطط قد اصبح جاهزاً . يجب الاستفادة من فترات الضعف التي تلي كل نوبة وتدوم ثلاث او اربع دقائق . ولاجل ذلك يجب ان يكون كل شيء قد نُظم مسبقاً .

ورفع رأسه :

ـ ايتها الاخت ، اتركي كل هـذا ونادي ليون والاخت سيلين . ولتجلب شرشفين اثنين . وانت يا ادريان اذهبي وأعدي حماماً ساخناً . ٣٨ درجة . مفهوم ؟ وستظلين هناك لتبقي الماء بدرجة ٣٨ الى ان نصل ، ثم قولي لكلوتيلد ان تضع مناشف في الفرن وان تملأ المدفأة بالجمر . هيا بسرعة .

والاخت سيلين وليون اللذان كانا يرتاحان جاءا على الوقت تماماً ليأخذا مكان ادريان بجانب السرير . وكانت قد بدأت نوبة جديدة ، قوية جـداً ، ولكنها قصيرة .

وما ان انتهت وتلا التنفس القصير الحشرجة التي ترافق الآن فترات الحركات الكثيرة ، حتى شمل انطوان مساعديه بنظرة سريعة وقال :

ـ هذه هي اللحظة المناسبة .

وأضاف قائلاً لجاك :

ـ يجب الا نتعجل ، على ان لا نُضيّع اية ثانية .

وكانت الراهبتان قد نزعتا حاشية السرير . وارتفعت من الشراشف سحابة من البودرة وانتشرت رائحة اللحم الطري في الغرفة . وقال انطوان :

ـ لننزع عنه ثيابه بسرعة .ليون، ضع حطبتين في النار بعد قليل .

وكان المريض يئن :

ـ اوه ! لا ! لا ! اوه ! لا ! لا !

كانت قروحه تمتد كل يوم ويزداد تقعرها : عظما الكتف ، موضع الداء ، العقبان ، لم تكن سوى جروح سوداء تلتصق بالثياب الداخلية رغم البودرة والضمادات . وقال انطوان :

ـ انتظروا .

واخذ سكيناً صغيرة وشق القميص طولاً . وعند أزيز الشفرة في القماش لم يستطع جاك ان يتمالك من الارتعاش .

وظهر الجسد بكامله .

كان ضخماً ، رخواً ، ابيض . وكان يبعث على الشعور انه متورم وكثير الهزال معاً. وكانت اليدان تتدليان كقفازي ملاكمة في طرف ذراعين عظميين. والساقان الطويلان بشكل غير قياسي يشبهان عظمين أشعرين . وهناك رقعة من الوبر الطويل الاشهب ظهرت بين الثديين ؛ وأخرى تغطي عضوه الجنسي الى النصف .

ولفت جاك عينيه . لقد اضطر عدة مرات فيما بعد ان يتذكر هذه اللحظة والفكرة الغريبة التي كانت تهاجمه ، لرؤيته اول مرة ، في عريه ، هذا الرجل الذي كان سبب وجوده . ثم ، بسرعة البرق ، رأى نفسه في تونس ، ودفتر الربورتاج في يده ، امام جسد آخر ، عار مثله ، منتفخ وأشيب مثله ، جسد ايطالي هرم، عملاق غير محتشم، وجدوه مشنوقاً وممدوه في الخارج في الشمس. كان جميع الاطفال المختلفي الانواع من الشوارع المجاورة يثبون حوله ويصوئن . ورأى جاك ابنة المنتحر ، طفلة تقريباً ، تجتاز الساحة باكية ، وتطرد الاولاد بالرفسات وتنشر على الجثة ملء ذراعيها من العشب اليابس . ربما بدافع الحياء

او بسبب الذباب .

ونفخ انطوان :

– دورك يا جاك .

كان المقصود إمرار اليد تحت المريض لإمساك طرف شرشف نجح انطوان والراهبة في إمراره تحت الحقوين .

واطاع جاك . وفجأة ، فان الاحتكاك بهذه الرطوبه قلب كيانه الى درجة انه اثار في نفسه حركة غيظ غير منتظرة – تأثر جسدي ، عاطفة مشوبة تتجاوز الرأفة والمحبة بكثير : الحنو الاناني عند رجل لرجل آخر .

وامر انطوان :

– في وسط الشرشف . حسناً . ليس بقوة . شدّ ياليون من هنا . ارفع الوسادة الآن . وانت ايتها الاخت ، ارفعي الساقين . قليلاً ايضاً . انتبهي للقروح . امسك يا جاك زاوية الشرشف عند الرأس ؛ وأنا سآخذ الاخرى . الاخت سيلين وليون يمسكان بزوايا الساقين . انتهينا ؟ حسناً لنجرب اولاً لكي نرى . واحد ، اثنان !

وتمدد الشرشف ، وقد سحب بقوة من الزوايا الابع ،رافعاً الجسد فوق الفراش، ولكن بجهد كبير .

– حسناً .

قال انطوان بسرور تقريباً . وشعر الجميع بنفس السرور في العمل . وتوجه انطوان بالكلام الى الراهبة العحوز :

– ايتها الاخت ، ضعي عليه الغطاء الصوفي . ثم سيري امامنا : ستفتحين الابواب . أمستعدون ؟ هيا بنا .

وتحرك الموكب بتثاقل ، ودخل في الرواق الضيق . وكان المريض يصيح . وظهر وجه السيّد شاسل لحظة في اطار فرجة المكتب .

وتابع انطوان بصوت متضايق :

– اخفضوا قليلاً عند القدمين . هنا .. أيجب ان نقف ؟ كلا ؟ اذن الى

الامام . إحذر . تكاد تعلق في مفتاح خزانة الحائط . تشجع . نكاد نصل . انتبه للمنعطف .

وشاهد من بعيد المدموازيل والخادمتين يزحمن غرفة الحمام فصرخ :

ـ هيا ، اذهبن من هناك . يكفي خمسة . انتما ، يا ادريان ويا كلوتيلد ، اغتنما الفرصة لترتيب السرير ، بحّراه. جاء دورنا الان. المرور بالباب بانحراف. حسناً . لا تضعوه على البلاط ، ارفعوا ، ارفعوا ايضاً ! يجب الوصول الى فوق المغطس . ثم يغطس تدريجياً . في شرشفه بالتأكيد ! امسكوا جيداً ، وبهدوء . اتركوا قليلاً .. ايضاً . هنا . زوت ! لقد وضعت كثيراً من الماء . سيفيض من كل مكان . انزلوه .

والكتلة الوازنة ، في تجويف الشرشف ، غطست ببطء وافرغت خارج المغطس ما يعادل حجمها ماء سال من جميع الجهات مبللاً الحاملين ، مغرقاً الارض حتى الرواق .

وصرح انطوان منتفضاً من الماء :

ـ تم الامر . عشر دقائق للتنفس .

واجتاحت حرارة الحمام السيد تيبو دون شك ، فتوقف لحظة عن الصياح ، ولكن ليعود اشد قوة. وحاول ان ينتفض مقاوماً ! من حسن الحظ ان ذراعيه وساقيه مشبكة في طيات الشرشف وكل حركاته شلّت .

إلا ان حركته هدأت شيئاً فشيئاً . فلم يعد يصرخ . كان يئن : « اوه ! لا ! لا! اوه ! لا ! لا! » . وعلى الاثر انقطع عن الانين . وبدا ظاهراً انه شعر براحة كبيرة . وعبارته : « اوه ! لا ! لا ! » كانت تشبه آهات خفيفة راضية.

وظل الخمسة حول المغطس واقفين، واقدامهم في الماء، مفكرين دون قلق بما بقي عليهم عمله .

وفجأة رفع السيد تيبو صوته وفتح عينيه :

ـ آه ؟ اهذا انت ؟ ليس اليوم ..

وكان يجيل نظره فيما حوله . ولكنه بالتأكيد لم يكن يعرف شيئاً مما يحيط

به ، واضاف : « دعوني » . (منذ يومين كانت هذه هي الكلمة الاولى المفهومة التي لفظها) . وصمت ، ولكن شفتيه كانتا تتحركان كأنه يهمهم بصلاة؛وسمعت دندنة سريعة . وتوصل انطوان ، الذي كان يرهـــف السمع ، الى التقاط عدة كلمات:

ـ ايها القديس يوسف .. سيد المحتضرين .. ـ ثم ، بعد قليل : ـ الخاطئون المساكين .

وكانت الجفون قد انخفضت من جديد ، والوجه هادىء ؛ والتنفس قصير ، ولكنه منتظم . وكان عدم سماع الصراخ راحة لا تصدق بالنسبة للجميع .

وفجأة صدرت عن الهرم ضحكة صغيرة ، واضحة بشكل غريب ، صبيانية . وتطلع انطوان وجاك احدهما بالآخر . بماذا يفكر ؟ ظلت عيناه مطبقتين . عندئذ اخذ يغني بوضوح كاف ، ولكن بصوت منخفض فسّخه صراخه ، تلك اللازمة من طفولته ، والتي علمته اياها المدموازيل من جديد :

هوب ! هوب ! تريبلي يركض بخطى قصيرة !
هوب ! بسرعة ! الى موعد اللقاء !

وانتاب انطوان القلق فتجنب ان يرفع عينيه.وفكر : « الى موعد اللقاء.. هذا ذو ذوق محزن . ماذا سيفكر جاك ؟ »

كان جاك يشعر بنفس الشعور تماماً . وانحراف مزاجه لم يكن ناتجاً عمـــا سمعه ، بل لأنه لم يكن الوحيد الذي سمع ؛ ولم يكن كل منهما قلقاً الا بالنسبة للآخـــر .

وانتهت الدقائق العشر .

وكان انطوان ، وهو يراقب الحمام ، يفكر بعملية العودة ، وقال بصوت منخفض :

ـ يستحيل نقله في هذه الملابس المبللة . اذهب بالبون وهات فراش السرير المطوي ، واطلب من كلوتيلد المناشف الموجودة في الفرن .

وألقي الفراش على البلاط المبلل . ثم ، بناء على اوامر انطوان ، امسكوا بزوايا الشرشف الاربع ،ورفع المريض بجهد خارج المغطس ووضعوه على الفراش وهو يقطر ماء . وقال انطوان :

ـ نشفوه بسرعة .. حسناً ، والآن لفوه بالصوف ، وضعوا تحته الشرشف الناشف . لنعجل لئلا يأخذ برداً .

ثم فكر على الاثر : « وماذا يهم لو أخذ برداً ؟ »

وألقى نظرة حوله . كل شيء مبلل . الفرش ، والبياضات مغمسة بالماء . وانقلب كرسي في زاوية . وبدت الغرفة انها مسرح لمشهد عنيف اثناء الفيضان. وقال آمراً :

ـ والآن الى اماكنكم . ولنسر .

وتمدد الشرشف الناشف ، وتأرجح الجسد لحظة كأنه في وسط ارجوحة ، ثم انتصب الموكب ، مترنحاً ، خائضاً في برك الماء، واختفى في منعطف الرواق تاركاً وراءه خطوطاً من الماء .

بعد بضع دقائق كان السيد تيبو نائماً في فراشه الممهد من جديد، والرأس على منتصف الوسادة ، والذراعان ممتدان باسترخاء على الغطاء . كان جامداً كثير الشحوب . وللمرة الاولى منذ عدة ايام بدا انه لا يتألم .

استراحة لم تدم طويلاً .

ودقت الساعة الرابعة ، كان جاك قد ترك الغرفة وتهيأ للنزول الى الطابق الارضي ليأخذ قسطاً من الراحة ، حين ادركه انطوان في الدهليز :

ـ بسرعة ! انه يختنق ! كلـّم كوترو بالهاتف . فلوريس ٢ ـ ٥٤ .

ـ واذا ذهبت إلى هناك بسيارة اجرة ؟

ـ كلا ، لديهم عربة . افعل بسرعة . انا بحاجة اليك .

كان جهاز الهاتف في مكتب السيد تيبو . وقد اندفع جاك اليه بكثير من العنف بحيث قفز السيد شاسل عن كرسيه .

وقال له جاك وهو يدرك الجهاز :

– ابي يختنق .. ألو .. مؤسسات كوترو ؟ كلا ؟ اذن لست فلوريس ۲ ، – ٥٤ ؟ الو ؟ ارجوك يا آنسة ، ذلك لأجل مريض ! فلوريس اربعة وخمسون . صفر .. اثنان ! الو ! مؤسسات كوترو ! حسناً .. هنا الدكتور تيبو ... نعم .. اتستطيعون ؟

كان منحنياً الى نصفين ومستنداً بمرفقه الى المنضدة الموجود عليها جهاز الهاتف ، وكان يدير ظهره للغرفة . وكان وهو يتكلم يرفع عينيه بذهول الى المرآة التي كانت امامه : وقد رأى فيها باباً مفتوحاً ، وكانت جيز واقفة في ذلك الباب ، جامدة تنظر إليه .

٥

كانت جيز قد تلقت البارحة ، في لندن ، البرقية التي كانت كلوتيلد ، بموافقة المدموازيل ، قد اتخذت المبادهة بارسالها يوم كان انطوان في لوزان . وقد سارت في الساعة الاولى وبلغت باريس دون ان تعلم احداً . ومشت الى شارع الجامعة ، وهناك لم تجرؤ على سؤال حارسة البناية ، وصعدت رأساً خافقة القلب الى الشقة .

وجاء ليون يفتح لها ، فقالت متلجلجة ، وقد قلقت لرؤيته في هذا الطابق :

– والسيد ؟

– بعد يا آنسة .

وكان هناك من يصرخ في الغرفة المجاورة .

– الو .. ألست فلوريس ۲ . – ٥٤ ؟

وارتجفت جيز . أهو وهم ؟

– الو .. ارجوك يا آنسة ، ذلك لأجل مريض ..

فأسقطت حقيبتها . كان ساقاها يرتجفان . وبدون ان تعرف ماذا صنعت ،

اجتازت الغرفة الملاصقة ودفعت باب المكتب المشقوق بيديها الاثنتين .

كان هناك ، مديراً ظهره ، مستنداً بمرفقه الى المنضدة . ووجهه الجانبي المختفي ، ذو الجفون المنخفضة ، كان يرتسم بعيداً ويكاد لا يكون حقيقياً ، في قصدير المرآة الاخضر . لم تكن تعتقد ابداً بموت جاك . وها هو قد وُجد ، وعاد الى جانب سرير والده .

ـــ الو .. هنا الدكتور تيبو .. نعم ، اتستطيعون ؟

وتلاقت نظراتها ببطء . والتفت جاك ، ممسكاً دائماً بالسماعة حيث يطن الكلام . وردد :

ـــ اتستطيعون ؟

وتقلصت حنجرته . وبذل جهداً عنيفاً ليبلع ريقه ولم يصدر عنه سوى صوت مختنق : « الو.. » لم يعد يعرف اين هو ولا لماذا يتكلم بالهاتف . واضطر الى بذل الجهد ليعود الى حالته الاولى : انطوان ، المحتضر ، الاوكسيجين .. وقال لنفسه : « ابي يختنق » . وكانت ارتجاجات تصم الاذن تهز رأسه .

ـــ حسناً . اني مصغٍ .

قال ذلك صوت فرغ صبره. وتصاعدت في داخله نسمة غضب ضد الدخيلة. ماذا جاءت تفعل : ماذا تريد منه ؟ لماذا لا تزال موجودة ؟ ألم ينته كل شيء ؟

ولم تتحرك جيز . ففي وجهها الملون بلون الصدأة كانت عيناها الكبيرتان السوداوان المستديرتان ، عيناها الجميلتان كعيني كلب مخلص ، تلمعان ببريق حنون أحيته الدهشة . لقد هزلت كثيراً . وبالتأكيد فان جاك لم يكن يعتقد انها اصبحت كثيرة الجمال ، ولكنه شعر بذلك شعوراً هارباً .

وفي الصمت ، انفجر السيد شاسل كقنبلة موقوتة ، وقال بابتسامة بلهاء :

ـــ آه ! اهذا انتِ ؟

وضغط جاك الجهاز على خده بعصبية ، دون ان يتمكن من فصل نظره الغائب الذي لا يظهر شيئاً من غضبه الخفي عن ذلك الظهور اللطيف ،وقال متلجلجاً :

– اتستطيعون ان ترسلوا الي .. حالاً .. من الاوكسيجين بواسطة عربة ماذا ؟ في كرات زجاجية .. لمريض يختنق ..

وكانت جيز، المسمرة في مكانها، تتأمله دائماً دون ان ترف اهدابها. مئة مرة كانت قد تخيلت الهنيهة التي سيعود فيها الى الظهور، الهنيهة التي ترتمي فيها على صدره بعد سنوات من الانتظار، هذه الهنيهة تعيشها الآن. انه هنا، على بعد ثلاث خطوات منها، لا تستطيع التصرف به، فهناك اخريات يملكنه – غريب. لقد اصطدم نظرها، في عيني جاك، بشيء قاس، كالرفض. وقبل ان تعي ذلك، ادركت انها ستتعذب ايضاً امام هذا الواقع المختلف جداً عن حلمها.

وهو ايضاً لم ينقطع عن النظر اليها وهو يتكلم. لقد التصق واحدهما بالآخر بهذه النظرة. الا ان جاك كان قد انتصب، وعاد صوته صلباً، صلباً جداً:

– نعم .. ثلاث او اربع كرات زجاجية من الاوكسيجين .. حالاً.

كان لفظه الآن على مقياس نغم اكثر ارتفاعاً من المعتاد، بنبرة مرتعشة، خنّاء، وبطلاقة مرغمة: «آه ! عفواً. العنوان .. الدكتور تيبو، ٤ مكرر، شارع الجامعة .. كلا : اقول ٤ مكرر .. اصعد رأساً الى الطابق الثاني .. وبسرعة يا سيد. ارجوك، الامر مستعجل جداً».

وبدون عجلة، ولكن بيدٍ واثقةٍ قليلاً، علق السماعة.

لا هي ولا هو صمما على التحرك. وقال أخيراً :

– صباح الخير.

فانتابتها رعشة. وفتحت شفتيها قليلاً لتبتسم، لتجيب. ولكن جاك، وكأنه افاق فجأة على الواقع، انفصل عن المكان الذي كان فيه، واوضح وهو يجتاز الغرفة بسرعة :

– انطوان ينتظرني. سيخبرك السيد شاسل بالأمر .. انه يختنق .. لقد وصلت في اسوأ لحظة ..

– نعم.

قالت ذلك وهي تتشدد . وحين مر بقربها قالت :

ـ اذهب ، اذهب بسرعة !

وانتفخت عيناها بالدمع . لم يكن لديها اية فكرة واضحة ، اية حسرة معللة : شعور مؤلم من البلاهة والضعف . وتبع نظرها جاك في الغرفة الملاصقة . منذ ان رأته يمشي بدا لها اكثر من حي ، اكثر من ضائع وُجد . وحين اختفى ضمت يديها بعصبية وتمتمت :

ـ جاكو ..

وكان السيد شاسل قد شاهد هذا المشهد ، كقطعة اثاث ، دون ان يلاحظ شيئاً . وحين رأى نفسه وحيداً مع جيز ظن ان من المجاملة ان يبدأ الحديث :

ـ انا ، كما ترينني يا آنسة جيز ، انا هنا .

قال ذلك لامساً الكرسي الذي كان يجثم عليه .ودارت جيز لتخفي دموعها. وأضاف بعد دقيقة :

ـ اننا ننتظر ان نستطيع البدء .

كانت نبرته نبرة مسارّة بحيث سألت جيز مندهشة :

ـ البدء بماذا ؟

فطرف الهرم الصغير بعينيه وراء نظارتيه وعض على شفتيه باحتراس :

ـ بالصلاة يا آنسة جيز .

كان جاك قد سار هذه المرة نحو غرفة ابيه كما يسير نحو ملجأ .. وكان مصباح السقف مضاء . والسيد تيبو الذي أُجلس مستقيماً كان منظره يخيف : الرأس منقلب ، والفم مفتوح . ويبدو انه فاقد الوعي ؛ والعينان بارزتان ، كرويتان ، ظلتا مفتوحتين بدون حياة . وانطوان منحن على السرير يسند والده بذراعيه ، بينما الاخت سيلين تثبت الجذع بواسطة الوسائد التي تناولها اياها الراهبة العجوز .

وصاح انطوان حين شاهد اخاه .

ـ افتح النافذة .

والريح الآتية من النافذة طافت الغرفة وجاءت تبلل الوجه المغمى عليه . واخذت جوانح الانف ترف : لقد دخل قليل من الهواء إلى الرئتين . وكـــان النفس ضعيفاً ، مرتجفاً ، قصيراً ؛ والزفير لا ينتهي : وكان يقال كل مرة ان هذه الزفرة البطيئة هي الاخيرة .

وكان جاك قد اقترب من انطوان وهمس في اذنه بصوت منخفض :

ـ لقد وصلت جيز .

فهز انطوان حاجبيه دون ان يتحرك . ولكنـــه لم يكن يريد ان يغفل لحظة عن هذا الصراع الملحاح الذي يقوده ضد الموت . ان اقل سهو ، ويمكن لهذا النفس المتردد ان يتلاشى . وكملاكم في الحلبة ، نظره متوجه الى الخصم ، ودماغه ممتد، وجميع العضلات مستعدة للعرض ، لم يكن يترك مريضه بعينيه. وما من هنيهة أتسع وقته للتفكير انه كان ينادي هذا الموت منذ يومين ، كوسيلة إنقاذ ، هذا الموت الذي كان ينهمك في محاربته . حتى انه نسي تقريباً ان هذه الحياة المعلقة هي حياة ابيه .

وكان يقول لنفسه : « سيصل الاوكسيجين . بالامكان البقاء خمس دقائق ايضاً ، وربما عشر . وما ان احصل على كرة الاوكسيجين الزجاجية .. ولكن يجب ان اكون حراً بحركاتي . والراهبة ايضاً ..

ـ جاك . اذهب وهات لي شخصاً آخـــر .. ادريان ، كلوتيلد ، لا يهم . انتما معاً ، ستسندانه .

لم يكن احد في المكتبة . فركض جاك إلى غرفة البياضات : كانت جيز هناك وحدها مع عمتها . فتردد لحظة . كان الوقت يمر . وقال :

ـ حسناً ، نعم . انت تعالي . ـ ودفع الآنسة العجوز إلى الغرفة الملاصقة ـ ابقي على سطح الدرج . سيأتي من يحمل كرات الاوكسيجين وعليك ان تحمليها الينا حالاً .

حين وصلا إلى جانب السرير ، كان السيد تيبو قد سقط مغمى عليه . وكان

الوجه بنفسجي اللون ، والفم مفتوحاً بشكل غير قياسي . وكان يتفلت من زاوية الشفتين سائل اسمر . وتمتم انطوان :

ـ بسرعة . قفا هنا ..

فاخذ جاك مكان اخيه وجيز مكان الاخت سيلين . وقال انطوان موجهاً الكلام إلى الاخت سيلين :

ـ سحب اللسان بقطعة قماش .. بقطعة قماش ..

كانت جيز تظهر دائماً جدارة ممرضة :وقد تابعت دروساً في لندن . وكانت وهي تمنع المريض من الانقلاب على جنبه تمسك بالمعصم ، وبعد ان بحثت بنظرها عن موافقة انطوان بدأت تحرك الذراع موافقة حركاتها مع السحبات التي تجريها الراهبة . وأمسك جاك بالمعصم الآخر وفعل الشيء نفسه ولكن وجه السيد تيبو انتفخ بالدم كأنه قد خنق .

وكان انطوان يعد مقطّعاً :

ـ واحد ، اثنان .. واحد ، اثنان ..

وفتح الباب .

وركضت ادريان حاملة احدى الكرات . فانتزعها انطوان من ذراعيها ، وبدون ان يضيع لحظة فتح الصنبور ووضعه في فم المريض .

والدقيقة التي تلت بدت طويلة . الا انها لم تكد تنقضي حتى بدا التحسن محسوساً . وعاد التنفس شيئاً فشيئاً ، بدفعات قليلة . وبدا حالاً ان الوجه زال احتقانه . وعادت الدورة الدموية الى سيرها .

وباشارة من انطوان الذي كان يضغط على الكرة بهدوء لناحيته بالمرفق ، دون ان يرفع عينيه عن المريض ، فان جاك وجيز كفّا عن رفع الذراعين وخفضها .

كان هناك وقت بالنسبة لجيز .لقد تعبت ، وكل شي يترنح حولها . ورائحة هذا السرير غير محتملة بالنسبة اليها . فتراجعت خطوة ، وتمسكت بمسند المقعد لئلا تصاب بأذى .

وظل الاخوان منحنيين على السرير .

والسيد تيبو المنتصب وسط الوسائد ، مفتوح الفم قليلاً بواسطة الصنبور ، كان يرتاح ، هادىء القسمات . وكان يجب الاستمرار بابقاءالجذع مستقيما ومراقبة التنفس عن قرب ؛ ولكن الخطر الآن قد استُبعد.

ولأخذ النبض ، ناول انطوان كرة الاوكسيجين الى الراهبة وجلس على حافة الفراش . وشعر فجأة ، هو ايضاً ، بثقل قلبه . كان النبض غير منتظم ، وبطيئاً جداً . فقال لنفسه : « لو كان يستطيع ان يقضي هكذا ، بهدوء .. » والتناقض بين هذه الامنية والعناد الذي بذله في الكفاح ضد الاختناق ، لم يكن قد ادهشه بعد . ورفع رأسه فالتقى بنظر جيز وابتسم لها .لقد استخدمها كأداة دون انيفكر انها هي ؛ ورؤيته لها هنا فجأة حملت اليه نسمة سرور . والتفتت عيناه من جديد نحو المحتضر.ولم يستطع هذه المرة الامتناع عنالتفكير:

– لو تأخر وصول الاوكسيجين خمس دقائق لكان كل شيء منتهياً الان .

٦

ان نوبة ضيق النفس حرمت السيد تيبو من الراحة التي منحه اياها الحمّام دون شك ، وعودة التشنجات لم تكن منتظرة : والمريض في إغفاءته القصيرة بدا انه لم يستمد قوى جديدة الا ليتعذب بشكل افضل .

لقد مضى اكثر من نصف ساعة بين النوبة الاولى والثانية ، ولكن آلام الاحشاء والالآم العصبية قد استعادت كل حدتها ، لان المريض بين هذه الاستراحة لم ينقطع عن التمطي فيجميع الاتجاهات ، وعن الأنين . والنوبة الثالثة بدأت بعد الثانية بربع ساعة ثم تتابعت النوبات عنيفة بشكلغير متساو ، وبين الواحدة والاخرى بضع دقائق .

ان الدكتور تيريفيه الذي جاء في الصباح ، وتحدث بالهاتف عدة مرات بعد الظهر ، عاد قبل الساعة التاسعة مساء بقليل . وحين دخل الى الغرفة كان السيد تيبو ينتفض بهياج وقد رأى الطبيب ان الذين يمسكون به قد وهنوا

فأسرع لنجدتهم . وافلت منه الساق الذي اراد اخذه ، وتلقى رفسة كادت تلقيه ارضاً . ولم يكن بالامكان الايضاح كيف ان العجوز لا يزال لديه مدخرات كهذه من القوة .

وما ان انقطعت هذه الحركات حتى قاد انطوان صديقه الى طرف الغرفة . كان يريد ان يتكلم : حتى انه لفظ بضع كلمات (لم يسمعها تيريفيه بسبب الصياح الذي كان يملأ الغرفة) وتوقف فجأة ، مرتجف الشفتين . ودهش تيريفيه مما بدا على قسماته . وبذل انطوان جهداً ليمتلك نفسه ، وانحنى على اذن تيريفيه وقال متلجلجاً :

– يا صديقي .. انت ترى .. هذا ليس ممكناً ، اؤكد لك .

وكان يتأمل الشاب بإلحاح حي . ويبدو انه ينتظر منه السلامة . وخفض تيريفيه عينيه وقال :

– هدوءاً ، هدوءاً . – ثم بعد صمت : – فكر .. النبض ضعيف. لاتبويل منذ ثلاثين ساعة : التسمم البولي يزداد ، والنوبات متداخلة .. انا ادرك جيداً انك تعبت . ولكن صبراً ، فالنهاية قريبة .

وانطوان المستدير الكتفين ،الزائغ النظر باتجاه السرير ، لم يجب . وقد تغير تعبير وجهه . وبدا متخدراً . « النهاية قريبة » . ربما كان هذا صحيحاً .

ودخل جاك تتبعه ادريان والراهبة العجوز . انها ساعة اجراء المناوبة .

– سأقضي الليل معك ليستطيع اخوك ان يرتاح قليلاً .

وسمع انطوان . وكانت رغبته حادة في ان يجد نفسه اخيراً خارج هذه الغرفة ، في الصمت – وان يستطيع التمدد ، وربما النوم ، والنسيان – بحيث فكر لبضع ثوان بقبول عرض تيريفيه . ولكنه تابع على الاثر تقريباً ، وقال بصلابة :

– كلا يا صديقي . شكراً . كلا .

لم يكن يعرف ان يوضح السبب تماماً . ولكنه كان يشعر في اعماقه بأن عليه ألا يرضى . البقاء وحيداً مع مسؤوليته ؛ ان يكون وحده امام القدر . وبما ان

الآخر رفع يده . فأنه قال :

ـ لا تلح . فأنا مصمم . لا يزال عددنا متكاملاً هذا المساء ، ولا نزال اقوياء تقريباً . فأحتفظ بنفسك .

وهز تيريفيه كتفيه.ولكن لما كان يعتقد ان الوضعية ربما امتدت بضعة ايام، وكان من عادته الانحناء امام ارادة انطوان ، فانه اكتفى بالتصريح :

ـ ليكن . ولكن غداً مساء ، سواء اردت ام لا ..

فلم يحرك انطوان ساكناً . غداً مساء؟غداً، التشنجات نفسها ، هذا العويل؟ بالتأكيد ، ذلك ممكن . ومن الراجح .. بعد غـد ايضاً . ولماذا لا ؟ والتقى نظره بنظر اخيه . وكان جاك هو الوحيد الذي ادرك هذا الشقاء ، واقتسمه .

ولكن الزمجرات اعلنت بمجيء نوبة جديدة . وكان يجب ان يعود ليحتل مركزه . ومد انطوان يده لتيريفيه الذي احتفظ بها هنيهة بين يديه وكان ايضاً على وشك ان يتمتم : « تشجع .. » ولكنه لم يجـــرؤ ، وذهب دون اية كلمة . ورآه انطوان يبتعد . كم مرة هو ايضاً ، عندما يترك سرير مريض ، شديد المرض ـ بعد ان يشد على يد زوج ، مكشراً بابتسامة ، متجنباً نظرة أم ـ كم مرة ، حالما يدير ظهره ، كان يشعر بذلك الشعور بالخلاص الذي جعل هرب تيريفيه خفيفاً في هذه اللحظة ؟

في الساعة العاشرة مساء فان النوبات التي كانت تتلاحق دون توقف بدت انها بلغت المنتهى .

وكان انطوان يشعر حوله بالقوى تضعف ، وبقوة الاحتمال تـــذوب ، والاعتناءات تصبح اكثر بطئاً ، واقل حرصاً . وعلى العموم ، فلم يكن هناك شيء يزيد من حيويتـه اكثر من خور الآخرين . ولكنه كان قد توصل إلى نقطة لم تعد تستطيـع مقاومته المعنوية معها ان تدافع ضد الانهاك الجسدي. وقد كان هذا هو المساء الرابع الذي لم ينم فيه منذ رحيله إلى لوزان . ولم يكن يتغذى ابداً . وأكل اليوم قليلاً من الحليب بالجهد بعد ان غصب نفسه ؛ ولم

يكن يتماسك الا بمساعدة الشاي البارد حيث كان يسكب لنفسه قدحاً بين وقت وآخر . وعصبيته التي ازدادت خطورة أعارته مظهر نشاط ، ولكنه مفتعل . وفي الواقع ، فان وضعية كهذه كانت تطلب منه ذلك الصبر، وذلك الانتظار ، وتلك الفعالية الزائفة التي يشلها الشعور بعجز كلي ، وهذا ما يخالف مزاجه كل المخالفة ويتطلب منه جهداً لا يمكن احتماله . ومع ذلك فقد كان يجب المواظبة، مهما كلف الامر، وبذل قصارى الجهد في الصراع لانه كان يتجدد دون مهادنة.

حوالي الساعة الحادية عشرة، وفي نهاية نوبة قوية، حيث كان الاربعة منحنين يراقبون التشنجات الاخيرة ، فان انطوان انتصب بحدة ، واتى بحركة حزن مصحوب بغضب : هناك بقعة جديـــدة رطبة انتشرت على الشرشف : لقد عادت الكلية مرة اخرى ايضاً الى العمل بغزارة .

ولم يستطع جاك كبح جماح حركة غضب ، وترك ذراع والده . كان هذا كثيراً . ففكرة نهاية وشيكة ناتجة عن تقدم التسمم هي وحدها التي كانت تساعده على البقاء واقفاً ، والآن ماذا ؟ لم يكن يُعرف شيء. وكان الامر كما لو ان الموت ، منذ يومين تحت بصره ، منهمك بصبر في مد شركه : وكل مـــرة يتوتر فيها النابض بشكل جيد ، كراك ، ويتفلت من الفرضة : ويبدأ كل شيء من جديد !

في تلك اللحظة لم يكن يحاول حتى اخفاء إرهاقه . كان بين التشنجات يرتمي على المقعد الاقرب ، تعباً ، كالحاً ، ويغفو ثلاث دقائق ومرفقاه على ركبتيه ، وقبضتاه في عينيه . ولدى كل نوبة جديدة ، كان يجب مناداته ، ولمس كتفه ، وإيقاظه مرتجفاً .

قبل منتصف الليل بدت الوضعية حرجة . وكاد الصراع يصبح مستحيلاً .

وحدثت ثلاث نوبات ذات عنف متناه ، بلا انقطاع ، حين بدت طلائع الرابعة . وكانت بشائرها رهيبة . جميع الظاهرات العادية مع حدة مضاعفة عشر مرات . فتعلق النفس ، واحتقن الوجه بالدم ؛ وخـرجت العينان من محجريهما الى النصف ؛ والساعدان متقلصان ، مطويان الى درجة انه لا يمكن

رؤية اليدين ؛ والمعصمان الملتويان تحت اللحية كانا يشبهان عضوين مبتورين . وكانت جميع الاعضاء ترتجف من شدة التشنج ؛ والعضلات المتصلبة كانت تبدو انها على وشك التمزق تحت الجهد. ولم يحدث ان امتد دور التصلب الى هذا الحد؛ وكانت الثواني تتتابع . والحدة لم تخف ، والوجه اصبح اسود ؛ وظن انطوان حقيقة انه الموت .

ثم أفلتت حشرجة من الشفتين حيث أزبد قليل من اللعاب . واسترخى الذراعان فجأة . وبدأ دور الحركات الكثيرة .

وبلغ هذا الدور فورة بحيث احتيج الى صدرة القوة[1] لتقييد هذا الهيجان. وكان انطوان وجاك ، تساعدهما الراهبة العجوز وادريان ، قد جثموا على اعضاء المجنون الاربعة : كانوا يهتزون ، ويُجَرّون ويترنحون . ويتصادمون كما في عراك كرة القدم . وكانت ادريان هي الاولى التي اضطرت إلى ترك الساق الممسكة به لانها لم تعد تستطيع امساكه . والراهبة العجوز ، وقد اصبحت نصف منقلبة من الهزات ، اضاعت توازنها : فقد زلق الساق الآخر من يديها . اذن فالساقان حران يضربان الهــواء ؛ والعقبان المسلوخان كانا يصبحان دامين على خشب السرير . وانطوان وجاك على آخر نفس ، مغمسان بالعرق ، كانا يتساندان ليمنعا هذه الكتلة الحية الضخمة المرتفعة بقفزات فجائية من ان ترتمي خارج الفراش.

وحين خمد هذا الهياج الجنوني ،(لقد انقطع فجأة كما بدأ) ، واعيد المريض إلى منتصف السرير ونام من جديد ، تقهقر انطوان بضع خطوات . وكان قد توصل إلى درجة من التوتر العصبي بحيث كانت اسنانه تصر ، واقترب متأثراً من المدخنة ، وحين رفع عينيه وشاهد في المرآة المضاءة بواسطة اللهب ، وجهه الشاحب ، وشعره المشعث ، ونظرته الرديئة ، دار على نفسه ، وانهار في

---

١ ـ صدرة من القماش المتين تشل حركات الذراعين ويمكن بواسطتهــا السيطرة على المجانين الهائجين والمجرمين . « المعرب »

كنبة ، ضاغطاً جبهته بين يديه ، وانفجر باكياً . لقد لاقى الكثير ، الكثير.. والقوة القليلة المقاومة التي ظلت حية فيه تجمعت في رغبة عنيفة : « ان ينتهي هذا !»كل شيء ما عدا رؤية هذا المشهد الجهنمي ليلة اخرى ايضاً ثم نهاراً جديداً وربما ليلة جديدة ، وهو عاجز .

وكان جاك قد اقترب . لو كانت لحظة غير هذه لكان ارتمى بين ذراعي اخيه ؛ ولكن حساسيته كانت قد ضعفت اكثر من عزيمته . وقد شله منظر هذا الشقاء بدلاً من ان يحرك شقاءه . كان جامداً في مكانه يتأمل بدهشة هـذا الوجه المنهوك ، المبلل ، المكشر . واكتشف فيه فجأة مظهراً من الماضي ، وجه ولد باك لم يكن يعرفه .

ثم جاءته فكرة كانت قد عمرته عدة مرات .

ـ مهما كان الامر يا انطوان .. لو طلبت احداً لإجراء استشارة .

فهز انطوان كتفيه . الا يكون اول من يستدعي زملاءه كلهم لو كان هناك اقل صعوبة يجب حلها ؟ واجاب ببضع كلمات قاسية لم يستطع احد التقاطها . وكانت صيحات الالم قد بدأت من جديد ـ الامر الذي كان استراحة مقتضبة قبل النوبة القريبة .

واهتاج جاك وصاح :

ـ ولكن اخيراً يا انطوان ، ابحث ! من المستحيل الا يكون هناك شيء يمكن عمله !

فشد انطوان على أسنانه . كانت عيناه جافتين . ورفع جبهته وتطلع بأخيه بشراسة وتمتم :

ـ بلى ، هناك « شيء » يمكن عمله دائماً .

ففهم جاك ، ولم يخفض عينيه ، ولم يأت بأية حركة .

واستجوبه انطوان بالنظر وتمتم :

ـ الم اتفكر ابداً انت بذلك ؟

فأتى جاك بحركة ايجابية ، مقتضبة جداً . وكان ينظر الي اخيه حتى اعماق

حدقتيه ، وشعر شعوراً هارباً انهما كانا يتشابهان في تلك الدقيقة : نفس الغضن بين الحاجبين ، نفس تعبير اليأس والجرأة، نفس الوجه «الجدير بعمل كل شيء».

كانا في الظل ، بقرب النار ، انطوان جالس وجاك واقف . وكان العويـل بشكل ان المرأتين الراكعتين بقرب السرير ، وقد انهكهما التعب ، لم تستطيعا سماع شيء .

وبعد وقفة ، تكلم انطوان :

ـ أتفعلها انت ؟

كان السؤال قاسياً ، مباشراً ، ولكن كان في الصوت صدع يكاد لا يدرك . وتجنب جاك هذه المرة نظرة اخيه . وانتهى بأن اجاب بين اسنانه :

ـ لا أدري .. ربما لا .

فقال انطوان على الاثر :

ـ اذن ، انا ، نعم .

وكان قد نهض بحدة . إلا انه ظل واقفاً جامداً . وأشار نحو جـاك بحركة مترددة من يده . وانحنى :

ـ أتلومني ؟

فأجاب جاك بهدوء وبدون تردد :

ـ كلا يا انطوان .

وتطلعا ببعضهما البعض من جديد ؛ وللمرة الاولى منـــذ عودتها ، شعرا بشعور يشبه الفرح .

وكان انطوان قد اقترب من المدخنة ، متباعد الذراعين، وأمسك بالرخام، وحنى ظهره وأخذ يتأمل النار .

كان القرار قد اتخذ ، وبقي التنفيذ . متى ؟ وكيف ؟ عليه ان يعمل دون شاهد غير جاك . بعد قليل يحين منتصف الليل . في الساعة الواحدة يأتي دور الاخت سيلين وليون بالمناوبة ؛ قبل الساعة الواحـــدة يجب أن يتم الأمر . لا شيء أكثر بساطة من ذلك . اولاً عملية فصد لإحداث ضعف ، واغفاءة تسمح

بارسال الراهبة العجوز وادريان للراحة قبل موعد تغيير المناوبة . وحيد مرة اخرى مع جاك .. يجس صدره فيشعر تحت اصابعه بزجاجة المورفين الصغيرة التي ظلت في جيبه منذ .. منذ متى ؟ منذ صباح عودته . حين كان ينزل مع تيريفيه للبحث عن الأودانوم ، كان يتذكر انه كان يضع في بلوزته عند كل حادث هذا المحلول المركز .. وتلك المحقنة . عند كل حادث ؟ لماذا ؟ كأن كل شيء قد تقرر في رأسه وأن ليس عليه سوى تنفيذ تفاصيل مخطط قد أُعد منذ وقت طويل .

ولكن نوبة جديدة كانت في دور التكوين ، ويجب الانتظار حتى تذهب . واستعاد جاك نشاطه ، وكان لا يزال في مركزه . وقال انطوان لنفسه : « النوبة الأخيرة » ، بينما كان يقترب من السرير ، وظن انه يقرأ نفس الفكرة في عيني جاك المصوبتين إليه .

ومن حسن الحظ فإن دور التصلب كان أقل طولاً من السابق ولكن التشنجات كانت اكثر عنفاً .

وبينما كان البائس يضطرب مزبداً قال انطوان للراهبة :

ـ ربما يوفر له الفصد بعض الراحة . وحين يصبح هادئاً تأتيني بحقيبتي .

وحدث مفعول الفصد حالاً . وبدا السيد تيبو نائماً وقد أضعفه فقدان الدم.

وكانت المرأتان متعبتين بحيث لم تصرّا على البقاء بانتظار موعد المناوبة : ومنذ دعوة انطوان الاولى اغتنمتا هذه الفرصة لتأخذا شيئاً من الراحة.

وظل انطوان وجاك وحدهما .

ووجدا نفسيهما بعيدين عن السرير . فقد عاد انطوان بعد ان اغلق الباب الذي تركته ادريان مشقوقاً ، وتراجع جاك حتى المدخنة دون ان يدري لماذا .

وتجنب انطوان نظر اخيه . لم يحسّ ابداً في هذه اللحظة انه بحاجة الى الشعور بحب بجانبه ؛ ولم يكن عليه إلا ان يجد شريكاً بالذنب .

ولمس في اعماق جيبه العلبة الصغيرة « المنكّلة» . ومنح نفسه ثانيتين ايضاً.

لا لأنه يريد مرة اخرى ان يزن الحسنات والسيئات :فقد اتخذ لنفسه قاعــدة بألا يستعيد ، لحظة التنفيذ ، المناقشة التي قررت العمل . ولكنه وهو يتأمل من بعيد ، في بياض السرير ، ذلك الوجه الذي جعله المرض كل يوم مألوفاً اكثر من ذي قبل ، استسلم لحظة لكآبة اندفاعة سامية من الشفقة .

ومضت الثانيتان .

وفكر وهو يتقدم بخطى سريعة : « سيكون اقل إيلاماً اثناء احــدى النوبات » . وسحب الزجاجة من جيبه ، وحرّكها ، وثبت الابرة في المحقنة وتوقف باحثاً بعينيه عن شيء . هزة كتف مقتضبــة : بحث آلياً عن قنديل الكحول ليعرض الرأس البلاتيني للهب ..

ولم ير جاك شيئاً . فظهر اخيه المنحني يخفي السرير عنه . أحسن .. الا انه قرر ان يخطو خطوة جانبية . يبدو الاب نائمــاً ، وانطوان يفك عروة الكم ويشمره .

وقال انطوان لنفسه : « لقد فصدت الذراع الايسر ، فلنغرز الابرة في الايمــن » .

وقرص طية في الجلد ورفع المحقنة .

وشنّج جاك يده على فمه . وانغرزت الابرة بضغطة قوية . وأفلتت أنـّة من النائم ؛ وارتعش الكتف . وفي الصمت صوت انطوان :

ـ لا تتحرك .. هذا للتخفيف عنك يا ابي .

وفكر جاك : « انها اخر مرة يُكلم فيها » .

ولم ينخفض مستوى المائع بسرعة في المحقنة الزجاجية .. لو دخل احد .. فهل انتهى الأمر ؟ كلا . ترك انطوان الابرة مغروزة في الجلد ؛ وفصل المحقنة بدقة وملأها مرة ثانية . واخذ المائع يهبط بسرعة تقل شيئاً فشيئاً .. لو دخل احد .. سنتيمتر مكعب ايضاً .. كم هذا بطيء ! بعض القطرات ايضاً .

وسحب انطوان الأبرة بحركة سريعة ،ومسح المكان المنتفخ حيث ترشح قطرة وردية اللون ، ثم زرر القميص ورفع الغطاء . من المؤكد انه لو كان وحيـداً

لانحنى نحو هذه الجبهة الشاحبة: انها المرة الاولى،منذ عشرين سنة التي شعر فيها بالرغبة في تقبيل والده .. وانتصب ، وتراجع خطوة ، ووضع الادوات في بلوزته ، وتطلع حوله ليرى اذا كان كل شيء مرتباً ، واخيراً لفت رأسه نحو اخيه . وبدت نظرته اللامبالية الصارمة انها تقول ببساطة :

ـ لقد تم الامر .

وكان بود جاك ان يقترب، ويمسك يده، ويعبر عن شعوره بحضنة.. ولكن انطوان كان استدار ، وسحب اليه كرسي الاخت سيلين المنخفض ، وجلس الى جانب السرير .

ذراع المحتضر يمتد على الغطاء . واليد بيضاء كالشرشف تقريبـــاً ؛ انها ترتجف بشكل يكاد لا يرى : ارتجاف ابرة ممغنطة . الا ان الدواء اخذ يعمل . ورغم الالم الطويل ، فان القسمات استرخت : ذلك التخدر المميت بـــدا انه يحتوي على عذوبة النوم المجددة القوى .

لم يستطع انطوان التفكير بشيء معين . فأخذ بين اصابعه النبض الذي كان سريعاً وضعيفاً. كان انتباهه مشغولاً بالعد بصورة آلية : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨.

والشعور بما حدث اصبح مشوشاً اكثر فأكثر.واختلطت عليه معرفة الناس. ٥٩،٦٠ ، ٦١ .. والأصابع الممسكة بالمعصم ارتخت . انزلاق متراخ ، لذيذ ، في اللامبالاة . وموجة من النسيان غمرت كل شيء .

ولم يجرؤ جاك على الجلوس خوفاً من إيقاظ اخيه . انه واقف ، مشلول من التعب ، لم يترك بعينيه شفتي المحتضر . كانتا تشحبان ، وتشـحبان ؛ ولا يلامسها التنفس الآن الا بالجهد .

واجتاز جاك الخوف فقرر القيام بحركة .

وارتجف انطوان ، وشاهد السرير ، ووالده . فأمسك المعصم بهـدوء ، وقال بعد صمت :

ـ اذهب وناد الاخت سيلين .

حين عاد جاك تتبعه الراهبة والطاهية . كان النفس قد استعاد شيئاً من القوة والايقاع ، ولكن بجلبة حنجرة غير عادية .

كان انطوان واقفاً ، متصالب الذراعين . وكان قد اضاء ثريا السقف . وحين وصلت الاخت سيلين الى جانبه قال :

ـ النبض لا يُحس به .

ولكن الراهبة كانت تعتقد ان الاطباء لايسمعون شيئاًفي اللحظات الاخيرة. وان من الواجب ان تقوم بالتجربة . فلم تجب، وجلست بدورها على الكرسي المنخفض ، واخذت النبض بيدها ، ولاحظت الوجه طوال دقيقة ، وعندئذ التفتت نحو داخل الغرفة، وأتت باشارة إيجابية ، فخرجت كلوتيلد حالاً .

واشتد اللهاث وأصبح سماعه مؤلماً . وانتبه انطوان إلى ان وجه جاك قد كشر بسبب القلق النفسي ، فسار نحوه ليقول له : « لا تخف . انه لا يشعر بشيء » حين فُتح الباب ؛ وكانت هناك همسات: المدموازيل دي ويز المحدودبة في صدرتها ، ظهرت مستندة إلى ذراع كلوتيلد ، تتبعها ادريان ؛ والسيد شاسل يسير آخر الجميع على رؤوس أصابعه .

أحس انطوان بالقلق فأشار اليها بالبقاء على العتبة . ولكن الأربعة كانوا قد ركعوا بقرب الباب . وفجأة ارتفع صوت المدموازيل النافذ في الصمت وغطّى على حشرجة المحتضر :

ـ « ايها المسيح الطيّب .. اني امثل أمامك .. بقلب محطم » .

وارتعش جاك وقفز نحو أخيه :

ـ إمنعها !

ولكن نظرة انطوان العابسة هدأته ، وتمتم :

ـ دعها .

وانحنى نحو جاك وقال :

ـ لقد انتهى الأمر تقريباً ، ولا يستطيع سماع شيء .

ان ذكرى الأمسيةالتي أوكل فيها السيد تيبو بشكل احتفالي إلى المدموازيل

مهمة تلاوة « طلبات الموت الصالح » بجانب سريره عند احتضاره ، قد عادت إلى ذاكرته ورققت قلبه .

والراهبتان هما ايضاً ركعتا إلى جانبي السرير . وكانت الاخت سيلين قد تركت يدها على معصم المحتضر .

ـ « .. حين تلفظ شفتاي الباردتان ، المزرقتان ، المرتجفتان للمرة الاخيرة اسمك المعبود ، ايها المسيح الرحيم ، ارحمني ! »

(ان القليل من الارادة الذي تحتفظ به الابنة العجوز ، بعد عشرين سنة من العبودية وانكار الذات، قد اشتد هذا المساء ليتيح لها ان تفي اخيراً بوعدها) .

ـ « حين يوحي خداي الشاحبان المتقعران للمشاهدين الشفقة والرعب ، ايها المسيح الرحيم . ارحمني ! »

« وحين يكون شعري مغمس بعرق الاحتضار ..»

لم يرفع انطوان وجاك عيونهما عن والدهما . الفكّان منفصلان . والجفون مشقوقة باسترخاء على نظرة ثابتة . أهي النهاية ؟ والاخت سيلين لا تزال تمسك بالمعصم وتنظر الى حركة الوجه ولا تأتي بأية حركة . وصوت المدموازيل الآلي الضيق النفس مثل اكورديون مثقوب ، كانت تعوي بدون رحمة :

ـ « وحين تغطسني مخيلتي المو ّارة بالاشباح في قلق نفسي مميت، ايها المسيح الرحيم ، ارحمني !

« وحين قلبي الضعيف .. »

الفم مفتوح دائماً ، وقد رؤي سن ذهبي يلمع . ومضت نصف دقيقة . والاخت سيلين لم تتحرك . وأخيراً تركت المعصم ورفعت رأسها نحو انطوان. وظل الفم مفتوحاً . فانحنى حالاً : القلب لا يخفق . عندئذ وضع كفه على الجبهة الجامدة ، وبهدوء ، اطبق الجفون المطيعة الواحد بعد الآخر بشحمة الابهام . ثم ، دون ان يسحب يده، كما لو ان تلك الضغطة المحبة يمكن ان ترافق الميت حتى عتبة الراحة ، التفت نحو الراهبة وقال بصوت شبه مرتفع :

ـ المنديل ايتها الاخت .

وانفجرت الخادمتان بالدموع .

والمدموازيل راكعة بجانب السيد شاسل على اربع ، بشعرها الذي يشبه ذيل الجرذ على صدرتها البيضاء ، لامبالية بكل ما جرى ، مستمرة في عويلها :

ـ « حين تخرج روحي على حافة شفتي من هذه الدنيا الى الابد .. »

ووجب انهاضها ، وإسنادها، والذهاب بها : حين ادارت ظهرها الى الغرفة بدت عندئذ انها فهمت ، واخذت تنتحب كالاطفال .

وكان السيد شاسل يبكي ايضاً ؛ كان متعلقاً بذراع جاك ويردد هازاً رأسه كالقـــرد :

ـ هذه الامور يا سيد جاك ، ما كان يجب ان توجد ..

وتساءل انطوان حين دفعهم كلهم خارجاً : « اين جيز اذن ؟ »

وقبل ان يترك الغرفة بدوره التفت ليلقي نظرة اخيرة عليها .

بعد كثير من الاسابيع استعاد الصمت سلطته على تلك الغرفة .

والسيد تيبو المستند على الوسادة ، وقد كبر فجأة في النور ، (بدقّونته) التي ينتصب طرفاها كالقرنين على رأسه ، اتخذ مظهراً مسرحياً وغامضاً لشخص اسطوري .

٧

وجد انطوان وجاك نفسيهما على سطح الدرج دون اتفاق مسبق . وكان البيت ينام ؛ وطنفسة الدرج تخنق وقع الخطى ؛ وقد نزلا الواحد وراء الآخر صامتين ، الرأس فارغ ، والقلب خفيف ، دون مقاومة ضد الراحة الحيوانية التي اجتاحتهما .

وفي اسفل ، فان ليون الذي سبقهما كان قد انار المصابيح وأعـــدّ من تلقاء نفسه عشاء بارداً في مكتب انطوان ؛ ثم تسلل بفطنة .

هذه الطاولة الصغيرة تحت الثريا ، وهذا السماط الابيض ، ولوازم مائدة لإثنين ، كل هذا اتخذ هيئة حفلة مرتجلة . لم يرضيا بملاحظـــة بعضهما البعض :

فجلسا الى المائدة دون ان يقولا اية كلمة ، مضطربين من جوعهما ، متظاهرين بالهم . وكان النبيذ الابيض بارداً ؛ والخبز ، واللحم البارد ، والزبدة كانت تتناقص بشكل ظاهر . وفي لحظة امتدت ايديهما معاً نحو صحن الجبن .

ـ خذ ما تشاء .

ـ كلا ، بعدك .

وقسم انطوان ما بقي من الجبن الى قسمين ، وقدم لجاك متمتماً كأنه يعتذر :

ـ انه دسم ، لذيذ .

كانت هذه هي الكلمات الاولى التي تبادلاها . وتلاقت عيونهما . واستفهم جاك رافعاً اصبعه نحو شقة السيد تيبو :

ـ والآن ؟

فقال انطوان :

ـ كلا . الآن ننام . لا شيء نفعله فوق قبل غد .

وحين افترقا على عتبة غرفة جاك قال هذا فجأة بصوت منخفض :

ـ لقد رأيت يا انطوان ، في النهاية ، حين اخذ الفم ينفتح ، وينفتح ..

وتطلعا ببعضهما البعض صامتين : وكانت عيونهما ملأى بالدمع .

في الساعة السادسة ، كان انطوان مرتاحاً تقريباً ، وقد حلق لحيته وصعد الى الطابق الثاني. وكان يفكر وهو يصعد ماشياً ليذهب بخدر ساقيه : « السيد شاسل على علم بعناوين اوراق النعي . والتصريح من دائرة المختار (العمدة) ليس قبل الساعة التاسعة .. والناس الذين يجب اخبارهم .. قليل من العائلة من حسن الحظ : آل جانيرو يكلّفون بالاقارب من ناحية الأم ، والعمة كازيمير ستقوم بالباقي . برقية الى ابناء العم في روان . اما الاصدقاء ، فخبر ينشر في صحف الغد . وكلمة للاب دوبريه واخرى إلى جان . دانيال دي فونتانان في لونيفيل ، سأكتب اليه هذا المساء ؛ وامه واخته في الجنوب . وهذا ما يختصر كثيراً من الامور .. ومع ذلك فهل يريد جاك ان يساعد في الخدمة ؟ اما الاعمال ، فبامكان ليون ان يتكلم بالهاتف : سأكتب له لائحة . وأناسأمر على

المستشفى .. فيليب ... يجب الا ننسى المعهد ! »

وقالت له ادريان :

ـ لقد جاء سيدان من جمعية دفن الموتى ، وسيعودان في الساعة السابعة .

وأضافت بقلق خفيف :ـ وثم هل يعلم السيد انطوان ان الانسة جيز مريضة ؟

وراحا يطرقان باب جيز .

كانت الفتاة نائمة . وكانت ذات نظر محموم ، وخداها محمران . ولكن الامر لم يكن خطيراً. لقد تلقت برقية كلوتيلد في لحظة فارقتها فيها شجاعتها،وسببت صدمة اولى ؛ ثم الرحلة السريعة ، وخصوصاً لقاء جاك ، كل هذا قلب كيانها محدثاً في هذا الجهاز العظمي الشاب ثورة عنيفة بحيث انها ، حين تركت سرير المحتضر في سهرة المساء ، انتابها انقباض عضلي مؤلم جداً. واضطرت الى الارتماء على سريرها : لقد قضت الليل تتألم ، راصدة الضوضاء ، مدركة ما حـــدث ولكنها غير قادرة على النهوض .

واجابت بكثير من الكتمان على اسئلة انطوان الذي لم يلح .

ـ تيريفيه يأتي هذا المساء ، وسأرسله اليك .

وأشارت جيز بحركة من رأسها نحو غرفة السيد تيبو ؛ لم تكن تشعر بحزن كبير ولا تدري اية كلمات تقول . وقالت بخجل :

ـ اذن ، انتهى الأمر ؟

فحني رأسه عوضاً عن الجواب . وفكر فجأة بوضوح : « انا الذي انهيت حياته » . وقال موجها الكلام إلى ادريان :

ـ كرات ساخنة ولصقات بانتظار الطبيب .

وابتسم لجيز وترك الغرفة .

وردد : « لقد أنهيت حياته » . للمرة الاولى ظهر له عمله مع التراجـــع . وقال لنفسه على الاثر : « لقد احسنت صنعاً » . وفكر بسرعة وبوضوح : « يجب الا نكون حمقى : يوجد جبن ايضاً : حاجة جسدية للتخلص من ذلك الكابوس. ولكن بما انه كان لي فائدة شخصية في هذه النهاية، فقد كان يجب ان

اتفادى ذلك ؟ هيا ! » لم يكن يتملص ابداً من المسؤولية الرهيبة . « من المؤكد ان هناك خطراً في السماح للاطباء .. ان المراعاة العمياء لقاعدة ، ولو كانت مستحيلة ، غير انسانية ، هي ضرورية من حيث المبدأ .. » كلما اعترف بقوة القاعدة وشرعيتها كان يستصوب نقضها عن معرفة . وتابع : « قضية ضمير ، تقدير ، وانا لا اعمم . بل اقول ببساطة : في الحالة الحاضرة تصرفت كما يجب » .

وكان قد وصل الى غرفة الميت ، ففتح الباب باحتراس كما كان معتاداً ان يفعل لئلا يوقظ المريض . وفجأة استولى عليه منظر الميت . وانضمام فكرة الجثة التي هي يومية الى الصورة الابوية ، كان شيئاً جديداً ، محيراً . وظل واقفاً على العتبة ، ممسكاً نفسه . فأبوه ، ذلك الشيء الفاقد الحياة . الذراعان ممدودان إلى النصف ، والكفان مضمومان بلطف كثير الهدوء ! وقد بدا نبيلاً ، كثير الهدوء ! وقد أُحدث فراغ حول هذا الفراش الذي عرض الميت عليه : كانت المقاعد قد أُبعدت على محاذاة الجدران . والراهبتان ، نائمتان ، شبيهتان بتمثالين رمزيين يلبسان السواد ، ويحيطان بالميت حيث الجمود يكسب هذا المشهد جلالة أصيلة. اوسكار تيبو .. كثير من السلطة ، كثير من الكبرياء ، تحول إلى هذا العجز الصامت !

وكان انطوان يتردد في الاتيان بحركة ، لئلا يشوش هذا الصفاء . وعندئذ ردد لنفسه ان هذا الصفاء من صنعه ؛ وداعب بنظره ذلك الوجه المألوف الذي احسن بمصالحته مع الصمت والسلام ، وكاد يبتسم .

عند عودته فوجىء بوجود جاك ، وكان يعتقد انه لا يزال نائماً ، جالساً منقبضاً بالقرب من السيد شاسل .

وهذا ما ان رأى انطوان حتى وثب عن مقعده ليأتي اليه . كانت عيناه تلمعان وراء النظارتين المائجتين بالدموع . وامسك انطوان بكلتا يديه ، وقد رأى الوقت مناسباً ليعبر عن محبته للميت ، فتأوه شاخراً : « غلام .. غلام .

غلام ساحر .. » مشيراً كل مرة بذقنه الى السرير . وتابع بصوت منخفض وبيقين أهاجه معارض وهمي :

ـ كان يجب معرفته . انه مكدر قليلاً ، نعم ، بسبب الوقت الضائع .. ولكنه عادل جداً !

ومد ذراعه كأنه يريد ان يقسم ، وختم كلامه وهو يعود الى مكانه :

ـ انه محب حقيقي للعدل !

وجلس انطوان .

لقد حركت فيه هذه الغرفة طبقات متراكمة من الذكريات . وتحت رائحة عفونات السهرة ، التافهة ، المشبعة برائحة الصيدلية ، وتحت عطر الشموع الجديد ، كان يميز رائحة النسيج العتيق الازرق القديمة ، المحروق بالغبار ، الآتي من اجداد آل تيبو : رائحة صوفية جافة مزجت فيها خمسون سنة من الدهان على خشب الاثاث رائحة مبهمة من الصمغ . وكان يعلم اية طراوة من البياضات النظيفة تتفلت من الخزانة ذات المرآة اذا ُفتحت ، واية روائح من الخشب المدهون ، والصحيفة القديمة ، مع اريج الكافور اللاصق ، تتصاعد من ادراج الخزانة . وكان يعرف ايضاً الطعم الغباري لمركع الصلاة المصنوع من السجاد والذي ابلاه جيلان من الركب حتى الخيوط ، لأنه تنشقه عن قرب حين كان صغيراً ـ كان آنذاك هو المقعد الوحيد المناسب لقامته .

ليس هناك ضجة . ولا نسمة تحرك لهب الشموع .

وانطوان ، كجميع الذين يأتون الى هناك ، اخذ يتفحص الجثة ، محدقاً بنوع من الدهشة . ففي دماغه المتعب بذور افكار كانت تحاول ان تقاوم :

« من صنع من الاب كائناً مثلي ، وتلك الحياة التي كانت البارحة لا تزال فيه ، ماذا ؟ ماذا حل بها ؟ هل اختفت ؟ اتدوم في مكان آخر ؟ تحت اي شكل ؟ » وقاطع نفسه بتشويش : « يصل المرء الى التفكير بالبلاهات ! ومع ذلك فليست هي المرة الاولى التي ارى فيها ميتاً .. اعلم جيداً انه ليس هناك لفظ غير صالح اكثر من العدم ما دام تراكم الحيوات هو ما يجب قوله : الانتاش

الى ما لانهاية له ! »

نعم ، كنت غالباً ما اردد ذلك . وامام هذه الجثة لا أعرف شيئاً .. ان مفهوم العدم يفرض نفسه علي ويبدو لي شرعياً تقريباً . وفي الاعماق ، فان الموت وحده موجود : انه يدحض كل شيء ويتجاوز كل شيء .. بكيفية غير معقولة ! »

وتابع هازاً كتفيه : « كلا ، هذا قبيح .. ايحاءات يتركونها تسير حين يكون المرء هنا وانفه الى اعلى .. وهذا يجب الا يُعوّل عليه ! هذا لا يُعوّل عليه ! »

وبذل جهداً ليمتلك نفسه ووقف بوثبة . وعلى الأثر استولى عليه تأثر خاص ، ضاغط ، حار .

وخرج الى الرواق مشيراً الى اخيه ان يتبعه .

ـ قبل التصميم على شيء يجب معرفة ارادة والدي . تعال معي .

ودخلا معاً غرفة مكتب السيد تيبو . واشعل انطوان مصباح السقف ، ثم شمعدانات الجدران ، وغمر نور مدنس هذه الغرفة التي لم يشتعل فيها ابداً سوى مصباح الشغل تحت عاكس النور الاخضر . واقترب انطوان من المكتب . ورنت بفرح في الصمت حزمة المفاتيح التي سحبها من جيبه .

وظل جاك جانباً . وفطن الى انه عاد الى قرب منضدة الهاتف في نفس المكان حيث البارحة .. البارحة ؟ خمس عشرة ساعة فقط منذ ظهور جيز في هذا الباب ..

واجال نظراً عدائياً في هذا المكان الذي ظل وقتاً طويلاً يعتبره اكثر المزارات تحريماً ، ثم فجأة لم يعد هناك ما يمنع من الاعتداء عليه . ورؤية اخيه راكعاً ، كالسارق ، امام الادراج المفتوحة سببت له شعوراً بالقلق . وما يهمه ، هو ، من ارادة والده وكل هذه الاوراق ؟ وسار دون ان يفوه بكلمة .

وعاد نحو غرفة الميت التي مارست عليه جاذبية حنين ، حيث قضى بهدوء بين الحياة والحلم اكبر قسم من ليلته ، وتوقع ان يُطرد منها بسبب رواح ومجيء

المزعجين ؛ ولم يكن يريد ان يضيع ثانية واحدة بهذه المجابهة المؤثرة مع ايام شبابه ؛ لأن ليس هناك شيء بالنسبة اليه يمثل الماضي بشكل فاجع اكثر من جثمان ذلك الكائن الكثير القدرة الذي كان يجده دائماً معترضاً طريقه ، والذي غرق بكليته فجأة في عالم اللاواقع .

وبهدوء . وعلى اطراف اصابعه ، فتح باب الغرفة ، ودخــل وجلس . والصمت الذي تعكر لحظة عـاد واستتب ؛ واستطاع جاك ، بشعور من اللذة ، ان يستغرق من جديد في تأمل الميت .

سكون .

هذا الدماغ الذي لم ينقطع ثانية واحدة ، لا ليلاً ولا نهاراً ، طوال ثلاثة ارباع القرن ، عن جمع هذه الى تلك ، من الافكار والصور ، ها هو يتوقف إلى الابد . والقلب ايضاً . ولكن توقف التفكير بدا مؤلماً بشكل آخر لجاك الذي شكا منه مرات كثيرة ، كما يشكو من ألم ، من فعالية دماغه التي لم تنقطع ! (وحتى في الليل ، وقد انقطع عن العمل بسبب النوم ، كان يشعر بهذا الدماغ كأنه محرك مجنون يدور ، ويدور في رأسه ويجمع دون راحة تلك الرؤى الكاليدوسكوبية غير المتلاحمة ، والتي كان يسميها « أحلامـــاً » حين كانت تستبقي ذاكرته منها بعض الفضلات) . وذات يوم ، من حسن الحظ ، فان هذه الحمية المنهوكة قد انقطعت . وذات يوم ايضاً ، سوف يتخلص من عذاب التفكير . ويأتي الصمت اخيراً ؛ الراحة في الصمت .. وتذكر على ذلك الرصيف في مونيخ ، حيث كان يتنزه ذات مساء ، محـاولة انتحار رائعة .. عبارة ، كذكرى موسيقية ، غنت فجأة في ذاكرته : « سنرتاح .. » وكانت هذه هي نهاية مسرحية روسية شاهد تمثيلها في جنيف ؛ وكان لا يزال يرن في اذنه ايضاً صوت الممثلة ، وهي سلافية ذات أمائر طفلة ، بعينين بريئتين ، محمومتين ، كانت تردد مؤرجحة رأسها الصغير : « سنرتاح .. » لحن حالم ، صوت يجري بتناسب ، مصحوباً بنظرة متعبة فيها من الخضوع اكثر من الامل: «لم تحصل على السرور في الحياة.. ولكن صبراً ياعم فانيا ، صبراً .. سنرتاح..»

٨

بدأت الزيارات منذ انتهاء فترة الصباح : سكان البناية ، اهل الحي الذين كان السيد تيبو قد قدم اليهم بعض الخدمات . وقد هرب جاك قبل وصول اول الاقارب . وانطوان ايضاً طلب في جولات ضرورية . وجميع الاعمال التي كان السيد تيبو مشتركاً بها كانت تعد في لجنتها اصدقاء شخصيين . واستمر العرض حتى المساء .

كان السيد شاسل قد اتى الى غرفة الميت بالكرسي الذي كان يدعوه « الكرسي الصغير المتحرك » ، والذي كان يشتغل عليه منذ سنوات ، ولم يشأ ان يترك « المرحوم » طول النهار . وانتهى بأن اصبح جزءاً من الأبهة المأتمية ، بنفس رتبة الشمعدانات ، وغصن البقس ، والراهبات وهن يصلين . وفي كل مرة يدخل زائر كان السيد شاسل ينزلق عن مقعده ويحي القادم الجديد بحزن ويعود الى الجلوس .

وحاولت المدموازيل ، مرة بعد مرة ، ان تجعله يذهب . بدافع الغيرة دون شك ؛ فقد اسخطها ان تراه كثير الاخلاص وموجباً للقدوة . اما هي ، فعلى العكس ، لم تكن تبقى في مكان . كانت تتألم . (لا شك في انها كانت الوحيدة التي تتألم في البيت) . لم يكن للفتاة المسكينة شيء في كل حياتها التي قضتها عند الآخرين . وربما عرفت للمرة الاولى عاطفة التملك الوحشية : كان السيد تيبو هو ميتها . وفي كل لحظة تقترب من ذلك السرير الذي لم يكن يتيح لها تقوس ظهرها ان تراه بكامله ، كانت تسحب الشرشف ؛ وتهز رأسها ضامة اصابعها العظمية ، وتردد كشيء لا يصدّق :

— لقد دخل في راحته قبلي .

لا عودة جاك ولا وجود جيز لمسا النقاط الحساسة في هذا الضمير المتخدر الذي أصبح مقتصداً في كل ردة فعل ؛ فالولدان اختفيا من الحياة العائلية طوال

اشهر : وكانت قد انقطعت عن التفكير بها . وانطوان وحـده كان يحسب حسابه ، والخادمات . وهي أيضاً تغذّي اليـوم حيال انطوان غضباً عجيباً . فيما لحظة تعيين يوم وساعة الوضع في التـابوت كان لها معه مناقشة حقيقية . وفيما انه كان من رأيه استعجال هذه الدقيقة المريحة للجميـع ، حيث لا يعود الميت جثة ولا يكون سوى تابوت، فانها عاندت كأنه كان يريد حرمانها من الملكية الوحيدة التي بقيت لها : تأمُّل آخر آثار السيد ، آخر ساعات المظهر الجسدي . كانت تبدو انها على علم بأن اختفاء السيد تيبو لن يكون حقيقة سوى اختفـاءٍ للميت ولها . أما للآخرين ، ولأنطوان على الخصوص ، فان هذه النهاية هي بداية شيء آخر ، عتبة عصر جديد . ليس هناك مستقبل بالنسبة إليها : ان انهيار الماضي يعادل السقوط الكلي .

وفي نهاية فترة بعد الظهر ، حين عاد انطوان على قدميه ، نشيطاً ، متمتعاً بذلك الهواء الجليدي الذي يقرص العيون ويشحذ العزيمة ، التقى أمام باب المنزل بفليكس هيكيه وهو في ثياب الحداد . وقال الجرّاح :

— لن أدخل . أردت فقط أن أصافحك اليوم .

وكان توريه ، ونولان ، وبوكار قد وضعوا بطاقاتهم . ولوزيل تكلم بالهاتف. والتعاطف الذي أبداه الجسم الطبي أثر في انطوان بشكل خاص بحيث أدرك في الصباح ، حين جاء فيليب شخصياً إلى شارع الجامعة ، وأمام تعازي المعلم ، ان ليس السيد تيبو هو الذي مات ، ولكن الدكتور انطوان تيبو هو الذي فقد أباه .

وتأوه هيكيه وقال بصوت رصين :

— اني أرثي لك يا صديقي . وقد قيل بحق ان الموت بالنسبة إلينا هو رفيق قديم ، حين يكون هنا ، بالقرب من بيتنا ، أليس كذلك ؟ كأننا لم نلتق به أبداً . — وأضاف : — اني أعرف ما هو هذا .

ثم انتصب ومد يده ضمن قفاز أسود .

ورافقه انطوان حتى العربة .

كانت هذه هي المرة الأولى التي حدث فيها التقارب في ذهنه .... لا وقت لديه الآن للتفكير من جديد « بكل هذا » ؛ ولكنه استشف ان « كل هذا » كان ، رغماً عنه ، أكثر خطورة مما توقع اولاً . فهو يدرك ان العمل الحاسم الذي تم البارحة بواسطته وببرود (والذي لا يزال يوليه استصوابه الكامل) ، يجب الآن ان يضيفه إلى نفسه ، ان يمزجه في نفسه كإضافة احدى تلك التجارب الجوهرية التي لها على تطور الانسان دوي عميق ؛ وكان يشعر جيداً ان هذا الثقل الزائد سوف يضطره بقضاء محتوم إلى تبديل مركز ثقله. وعاد إلى بيته حالماً.

في الغرفة الملاصقة غلام عاري الرأس ، ذو لثام ، أحمر الأذنين ، كان ينتظر . وعند وصول انطوان نهض ، واحمر وجهه . فعرف انطوان فيه المستخدم الصغير في مكتب المحاماة؛ وكان عازماً على ألا يعود أبداً لرؤية الولدين.

– صباح الخير يا روبير . ادخل الى هنا . ما الامر اذن ؟

فبذل الاخر جهداً ، وحرك الشفتين . ولكنه كان خجلاً جداً ليجد « عبارة » . وعندئذٍ ، وبشجاعة ، اخرج من تحت معطفه باقة بنفسج ، وفهم انطوان حالاً ، فاقترب واخذ الزهور :

– شكراً يا صغيري . سآخذ باقتك الى فوق . انت كثير اللطف لتفكيرك بهذا . فأسرع الولد مصححاً :

– اوه ! ان لولو هو الذي جاءته هذه الفكرة .

فابتسم انطوان :

– كيف حال لولو ؟ وانت الاتزال تتخلص من المشاكل ؟

فقال روبير بصوت طري :

– بالنسبة لهذا !

ولم يكن ينتظر ان يستطيع انطوان الابتسام في يوم كهذا ؛ فاختفى قلقه حالاً ؛ ولم يكن يطلب الا ان يثرثر . ولكن انطوان كان لديه هذا المساء شيء آخر يقوم به غير الاصغاء اليه .

ـ ستأتي ذات يوم مع لولو . وستقص علي ما تفعل . نهار احد ، اتريد ؟
كان يشعر نحو هذين الولدين، اللذين لا يكاد يعرفهما ، بمحبة حقيقية ، وأضاف:
ـ أتعد بذلك ؟
وأصبح فجأة وجه روبير رصيناً :
ـ اعدك يا سيدي .

وبينما كان انطوان يقود الولد حتى الدهليز عرف صوت السيد شاسل وهو يتحدث مع ليون في المطبخ . ففكر منزعجاً : « هذا واحد ايضاً يريد محادثتي. من الافضل الانتهاء من ذلك » . وادخل الرجل الساذج الى مكتبه .

اجتاز السيد شاسل الغرفة قافزاً ، وراح يجثم على المقعد الاكثر بعداً ، وابتسم بمكر مع ان تعبير عينيه كان تعبير حزن لانهاية له . وسأل انطوان :
ـ ماذا كنت تريد ان تقول يا سيد شاسل ؟
كان صوته ودياً ، ولكنه ظل واقفاً يجرد بريده .
وقال الاخر رافعاً حاجبيه : انا ؟

فقال انطوان لنفسه وهو يعيد طي الرسالة التي قرأها : « حسناً ، سأحاول الذهاب الى هناك غداً صباحاً بعد المستشفى » .

وكان السيد شاسل يتفحص قدميه المتدليتين ، وصرح باحتفال :
ـ هذه الاشياء يا سيد انطوان كان يجب ألاّ تكون .
فقال انطوان وهو يفتح غلافاً آخر : ماذا ؟
فردد الاخر كالصدى : ماذا ؟
وقال انطوان وقد اهتاجت اعصابه :
ـ ما هو هذا الذي كان يجب ألاّ يكون ؟
ـ الموت .

لم يكن انطوان ينتظر ذلك ، فاضطرب ورفع رأسه . كان نظر شاسل مغطى بالدموع . وقد نزع نظارتيه ، ونشر منديله ، ومسح عينيه . وتابع ، مقطعا عباراته بوقفات وتنهدات :

ـ لقد رأيت اولئك السادة سان روك . وطلبت لهم قداديس ، لتبرئة الضمير يا سيد انطوان ليس اكثر . لان زيادة البحث بالنسبة الي . .
واستمر دمعه يسيل بوابل شحيح . وفي كل مرة يسد فيها عينيه كان ينشر منديله على ركبتيه ،ويعيد طيه بين الطيّات ، ويدخله في جيبه مسطحاً كالمحفظة . وقال دون أي رابط :
ـ لقد كان لدي عشر آلاف فرنكاً ادّخرتها .
ففكر انطوان : « آه ! » وقاطعه حالاً :
ـ لا أدري اذا كان الوقت قد اتسع لوالدي لاتخاذ ترتيبات بصددك يا سيد شاسل . ولكن كن مطمئناً : فأخي وأنا سنؤمن لك ، طوال حياتك ، الرواتب الشهرية التي كنت تتقاضاها هنا .
كانت هذه ، منذ وفاة السيد تيبو ، هي الفرصة الاولى التي سنحت لتسوية قضية مالية والقيام بعمل وإرث . وفكر انطوان ان هـذا التعهد حتى موت السيد شاسل كان عملا اريحياً . وجميل أن يكون في وضعية تمكنه من التصرف بلباقة . ثم انحرف تفكيره رغماً عنه فحاول تقييم الثروة الابوية وكم ستكون حصته ؛ ولكن لم يكن لديه حول ذلك اية معطيات واضحة .
كان السيد شاسل قد اصبح قرمزي اللون. وبداعي التبسط دون شك سحب من جيبه سكيناً صغيرة وبدا انه ينظف اظافره . وقال اخيراً بقوة ، ولكن بدون ان يرفع انفه :
ـ ليس هناك دخل دائم .
ثم تابع بنفس النبرة :
ـ رأسمال ، نعم . ولكن ليس هناك دخل دائم ـ ثم قال وقد رق قلبه : ـ بسبب ديديت يا سيد انطوان : تلك الصغيرة التي اجريت لها عملية . أتذكر ذلك جيداً ؟ في الواقع كأنها من نسلي ، اذن دخل دائم . امل خائب . ماذا سأترك لها ، تلك الضعيفة ؟
ديديت ، العملية ، راشيل ، الغرفة التي تدخلها الشمس ، جسد في ظلام

تخدع النوم ، رائحة عقد العنبر الاشهب .. كان انطوان يصغي باذن لاهية ، وابتسامة مبهمة على شفتيه ، تاركاً بريده ، متابعاً بصورة آلية عيني وحركات الرجل الساذج . وفجأة ، دار على عقبيه : الهرم الصغير الذي كان يقلم اظافره بالسكين قطع ظفر الابهام بتمهل ، ودفعة واحدة ، كما تقطع السدادة . وبحركة منحنية فصل نحاتة ظلف يحدث صريراً . وقال انطوان صاراً باسنانه :

ـ اوه ! كفى يا سيد شاسل !

وقفز السيد شاسل عن كرسيه وتمتم :

ـ نعم ، نعم ، لقد تجاوزت ..

ولكن القضية كانت بالنسبة اليه ذات اهمية بحيث جازف بآخر هجوم :

ـ رأسمال صغير يا سيد انطوان ، هـذا هو الافضل . ان مـا يلزمني هو الرأسمال . لدي فكرتي الصغيرة ، انا ، منذ وقت طويل . وسأشرح لك ـ وتمتم كما في حلم : ـ فيما بعد .

ثم غيّر النبرة وصوّب نحو الباب نظرة غير معبرة :

ـ القيـام بقداديس ، نعم ، اذا شئتم . ولكن في نظري ان المرحوم ليس بحاجة الى شيء . رجل كهذا لم يذهب على جري الماء . وفي نظري فان الامر قد تم في الساعة الحالية ..

وبلغ الدهليز بوثبات صغيرة ، هازاً رأسه الاشيب ومردداً بهيئة مطمئنة :
« .. في الساعة الحالية ، قد نالها ، جنته ! »

ما كاد شاسل يذهب حتى اضطر انطوان إلى استقبال الخياط لتجربة بزة سوداء . وكان التعب قد أرهقه وهذه الوقفة المملّة امـام المرآة قد اجهزت عليه .

وكان قد صمم ان ينام ساعة قبل الصعود الى الشقة حين وجد نفسه ، وهو يوصل الخياط ، وجهاً لوجه مع مدام دي باتنكور التي كانت على وشك ان ترن الجرس . كانت قد تكلمت بالهاتف من مدة قريبة لتأخذ موعداً ، وقـد أعلموها « بالخبر الرهيب » . عندئذ قطعت نهارها لتأتي .

واستقبلها انطوان بأدب ، ولكن على العتبة . فقبضت على يده ، وأخذت تتحدث بصوت مرتفع ، مظهرةً حزنها على هذا الحداد بملاطفة صريحة .

ولما لم تذهب اصبح من الصعب ان يبقيها هكذا واقفة على المدخل ؛ مع انها توصلت الى ان تجعل الشاب يتقهقر خطوة ، وأن تجد نفسها في الغرفة . ولم يكن جاك قد خرج كل فترة بعد الظهر من غرفته التي كان بابها قريباً ؛ وخطرت لأنطوان فكرة ان اخاه سمع هذا الصوت النسوي وعرفه دون شك ، وهذا الافتراض كان غير مستحب لديه ولم يدر لماذا . فأظهر التبسط ، وتخلص ، وفتح باب مكتبه ووضع سترته بسرعة . (وكان بالقميص حتى ذلك الوقت ، الأمر الذي اضاف الى حزنه الغاضب انه فوجىء) .

طوال هذه الأسابيع الأخيرة بدلت الظروف قليلاً من علاقاته مع زبونته الجميلة . وكانت قد ضاعفت الزيارات بحجة انها تحمل اليه اخباراً عن المريضة الصغيرة التي كانت تقضي فصل الشتاء في با - دي - كاليه مع المدرّسة الانكليزية والزوج . (لأن سيمون باتنكور ترك املاكه وصيده دون تردد ليسكن بيرك بقرب ابنة زوجته . بينما هذه كانت تروح وتجيء كالمكوك ، واجدةً دائماً سبباً لتقضي بضعة ايام من كل اسبوع في باريس) .

ورفضت ان تجلس ؛ ولم تكن تنتظر سوى فرصة لتعود الى الامساك بيد انطوان ، وتبقى منحنية نحوه ، مغضنة الجفون ، والصدر مرتفع بالتنهدات . كانت دائماً تنظر الى الرجال من شفاههم ورأت من خلال اهدابها انه هو ايضاً يضع نظره في كل لحظة على فمها ؛ واضطربت بشدة . كان انطوان يبدو لها جميلاً هذا المساء ؛ وقد وجدت له وجهاً رجولياً اكثر من المعتاد، كأن القرارات التي كان عليه ان يتخذها تركت على وجهه آثاراً ظاهرة من العزيمة .

ورفعت نحوه عيناً مشفقة :

- يجب ان تكون قد تعذبت كثيراً .

فلم يجد انطوان شيئاً يجيب به . ومنذ وجودها اتخذ هيئة احتفالية بشكل خفيف اكسبته تبسطاً ولكنها اقلقته ، واستمر بشيء من المرارة ينظر اليها من

اسفل . فرأى الحنجرة تخفق بتثاقل تحت الثوب ؛ ولفحت وجهه نفخة من الحرارة ، فرفع رأسه وفاجأ بروقاً صغيرة ضاحكة في عيني آن الجميلة : كان فيها هذا المساء ، كرغبة ، مشروع ، فكرة مجنونة قليلاً بذلت جهدها لئلا تبوح بها .

وتابعت بفتور :

ـ الأكثر قسوة يأتي فيما بعد ، حين تعود الحياة سيرتها ويصطدم المرء بالفراغ في كل مكان .... ستسمح لي بأن آتي قليلاً لأراك ، اليس كذلك؟..

فتطلع في وجهها . وقد أقامه حقد مفاجىء ، فابتسم ابتسامة صرت لها أسنانه وقذف بفظاظة : اطمئني يا سيدتي : لم أكن أحب والدي !

وعض شفتيه على الأثر ، ان تفكيره بذلك كان يقلب كيانه أكثر مما لو كان قاله . وفكر : « ربما كانت صرخة صادقة تلك التي انتزعتها مني هذه الفاجرة ! »

وظلت ذاهلة ، مندهشة من المعنى اقل مما جرحت من النبرة . وتراجعت خطوة ، الوقت الذي امتلكت به نفسها . وقالت :

ـ اذن !

واخيراً رنت ضحكتها الكريهة صريحة بعد كل هذا التصنع .

اثناء الدقيقة التي قضتها في ادخال يديها في قفازيها فان غضناً حائراً ، يرسم كشرة او ابتسامة ، لم ينقطع عن مناكدة شفتيها ، وانطوان ، المهاجم ، كان يراقب بعين قلقة الرعشة اللغزية لهذا الفم الذي كان يمدده قليل من الخضاب الحاد كالخدش . ولو سمحت لنفسها في هذه اللحظة بابتسامة سفيهة فربما لن يتمالك من القائها خارجاً .

وكان يتنشق رغماً عنه العطر المشبعة به ثيابها . ولاحظ من جديد الحنجرة الثقيلة التي تخفق تحت اعلى الثوب ، وتمثل بعنف ذلك الصدر العاري ، وشعر ان احشاءه تحركت .

وحين زررت إبزيم فرائها زادت من ابتعادها ورفعت جبهتها وتطلعت اليه

بطلاقة . وكانت هيئتها تبدو انها تسأل : « أأنت خائف ؟ »

وتتطلعا ببعضهما البعض . نفس الغضب البارد ، نفس الحقد . ولكن أكثر ايضاً : ربما نفس الخيبة : نفس الانطباع المبهم لفرصة فاتت . ثم لما لم يقل شيئاً، ادارت له ظهرها ، وفتحت الابواب بنفسها وخرجت دون ان تهتم به .

واصطفق مصراع الباب وراءها .

ودار في مكانه . ولكن بدلاً من أن يعود الى مكتبه ظل جامداً برهة ، اليدان رطبتان ، والدماغ في فوضى ، وقد أصيب بالصمم بسبب الدم الذي يضرب في الصدغين ، متنشقاً بحدة ذلك العطر المقنع الذي ظل كأنه وجود . ودار بجنون نصف دورة . وفكرة الاستيلاء على هذه الطبيعة العنيفة بعد أن جرحها الى هـذه الدرجة ، ضربت عقله كضربة سوط وأصبحت خطرة . ووقعت عيناه على قبعته ومعطفه المعلقين في الجدار ؛ فأخذهما بيده والقى نظرة شاردة نحو باب جاك ، واندفع خارجاً .

٩

لم تكن جيز قد تركت سريرها . نصف غافية ، متشنجة ، متألمة حين تتحرك ، كانت تسمع بشكل مشوس ، في الرواق ، رواح ومجيء الزائرين الذين يسيرون بجانب الجدار وراء رأسها . كانت فكرة واحدة تبرز من الضباب : « لقد وجد .. إنه هنا ، في البيت .. بامكانه ان يظهر بين لحظة واخرى .. سيأتي » . وكانت ترقب خطاه . ولكن نهار الجمعة انقضى بكامله ، ثم السبت ، دون ان يظهر .

وحقيقة القول انه كان يفكر بها ، وبشكل ملازم مهتاج . ولكنه كان يتهيب انفراده بها لئلا يتمخض ذلك عن إثارته ، وكان ينتظر دون عجلة ان تسنح الفرصة . إلا انه كان منذ السهرة يخشى ان يلتقي به احد ويعرفه ، بحيث لم يترك الطابق الارضي ابداً : لقد صعد في الليل فقط واجتاز الشقة بخطى الذئب وعاد الى الجلوس في زاوية من غرفة البيت لم يخرج منها إلا في الصباح

الباكر .

السبت مساءً ، بعد ان سأله انطوان عرضياً اذا كان قد رأى جيز ، عزم عند خروجه من المائدة ان يذهب ويطرق باب غرفتها .

كانت جيز تتحسن . والحمّى سقطت تقريباً ، ووعدها تيريفيه بالنهوض في الغد . وكان النعاس يغالبها وهي تنتظر ساعة النوم في ظلام نصفي .

وقال بنبرة باشة :

ـ كيف الحال ؟ ولكن هيئتك حسنة .

كانت تظهر حقيقة بمظهر الصحة في ظل عاكس النور الاشقر ، حيث كانت عيناها الكبيرتان تلمعان .

ولم يكن قد اقترب من السرير . وكانت هي التي مدت يدها ، بعدهنيهة قلق . ومن الكم العريض قليلاً رأى الذراع الذي خرج حتى ما فوق المرفق ، عارياً . وأمسك باليد ، وفعل كطبيب . فبدلاً من ان يشد عليها اخذ يتلمسها : كان الجلد حاراً .

ـ قليل من الحمّى ايضاً ؟

ـ ولكن كلا .

وألقت نظرها نحو الباب : وكان قد تركه مفتوحاً كأنه يشير الى انه يقصد فقط ان يدخل ويخرج . واقترح :

ـ اتشعرين بالبرد ؟ اتريدين ان اغلق الباب ؟

ـ كلا ... كما تريد .

فنفذ ذلك بطيبة خاطر واغلق الباب ليكونا بمفردهما .

وشكرته بابتسامة ، ووضعت رأسها في تجويف المخدة ؛ وشكل شعرها عليها بقعة ذات سواد فاحم . ولما كان قميصها مفتوحاً قليلاً بشكل يظهر منبت العنق فانها وضعت عليه يدها لتمنع الطوق من ان ينفتح . ولاحظ جاك انحناء المعصم البديع ولون هذه البشرة الداكنة التي اتخذت في هذه الملابس تنوع لون الرمل الرطب . وسألت :

ـ ماذا تفعل كل النهار ؟

ـ انا ؟ اختبىء حتى لا ارى الناس الذين يأتون .

عندئذ تذكرت موت السيد تيبو وفكرت بحداد جاك . ولامت نفسها لعدم شعورها بكثير من الحزن . وجاك ، هل كان كثير الحزن ؟ لم تجد الكلمات الودودة التي كان عليها ان تقولها . لقد فكرت فقط بان اختفاء الاب جعل الولد حراً تماماً . وخطرت لها هذه الفكرة : « اذن لم يعد بحاجـــة الى الرحيل ثانية » .

ـ كان عليك ان تخرج قليلاً .

ـ نعم ، اليوم بالضبط شعرت برأسي ثقيلاً ، وقمت ببضع خطوات . ـ وتردد ـ لأشتري الصحف .

كانت الحقيقة اكثر تعقيداً : في الساعة الرابعة اهتاجت اعصابه بسبب هذا النوع من الانتظار الذي لا داعي له . ودفعته ايضاً نوايا غامضة لم يتميزها الا فيما بعد ، فخرج فعلاً ليبحث عن بعض الصحف السويسرية ، دون ان يعرف إلى اين كان يسير .

وسألت بعد صمت طويل :

ـ اعشت كثيراً في الهواء الطلق هناك ؟

ـ نعم .

لقد أُخذ على غفلة بكلمة « هناك » وأجاب لاإرادياً بنبرة خرقـــاء شبه عنيفة ؛ وأسف على الأثر . وفكر : « مع ذلك ، منذ وطئت قدماي هـــذا البيت ، فان كل ما افعله ، وكل ما اقوله ، وكل ما افكر به ، يرن خطأ ! »

وكانت عيناه في كل لحظة تسيران ، رغماً عنه ، إلى ذلك السرير الذي يتركز عليه نور المصباح بنوع من الخيانة . وكان نظره يستقر على ذلك الغطاء الصوفي الابيض ، الخفيف الى درجة انه يرسم اقل نتوء لهذا الجسد الفتي ، ومحيط الخصر ، وامتداد الساقين ، وبروز الركبتين المنفصلتين قليلاً . ورأى من اللائق ان يتخذ هيئة طبيعية ، وصوتاً طليقاً ، وشعر اكثر فأكـــثر انه

غير مرتاح .

كانت تريد ان تقول : « اجلس اذن ! » ولكن لم تجرؤ لأنها في تلك اللحظة لم تستطع الالتقاء بنظرته .

وبدافع التبسط اخذ يتفحص الاثاث والاشياء الصغيرة ، والمذبح الصغير حيث يلمع الطلاء الذهبي . وتذكر صباح وصوله حين جـــاء يلتجىء هنا . وقال بلطف .

ـ غرفتك جميلة . وهذا المقعد لم يكن عندك في السابق .

ـ ان اباك هو الذي اعطانيه يوم بلغت الثامنة عشرة ، الا تعرفه ؟ كان على سطح الدرج الاعلى في ميزون ـ لافيت ، تحت ساعة الكوكو !

ميزون ! وتخيل فجأة ذلك الدرج في الطابق الثاني يغمره نور النهار من الزجاج ويمتلىء طوال فصل الصيف بالذباب الذي يحدث عند مغيب الشمس طنين قفير مهتاج . وتخيل ايضاً ساعة الكوكو ذات السلاسل ؛ وسمع في سكون الدرج ، اربع مرات في الساعة ، النداء المضحك الصادر عن العصفور الخشبي الصغير .. وهكذا ، اثناء كل هذا الوقت الذي قضاه بعيداً فان كل شيء ظل كما هو بالنسبة اليها . وهو نفسه ، بعد كل شيء ، الم يجد نفسه كما كان ، او تقريباً كما كان ؟ الم يفاجىء في كل لحظة ، وفي انعكاساته حركة مألوفة في السابق ، منذ ان عاد ؟ وطريقته تحت ، في حك قدميه بالحصير ، ثم في ان يجعل باب الدخول يقرقع ، وتعليق معطفه في نفس المشجبين كما في السابق قبل اشعال الكهرباء .. وحين كان يروح ويجيء في غرفته ، هل كانت كل حركة من حركاته شيئاً آخر سوى تذكار لاواعٍ عاد وتحول الى فعل ؟

كانت جيز تتفحص خلسة ، وفي الظلام ، ذلك الوجه القلق ، ذلك الفك ، وتلك الرقبة ، وتينك اليدين ، وقالت بصوت منخفض :

ـ كم اصبحت قوياً !

فالتفت وابتسم . كان خفيةً يعتز بقوته لأنه قضى كل طفولته يتعذب لانه كان ضعيفاً . وفجأة ، وبدون تفكير ـ ردة فعل ايضاً ـ هتف ، وقد دهش

هو نفسه من هذه الذكرى :

ـ « كان الماجور فان دي كويب ذا قوة غير مألوفة الا قليلا » .

وأنعشت اندفاعة فرحة وجه جيز . انها الاسطورة التي كانا قد قرآها معاً عشرين مرة في اسفل صورة في كتابهما المفضل : وكانت حوادث المغامرة قد جرت في غابات سومطرة ويُرى ماجور هولندي يهزم غوريللا مخيفة وهو يسخر .

ـ « كان الماجور فان دي كويب نائماً بدون احتراس في ظل شجرة باوباب. « Boabab

أضاف ذلك بمرح ، والقى رأسه الى الوراء مغمض العينين ، وفتح فمه ، لأن الماجور كان يشخر .

وضحكا ، ورأيا بعضهما البعض وهما يضحكان ، ناسيين البقية ، مغترفين بلذة من هذا الكنز المضحك لطفولتهما ، والذي لا يخص سواهما . وتابعت :

ـ وصورة النمر التي مزقتها لي في يوم غضب !

ـ نعم ، ولماذا اذن ؟

ـ ولكن بسبب الضحكة المجنونة امام الاب فيكار .

ـ اية ذاكرة لك يا جيز !

فقالت :

ـ وانا ايضاً اردت فيما بعد ان اروض ابناً للنمر ونمت في المساء معتقدة انني اهدهد النمر بين ذراعي .

وساد صمت . واستمرا يبتسمان لبعضهما البعض لاهيين .وكانت جيز هي الاولى التي عادت تفكر . وقالت :

ـ لايمنع .. حين اتذكر تلك الاوقات فلا اجد شيئاً تقريباً سوى ايام ضجر طويلة لا تنتهي .. وأنت ؟

وأتعبتها الحمى. وذكرى الماضي هذه اكسبتها هيئة نائمة قليلاً،وهذا الضعف كان يمتزج جيداً مع وضعيتها المتمددة ونظرها المداعب ، وصبغتها العائدة الى

البلدان الحارة .

وتابعت ، وقد رأت ان جاك يكتفي بالعبوس دون ان يجيب :

ـ حقيقة هذا مخيف ، كثير من الضجر على طفلة ! ثم تلاشى الضجر حوالي السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة . ولا اعرف لماذا . داخلياً . والآن فأنا لا اعرف الضجر . حتى عندما .. (كانت تفكر : « حتى عندما اكون تعيسة بسببك » ولكنها قالت فقط :) حتى عندما لا تسير الامور سيراً حسناً .

وصمت جاك ، منخفض الانف ويداه في اعماق جيوبه . فاستحضار الماضي كان يثير فيه رجفات حقد . فما من شيء في الحياة التي عاشها يجد حظوة عنده.لم يشعر ابداً في اية فترة من حياته ، ولا في اي مكان ، انه متوازن ، وانه في مكانه ، وعلى ارضه الحقيقية ـ مثل انطوان. اغتراب في كل مكان . في افريقيا، في ايطاليا، في المانيا.حتى في لوزان كما في الخارج تقريباً. انه ليس مغترباً فقط، بل مطارد . مطارد من اهله ، مطارد من المجتمع ، من شروط الحياة .. مطارد مما لا يدري ، وكان يبدو انه آتٍ من تلقاء نفسه .

وبدأت جيز :

ـ الماجور فان دي كويب ..

كانت تتريث في تذكارات الطفولة لانها لم تكن تستطيع ان تنبس بكلمة عن التذكارات الاكثر بعداً والتي تحاصرها . ولكنها صمتت : كانت تشعر انها لن تخرج اية لهبة من هذا الرماد .

واستمرت في تفحص جاك صامتة ، دون ان تستطيع حل طلاسم كلمة اللغز . لماذا رحل بالرغم مما جرى بينهما ؟ بعض العبارات المبهمة التي تفلتت من انطوان كانت قد بعثت فيها الاضطراب دون ان تشرح لها شيئاً . ماذا صار جاك اثناء هذه السنوات الثلاث ؟ اية رسالة اذن كانت تحمل الورود الحمراء المرسلة من بائع الزهور في لندن ؟

وفكرت فجأة : « لكم غيروه لي ! »

وتمتمت بتأثر لم تستطع هذه المرة ان تخفيه :

– لكم تغيرت يا جاكو !

وادركت من نظرة جاك المقتضبة ومن ابتسامته المكتومة ان هذا التأثر لم يعجبه . فبدلت الوجه والصوت حالاً ، واندفعت بمرح في حكاية عن حياتها في الدير الانكليزي :

– إنها جميلة تلك الحياة المنظمة .. في الصباح لو تعلم كم يكون المرء نشيطاً للشغل بعد الرياضة في الهواء الطلق وتناول طعام الصباح !

(لم تقل انها اثناء هذه الاقامة في لندن ، كانت فكرة ايجاده هي سندها الوحيد . ولم تعترف ايضاً كم ان شجاعتها في الصباح كانت تتلاشى ساعة بعد ساعة ولا اية امواج من الشقاء كانت تهاجمها في المساء في مضجعها ، في قاعة النوم) .

– ان الحياة الانكليزية مختلفة جداً عن حياتنا ، وجذابة .

وتعزت لإيجادها هذا المكان المشترك فتمسكت به لتدفع تهديد صمت جديد:

– جميع الناس في انكلترا يضحكون عمداً . لأجل لا شيء . لا يريدون مطلقاً ان تكون الحياة شيئاً كئيباً : اذن، كما تعلم ، فهم يفكرون اقل ما يمكن ويلعبون . كل شيء بنظرهم يصبح لعباً : ابتداء من الوجود !

كان جاك يسمع هذه الثرثرة دون ان يقاطعها . وهو أيضاً سوف يذهب الى انكلترا ، سوف يذهب الى روسيا ، سوف يذهب الى اميركا . ان المستقبل كله امامه ليذهب الى الخارج ويبحث . كان يبتسم بداعي المجاملة ويستصوب برأسه. انها لم تكن بلهاء. فهذه السنوات الثلاث انضجتها كثيراً. وتجملت أيضاً وتهذب ذوقها .. ومرة اخرى ايضاً القى نظره على هذا الجسد الدقيق الذي يُشعر به تحت الغطاء ، كأنه مسترخ بفعل حرارته الخاصة . واستولى عليه الماضي بعنف : وعاش كل شيء من جديد : رغبته المفاجئة ، وعناقهما تحت أشجار ميزون الكبيرة . عناق طاهر ؛ ومع ذلك ، فبعد كثير من السنين، بعد كثير من المغامرات فانه لا يزال يشعر بذلك الجسد المنطوي على ذراعه، وبتينك

الشفتين اللتين لا تجربة لهما على فمه ! وفي مدى ثانية انهزم العقل ، والارادة ، وكل شيء . ولماذا لا ؟ وسار ايضاً حتى الى ما كان يفكر في الأيام الماضية : « اجعل منها زوجتي ، اتزوجها » . ولكن تفكيره اصطدم حالاً بشيء مظلم ، داخلي ، لم يكن يميزه بوضوح : عائق لا يمكن اجتيازه ، قائم في نفسه .

ثم ، بينما كانت نظراته تطوف مرة اخرى على هذه الاعضاء الحية اللدنة المتمددة في هذا السرير ، فان مخيلته المأهولة بكثير من ذكريات الماضي تخيلت فجأة ، في سرير آخر ، محيط خصر آخر مشابه ، ضيق ومستدير ، وقد قولبه الشرشف كذلك ؛ والرغبة التي لامسته ذابت في عاطفة رأفة . فقد تصور على مضجعه الحديدي ، تلك البغي الصغيرة في ريشنهال ، فتاة في السابعة عشرة صممت سراً على ان تموت . وقد وجدت جالسة على الارض ، مخنوقة بأنشوطة مثبتة في مزلاج خزانة حائط. وكان جاك احد الأوائل الذين وصلوا الى الغرفة ؛ وتذكر رائحة الشمع المحروقة النتنة التي كانت منتشرة فيها ؛ وتصور على الخصوص الوجه المسطح اللغزي للمرأة التي لا تزال شابة ، والتي كانت قد كسرت في داخل الغرفة بيضاً في موقد لا يزال بارداً : لقد رضيت أن تتكلم مقابل قليل من المال ، حتى انها اعطت توضيحات غريبة ؛ وحين سألها جاك اذا كانت قد عرفت الميتة الصغيرة جيداً هتفت بتعبير واضح لا يُنسى :

ـ ولكن كلا ؟ فأنا الام .

وكان على وشك سرد هذه الذكرى على جيز . ولكن هذا يصبح حديثاً عن « هناك » ويمهد دون ترو لأسئلة ..

كانت غارقة في سريرها تلتهمه بعينيها من خلال اهدابها نصف المقفلة . ولم تكن تستطيع شيئاً ؛ وكانت في كل لحظة تمسك نفسها عن الصياح : « ولكن تكلم ! من انت الآن ؟ وأنا ؟ أنسيت كل شيء إذن ؟ »

وكان هو يروح ويجيء ، متأرجحاً من قدم الى اخرى بهيئة مهمومة ، غائبة . وحين تلتقي عيناه بنظرة جيز المحمومة كان يشعر بانشقاق لا يحتمل بينه وبينها ، بحيث كان يتظاهر حالاً ببرود مفرط ؛ وما من شيء كان يشي بمقدار ما كانت

تبعث فيه النشوة تلك الهيئة الصبيانية ، وتلك البراءة التي تظهرها هكذا بين اغطية السرير البيضاء بعنقها العاري ! كان يشعر حيال هذه الفتاة المتألمة بكل حنو الأخ الاكبر . ولكن كم من ذكريات دنسة جاءت تنزلق دون انقطاع بينه وبينها ! واية مرارة في ان يشعر انه كبر كثيراً ـ وانه منهوك ، ملوث !

وسأل مراوغاً لأنه رأى مضرب تنس على سطح الخزانة :

ـ يجب ان تكوني قد اصبحت لاعبة تنس من الدرجة الاولى .

فانتقلت بسرعة من عاطفة الى اخرى ولم تستطع ان تمحو ابتسامة كبرياء ساذجة :

ـ سترى .

واضطرب حالاً . هـذه الكلمة افلتت منها . « سترى .. » اين ؟ متى ؟ يا لها من حماقة !

ولكن جاك بدا انه لم يلاحظ شيئاً. كان بعيداً عن التفكير بجيز.والتنس، وميزون ـ لافيت ، وثوب ابيض .. وتلك الطريقة الجافة التي كانت «لها» في القفز عن الدراجة على باب النادي .. لماذا كل هذه المصاريع المقفلة في جـادة الاوبسرفاتوار ؟ (لانه في فترة ما بعد الظهر تلك ، حين خرج دون ان يعرف جيداً الى اين يسير ، فان قدميه قادتاه حتى اللوكسمبورغ ، ثم حتى جـادة الاوبسرفاتوار . وكان النهار قد بدأ بالهبوط ، فصار يمشي بسرعة ، رافعـاً طوقه . وكان يسرع دائمـاً في الاستسلام لميوله لكي يتخلص منهـا فيما بعد . وأخيراً توقف ، وتطلع فجأة . كانت كل النوافذ مقفلة . وكان انطوان قد قال بحق ان دانيال يقوم بخدمته العسكرية في لونيفيل ، ولكن الآخرون ؟ لم تكن الساعة متأخرة لتوضيح ان المصاريع.. ومع ذلك فقليلاً ما يهم، قليلاً ما يهم.. عندئذ ادار ظهره وعاد من اقصر طريق) .

هل تدرك كم كان تفكير جاك بعيداً عنهـا ؟ لقد مدت ذراعيهـا بطريقة عفوية كأنها تريد ان تصل اليه ، وتستعيده ، وتجتذبه .

وقال بمرح دون أن يظهر انه لاحظ حركتها :

ـ هذه الريح ! الا يزعجك باب المدخنة هذا الذي يهتز ؟ انتظري .

وركع ، وادخل جريدة قديمة بين صفحتي الحديد لتثبيتها . وكانت تنظر اليه وهو يفعل ذلك ، منهوكة مما تشعر به ولم توضحه . وقال وهو ينهض :

ـ انتهى الامر .

وتنهد ، وقال دون ان يزن ما قاله هذه المرة :

ـ نعم ، هذه الريح .. اننا نرغب ان ينتهي الشتاء ويعود الربيع ..

من الواضح انه يتذكر فصول الربيع التي قضاها في البعيد . وشعرت ايضاً انه قال لنفسه : « في شهر ايار ، سأفعل هذا ، وسأذهب الى هناك » .

وفكرت : « وفي هذا الربيع ، اي مكان يجعله لي ، لي انا ؟ »

ودقت الساعة ، فقال جاك كأنه يستعد للذهاب :

ـ الساعة التاسعة .

وجيز ايضاً سمعت رنين الدقات التسع ، ففكرت : « كم من امسيات ، كم من أمسيات قضيتها هنا ، بجانب هذا المصباح انتظر وآمل ؛ وكانت الساعة ترن كاليوم ، وقد اختفى جاك . والآن هو هنا ، في هذه الغرفة ، بالقرب مني . انه هنا ، يسمع الساعة مثلي وهي تدق » .

وكان جاك قد عاد الى جانب السرير وقال :

ـ هيا ، يجب ان ادعك تنامين .

وكانت تردد وهي تطبق عينيها نصف إطباقة لتنظر اليه بصورة افضل :

ـ انه هنا ، انه هنا . الا ان الحياة ، والعالم ، وجميع الاشياء حولنا تظل لامبالية ، مماثلة ! لا شيء آخر ..

وكانت تشعر ـ بشعور مؤلم كتوبيخ الضمير ـ انها رغم كل شيء لم تكن « شيئاً آخر » ، لم تكن « شيئاً آخر » بشكل كاف .

لم يكن يبدو انه يتعجل الذهاب ، وظل واقفاً مقابل السرير . ودون اقل اضطراب لمس اليد الصغيرة السمراء المتروكة على الشرشف . وميز رائحة الستائر الكتانية التي تمتزج فيها هذا المساء لذعة حامض ، والتي بدت له

مستحبة قليلاً لانه يعزوها الى الحمى ، ولكنه تنشقها بمرح حين شاهد ليمونة حامضة مقطوعة في طاسة على طاولة الليل .

ولم تتحرك جيز . كانت عيناها مليئتين بالدمع الشفاف الذي كانت تمسكه بين جفونها المنفصلة .

وتظاهر بأنه لم ير شيئاً .

– هيا ، ليلة سعيدة ! غداً ستشفين ..

فتأوهت بابتسامة مغتصبة :

– اوه ! اني لا احرص كثيراً على ذلك .

ماذا ارادت بذلك ان تقول ؟ هي نفسها لم تكن تعلم . في هذه اللامبالاة بالشفاء كان عياؤها هو الذي يفصح عن نفسه ؛ فقدان شجاعتها امام حياة الغد ؛ كآبتها على الخصوص لرؤيتها انتهاء هذه اللحظة من المودة التي انتظرتها كثيراً،والتي كانت ناقصة وعذبة معاً.وبذلت جهداً لتفصل شفتيها اللتين تصلبتا من التأثر وقذفت بصوت مرح :

ـ شكراً لزيارتك يا جاكو !

وشعرت مرة اخرى بميلٍ لمدِّ يدها نحوه . ولكنه بلغ الباب ، والتفت واتى باشارة من رأسه وخرج .

فأطفأت كل الانوار ودخلت تحت الاغطية . كان قلبها يخفق بشكل خفي . وصالبت ذراعيها على صدرها ، ضامة اليها حسرة لم توضحها ، كما كانت تضم في الماضي غمرها الأليف . وتمتمت الياً : « ايتها المقدسة العذراء مريم ، مرشدتي وسيدتي .. اني القي بين يديك كل آمالي وتعزياتي .. كل همومي وبؤسي » .. كانت تصلي الى العذراء بحدةٍ مسرعة ، محاولة إنامة تفكيرها في اغنية الصلاة : لم تكن تشعر ابداً انها اكثر سعادة منها في تلك الساعة التي كانت تصلي فيها ، وتصلي دون التفكير بشيء . وظل ذراعاها متصالبين على صدرها . وكل شيء كان يهتز ويمتزج في حلمٍ نصفي . وخيل اليها ان ما كانت تضمه الى صدرها في حرارة السرير ، هو ايضاً طفل صغير لها ، لها وحدها ؛ وتقعرت لتصنع له

عشاً ، وانحنت لتغمر بذراعيها ، وبشكل افضل ، خيال حبها هـــذا الذي غمسته بالدموع وهي تنام .

١٠

كان انطوان ينتظر خروج اخيه من غرفة جيز وان ينزل لينام : كان يريد ان يقوم بجردة سريعة للاوراق الخاصة التي استطاع ان يتركها السيد تيبو ، ويرغب في ان يكون وحيداً لأجل هذا التحقيق التمهيدي ، لا لأنه كان يريد ان يبقي جاك في معزل عن كل ما كان يخص والدهما ، ولكن في غد يوم الموت حين جاء يستعلم عن آخر ارادات السيد تيبو ، فان عينيه وقعتا على ورقـــة بعنوان « جاك » لم يتسع وقته لإجالة النظر فيها ، الا بالقدر الكافي ليدرك ان هذه القراءة ستكون مؤلمة لصاحب العلاقة . ومن الممكن ان يجد بين الاوراق اوراقاً اخرى من هذا النوع . ولا فائدة من ان يجدها جاك ؛ في هـذه اللحظة على الاقل .

وقبل ان يصل انطوان الى غرفة الشغل اجتـــاز غرفة الطعام ليرى السيد شاسل اذا كان قد تقدم في عمله .

على منضدة زيدت عليهـا ألواح خشبية كانت تتكدس الآلاف الاخيرة من اوراق النعي، وغلافات جرى تسليمها . ولكن السيد شاسل بدلاً من الاستمرار في كتابة العناوين ، بدا ضائعاً في إحصـــاء الرزم التي كان يشقها الواحدة بعد الاخرى .

ودهش انطوان واقترب . وصرح الرجل الساذج رافعاً انفه :

– ليس الناس فضلاء دائماً. فالرزم يجب ان تكون مؤلفة من خمسماية. ولكن هذه واحدة مؤلفة من ٥٠٣ ، واخرى من ٥٠١ .

وكان وهو يتكلم يمزق الرزم التي يجدها زائدة ، ثم قال متساهلاً :

– ليس هذا بالامر العظيم ، ولكن لو احتفظنا بهـا لفاضت علينـا بسرعة تلك الاوراق التي على الهامش .

فقال انطوان منذهلاً :

ــ على هامش ماذا ؟

فرفع الآخر اصبعه بضحكة صغيرة مسموعة :

ــ هيه ، بكل دقة !

فدار انطوان على عقبيه دون الحاح ، وفكر وهو يبتسم وحده : « والأهم من ذلك هو ان المرء ما ان يبقي لحظة مع هذا الحيوان حتى يشعر انـــه اكثر حمقاً منه ! » .

في المكتب ، أضاء الأنوار كلها ، وسحب الستائر وأقفل الباب .

كانت اوراق السيد تيبو محفوظة وفقاً لطريقة معينة . وكانت « الاعمال » تشغل خزانة على حدة . والصندوق يحتوي على بعض العناوين، ولكن، بشكل خاص ، على سجلات حسابات قديمة وكل ما يتعلق بحركة الثروة . امـا ادراج المكتب ، فان التي من ناحية اليسار كانت مخصصة للاعمال العامة ، والاتفاقات ، ولأعمال جارية ، بينما التي في ناحية اليمين ، والتي هي وحدها تهم انطوان هذا المساء ، فقد بدت انها محفوظة لقضايا ذات نظام شخصي . وهنا وجد الوصية ، وفي الملف ذاته ، الملاحظات المتعلقة بجاك .

وكان يعلم اين اعـــاد وضعها . وهي مع ذلك لم تكن سوى نصوص من التوراة :

(آخر اسفار موسى الخمسة ، الاصحاح ٢١ العدد ١٨ ــ ٢١)

« حين يكون لرجل ولد فاسد ومتمرد لا يطيـع ابداً صوت ابيه ولا صوت امه، فان الاب والام عندئذ يأخذانه الى شيوخ المدينة والى باب بيته ، ويقولان لشيوخ المدينة : هذا ولدنا الذي لا يطيـع صوتنا ابداً لانه فاسد ومتمرد .

عندئذ يرجمه جميـع سكان المدينــة . وهكذا تنحي عنك الشرير ليستولي الخوف على كل اسرائيل » .

كانت الورقة معنونة باسم « جاك » . وتحته : فاسد ومتمرد .

وتفحصها انطوان متأثراً . يجب ان يعود تاريخ الكتـــابة الى السنوات الاخيرة . وكان النص قد اعيد نسخه باعتنـــاء ؛ والحروف الاخيرة معكّفة بشدة . ويشيع من هذه الوثيقة طابع طمأنينة اخلاقية ، وتفكير ، وإرادة . ومع ذلك فوجود هذه الورقة ، التي ادرجها الشيخ عمداً في نفس غلاف وصيته ألا يشي بشيء من محاسبة الضمير وبالحاجة الى تبرير ؟

وامسك انطوان وصية ابيه بيده .

اثر تذكاري : مرقم، ومقسم الى فصول، وهذه مقسمة الى فقرات كالتقرير، ومنتهية بجدول : وكلها مغلّفة بالكرتون . والتاريخ : تموز ١٩١٢ . اذن فقد حررها السيد تيبو على اثر اصابتـه الاولى بمرضه ، قبـل العملية بأشهر قليلة . وليس هناك اية كلمة عن جاك : لم يكن هناك سوى « ولدي » « وريثي » .

وقرأ انطوان كل الفصل الذي اجـــال نظره فيه البارحة ، والذي يحمل عنوان : « احتفالات الجنازة » .

« بعد قداس غير صارخ في كنيسة القديس توما داكان ، خورنيتي ، فاني ارغب ان تنقل جثتي الى كروي. وارغب ان يحتفل بجنازتي في كنيسة المؤسسة بحضور جميع الايتام . وارغب ان يجري الاحتفال بالدفن في كروي ، بعكس ما جرى في كنيسة القديس توما داكان ، بجميع مظاهر الاحتفـال التي يروق للمجلس ان يكرم بها جثتي . واتمنى ان يسير بي الى مثواي الاخير ممثلو الاعمال الخيرية الذين قبلوا طوال سنوات عديدة المساعدات الدالة على اخلاصي،وكذلك بعثة عن معهد فرنسا الذي كنت فخوراً لاستقبالي فيه . وأتمنى ايضـاً ، اذا سمحت القوانين ، ان تؤمن لي رتبتي في نظام جوقة الشرف الحراسة العسكرية من ذلك الجيش الذي دافعت عنه دائماً بأقوالي وكتاباتي وبصوتي كمواطن . وارغب اخيراً ان يسمح لأولئك الذين نذروا ان يلقوا بعض الكلمات الوداعية على قبري بان يفعلوا ذلك دون شرط .

ولا أغترّ ، وانا اكتب ذلك ، بباطل هذه الامجاد بعد الموت ، لانني اصاب

بالاضطراب مسبقاً لمجرد التفكير بمثولي ذات يوم امام المحكمة العليا . ولكن بعد ان احطت نفسي بأنوار التأمل والصلاة ، يبدو لي ان الواجب الحقيقي في هذا الظرف يقضي بفرض الصمت على عواطف ذات تواضع عقيم ، وبالعمل بنوع ان حياتي يوم موتي اذا شاء الله ، يمكن ان تكون للمرة الاخـــيرة مثلاً لتحرض مسيحيين آخرين من بورجوازيتنا الفرنسية الكبرى ليكرسوا انفسهم لخدمة الايمان والاحسان الكاثوليـــكي » .

وتابع انطوان فقرة : « تعليمات مفصلة » . لم يكن عليه ان يتخذ اية مبادهة . فالسيد تيبو أتعب نفسه في تنظيم الاحتفال كله . لقد ظل رئيس العائلة يمارس قيادته حتى آخر لحظة . وارادته في ان يكون منسجماً حتى النهاية مع نفسه لم تكن دون عظمة بنظر انطوان .

وقد كتب السيد تيبو ورقة نعيه مسبقاً بحيث اوصلها انطوان كما هي الى جمعية دفن الموتى . وكانت القاب السيد تيبو مرصوفة فيها وفقاً لترتيب يجب ان يكون قد اختير بدقة ؛ وقد أشغل تعداد هذه الالقاب اثني عشر سطراً ، وعبارة « عضو المجمع » كتبت فيها بحروف كبيرة . ولا يقرأ فيها تنويهات فقط ، امثال : دكتور في الحقوق ، نائب سابق لمقاطعة الأور ؛ او امثال : رئيس فخري للجنة الاعمال الخيرية الكاثوليكية لأسقفية باريس، مؤسس ومدير اعمال الوقاية الاجتماعية ، رئيس مجلس ادارة جمعية وقاية الطفل ، امين خزينة سابق للفرع الفرنسي في اللجنة المركزية للتعاضد الكاثوليكي ؛ بـــل ايضاً معلومات من هذا النوع ، تركت انطوان حالماً : عضو مراسل لأخوية سان جان دي لاتران؛ او ايضاً : رئيس مجلس الخورنية وعضو عامل في الجمعيات الدينية في خورنية القديس توما داكان . وهذه اللائحة الطويلة المجيدة كانت منتهية بلائحة الأوسمة ، ومن بينها وسام جوقة الشرف يأتي بعد وســـام القديس غريغوار ، وللقديسة ايزابيل او ايضاً صليب الجنوب . وشارات هذه الاوسمة يجب ان تثبت على التابوت بدبابيس .

والقسم الاكبر من الوصية قوامه لائحة طويلة بالهبات لأناس وجمعيات كان معظمها مجهولاً لدى انطوان .

واستوقف نظره اسم جيز . كان السيد تيبو قد حدد ، بدلاً عن بائنة « للآنسة جيزيل دي ويز » التي «رباها» كما كتب ، والتي يعتبرها ، «كابنة تقريباً رأسمالاً هاماً « بشرط ان تسهر على سنوات عمتها الاخيرة ». اذن فمستقبل جيز قد تأمن بشكل مريح في هذا العمل .

وقطع انطوان قراءته وقد احمر وجهه سروراً ، لم يكن يعتقد ابداً ان الشيخ الاناني خليق بهذا الانتباه وبهذه الأريحية . وشعر نحو والده باندفاعة مباغتة من الشكران والاحترام أتمت الصفحات التالية تبريرهما . لقد بدا السيد تيبو انه فعلاً انه مهتم بخلق اناس سعداء : الخادمات ، حارسة المنزل ، بستاني ميزون ـ لافيت ، وليس هناك اي شخص منسياً .

ونهاية هذه الوصية كانت مخصصة لمختلف مشاريع المؤسسات التي يجب ان تحمل كلها اسم اوسكار تيبو ، وكان فضول انطوان يتطفل حسب الصدف . هبة اوسكاو تيبو للمجمع العلمي الفرنسي كجائزة للفضيلة . ـ وبحكم الطبيعة ـ جائزة اوسكار تيبو الممنوحة كل خمس سنوات من قبل جمعية العلوم الاخلاقية لأفضل مؤلف « جدير بمساعدة النضال ضد البغاء والكف عن التساهل في هذا الصدد.. » وبالتأكيد « من قبل الجمهورية الفرنسية». وابتسم انطوان. فهبة جيز كانت تميل به الى التسامح . ثم ان تحت هذه الرغبة المصاغة دون انقطاع لخدمة القضية الروحية من قبل الموصي ، كان مما يبعث على الاضطراب التعرف في كل مكان على وسواس خفي ـ لم يفلت منه انطوان تماماً رغم سنه ـ هو تخليد الاسم في هذه الدنيا .

والاكثر سذاجة ، وما كان غير منتظر ابداً في هذه الوقفيات، هو تخصيص مبلغ هام للمونسنيور اسقف بوفيه لنشر روزنامة سنوية باسم « روزنامة اوسكار تيبو» يطبع منها « اكبر عدد ممكن من النسخ » ويجب ان «تباع بسعر منخفض في جميع المكتبات واسواق الابرشية » . والتي يجب ان تدخل « تحت ستار

مفكرة زراعية عملية في كل عائلة كاثوليكية ، لأجل استراحة الاحد وسهرات الشتاء ، مجموعة مسلية من الحكايات البناءة » .

وأطبق انطوان الوصية . وكان متعجلاً لمتابعة جردته . وباعادة البيان الضخم للحسابات الواجب دفعها الى ملفه وجد نفسه يفكر دون غم : « يجب ان يترك لنا ثروة جميلة ليبدو كثير الاريحية .. »

كان اول درج يحتوي ايضاً على محفظة كبيرة من الجلد المبطن تحمل كدلالة اسم : لوسي . (هذا هو الاسم الاول لمدام تيبو) .

فاقتحم انطوان الإبزيم بعاطفة خفيفة من القلق .

اولاً اشياء مختلفة . منديل مطرز ؛ علبة مجوهرات ، زوج حلق لفتاة ؛ وفي حافظة نقود من العاج ذات بطانة من الساتان الابيض بطاقة اعتراف مطوية اربع طيات ولم يكن حبرها مقروءاً . وبعض الصور الناصلة اللون لم يكن انطوان قد رآها قبلاً : امه وهي طفلة ؛ امه في سن الثامنة عشرة او التاسعة عشرة . ودهش لاحتفاظ ابيه بهذه الذخائر وهو القليل العاطفة ، وخصوصاً في الدرج الاقرب تناولاً منه . وشعر انطوان نحو هذه الفتاة الناضرة المرحة ، التي كانت امه ، بعاطفة من الحرارة الرؤوم . ولكن عند تفحصه قسماتها المنسية كان يفكر بنفسه .

لقد كان في التاسعة حين ماتت مدام تيبو – عند ولادة جاك – . وفي ذلك الوقت كان غلاماً صغيراً عنيداً ، مجتهداً ، انانياً ؛ واضطر ان يعترف ايضاً انه « قليل الحساسية » وبدون ان يتوقف عند هذه التأكيدات المحزنة بحث في الجيب الاخرى من المحفظة ، وأخرج ، منها رزمتين بحجم متساوٍ :

رسائل لوسي .

رسائل اوسكار.

وهذه الرزمة الاخيرة كانت مربوطة بخيط حريري ، وكان العنوان بخطٍ منحن لتلميذ داخلي : لا شك في ان السيد تيبو وجدها كما هي في خزانة الميتة

واحتفظ بها بورع .

وتردد انطوان في فتحها . سوف يتسع له الوقت للعودة اليها فيما بعد . ولكن حين ابعد الرزمة التي كان رباطها واهناً ، وقعت عيناه على قطع ، وقد انفصلت هكذا ، محملة بحياة واقعية فبعثت من الظلام ماضياً لم يكن ليستشفه او يحاول استكشافه .

« .. اكتب اليك من اورليان قبل المؤتمر . ولكني اردت يا عزيزتي ان ارسل اليك منذ هذا المساء كل خفقات قلبي لأحثك على الصبر واساعدك على تحمل اول يوم من هذا الاسبوع من الفراق . السبت ليس ببعيد . مساء الخير يا حبي . عليك ان تأخذي الصغير الى غرفتك لتشعري انك اقل وحدة » .

وقبل ان يستمر انطوان في قراءته ذهب الى الباب وأقفله .

« .. احبك بكل نفسي ، يا حبيبتي . الغياب يجمد قلبي اكثر من الثلج ومن شتاء هذه البلاد الاجنبية . لن انتظر *W.P.*.. في بروكسل . قبل الأحد سأضمك الي يا لولو العزيزة . لا يستطيع الآخرون معرفة سرنا : ما من شخص احب مثلنا .. »

ودهش انطوان جداً لأنه وجد هذه الكلمات تحت قلم والده بحيث لم يعد ينوي ان يعيد ربط الرزمة .

الا ان كل شيء لم يكن بنفس الحرارة :

« .. أعترف ان كلمة ساءتني في رسالتك . اني اتوسل اليك يا لوسي الا تغتنمي فرصة غيابي لاضاعة وقتك في درس البيانو . صدقيني . هذا النوع من الحماسة الذي توفره الموسيقى يحدث على حساسية كائن لا يزال فتياً تأثيراً مشؤوماً؛ انها تعود على البطالة، على انحرافات المخيلة، ويخشى ان تحيد بالمرأة عن الواجبات الحقيقية لحالتها » .

وأحياناً تصبح النبرة غاضبة :

« .. لن تفهميني ، وارى انك لم تفهميني ابداً . انت تتهمينني بالانانية ، انا الذي كرست حياتي كلها للآخرين ! واذا كانت لديك الجرأة فسلي الاب نويل

عما يجب التفكير به حول هذا الامر ! كان عليك ان تشكري الله وان تكوني فخورة بحياة التفاني التي احياها . لو كنت تستطيعين النفاذ الى المعنى ، وإلى العظمة المعنوية والهدف الروحي ! بدلاً من ذلك تغارين منها بحطة ، ولا تفكرين الا بأن تحرمي ، لمصلحتك ، هذه الاعمال من حقها وهـــي بحاجة ماسة إلى ادارتي ! »

ولكن معظم هذه الرسائل كانت تعكس حنواً عميقاً :

« .. البارحة لا أخبار . اليوم لا أخبار . ان حاجتي اليك تجعلني اعلق اهمية كبيرة على تلك الرسالة التي تبعثينها كل صباح . وحين ينقصني هذا الزاد عند استيقاظي فان نهار عملي يظل دون شجاعة . وحين ينقصني اعيد قراءة رسالتك اللطيفة ليوم الخميس ، الملأى بالاستقامة والطهارة والحنو ، اوه ايها الملاك الصالح الذي وضعه الرب الى جانبي ! اني الوم نفسي لأنني لم احبك كما تستحقين . واشعر جيداً ، يا حبي ، بانك تتفادين كل شكوى . ولكن يا له من انحطاط من ناحيتي حين ابدو انني نسيت اخطائي وأخفيت عنك توبتي !

« لقد احتُفل بالمندوبين احتفالاً عظيماً . واحتُفظ لي بمكانة مرضية جداً . البارحة . عشاء لثلاثين شخصاً ، وشرب انخاب . الخ .. اعتقد ان جوابي كان فيه الكثير . ولكن التكريم لم ينسني اي شيء : بين الجلسات لا أفكر الا بك يا عزيزتي ، وبالصغير .. »

كان انطوان شديد التأثر . وارتجفت يداه قليلاً حين اعاد الرزمة الى مكانها . « امك المقدسة » هكذا كان السيد تيبو يقول بآهة خاصة . وبنظرة منحرفة نحو الصورة المعلقة حين يحدث له على المائدة ان يذكر شيئاً لزوجته علاقة به . وانطوان ، في هذه الغزوة المقتضبة الى ذلك المكان الذي لا يرتاب احد فيه ، علم الكثير عن شباب والديه وعن كل التلميحات التي كان يقوم بهـــا والده في عشرين سنة .

وكان الدرج الآخر مليئاً برزم اخرى .

« رسائل الاولاد . قاصرون وسجناء » :

وفكر انطوان : « بقية عائلته » .

كان يشعر انه على خير ما يرام مع هذا الماضي ، ولكن ليس اقل دهشة . من كان يعتقد اذن ان السيد تيبو يحتفظ بجميع رسائل انطوان ، وكل رسائل جاك ، حتى رسائل جيز القليلة ، وانه صنفها تحت العنوان المشترك : رسائل الاولاد ؟

في اعلى الرزمة بطاقة اولى مفتوحة ، دون تاريخ ، مكتوبة بشكل اخرق وبالقلم الرصاصي ، بواسطة طفل كانت امه تقود يده :

« والدي العزيز . اقبلك واتمنى لك عيداً سعيداً » .

« انطوان »

ورق قلبه قليلاً لهذا الاثر الذي يعود الى ما قبل التاريخ، وانتقل الى غيرها.

وبدت رسائل القاصرين والمسجونين ان لافائدة فيها .

«سيدي الرئيس .

« لقد اجبروا بنا اليوم الى جزيرة ريه *Ré* . . واني آسف لترك السجن دون ان اقول لك انني معترف بكل عطفك » . .

« سيدي المحسن العزيز .

« هذا الذي يكتب اليك ويوقع ، هو رجل عاد واصبح انساناً فاضلاً . ولهذا جئت اطلب نصيحتك . ربطاً رسالة من والدي ارجو صرف النظر عن لغتها وعن نسقها الانشائي .. بنتاي تصلّيان كل مساء لأجل ذلك الذي تدعوانه « عرا ّب بابا »...

« سيدي الرئيس .

« منذ ستة وعشرين يوماً دخلت السجن وقد اصابني اليأس لأنني منذ ستة وعشرين يوماً لم ار القاضي سوى مرة رغم مذكرتي التبريرية التي هي حسب الاصول ... »

انها ورقة ملطخة ، مؤرخة « في معسكر مونترافيل ، كاليدونيا الجديدة »

وقد انتهت بهذه الكلمات المكتوبة بحبر اصفر :

« .. بانتظار ايام افضل ارجو ان تقبل العواطف التي اكرمك بها مع الاعتراف بالجميل » .

« المنفي رقم ٤٨٤٣ » .

كل هذه الشهادات على الثقة والشكران ، وكل تلك الاذرع البائسة التي كان يراها ممدودة هكذا نحو والده لم تترك انطوان بدون ان تؤثر فيه. وقال لنفسه : « يجب ان يتصفحها جاك » .

في داخل درج ملف كرتوني صغير دون عنوان : ثلاث صور لهواة ، ذات زوايا مفتولة . تمثل الكبرى منها امرأة في الثلاثين من عمرها ، في منطقة جبلية على طرف غابة صغيرة من الصنوبر . وانحنى انطوان نحو القنديل . ان قسمات هذا الوجه مجهولة لديه تماماً . الا ان الرداء دا الشرائط ، والثوب ذا الطوق ، والكمان المنفوخان ، كانت تدل على طراز قديم جداً . والصورة الثانية اصغر حجماً ، وتمثل نفس الشخص جالساً هذه المرة ، عاري الرأس ، في مكان مربع ، وربما في حديقة فندق ؛ وتحت المقعد ، على قدمي السيدة كلب ذو وبر طويل اجعد ، ابيض اللون ، جاثم بشكل ابي الهول . وفي الصورة الثالثة كان الكلب وحده واقفاً على طاولة حديقة ، منتصب الحلقوم ، وعلى رأسه شريط . وفي الملف الكرتوني غلاف يحتوي على (كليشه) الصورة الكبرى ، ومنظر الجبل . لا اسم ولا تاريخ . لو نظرت هذه الصورة عن قرب بحيث يبدو الخيال رشيقاً لبدت هذه المرأة انها بلغت الاربعين او تجاوزتها . نظرة حارة ، رصينة ، رغم ابتسامة الشفتين : سحنة مشوقة جعلت انطوان المضطرب البال ينظر اليها دون ان ينوي إطباق الكرتونة . هل كان ذلك ايحاء ؟ كان متأكداً كل التأكيد انه لم يلتق ابداً بهذه المرأة .

والدرج الثالث ، شبه فارغ ، لا يحتوي الا على سجل قديم للحسابات بحيث كاد انطوان ان لا يفتحه . لقد كان دفتراً قديماً من الجلد المدبوغ، مميز الصفحات

بالحروف الاولى من اسم السيد تيبو. وفي الواقع لم يستعمل ابداً كدفتر حسابات.
وقرأ انطوان على الصفحة الاولى :
« تقدمة من لوسي بمناسبة العيد الاول لزواجنا : ١٢ شباط ٢٢/١٨٨٠ .
وفي منتصف الصفحة التالية كتب السيد تيبو بنفس الحبر الاحمر :

ملاحظات
لاستعمالها في تاريخ السلطة الابوية
خلال العصور

ولكن هذا العنوان قد شطب . ومن الممكن ان المشروع قد اهمل . وقال انطوان لنفسه : « شاغل غريب لرجل متزوج منذ سنة ولم يكن الولد الاول قد ولد بعد ! »

وما ان اخذ يتصفح السجل حتى ثار فضوله . ان الصفحات التي ظلت بيضاء قليلة جداً . وتغير الكتابة يدل على ان الدفتر قد استعمل اثناء عدة سنوات . ولكنه لم يكن يوميات كما ظنه انطوان في بادىء الامر وأمل : مجموعة بسيطة من الاستشهادات اقتطفت اثناء القراءات .

واختيار النصوص كان يبدو انه ذو دلالة كافية . وقد نقب انطوان في الصفحات الاولى بعين محقق .

« هناك قليل من الاشياء يجب الخوف منها اكثر من اجراء اقل تجديد في النظام المقرر » . (افلاطون) .

الحكيم (بوفون) .
« حين يكون المرء مسروراً من حالته ، فهذا يعني انه لا يريد ان يكون إلا كما كان دائماً ، ولا ان يعيش الا كما عاش : مكتفياً بنفسه، ولا يحتاج الآخرين

الا قليلاً . الخ » .

وبعض هذه الاستشهادات كانت غير منتظرة :

« هناك قلوب حامضة ، مرة ، خشنة بطبيعتها، تجعل كل ما تتلقاه حامضاً ومراً وخشناً » . (القديس فرنسوا دي س) .

« لا يوجد في العالم نفوس تعز بمودة وحنو ومحبة اكثر مني ؟ حتى اني افيض ايضاً بالحب الرقيق » . (القديس فرانسوا دي س .)

« ربما أُعطيت الصلاة للانسان لتتيح له يوماً ان يصرخ صرخة حب لا يحمر منها خجلاً » .

كانت هذه الملاحظة الاخيرة بدون اسناد وبكتابة سريعة .

وفكر انطوان ان والده هو مؤلفها .

الا ان السيد تيبو كان يبدو انه اعتاد ، ابتداء من تلك اللحظة ، على ادراج ثمرة تأملاته الخاصة وسط هذه النصوص . وادرك انطوان باهتمام شديد ، وقد قلب الصفحات ، ان الدفتر قد فقد بسرعة غاية استعماله الاولى ليصبح مجموعة افكار شخصية فقط .

كان معظم هذه الحكم في اول الامر ذا مرمى سياسي او اجتماعي . ومما لا شك فيه ان السيد تيبو كان يسجل افكاراً عامة هنا ويكون سعيداً اذا استطاع ايجادها حين يعد خطاباً . وكان انطوان يلتقي فيها ، وفي كل لحظة ، بهذه الاشكال الاستفهامية الانكارية : « الا يوجد ؟ » ، « الا يلزم ؟ » والمطبوعة بطابع التفكير والكلام الابوي :

« ان سلطة رب العمل كافية لاسباغ الشرعية على الصلاحية . ولكن الا نحتاج الى زيادة ايضاً ؟ الا يجب ، في سبيل انتاج مزدهر ، ان يتقرر انسجام

اخلاقي بين اولئك الذين يتعاونون على هذا الانتاج ؟ وسلطة رب العمل ، اليست اليوم هي الجهاز الذي لاغنى عنه لانسجام العمال الاخلاقي ؟ »

« ان البروليتاريا تتمرد امـــام عدم المساواة في الاوضاع ، و « التنوع » الرائع الذي اراده الله تسميه ظلماً » .

« اليس هناك ميل في ايامنا الى النسيان ان رجل الخير هو بقضاء محتوم ، او بشبه قضاء محتوم ، رجل فيه خير ؟ »

وقفز انطوان سنتين او ثلاث دفعة واحدة . وقد بدت شواغل النظام العام تخلي المكان لافكار ذات لهجة خاصة :

« ان ما يسبغ كثيراً من الاطمئنان على شعور المرء انه مسيحي هـــو ان كنيسة المسيح هي ايضاً قوة زمنية » .

وابتسم انطوان وقال لنفسه : « ليكون هؤلاء الناس الافاضل على شيء من النشاط والشجاعة ، فانهم اكثر خطراً من الرعاع ! فهم يفرضون ذلك على الجميع ـ وخصوصاً على افضل الناس ؛ وهم متأكدون من وجود الحقيقة في جيوبهم ، ولا يتراجعون امام شيء في سبيل نصر معتقداتهم ..امام اي شيء.. وقد رأيت والدي يسمح لنفسه ببعض الامور الصغيرة في سبيل حزبه وانجاح عمله .. واخيراً،فانه لا يسمح لنفسه بها اذا كانت لأجله،وللحصول على امتياز ، ولربح المال ! »

وكانت عيناه تركض من صفحة الى صفحة حسب الصدف :

« الا يوجد شكل شرعي ، ملائم ، للانانية ، وللقول بشكل افضل ، الا يوجد طريقة لاستعمال الانانية في نهايات ورعة : مثلاً ان نغذي بهـــا فعاليتنا كمسيحيين ، وايماننا ايضاً ؟ »

وهناك بعض التأكيدات يمكن ان تبدو وقحة لمن لا يعرف شخصية السيد تيبو وحياته :

« اعمال : ان ما يشكل العظمة ، وخصوصاً « الفعالية الاجتماعية » التي لا مثيل لها ، لمحبة البشر الكاثوليكية (اعمال الاحسان ، راهبات سان فنسان دي بول . الخ) . هو ان توزيع الاعانات المادية لا يصل فعلاً إلا الى الخاضعين لله ، والنفوس الصالحة . ولا يجازف بتشجيع غير الراضين ، والمتمردين ، واولئك الذين لا يقبلون بوضعهم المتدني وليس في أفواههم كلمة سوى عدم المساواة والمطالب » .

« ليست الحسنة الحقيقية في ارادة سعادة الغير » .

« يا إلهي اعطني القوة لأكون عنيفاً مع من يجب ان ننقذهم » .

فكرة بدت انها ظلت تعمره بعد عدة أشهر :

« يجب ان يكون المرء قاسياً حيال نفسه ليكون له الحق في ان يكون قاسياً حيال الجميع » .

« بين المزايا غير المعترف بها ، الا يلائم ان نضع في الصف الاول ، ولأجل التلمذة القاسية المطلوبة ، ما اسميه في صلاتي منذ وقت طويل : التصلب ؟ » .

وهذه المعزولة على صفحة بيضاء تردد صوتاً مخيفاً :

« اغتصاب الاعتبار بقوة الفضيلة » .

وكان انطوان يفكر : « التصلب ! » . لقد اكتشفت ان والده لم يكن صلباً فقط ، بل متصلباً — عمداً . إلا انه لم يكن يرفض ان يرى بعض الجمال القاتم في ذلك الاكراه حتى ولو لم يكن يفضي إلا الى عدم الرحمة . وتساءل : « حساسية مبتورة عن رضى ؟ » وكان يبدو احياناً ان السيد تيبو قد تألم من نفسه ومن المزايا التي اكتسبها بكثير من القساوة :

« الاعتبار لا ينفي الصداقة بالضرورة ، ولكن من النادر ان يساهم في

ولادتها . والاعجاب ليس الحب ؛ واذا نالت الفضيلة التقدير فهي في الغالب لا تفتح القلوب » .

هناك غم خفي قاده الى ان يكتب في احدى الصفحات البعيدة :

« ليس لرجل الخير اصدقاء . ويعزيه الله بان يجعل له مدينين » .

كانت صيحة انسانية تطن منهنا وهناك – وصحيح ان هذا نادر – وتغرق انطوان في الذهول :

« اذا لم يُصنع الخير بدافع ذوق طبيعي فليكن بدافع اليأس ، وعلى الأقل لكي لا نصنع الشر » .

وقال انطوان لنفسه : « يوجد شيء من جاك في كل هـذا » وهذا تحديده صعب . نفس الحساسيات المنقبضة ، نفس عنف الغرائز الخفي ، نفس القساوة . وتوصل الى التساؤل اذا كانت كراهية والده لطبع جاك المغامر لم تتوطد احياناً بمشابهة غامضة في المزاج .

وعدد كبير من الافكار كان يبدأ بهذه الصيغة : « فخ الشيطان » .

« فخ الشيطان : الميل الى الحقيقة . اليست المثابرة بدافع الاخلاص للنفس على اعتقادٍ ولو كان غير ثابت هي اكثر صعوبة واكثر شجاعة من هز الاعمدة بدافع الزهو من خطر انهيار البناية ؟ » .

« اليس الثبات في الايمان اكثر من روح الحقيقة ؟ » .

« فخ الشيطان : إخفاء الكبرياء لا يعني كونك متواضعاً. من الافضل اظهار العيوب التي لم نعرف ان نتغلب عليها ونجعل منهـا قوة . وذلـك افضل من الكذب والضعف باخفائها » .

(كبرياء ، زهو ، تواضع ، هذه الكلمات موجودة في كل صفحة) .

« فخ الشيطان : ان تحقير النفس بالتكلم عن نفسك بتواضع ، اليس ذلك تظاهراً بالكبرياء ؟ امّا ما يلزم فهو ان يصمت المرء عما يتعلق به . ولكن هذا ليس ممكناً للانسان إلا اذا كان متأكداً من ان هنـاك آخرين على الاقل سوف يعرفون جيداً ان يتحدثوا عنه » .

وابتسم انطوان من جديد . ولكن التهكم جمد بسرعة على شفتيه .
يا لها من كآبة في مكان مشترك كهذا حين نجدها تحت قلم السيد تيبو :

هل يوجد حيوات– حتى حياة القديسين – لا تخضع يومياً للكذب ؟ » .
ومع ذلك فان طمأنينة الفكر بدأت تتفلت سنة بعد سنة من هذه النفس المتظاهرة باليقين ـ بعكس ما افترض انطوان استناداً الى ما عنده من ذكريات عن والده :

« ان محصول حياة ، ومرمى مشاريع الانسان ، وقيمتها ، هي – أكثر مما يظن ـ مقادة بحياة القلب . وهناك من لا ينقصهم سوى وجود محبوب ليتركوا عملاً على مستواهم » .
وهناك شيء كأنه سر سيء يبدو بين لحظة وأخرى :

« الا يمكن لخطأ لم يرتكب أن يثير في طباع انسان من التشويه، وان يحدث في حياته الداخلية من التلف اكثر من جريمة حقيقية ؟ ما من شيء ينقصه : حتى ولا نهشات توبيخ الضمير » .
« فخ الشيطان : يجب الا نخلط مع محبة القريب ذلك التأثر الذي نشعر به لدى الاقتراب من بعض الكائنات او لمسها .. » .
هذه الفقرة انتهت بنصف سطر مشطوب ولم يمنـع انطوان من ان يستطيـع قراءته بواسطة الشفافية :
«... شبان ، ان لم يكونوا اولاداً » .
وعلى الهامش بالقلم الرصاصي :
« ٢ تموز . ٢٥ تموز . ٦ آب . ٨ آب . ٩ آب » .
ثم بلهجة اخرى بعد بضع صفحات :

« يا الهي ، انت تعرف بؤسي وقصوري . ليس لي حق في عفوك لانني لست منفصلاً ولا استطيع ان انفصل عن خطيئتي. قوّ ارادتي لأتجنب فخ الشيطان».

وتذكر انطوان فجأة بعض الكلمات البذيئة التي خرجت في مناسبتين من شفتي والده اثناء الهذيان .

وقطعت فحص الضمير هذا نداءات متواترة نحو الله :

« يا رب ، ان من نحبه مريض !

احذر مني يا رب لأني سأخونك اذا تركتني لنفسي » .

وقلب انطوان بضع صفحات .

هناك تاريخ أضيف على الهامش بالقلم الرصاصي ـ « آب١٨٩٥ » ـ استوقف نظره :

« انتباه عاشقة . كان على المنضدة كتاب الصديق ؛ وكانت الصفحة معلمة بعصابة ورق من صحيفة . من استطاع المجيء باكراً هذا الصباح ؟ زهرة شبيهة بتلك التي كانت تزين صدرها مساء البارحة تحل الآن محل علامة الورق » .

آب ١٨٩٥ ؟ وغطس انطوان الذاهل في ذكرياته . عام ٩٥ كان في الرابعة عشرة . السنة التي اخذهم بها السيد تيبو كلهم بالقرب من شامونيكس . لقاء في فندق ! وفكر حالاً بصورة السيدة ذات الكلب . سوف يجد دون شك ما ينير هذا الالتباس فيما يلي . كلا . ليس هناك اية كلمة عن « العاشقة » .

إلا ان هناك زهرة بعد بضع صفحات ـ ربما هي نفسها ـ مسطحة وجافة بجوار هذه العابرة الكلاسيكية :

« يوجد فيها ما يجعل منها صديقة كاملة : وفيها ايضاً ما يسير بك الى ابعد من الصداقة » . (لابروييز) .

ثم ، في السنة نفسها ، بتاريخ ٣١ كانون الاول ، كخاتمة ، هذه العبارة التي تذكر بتلميذ اليسوعيين القديم :

« في أغلب الاحيان ينتابك الحب المتأخر بكثير من العنف [١] » .

ولكن انطوان تذكر جيداً العطلة الكبرى عام ٩٥، فلم يجد فيها اي تذكار عن الكمّين المنتفخين ولا عن الكلب الابيض .

لم يكن ممكناً ان يقرأ كل شيء في ذلك المساء .

الا ان السيد تيبو وقد اصبح شخصاً من دنيا الاعمال واستأثرت به وظائفه المختلفة ، بدا انه في السنوات العشر او الاثني عشرة الاخيرة قد ترك سجله شيئاً فشيئاً . ولم يكن يكتب فيه شيئاً الا اثناء العطلات . والعبارات الدينية اصبحت كثيرة جداً . والتاريخ النهائي كان (ايلول ١٩٠٩) . وليس هناك اي سطر منذ رحيل جاك ؛ ولا اثناء المرض .

وعلى احدى الصفحات الاخيرة وبخط اقل ثباتاً ، هذه الفكرة الـتي تزيل الغشاوة :

« حين يتوصل المرء الى المراتب السنية فهذا يعني انه لا يستحقها . ولكن الله في رحمته الا يغدقها عليه فقط ليساعده على احتمال ذلك الاحتقار للنفس الذي يسمم وينتهي باستنزاف ينبوع كل فرح ، كل احسان ؟ »

وينتهي الدفتر ببعض الصفحات البيضاء

وفي النهاية ، صنع عامل التجليد جيباً في نسيج البطانة لا يزال فيها بعض الاوراق القديمة . واستخرج منها انطوان صورتين مسليتين لجيز وهي طفلة ، ومفكرة لعام ١٩٠٢ فيها ايام الآحاد مشطوبة . وهـذه الرسالة على ورقة خبّازية اللون :

٧ نيسان ١٩٠٦

عزيزي *w .x. 99*

كل ما قلته لي عن نفسك استطيع ان اقوله لك ايضاً . كلا ، لن اوضح مـا جعلني افعل هذا وأضع ذلك الاعلان ، انا ، التي نشأت كما كنت ، وهـذا يدهشني اليوم كما يدهشك . بسبب رؤية هذه العروض للزواج في الجريدة ،

---

١ ـ باللاتينية في الاصل .

وللخضوع للرغبة بالكتابة الى تلك المجهولة الملأى بالغموض بالنسبة اليك . حيث انا ايضاً كاثوليكية امارس واجباتي الدينية وكثيرة الارتباط بمبادىء الدين التي لم اخطىء بها يوماً واحداً ، وكل هذه الفرصة هي روائية ولن تجد ، بالنسبة الي على الاقل ، ان ذلك كعلامة من العناية الالهية وان الله هو الذي اراد لنا لحظة الضعف هذه التي ادرجت فيها الاعلان ، واللحظة التي قرأته فيها وقطعته . منذ سبع سنوات وانا ارملة ، يجب ان اقول لك ان عذابي يزداد من عدم وجود المحبة في حياتي ، وعلى الخصوص بدون هذا التعويض لأن ليس لي اولاد. ولكنه ليس تعويضاً ما دمت انت الذي لـك ولدان كبيران، وعائلة ، ووضعية رجل اعمال مشغولاً جداً ، وفقاً لما اعلم ، تشكو من الم الجفاف والوحدة . نعم ، اني اعتقد مثلك ، ان الله هو الذي اعطانا هذه الحاجة الى الحب ، واني اسأله مساء وصباحاً وانا اصلي ، ان اجد في زواج يباركه هو ، الوجود العزيز لرجل يوفر لي حرارة احتكاك حام ومخلص . واني سأحمل الى ذلك الرجل المرسل من الله نفساً حارة ايضاً وشباب حب هو رهن مقدس للسعادة . ولكن رغم الحزن الذي اشعر به لانني اسبب لك الغم فاني لا استطيع ان ارسل اليك ما تطلبه مني مع اني افهم طلبك . انت لا تعرف المرأة التي هي انا ، ولا اهلي الذين هم اليوم اموات ، ولكنهم احياء بالنسبة الي في صلواتي ، ولا المحيط الذي عشت به حتى الآن . مرة اخرى ايضاً لا تحكم على هذا الضعف الذي شعرت به في شقائي بالحب ، حين ادرجت ذلك العرض، وافهم ان طبيعة مثلي ترفض ارسال صورة ، ولو كانت خادعة . وما استطيع عمله بطيبة خاطر هــو ان ارجو مرشدي الروحي الذي اصبح منذ عيد الميلاد نائباً اول في ابرشية باريس ، ان يذهب لرؤية ذلك الاب ف . الذي حدثتني عنه في رسالتك الثانية ، وسيعطي كل المعلومات . وأيضاً ، لأجل المشاهدة الجسدية فان ما استطيع عمله هو ان اذهب بنفسي واقوم بزيارة الاب ف . الذي تثق به والذي يستطيع حــالاً ان ... »

كانت هذه هي الكلمات الاخيرة في الصفحة الرابعة . وبحث انطوان في

الجيب ولم تكن الورقة التالية موجودة فيها .

هل كان الامر يتعلق بوالده فقط ؟ لا شك في ذلك : الولدان . الأب ف . سؤال فيكار ؟ حتى لو كان ذا علاقة بمحاولة الزواج هذه فانه لن يفشي شيئاً .

السيدة ذات الكلب ؟ كلا ؛ فتاريخ هذه الرسالة ـ ١٩٠٦ ، انه البارحة : السنة التي عمل فيها انطوان في المستشفى في دائرة فيليب ، السنة التي قضاها جاك في اصلاحية كروي ـ هذا التاريخ القريب العهد نسبياً لا يتلاءم مع المعطف ، والقامة المتصنعة والاكمام المنتفخة . يجب الاكتفاء بالافتراضات .

واعاد انطوان السجل الى مكانه ، واقفل الدرج وتطلع الى الساعة : نصف ساعة بعد نصف الليل .

وردد بصوت منخفض وهو ينهض : « الاكتفاء بالافتراضات » .

وفكر : « فضلة حياة .. ورغم كل شيء ، فاتساع حياة كهذه ! ان في الحياه البشرية دائماً من الاتساع ، الى ما لا نهاية له ، اكثر مما يعرف عنها ! »

وتأمل لحظة كأنه يريد ان ينتزع منها سراً ، تلك الكنبة من الاكاجو والجلد ، التي تركها ، وحيث السيد تيبو ظل سنوات طويلة عليها متمسكاً بالقاعدة ، منحني الجذع ، ساخراً ، قاطعاً او احتفالياً ، يلفظ احكامه .

وفكر : « ماذا عرفت عنه ؟ وظيفة ، الوظيفة الابوية ؛ حكومة ذات حق إلهي مارسته علي ، علينا ، ثلاثين سنة متوالية ـ ومع ذلك بموجب ضمير : فظ وقاس ، ولكن لمقصد صالح ؛ مرتبط بنا ارتباطه بواجبات .. وماذا عرفت ايضاً ؟ حبر اجتماعي ، معتبر ومخيف . ولكن هو ، هو ، الكائن الذي يكونه حين يجد نفسه وحيداً ، بحضور نفسه ، من كان ؟ لا اعرف عنه شيئاً. لم يوضح امامي ابداً اية فكرة ، عاطفة ، استطيع ان اجد فيها شيئاً خاصاً ، شيئاً هو حقيقة منه ، وبشكل عميق ، ويرتفع كل قناع ! »

منذ ان لمس انطوان هذه الاوراق ورفع هذه الزاوية الصغيرة من القناع ، وارتاب بأشياء ، خطر بباله ، بنوع من القلق النفسي ، ان تحت هذه المظاهر

الجليلة رجلاً ـ ربما كان مسكيناً ـ قد مات ؛ وان هذا الرجل كان اباه وانه يجهله جهلاً تاماً .

وتساءل فجأة : « وعني ، ماذا كان يعلم ؟ اقل ايضاً . لا شيء . اي رفيق في صفي غائب عن عيني منذ خمس عشرة سنة ، كان يعرف عني اكثر منه ! هل هي غلطته ؟ اليست غلطتي ؟ ذلك العجوز المتعلم الذي ظهر امام عيون كثير من الرجال المرموقين كرجل فطن ، محترس ، ذي نصيحة ممتازة ، فاني انا ولده لم استشره إلا شكلياً بعد ان اكون قد استعلمت في الخارج وقررت بمعزل عنه . وحين كنا نجد نفسينا الواحد تجاه الآخر ، كان هناك مواجهة رجلين من نفس الدم ، من نفس الطبيعة ، وبين هذين الرجلين ، بين هذا الاب وذاك الابن ، لا يوجد اية لغة اتصال ، ولا اية امكانية لتبادل الرأي : غريبان ! »

وتابع بعد ان خطا بضع خطوات ذهاباً واياباً : « ومع ذلك ، كلا ! هذه ليست الحقيقة . لم نكن غريبين الواحد عن الآخر ، وهذا هو الاكثر هولاً . ان بيننا روابط ـ لا جدال فيها . ولكن نعم ، هذه الروابط من الاب إلى الابن ، ومن الابن الى الاب ـ مهما كان التفكير بها مدعاة للسخرية حين نفكر بما كانت عليه علاقاتنا ـ هذه الروابط الوحيدة التي لا شبيه لها ، كانت موجودة ، كانت موجودة عن حق في اعماق كل منا . وبسببها انا مضطرب في هذه اللحظة : لأول مرة منذ ولادتي اشعر حقاً ان تحت عدم الفهم الكلي هذا ، يوجد شيء سري ، خفي : إمكان ، وامكان شاذ للفهم ! واشعر الآن ، بكل تأكيد ، ورغم كل شيء ـ مع انني لم احقق ابداً اقل بدء لتبادل الآراء بيننا ـ رغم كل شيء انه ما كان ابداً ولن يكون ابداً كائن آخر في الدنيا ـ حتى ولا جاك ـ قد تكوّن ليكون مفهوماً مني في اعماق جوهره ، ولا أفضل تكويناً ليتغلغل دفعة واحدة في أعماق جوهري .. لانه ابي ، ولأني ولده ! »

كان بقرب باب الدهليز . وقال لنفسه وهو يدير المفتاح في القفل :

« هيا لننام » ولكن قبل ان يطفىء النور التفت ليشمل بنظرة غرفة الشغل هذه التي اصبحت الآن كنخروب فارغ .

وأختتم : « لقد تأخر الوقت . وانتهى ذلك إلى الأبد »

كان هناك شعاع من النور يمر تحت غرفة الطعام . وهتف انطوان وهـــو يفتح المصراع :

ـ ولكن يجب ان تسرع بالذهاب يا سيد شاسل .

وكان السيد شاسل منحنياً بين عمودين من اوراق النعي ، يُعد الغلافات ، وقد قال دون ان يرفع رأسه :

ـ آه ! اهذا أنت ؟ تماماً .. ألديك دقيقة ؟

فاقترب انطوان دون حذر ، معتقداً أن الأمـر يتعلق بتوضيح عنوان وردد الرجل الساذج وهو لا يزال مستمراً بالكتابة :

ـ دقيقة ؟ ماذا ؟ لأشرح لك ما كنت قد قلته لك ـ عن ذلك الرأسمال الصغـير .

وبدون انتظار الجواب ، وضع قلمه ، واختطف طقم اسنانه ، وتطلع إلى محدثه بهيئة مبتهجة ، لقد كان خاضعاً .

ـ ألم تنعس اذن يا سيد شاسل ؟

ـ اوه ! كلا . أن ما يبقيني مستيقظاً ، أنا ، انها الافكار ..

وامتد نصفه الاعلى نحو انطوان الذي ظل واقفاً .

ـ اني أكتب العناوين . اكتب .. ولكن أثناء ذلـك يا سيد انطوان .. (كانت له تلك الابتسامة الماكرة التي تشبه ابتسامة مشعوذ صغير سيكشف القناع عن احدى ألعابه) . ولكن اثناء ذلك ، فان هذا يدور ، ويدور .

وقبل أن يستطيع انطوان ايجاد مهرب :

ـ أجل ، بذلك الرأسمال الصغير الذي حدثتني عنه يا سيد انطوان فاني استطيع ان احقق واحـدة من افكاري . نعم ، فكرة لي : منضدة لعرض البضائع . انه اسم ايجازي الى حد ما . منضدة لعرض البضائع *Comptoir* . يمكن القول ايضاً : مكتب . دكان اخيراً . نعم . اولاً دكان . مخـزن في

شارع مطروق من الحي . ولكن الدكان ، هي الخارج . والفكرة ، هـي في الداخل .

حين يستولي موضوعه عليه بقوة كما في هذه اللحظة ، فانه يتكلم بعبارات قصيرة لاهثة ، واليدان ممتدتان ، مضمومتان ، منحنياً تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال. وبين كل عبارة واختها وقفة قصيرة تتيح له ان ينظم في رأسه العبارة التالية ؛ والجهاز نفسه كان يبدو آنذاك انه يقلب النصف الاعلى ويقذف إلى الأمام الكلمات المهيأة ، ثم يتوقف من جديد كأنه لا يستطيع أن يرشح دفعة واحدة بقطعة من فكرته .

وتساءل انطوان اذا لم يكن دماغ السيد شاسل اكثر اختلالاً من المعتاد : بسبب الحوادث ، وعدة ليال بيضاء ..

وتابع الرجل الصغير :

ـ سيتحدث لاتوش عن كل ذلك افضل مـني . انه وقت جميل ذاك الذي عرفت فيه لاتوش ؛ فيما يتعلق بالماضي لم الاحظ عليه سوى سوابق ممتازة . انه من النخبة . دائماً افكار . مثلي . وتلك الفكرة الكبيرة هي لكلينا : منضدة عرض البضائع الشهية . منضدة المهارة الحديثة .. هل فهمتها ؟

ـ ليس تماماً .

ـ حسناً . بكلمة نهـائية . المبتكرات الصغيرة . المبتكرات الصغيرة العملية ! جميع المهندسين الصغار الذين يجدون براعة صغيرة ولا يعرفون ما يفعلون بها . نجمع كل هذا ، لاتوش وانا ، وننشر اعلانات في صحف الحي ..

ـ اي حي ؟

فتأمل السيد شاسل انطوان كأنه لم يفهم السؤال ، وتابع بعد وقفة :

ـ في زمن المرحوم كنت اخجل من سرد هذه الامور . اما الآن .. منذ ثلاث عشرة سنة وانا أجتر هذا يا سيد انطوان . منذ المعرض . وقد ابتكرت ايضاً ، ولا احد سواي ، كثيراً من الشهرات الصغيرة . نعم . زجٌّ مسجِّل لعدّ الخطوات . جهاز لبل الطوابع ، اوتوماتيكي ، دائم . ـ وقفز عـن مقعده

واقترب من انطوان ـ ولكن الاكثر سلوكاً هو البيضة . البيضة المربعة . وقد بقي علي ان اجد مائعي . ولأجل هذا فاني اتراسل مع باحثين . وكهنة الريف كلهم مرشحون مشايعون : في الشتاء ، بعد صلاة التبشير ، يتسع الوقت لممارسة عدة حرف ، اليس كذلك ؟ وقد اطلقتهم كلهم وراء مائعي . وما ان احصل على مائعي .. ولكن المائع ، هذا ليس شيئاً . فالصعب هي الفكرة .

وحملق انطوان بعينيه :

ـ منذ ان تحصل على المائع ؟

ـ اجل . اغمس فيه بيضي .. تماماً بما يكفي لبل القشرة دون افساد البيضة ! افهمت ؟

ـ كلا .

ـ واجعلها تجف في قوالب .

ـ مربعة ؟

ـ طبعاً .

وكان السيد شاسل يتململ كدودة مقطوعة . ولم يكن انطوان قد رآه ابداً في هذه الحالة .

ـ بالمئات ! بالألوف ! مصنع ! البيضة المربعة ! كثير من بائعي البيض !

البيضة المربعة تستقر واقفة ! وقشرتها تبقى في البيت يصنع منها حاملات عيدان ثقاب ، ويصنع منها طاسة للخردل ! البيضة المربعة تصف في علب كالصابون ! وعندئذ ، لأجل الارساليات ، اتهتم بذلك ؟

وكان يريد ان يعاود التسلق على مقعده الصغير ولكنه قفز على الارض حالاً كأنه لسع . واصبح ارجواني اللون . وتمتم وقد بلغ الباب :

ـ عفواً . اني عائد . المثانة . هذا مثير للاعصاب .. منذ ان اتكلم عن البيضة ..

١١

نهار الغد كان يوم احد ، وقد استيقظت جيز غير محطمة ـ اذ يبدو ان الحمى تركتها نهائياً ـ بل على العكس ، كانت فارغة الصبر ، ذات عزم . وكانت كثيرة الضعف فلا تستطيع الذهاب الى الكنيسة ، وقضت فترة الصباح في غرفتها بالصلاة والاستجمام . وغضبت لعدم استطاعتها التفكير بشكل فعال بالوضعية التي سببتها لها عودة جاك :لم يكن امامها شيء واضح ؛ وهذا الصباح، في رابعة النهار ، لم تتوصل الى ان تعرف ما الذي ترك لها خيبة الامل واليأس تقريباً ، البارحة ، وفي زيارة جاك الليلية . وكان يلزم ايضاح . وإزالة سوء التفاهم . ثم يتوضح كل شيء .

ولكن جاك لم يظهر طوال فترة الصباح .وانطوان نفسه لم يظهر تقريباً منذ وضع الجثة في النعش . وقد تناولت العمة وابنة الاخ طعام الفطور وحدهما . ثم دخلت الفتاة إلى غرفتها .

وجاءت فترة بعد الظهر ذات ضباب كثيف وبرد قارس .

وكانت جيز وحدها ، بدون اي عمل ، فريسة افكار ثابتة عاثت بها فساداً، ووصلت إلى درجة من تهيج الاعصاب ، بحيث ارتدت معطفها حوالي الساعة الرابعة ، حين كانت عمتها لا تزال في زيّاح القربان المقدس، وهبطت بسرعة إلى الطابق الارضي . وقادها ليون إلى غرفة جاك .

كان يقرأ الصحف ، على كرسي ، في فتحة النافذة .

وكان خياله يرتسم ضد النور على الزجاج الشاحب، ودهشت جيز من عرض ظهره : حين لا تكون بجانبه تنسى الرجل الذي صاره لكي لا تستحضر في ذهنها سوى اليافع ذي القسمات الصبيانية ، الذي ضمها اليه منذ ثلاث سنوات تحت اشجار ميزون .

ولأول وهلة ، ودون تحليل انطباعها ، لاحظت الطريقة التي يجلس بها منحرفاً على ذلك المقعد المتحرك ، ولاحظت ان كل شيء مختل النظام في هذه

الغرفة . (الحقيبة مفتوحة على الارض ، والقبعة على الساعة المتوقفة ، والمكتب غير مرتب ، وفردتا حذائه امام المكتبة) ، كل شيء يـــدل على معسكر احتياطي ، على مكان حسب الصدفة لا تستعاد العادات فيه .

وكان قد نهض ليأتي إلى لقائها . وحين تلقت عن قـــرب مداعبة نظرته الزرقاء التي قرىء فيها شيء من الدهشة ، اضطربت بشدة بحيث لم تستطع ايجاد ما تخيلته لتجعل زيارتها معقولة ؛ ولم يبق في رأسها شيء سوى الواقع : رغبة لا تقاوم في ان ترى بوضوح . وقد وقفت في منتصف الغرفة ، متخلية عـــن كل مهارة ، شاحبة ، شجاعة ، وقالت :

ـ يجب ان نتحدث يا جاك .

واتسع لها الوقت لتلتقط في العينين اللتين جاءتا بمحبة إلى امامها بريقاً مقتضباً وقاسياً حجبه رفيف الاهداب حالاً .

وضحك رافعاً صوته قليلاً :

ـ يا الهي ، يا لها من هيئة جدية !

وجمدتها هذه السخرية ، الا انها ابتسمت : ابتسامة مرتجفة انتهت بتشنج مؤلم ؛ وصعدت الدموع إلى عينيها ، فلفتت وجهها ، وخطت بضع خطوات وجاءت تجلس على الكنبة ـ السرير ؛ ولكنها اضطرت الى مسح الدموع التي كانت تتدحرج على خديها ، وقالت بنبرة لائمة اعتقدت انها وضعت فيها شيئاً من المرح :

ـ آه ! ها انت ترى انك ابكيتني .. وهذه حماقة .

وشعر جاك بالكراهية الخفية في نفسه . لقد كان هكذا : ذلك الغضب الذي كان يحمله منذ طفولته في اعماق نفسه ـ كما تحمل الارض مركزها الذي هو في حالة الغليان ، كما كان يقول ـ ذلك الغضب الخفي ، تلك الكراهية التي كانت تنبجس مرة بعد مرة في دفعات من الحمم المحرقة لا يمكن لشيء ان يوقفها . وصاح بسخط عدائي :

ـ اجل ، نعم ، تكلمي . انا ايضاً افضل الانتهاء من ذلك .

كانت قليلاً ما تنتظر هذا العنف ، والقضية التي طرحتها وجدت في هذا الانفجار جواباً صريحاً جداً ، بحيث استندت الى المسند ، وشفتاها بيضاوان مشقوقتان كأنه ضربها حقيقة . وكان كل دفاعها هو انها وضعت يدها امامها وتمتمت : « جاكو .. » بصوت مؤثر جعل جاك يغير موقفه حالاً .

كان متشوشاً ، ناسياً ، فتحول دون انتقال من اشد العداوة إلى اندفاعة الحنو الاكثر عفوية والاكثر خدعة : لقد ركض إلى الكنبة وسقط إلى جانب جيز وتلقاها منتحبة على صدره . وتمتم : « يا صغيرتي المسكينة .. يا صغيرتي المسكينة .. » ورأى عن قرب بشرتها الكامدة ، وحول عينيها الدائرة الشفافة الداكنة التي تضفي كثيراً من الكآبة والعذوبة على تلك النظرة المبللة التي رفعتها نحوه . ولكن صفاء الذهن عاد اليه بسرعة كبيرة ، كاملاً ، متأججاً ايضاً ؛ وحين ظل منحنياً فوقها ، وانفه في شعرها ، شاهد بوضوح ، كأنه تصرف كفريب ، إبهام ذلك الانجذاب الجسدي . قف مكانك ! انه مرة اخرى على طريق الرأفة الزالق ، ولسلامتهما معاً اضطر إلى الارتداع في الوقت المناسب ـ والهرب . (ومع ذلك ، اليست استطاعته في هذه اللحظة ان يزن الامور ، ويحكم عقله ، ويميز الاخطار الرديئة التي يتعرضان لها ، برهاناً على اعتدال هذا الانجذاب ؟ وهذا الا يظهر مقدار الخدعة المتلونة التي يخشى ان يكونا ضحيتها ؟).

وعلى الاثر ، ودون ان يحرز انتصاراً بطولياً على نفسه ، رفض حلاوة تقبيل ذلك الصدغ الذي لامسته شفتاه ؛ لقد اكتفى بان يسندها الى كتفه بحنو ، وان يداعب ببطء ، وبأطراف اصابعه ، الخد الفاتر الحريري الذي لا يزال رطباً من الدموع .

وكانت جيز اللاصقة به خافقة القلب ، تمـد خدها ، وعنقها ، ورقبتها لملامسة تلك اليدّ . ولم تكن تتحرك ، ولكنها على استعداد للأنزلاق حتى قدمي جاك ، وحضن ركبتيه .

اما هو ، فعلى النقيض ، كان يشعر بين ثانية واخرى بان نبضه تخف سرعته ؛

واستعاد هدوءاً سيئاً تقريباً. وفي لحظة حقد على جيز بسبب الرغبة المبتذلة التي كانت توحيها اليه بصورة متوالية ؛ وسار إلى درجة احتقارها قليلاً: وصورة جني ، كبرق تلاشى بسرعة ، اجتازت دماغه الذي عاد واصبح كثير النشاط . ثم قلب كل شيء من جديد ، وعاد إلى نفسه . لقد شعر بالخجل ، كانت جيز افضل منه .ان هذا الحب المحرق لحيوان مخلص ، بعد ثلاث سنوات من الغياب، وجده سالماً غير ممسوس؛ وكذلك الطريقة العمياء التي كانت تستسلم بها لمصيرها الغرامي ، لذلك المصير الفاجع الذي قبلته بكل ما فيه من مخاطر ، دون ضعف ـ انها دون اقل شك عواطف اكثر قوة ، واكثر طهارة من تلك التي كان يعتقد انه قادر على ان يعانيها . لقد كان يزن ذلك بنوع من عدم التأثر : برودة في الداخل اتاحت له الآن ، دون اي خطر ، ان يبدو كثير الرأفة بجيز .

وهكذا كان ينتقل من فكرة إلى اخرى ، بينما هي عنيدة ، لم تكن تفكر الا بشيء ، الا بشيء واحد .. وكانت متجهة جداً نحو فكرة الحب الوحيدة تلك ، وكانت كثيرة القبول للتأثر ، كثير الحساسية بكل ما يصدر عنه ، بحيث فجأة، وبدون ان يقول جاك كلمة ، بدون ان يغير موقفه او يتوقف عن مداعبة الخد الصغير المضموم اليه ، حدست بكل شيء بواسطة الطريقة غير المنتظرة ، المحبة ، التي كانت الاصابع فيها تروح وتجيء من الشفة إلى الصدغ : لقد ادركت ان الروابط قد قطعت إلى الابد ، وانها بالنسبة اليه ليس لها اي حساب .

وانفصلت عنه فجأة دون امل . وتطلعت في عينيه لكي تتأكد بشكل لا ريب فيه ـ كما يقدم البرهان على يقين ـ ولم يتسع له الوقت ليخفي عنها جفاف نظراته ، فتأكدت هذه المرة تأكيداً مطلقاً ان كل شيء قد انتهى بشكل لا دواء له .

ولكنها في الوقت نفسه شعرت بخوف صبياني ان تسمعه يقول ذلك وان تتخثر الحقيقة الرهيبة في كلمات واضحة بحيث سيحكم على الاثنين ان يحفظاها

في الذاكرة . وتشدد ضعفها حتى لا يرتاب جاك باضطرابها ، وجاءتها الشجاعة لتزيد من ابتعادها ، وتبتسم ، وتتكلم .

وكانت حركتها المراوغة في ان تدور في الغرفة . وتمتمت :

ـ منذكم من الوقت لم اعد الى هذه الغرفة ؟

لقد كان لديها ، على العكس ، تذكار واضح من المرة الاخيرة حيث كانت جالسة هنا ، على الكنبة نفسها ـ بجانب انطوان. كانت تظن انها تأملت في ذلك النهار ، وتظن ان غياب جاك والقلق المميت الذي عاشت فيه كانا تجربة رهيبة . ولكن ماذا كان ذلك إلى جانب ما تقاسيه اليوم ؟لم يكن لها في ذلك الوقت الا ان تغمض عينيها ليكون جاك حاضراً في تلك اللحظة ، ملبياً نداءها ، شبيهاً تماماً بما تريده ان يكون . اما الآن ! الآن وقد وجدته ، فقد تعلمت حقيقة ان تعيش بدونه ! وقالت لنفسها : « كيف امكن هذا ؟كيف حصل هذا الامر؟ » واصبح قلقها النفسي ممّضاً بحيث اضطرت إلى إغماض عينيها بضع ثوان .

وكان قد نهض ليولع النور ، وسار حتى النافذة وسحب الستائر ، ولكنه لم يعد إلى الجلوس .

وسأل وقد رآها ترتجف :

ـ أأصابك البرد ؟

فقالت متمسكة بالعذر :

ـ ذلك لأن غرفتك لم تُدّفأ ابداً . ومن الافضل ان اصعد .

ان رنة الصوت التي قطعت الصمت هزتهاقليلاً وشددتها.والقوة التي استمدتها من ذلك المظهر الطبيعي كانت سريعة الزوال ، ولكنها كانت بحاجة كبيرة إلى الكذب لتستمر بضع لحظات في الكلام ، مهتزة ، ملقية الكلام امامها كما يلقي السبيدج [1] حبره . وهو واقف ، يوافق بابتسامة ومستسلم للعب ، وربما كان سعيداً بشكل لاشعوري لنجاته هذا المساء من الاستيضاح .

---

١ ـ السبيدج *Seiche* : نوع من الاصداف البحرية في جوفه مائع كالحبر . « المعرب »

الا انها توصلت إلى الوقوف . وتطلعا إلى بعضهما البعض . لقد كانا تقريباً بنفس القامة . وقالت لنفسها : « ابداً ، ابداً ، لـن استطيـع الاستغناء عنه ، انا ! » وكانت هذه طريقة لعدم الاقتراب من تلك الفكرة الاخرى ، الفظيعة : « انه قوي ، هو ، يستغني عني ! » وتكشف لها بشكل مباغت ان جاك قد اختار مصيره بشراسة رجـــل باردة ، بينما هي لا تستطيع شيئاً في اختيار مصيرها ، حتى ولا في توجيه المصير مهما كان قليلاً .

وعندئذ سألت فجأة :

ـ متى سترحل ؟

وكانت تظن انها اتخذت نبرة مجردة .

وامتلك نفسه ، وخطا خطوتـــين ذاهلتين او ثلاث ، ثم التفت نصف التفاتة وقال :

ـ وانت ؟

كيف يعترف بشكل اكثر وضوحاً انه سيرحل فعلاً وانه لا يتخيل ان جيز تستطيع البقاء في فرنسا ؟

وأتت بحركة مترددة من كتفيها . وحاولت الابتسام مرة اخيرة ـ وتوصلت إلى ذلك بشكل جيد ـ وفتحت الباب واختفت .

ولم يفعل شيئاً لإبقائها ، بل تبعها بنظره بحنو مفاجىء وطاهر وكم احب ان يستطيع اخذها بين ذراعيه ، دون خطر ، وهدهدتها ، وحمايتها .. حمايتها ضد ماذا ؟ ضده . ضد الاذى الذي سببه لها (والذي لم يعه الا بشكل غامض جداً) . ضد الاذى الذي سيسببه لها ايضاً : الاذى الذي لم يستطع الا ان يسببه لهـــا ..

وظل واقفاً ويداه في جيوبه ،والساقان متباعدان في وسط غرفته المشوشة . وعند قدميه حقيبته مفتوحة ، مبرقشة بالطاقـــات المتعددة الالوان . وتخيل نفسه في أنكون ـ او ربما في تريستا ـ في طبقة تكاد لا تكون منارة بين جسري مركب ، بين مهاجرين يتقاذفون الكلام بلغة مجهولة ؛ وغطيط جهنمي

يهز جوانب السفينة ؛ ثم صرير حدائد كان يغطي على الجدال ؛ وقد رفعت المرساة ، وازدادت الارتجاجات ، وساد في كل مـــكان صمت مفاجىء : فقد اقلعت السفينة ، واندفعت في الليل !

وانتفخ صدر جاك . فهذا التوق المريض نحو ما لا يعرف اي صراع ، واي مخلوقات ، واي امتلاء لكيانه ، كان يصطدم بهذا البيت ، بهذا الميت ، بجيز ، وايضاً بكل ذلك الماضي المليء بالاشراك والسلاسل .

وزمجر مطبقاً فكيه :

ـ الفرار ! الفرار !

كانت جيز مرتمية على مقعد المصعد . فهل ستجد القوة لتبلغ غرفتها ؟ هكذا حدث : فهذا الاستيضاح ـ الذي طالما علقت عليه املاً رغم كل شيء ـ قد اصبح منتهياً ، مستنفداً . اربعة اجوبة كانت كافية : « يجب ان نتحدث يا جاك ! » واجابها على ذلك بسرعة : « انا ايضاً افضل الانتهاء من ذلك ! » ثم سؤالان ظلا بدون جواب : « متى سترحل ؟ » ، « وانت ؟ » اربع جمل صغيرة كانت ترددها لنفسها بذهول .

والآن ؟

عندما وجدت الشقة الفسيحة صامتة ،وبداخلها راهبتان تسهران على نعش ، وحيث لم يبق اي شيء من الامل الذي تركته فيها منذ نصف ساعة . شعرت بانقباض القلب بحيث كان الخوف من وجودها وحدها لا يزال اكثر سلطة مـــن ضعفها او حاجتها إلى الراحة . وبدلاً من ان تبلغ غرفتها مسرعة ، دخلت إلى غرفة عمتها .

كانت الآنسة العجوز قد عادت . وكانت جالسة ، كما هو الامر في اغلب الاحيان ، إلى مكتبها المزدحم بالفواتير ، والمساطر ، والبيانات والادوية . وعرفت جيز من خطوتها ولفتت جسدها المعقد نحوها .

ـ آه ! اهذا أنت ؟ تماماً ..

وركضت جيز اليها مترنحة ، وقبلت الجبهة العاجية بين العصابات البيضاء . وقد اصبحت الآن كبيرة جداً على التلبد بين ذراعي العجوز الصغيرة، وسقطت كالطفلة على ركبتيها .

ـ تماماً ، كنت اريد ان اسألك يا جيز.. الم يقولوا لك شيئاً عن الترتيب .. التطهير ؟ ومع ذلك يوجد قوانين ! سلي كلوتيلد . وعليك انت ان تكلمي انطوان .. اولاً « المخانق البلدية » . وبعد ذلك ، لكي نكون اكثراطمئناناً ، تلك المباخر من الصيدلي . وكلوتيلد تعرف . يجب ان يسد كل شيء . ستأتين لمساعدتنا هذا النهار ..

فتمتمت جيز وقد امتلأت عيناها بالدمع من جديد :

ـ ولكن يا عمتي يجب ان ارحل ، انا .. انهم ينتظرونني هناك .

ـ هناك : بعد كل ما جرى : اتتركينني وحدي ؟ ـ وكان ارتجاف رأسها العصبي يهز كلامها ـ في الحالة التي انا فيها ، وفي الثامنة والسبعين ..

وفكرت جيز : « الرحيل ، وجاك ايضاً سيرحل . وسيكون الامر كما في السابق ولكن دون امل .. دون امل .. » وكان صدغاها يؤلمانها . وكل شيء يختلط في رأسها. لقد اصبح جاك الآن غير مفهوم بالنسبة اليها،وهذا كان اكثر ايلاماً من كل شيء . غير مفهوم ، هو ، الذي لم تنقطع مرة عن فهمه تمام الفهم ، كما كانت تعتقد ، عندما كان بعيداً ! فكيف حدث هذا :

وتساءلت : « الدخول الى الدير ؟ » السلام الى الابد. سلام المسيح.. ولكن التنكر لكل شيء ! التنكر .. هل تستطيعه ؟

لم تستطع ضبط نفسها فانفجرت بالبكاء ونهضت نصف نهضة وضمت عمتها بين ذراعيها فجأة ، وزفرت :

ـ آه ! ليس هذا عدلاً يا عمتي ! كل هذا ليس عدلاً !

فدمدمت الآنسة قلقة مستاءة :

ـ ولكن ماذا ، ما هو الذي ليس عدلاً ، ماذا تقولين اذن ؟

وظلت جيز على الارض دون قوى . وبين لحظة وأخرى كانت تبحث عن

سد . عن وجود ، وكانت تداعب خدهـا بالقماش الصوفي الخشن الذي كانت تثبت تحته ركبتا العجوز الصغيرة التي كانت تردد بصوت مقاتل ، هازة رأسها:
— في سن الثامنة والسبعين ، أظل وحدي ، في الحالة التي أنا فيها ..

١٢

في كروي كانت كنيسة الاصلاحيـــة الصغيرة ملأى . ورغم البرد كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها . ومنذ ساعة ، في الساحة حيث وطء أقـدام الجمهور حوّل الثلج الى مائع موحل ، كان اولاد المؤسسة المائتان والستة والثمانون يقفون بالصف ، جامدين ، عراة الرؤوس بحزاماتهم ذات الصفيحة النحـاسية على درّاعاتهم الجديدة ، يحيط بهم حراسهم باللباس الموحد ، وأغمدة المسدسات على الخصور .

وقد احتفل الاب فيكار بالقداس ، ولكن اسقف بوفيه الذي كان ذا صوت جهير غير رنان جاء يصلي على الجنازة .

وارتفعت الاناشيد الطقسية الواحدة بعـــد الاخرى ، وحامت لحظة في الصمت الرنان المهيمن من صحن الكنيسة الصغير :

— ابانا ..

— امنحه الراحة الابدية ..

— ليرتاح بسلام ..

— آمين [١] .

ثم أن المرتلين الستة الذين يشغلون المنصة شرعوا في قطعتهم الاخيرة .

وانطوان ، الذي لم ينقطع تفكيره منذ الصباح عن العمل والذهول ، بسبب المشهد اخذ يفكر : « من عادتهم دائماً ان يعزفوا عند الدفن هذا النشيد لشوبان ، ولكنه يكاد لا يكون مأتمياً ! كآبة لا تدوم ، ثم العودة حـالاً الى الفرح ، الى

---

١ ـ هذه العبارات الاربع باللاتينية في الاصل .

تلك الحاجة للوهم .. انــه عدم اكتراث رجل مسلول يفكر بالموت ! » وتذكر آخر ايام درني الصغير ، انه موسيقي هو ايضاً ، مريض في المستشفى . « يرق قلب المرء هناك،ويظن انه يرى فيه ذهول مشرفٍ على الموت يكتشف السماء .. وفي الواقع ، فان ذلك بالنسبة الينــا ليس سوى احدى صفات الالم ، احــد أعراض الآفات . كدرجة الحرارة ! » .

واضطر الى الاعتراف ان يأساً عظيماً مؤثراً قد تغيرتوجهته وفقاً للظرف: لم يحدث لمأتم ان جرى بمثل تلك الأبهة الرسمية . وقـــد كان هو « القريب » الوحيد – دون ان نحسب السيد شاسل الذي وصـــل على الاثر ودخل بين الجمهور – . فأبنــاء العم ، والاقارب الأبعدون لم يجدوا ضرورياً القيام برحلة الى كروي في هذا البرد . والحاضرون كانوا مؤلفين فقط من زمــلاء المرحوم ، ومن مندوبي الجمعيات الخيرية . وقال انطوان لنفسه مبتهجاً : « ممثلون ! وانا نفسي « أمثل » العائلة » . ثم أضاف بكآبة : « لا يوجد صديق » . وكان يريد أن يقول : « ليس هناك احد من اصدقائي . وبسبب القضية » . (منذ موت ابيه توصل الى هذا التحقق بأن ليس له اصدقاء شخصيون . وربمـــا باستثناء دانيال ، ليس له سوى رفاق ، وهذه غلطته : فقد ظل وقتاً طويلاً غير مهتم بالكائنات ! وحتى سنواته الاخيرة ايضاً كان يجد في هذه العزلة مجــالاً للزهو . وها هو بدأ يتألم منها) .

وكان يـلاحظ بفضول رواح ومجيء المحتفلين بالقداس . وعندمـــا رأى الاكليروس يختفون في السكرستيا : « والآن ؟ » .

وكان ينتظر ان ينقل مستخدمو جمعيــة دفن الموتى النعش الى منصة الزينة المصنوعة لأجله ، والمنصوبة على عتبة الكنيسة . عندئذ جاء مدير المراسم مرة اخرى بهيئة مفرطة في الترتيب كمعلم باليه عادي ، وانحنى امام انطوان جاعلاً عصاه الخشبية السوداء ترن على البـلاط بحزن ؛ ثم سار الموكب بشكل طواف تحت المدخل ليسمع الخطب . وانطوان ، وقد بـدا مستقيماً وخليقاً ، استسلم طائعاً للعادات المتبعة في الاحتفالات يسنده الشعور بأنه قبلة الكثير منالانظار.

وكان الحاضرون يشكلون السياج، ويحتشدون ليروا وراء ابن تيبو مسير وكيل الحاكم، وعمدة كومبيانيه، والجنرال قائد الموقع، ومدير مرابض تجويد نسل الخيل، وكل المجلس البلدي في كروي باللباس الرسمي (الريد نكوت)، واسقف شاب كان « يمثل » صاحب النيافة الكاردينال رئيس أساقفة باريس، وبين الشخصيات الشهيرة الاخرى التي كانت تهمس اسماؤها بعض اعضاء مجمع العلوم الاخلاقية جاؤوا يكرمون جنمان زميلهم باسم الصداقة .

وقال صوت قوي :

ـ « ايها السادة ! باسم معهد فرنسا، لدي امتياز حزين .. » .

انه لودان ـ كوستار، الفقيه، رجل اصلع، بدين، محزوم برداء مبطن ذي طوق من الفرو . وقد منح نفسه مهمة الكلام عن حياة المرحوم كلها :

ـ « .. ومضت فترة طفولته بالدرس والاجتهاد، غير بعيد عن مصنع والده، في مدرسة روان .. »

وتذكر انطوان صورة لتلميذٍ مستند بمرفقه على كتب جوائز. وقال لنفسه: « طفولة الاب .. من كان يستطيع التكهن في ذلك الوقت ؟ لا يمكن التوصل الى فهم انسان إلا بعد موته، وما دام الكائن عائشاً فان جميع الاشياء التي لا يزال بامكانه اتمامها ويجهلها مؤلفة من اشياء مجهولة تجعل الحسابات خاطئة . واخيراً يوقف الموت الحدود ؛ كما لو ان الشخص قد انفصل عن امكاناته، وانعزل ؛ يُدار حوله، ويُرى اخيراً من ظهره، ويمكن اصدار حكم جماعي عليه » . وأضاف مبتسماً بينه وبين نفسه : « كنت اقولها دائماً : لا يمكن تشخيص المرض ووصفه قبل تشريح الجثة ! » .

وكان يشعر جيداً انه لم ينته من التفكير بالحياة، بطباع والده، وانه سوف يجد بعد وقت طويل، في هذا التأمل، فرصة للعودة إلى نفسه مشبعاً بالتعليم والميل ..

ـ « .. حين دعي للمجيء لكي يساعد في اعمال جمعيتنا الشهيرة، فاننا لم نتوجه بالنداء فقط إلى تجرده، إلى عزمه، إلى حبه للانسانية، ولا إلى ذلك

الشرف السامي الذي لأجدال فيه والذي جعل منه احدى الشخصيات الاكثر تمثيلاً .. »

وكان الخالد [1] قد انتهى ، فأعاد طي اوراقه ، واسرع في وضع يديه في جيوبه المبطنة وجاء يقف بتواضع في صفه بين زملائه .

واعلن معلم الباليه برصانة :

ـ السيد رئيس لجنة الاعمال الكاثوليكية في اسقفية باريس .

شيخ محترم ، مسلح ببوق يقوي الصوت ، ويسنده خادم مسن وبدين كسيده ، اقترب من المنصة . انه ليس فقط خلف السيد تيبو في رئاسة اللجنة الاسقفية ، بل هو صديق شخصي للميت ، وآخر حي من تلك الفئة من شبيبة روان التي اتت مع السيد تيبو لتقوم بدراسة الحقوق في باريس. كان اصم تماماً ، ومنذ وقت طويل جداً لأن انطوان وجاك ، منذ طفولتها ، كانا قد اطلقا عليه اسم « الطاسة » .

ـ « ان العواطف التي تجمعنا هنا ايها السادة ليست مؤلفة فقط من حسراتنا ..» .

هكذا صاح الشيخ ؛ وهذا الصوت الحاد ، المرتجف ذكّر انطوان بدخول (الطاسة) اول البارحة الى غرفة الميت مستنداً الى الذراع الواهن للخادم نفسه . وقد عوى منذ الباب : « لقد أراد أوريست ان يعيد الى بيلاد هذا البرهان الأخير على الصداقة ! » وجيء به الى جانب الميت ، فتأمله طويلاً بعينه المحاطة باللحم النيء ؛ ثم نهض ووجه الكلام الى انطوان كما لو ان ثلاثين متراً تفصل بينهما ، وصاح منتحباً : « كما كان جميلاً في العشرين من سنه ! » . (كانت هذه الذكرى مدعاة تسلية لأنطوان اليوم ، ولاحظ: « كم تتغير الاشياء بسرعة» وبعد يومين عند رأس الجثة تذكر انه تأثر تأثراً حقيقياً) . وصاح الهرم :

---

١ ـ يطلق على اعضاء المجمع العلمي بشكل خاص لقب « الخالدون » على اعتبار انهم لم يصلوا الى عضوية المجمع الا بعد ان نشروا آثاراً تخلدهم . « المعرب »

ـــ « .. ماذا كان سر تلك القوة ؟ من اي الينابيع كان اوسكار تيبو يغترف اذن ذلك التوازن الذي لاضعف فيه ، وذلك التفاؤل المشرق ، وتلك الثقـــة بنفسه التي كانت تستخف بالعوائق وتؤمن له النجاح في اكثر المشاريع صعوبة؟».

« أليس من الشرف الخالد للدين الكاثوليكي ايها السادة، ان ينتج رجالاً كهذا وحيوات كهذه ؟ » .

وقال انطوان مسلماً : « هذا لا يمكن انكاره . لقد وجد ابي في ايمانه سنداً لا مثيل له ، وبفضل هذا الايمان كان دائماً يجهل ما يعيق : الوساوس ، الشعور المفرط بالمسؤولية ، الشك بالنفس ، وكل الباقي . فالانسان الذي يملك ايماناً ليس عليه الا ان يعمل » . وتوصل ايضاً الى التساؤل اذا كان الناس من امثال ابيـه وهذا (الطاسة) الهرم لم يكونوا قد اتخذوا بالاجمال احد الطرق الاكثر سهولة التي يمكن ان توصل الانسان من الولادة الى الموت . وقال انطوان لنفسه : « من الناحية الاجتماعية هم بين اولئك الذين يتوصلون افضـل من غيرهم الى ملائمـــة حياتهم الفردية مع حياتهم الجمـاعية . وهم دون شك يطيعون الشكل الانساني لتلك الغريزة التي جعلت المنملة والقفير ممكنين . وهذا ليس بالشيء القليل. حتى تلك العيوب المخيفـــة التي كنت الوم ابي بسببها ، تلك الكبرياء ، تلك الشهية للتكريم ، وذلك الميل الى الاستبداد . ويجب الاعتراف انه استطاع بفضلها ان يحصل من نفسه على ما يزيد عن الحد اكثر مما كان بامكانه ان يعطي من الناحية الاجتماعية لو كان مرناً ، مصالحاً ، متواضعاً .. »

وتابع الاصم وقد بح صوته :

ــ « ايها السادة ، هذا المناضل الكبير ليس له اليوم إلا ان يتقبّل تحياتنـا العقيمة . والساعة اكثر خطورة من اي وقت مضى . ويجب الا نتأخر في دفن موتانا . ولنغترف قوتنا من نفس الينبوع المقدس . ولنسرع . لنسرع ..» .

وحمله صدق اندفاعه هذا فأراد ان يتقدم خطوة الى الامـــام واضطر الى التعلق بكتف خادمـه الواهن . ولكن هـذا لم يمنعه من ان يزعق : « لنسرع يا سادة ، لنسرع .. بالعودة الى المعركة الصالحة ! » .

واعلن معلم الباليه :

– السيد رئيس العصبة الاخلاقية لاستعمال الوسائط الكاملة لولادة اولاد اصحاء .

والرجل الصغير ذو اللحية الصغيرة البيضاء الذي تقدم بخطوة مرتبكة ، كان يبدو متجمداً حتى في لفظه . كانت اسنانه تصر ؛ وكانت جمجمته قليلة الدم . وكان النظر اليه مؤلماً اذ يبدو ان قوة الحرارة قد هاجمته وأنقصته .

– « اشعر انني متضايق من .. من .. (كان يبدو انه يبذل جهداً فوق طاقة البشر ليفصل فكيه المتجمدين من البرد ، الواحد عن الآخر) . من تأثر مؤلم .. »

وأبدى انطوان الغضب وقد فرغ صبره : « سيلحق الموت بالاولاد تحت تلك العريشة » . وشعر هو ايضاً بالبرد يجتاح ساقيه ، ويجمد صدر القميص تحت معطفه .

– « لقد مر بيننا وهو يفعل الخير . وستكون هذه هي الكتابة المجيدة على قبره :

قضى حياته في عمل الخير [1] .

« انه يتركنا ايها السادة مغموراً بشهادات اعتبارنا لجميع .. »

فقال انطوان لنفسه : « اعتبار ! ها نحن عدنا .. اعتبار من ؟ » وأجال نظراً متساهلاً في تلك الصفوف من السادة العجائز الفانين ، المصابين بالبرد ، وعيونهم دامعة من الصقيع ، والانف رطب . يرهفون السمع بأفضل آذانهم ليسمعوا ، ويميزون العبارات باشارات استحسان . ولم يفكر احد منهم بدفنه ولم ينتابه الحسد من « شهادات الاعتبار » هذه التي يمنحونها بأريحية للزميل المرحوم الرفيع الشأن .

وكان ذو اللحية الصغير ذا نفس قصير ، فلم يتأخر في ترك المكان .

---

١ – باللاتينية في الاصل .

اما الذي احتله فكان عجوزاً جميلاً ذا نظر شاحب ، حاد ، بعيد . لقد كان نائب اميرال محالاً على التقاعد ، ومنصرفاً الى الاعمال الخيرية . وكلماته الاولى وجدت انطوان حروناً .

- « كان لأوسكار تيبو ذكاء نبيه وبصير ، يستطيع في معارك عصرنا المضطرب المشؤومة ان يتعرف الى القضية الصالحة ويشتغل لبناء المستقبل .. ».

فاعترض انطوان بينه وبين نفسه : « كلا ، ليس هذا صحيحاً . كان لأبي كامة على عينيه ، وقد اجتاز الدنيا دون ان يرى شيئاً آخر سوى ما يحيط بالدرب الضيق الذي اختاره . ويمكن القول ايضاً انه كان نموذجاً للعقل المتحيز. ومنذ المدرسة اقلع تماماً عن البحث عن نفسه ، والتعبير بحرية ، والاكتشاف ، والمعرفة . لم يكن يعرف الا ان يضع خطواته على خطوات ، وقد ارتدى ملابس رسمية .. »

وتابع الاميرال :

- « هل كان هناك من هو موضع حسد أكثر منه؟وحياة كهذه ايها السادة، أليست هي الصورة .. » .

وفكر انطوان وهو يجيل عينيه مرة اخرى في الجمهور المنتبه : « ملابس رسمية . وهذا صحيح جداً انهم كلهم متشابهون . متعاقبون ، ووصف واحد منهم إشارة لهم كلهم . وهم متأثرون من البرد ، طارفون بعيونهم ، قصيرو النظر ، يخافون من كل شيء : خوف من التفكير ، خوف من التطور الاجتماعي، خوف من كل ما يصطدم بحصونهم . - وقال لنفسه : - علي ان انتبه ، فقد استولت فصاحتهم علي . ولكن « حصن » كلمة عادلة تماماً ؛ ان لهم نفسية الناس المحاصَرين الذين يحسبون ، لإدخال الاطمئنان الى قلوبهم ، انهم كثرة وراء متاريسهم ! » .

وشعر بقلق نفسي متزايد ولم يسمع الخطاب ؛ ولكن حركة الخاتمة الواسعة استلفتت انتباهه :

- « وداعاً ايها الرئيس العزيز ، وداعاً ! بقدر ما سوف يعيش اولئك الذين

رأوك وانت تعمل .. » .

وانفصل مدير الاصلاحية عن جمهور الخطباء . وكان آخر المتكلمين . وقد بدا على الاقل انه لاحظ عن قرب ذلك الذي يجب أن يلقي عليه عظة الموت :

— « .. كان عزيزنا المؤسس يجهل فن إخفاء تفكيره تحت ستار الرضى السهل ، ولما كان متعجلاً العمل باستمرار فقد كانت لديه الشجاعة لاحتقار مجاملة بدافع التهذيب لا فائدة منها » .

وارهف انطوان السمع لاهياً :

— « .. كانت طيبته تختفي تحت قساوة حازمة ربما كانت تجعله أكثر فعالية . وتشدّده في اجتماعات مجلس الادارة كانت شكلاً من نشاطه ، من احترامه للحق ، للضمير العالي الذي شكله لنفسه من واجباته كرئيس ..

« كل شيء فيه كان نضالاً وانتصاراً تقريباً ! وكلامه نفسه كان يرمي دائماً الى هدف مباشر ، وكان سلاحاً ، نبوّتاً .. » .

وفكر انطوان فجأة : « نعم ، لقد كان ابي قوة رغم كل شيء » . وقد دهش لأنه وجد في نفسه هذا اليقين وأكد : « كان باستطاعة ابي ان يكون كل شيء .. باستطاعة ابي ان يكون احد العظماء .. » .

ولكن المدير مد ذراعه نحو صفوف الاولاد المصفوفين بين حراسهم. والتفتت جميع الرؤوس نحو المجرمين الصغار الجامدين وقد ازرقّ لونهم من البرد :

— « .. تلك الشبيبة المذنبة المنذورة للشر منذ المهد ، والتي جاء اوسكار تيبو يمد يده اليها ، هذه الضحايا الحزينة لنظام اجتماعي ناقص ويا للأسف ، هي هنا ايها السادة لتشهد بشكرانها الابدي ولتبكي معنا المحسن الذي اختطف منا ! »

وردد انطوان لنفسه بعناد يبرز منه امل مبهم : « نعم ، كان لأبي الثوب .. نعم ، كان بامكان ابي .. » وساورته هذه الفكرة بان الطبيعة اذا لم تكن قد عرفت هذه المرة ان تخرج خالقاً من طبقة تيبو القوية ..

وأثاره الاندفاع ، او انبسط المستقبل امامه .

إلا ان الحاملين كانوا قد امسكوا بالتابوت . وكان الجميع يتعجلون النهاية .

والمحنى مدير الاحتفال من جديد، وجعل بلاط ساحة الكنيسة يرن تحت عصاه. وانطوان عاري الرأس ، غير متــأثر ، – سار نشيطاً على رأس الموكب الذي اوصل اخيراً جثمان اوسكار تيبو الى الارض . من التراب والى التراب يعود [1].

٨

في ذلك النهار قضى جاك فترة الصباح في غرفته ، مقفلاً الباب بالمفتــاح مع انه وحيد في الطابق الارضي . (ومن الطبيعي ان يكون ليون قــد رغب في اللحاق بالجنازة) . وبداعي الاحتياط ضد نفسه ، ليكون واثقاً ساعـــة سير الموكب من عدم بحثه بين الحضور عن بعض الوجوه المعروفة ، فانه احكم اغلاق المزاليج ، ونام على سريره ويــداه في جيوبــه ، ونظره ضائع في أشعة مصباح السقف . وكان يصفر صفيراً خفيفاً .

وحوالي الساعـــة الواحدة انهضه تهيج الاعصاب والجوع . ان الخدمة الاحتفالية في كنيسة الاصلاحية يجب ان تبلغ أوجها . وفوق ، فان المدموازيل وجيز اللتين عادتا منذ وقت طويل من قداس سان توما داكان اضطرتا الى الجلوس الى المائدة دون انتظاره . إلا انه كان مصمماً الا يرى احداً طوال النهـــار . وسوف يجد بعض البقايا في خزانة الطعام .

ورأى وهو يجتاز الدهليز ليصل الى المطبخ ان رسائل وصحفاً قــد ادخلت من تحت باب الدخول فاستلفتت انتباهه . وانحنى فجأة، وانبهر : خط دانيال! السيد جاك تيبو .

ولم تتوصل اصابعه المرتعشة الى فتح الغلاف :

« عزيزي جاك ، صديقي العزيز الكبير ، كبيري ! تلقيت البــارحة كلمة انطوان .. » .

في حالة الانحطاط التي كان يعانيها ، نفذ هذا النداء اليــه بكثير من الحدة

- ١ باللاتينية في الاصل .

بحيث طوى الرسالة بعنف اربع طيات ، ثمـــان طيات ، الى ان استقرت في قبضته المتشنجة .

ثم عاد مهتاجاً الى غرفته واقفل الباب بالمفتاح دون ان يتذكر لماذا خرج . وخطا بضع خطوات حسب الصدفة وتوقف تحت الضوء ونشر الورقة وأجـال فيها نظراً متحركاً بـدون ارادة ، دون الاهتمام بالمعنى ، حتى اللحظة التي قفز فيها الى وجهه الاسم الذي كان يبحث عنه .

« .. لم تستطع جني في هذه السنوات الاخيرة احتمال الشتاء الباريسي. ومنذ شهر والاثنتان في البروفانس .. » .

ومن جديد ، وبنفس العنف ، دعك الرسالة ، ووضعها هـذه المرة مكومة في جيبه .

وشعر انه مضطرب ، طائش ، ثم سكن فجأة .

وبعد دقيقة ، ركض إلى مكتب انطوان وفتح الدليل ، كأن هذه السطور الاربعة التي قرأها قد غيرت عزمه . ولم يكن تفكيره قـد ترك كروي منذ استيقاظه . اذا سار دون ابطاء بامكانه ركوب قطار الساعة ١٤ السريـع . وسوف يصل إلى كروي في النهار ، ولكن بعد الاحتفال ، وبعد رحيل قطار العودة بوقت طويل ؛ اذن فقد كان متأكداً كل التأكيد انه لـــن يلتقي هناك بأي شخص . وسوف يذهب رأساً إلى المقبرة ويعود حالاً . « الاثنتان في البروفانس .. »

ولكنه لم يكن يتوقع الى اية درجة ستزيد هذه الرحلة من خطورة عصبيته . لم يتوصل الى البقاء في مكان . ومن حسن الحظ ان القطار كان فارغاً : لم يجد نفسه وحيداً في مقصورته فقط ، بل في العربة كلها ولم يكن هناك سوى مسافرة واحدة ، سيدة عجوز ترتدي السواد . وبدون ان يهتم جاك بها اخذ يذرع الرواق من طرف إلى آخر ، كحيوان في قفص . ولم يلاحظ حالاً ان هذا الرواح والمجيء المضطرب ايقظ انتباه المسافرة ـ وربما بشيء من القلق ايضاً . وقد تفحصها خفية ؛ لم يكن باستطاعته الالتقاء بكائن في هيئته شيء خاص

دون ان يقاطع نفسه بضع ثوان ليلاحظ العينة البشرية التي وضعتها الصدفة في طريقه . ومن المؤكد انه كان لهذه المرأة سحنة مؤثرة . وجه جميل منهوك ، شاحب ، مليء بالعلامات المميزة، ونظر حزين حار، مثقل دون شك بالذكريات. والمجموع الذي يتوّجه بياض الشعر كان هادئــاً ونقياً . كانت بملابس الحداد ترتديها باعتناء . ويجب ان تكون عائشة وحدها منذ وقت طويل ، وتعيش حياتها المنفردة بجدارة. سيدة ، ربما كانت عائدة الى كومبيانية اوسان كنتان. بورجوازية من البروفانس . وليس معها اي متاع . وبجانبها على المقعد الصغير باقة كبيرة من بنفسج بارم مغلفة إلى نصفها بورقة حريرية .

في محطة كروي قفز جاك من العربة خافق القلب .

ما من احد على الرصيف . وكان الهواء جليدياً شفافاً .

واستولى على قلبه مرأى المناظر الطبيعية منذ خروجه من المحطة ، ولما كان يكره الطريق المختصر ، وحتى الطريق الكبير ، فانه سار نحو الشمال بطريق كالفير : دورة طولها ثلاثة كيلومترات .

رياح قوية صاخبة كانت ترتفع بالتتابع من جميع الجهات وتكنس بهبات عنيفة تلك الاماكن المنعزلة التي لا تزال ملأى بالثلج ، وكانت الشمس قــد انخفضت نحو الافق ، في ناحية ما وراء ذلك القطن المندوف . وكان جاك يمشي بخطى مسرعة . وكان بدون طعام منذ الصباح ولكنه لم يشعر بجوعه . وهذا البرد كان يسكره . لقد تذكر كل شيء ، كل منعطف ، كل منحدر ، كل دغل . وكان التل الذي نصب عليه الصليب يُشاهد من بعيد ، بين باقة من الاشجــار العارية ، على مفرق ثلاثة دروب . فذلك الطريق هناك يوصل الى فومسنيل . وكوخ العمال ذاك كم مرة اثناء نزهته اليومية مع حارسه التجــأ اليه من المطر ! مرتان او ثلاث مع الاب ليون ؛ ومرة على الاقل مــــع ارتير . ارتير ووجهه المسطح يشبه رجلاً فاضلاً من اللورين، وعيناه الشاحبتان، وفجأة تلك الضحكة المبهمة ..

كانت ذكرياته تسوطه اكثر من تلك الريح الجليدية التي كانت تجرح وجهــه

وتؤلم اصابعه ، لم يكن يفكر ابداً بوالده .

وانتهى نهار الشتاء القصير بسرعة : وكان النور كالحاً ولكن لا يزال هناك وضوح .

وبوصوله الى كروي اضطر الى القيـــام بدورة ، كما في السابق ، ليسير في الزقاق وراء البيوت كأنه لا يزال يخشى ان يشير اليـــه الاولاد بالاصابع ، من يستطيع معرفته بعد ثماني سنوات ؟ ومع ذلك فالزقاق كان مقفراً ، والابواب مغلقة ؛ وبدت حياة القرية متجمدة من البرد ؛ ولكن جميع المداخن كان يتصاعد منها الدخان في السماء الرمادية ، وظهر الفندق بدرجاته ذات الزوايا وآرمتــه التي تصر في الهواء . لم يتغير شيء ، حتى ولا ذلك الثلج الذائب على تلك الأرض الطباشيرية ، وذلك الطين الابيض الذي اعتقد انه لا يزال يغمس فيــه حذاءه العالي النظامي . والفندق : هنا كان الاب ليون يقوم بدورة في الحانة ! وهناك فتاة تضع منديلاً ، آتية في الزقاق تقرقع بجرموقها على حجارة الدرج المسطح . الخادمة الجديدة ؟ ربما كانت ابنة صاحب الفندق ، تلك الطفلة التي كانت تهرب دائماً عند رؤية « السجين » وقبــل ان تختفي الفتاة في البيت تطلعت بمداراة الى مرور الشاب المجهول . واسرع جاك الخطى .

لقد اصبح في طرف القرية . وما ان تجاوز آخر البيوت حتى شاهد في وسط السهل البناية الكبيرة ، المنعزلة في حزامها المكون من الجدران العالية ، مغطاة بالثلج وبصفوف النوافذ ذات القضبان الحديدية. وكانت ساقاه ترتجفان. لم يتغير شيء.لا شيء.الممشى بدون اشجار،والذي يقود الى البوابة كان نهراً من الوحل.ولا شك بأن غريباً ضائعاً في هذا الغسق الشتائي كان يسيء حــل طلاسم الحروف الذهبية المحفورة فوق الطابق الاول . وقد قرأ جاك بوضوح ذلك الخط الفخور الذي ظل نظره متطلعاً اليه :

مؤسسة اوسكار تيبو

عندئذ فقط فكر ان السيد المؤسس قد مات وان آثاره قـد حفرتها عربات الموكب ، وانه قـــام بهذه الزيارة لاجل ابيه ؛ وتعزى فجـأة لاستطاعته

ان يدير ظهره لهذه الزينة المشؤومة ، فعاد القهقرى واتجـــه شمالاً ، وسار في اتجاه شجرتي العفص اللتين تقومان على جانبي مدخل المقبرة .

والسياج الحديدي المقفل عادة كان قد بقي مفتوحاً. وآثار العجلات تشير الى الطريق . فتقدم جاك آلياً نحو كومة من الاكاليل ذبلت من البرد وكانت تشبه كدسة من القشور اكثر مما تشبه ارضاً مزهرة .

وامام القبر باقة كبيرة من بنفسج بارم كانت سوقها مغلفة بورق حريري ، وتبدو انها وضعت هناك بعد فوات الاوان ، مضطجعة ، منفردة على الثلج .

وقال لنفسه دون ان يعلق اهمية على هذه المطابقة [1] : انظر !

وفجأة ، امام هذه الارض التي حُركت حديثاً تخيل جثة مطمورة في هـذا الوحل ، كما رآها لآخر مرة في تلك الهنيهة المفجعة المضحكة حيث اسبل مستخدم جمعية دفن الموتى الكفن على ذلك الوجه المتبدل ، بعد حركة مجاملة تجاه العائلة .

وفكر بقلق نفسي شديد : « هوب ! بسرعة ! إلى مكان اللقاء ! » وضيّق نفسه بـكاء عنيف :

لقد ترك مجرى الحوادث يجره منذ لوزان ، ومن ساعة إلى ساعة ، وهـــو نصف لاواع . ولكنه هنا استيقظ فيه فجأة حنو قديم ، صبياني ، مفرط ، غير منطقي ولا يمكن مناقشته ، جعله شعور بالفوضى وتوبيخ الضمير مؤلمـاً . لقد اصبح يدرك الآن لماذا جاء . وتذكر غضباته ، وفكرات الاحتقار والحقد، ورغبات الانتقام التي كانت تسمم شبابه ببطء . عشرون حادثة منسية عادت اليوم تصيبه بشدة ككرات ترتد اثر الصدمة . وأثناء بضع دقائق تخلص من كل حقده ، وعاد الى غريزته البنوية ، وبكى اباه . ولبضع دقائق كان احد كائنين، بدون ان يتعارفا ، وبحركتها الخاصة ، وبمعزل عن الادلة الرسمية ، كانا قـــد شعر بالحاجة في هذا النهار ليأتيا ويتأثرا امام هذا القبر ؛ وأحد هذين الكائنين

---

١ ـ لان باقة بنفسج بارم كانت مع السيدة التي رافقته في القطار عند مجيئه .

الوحيدين في العالم بكى السيد تيبو بكاءً حقيقياً في هذا النهار [1] .

ولكنه كان قليل الاعتياد على النظر إلى الامور في وجهها لكي لا تظهر له غرابة حزنه وحسراته بسرعة . وكان يعلم عن يقين ان هذا الاب لو كان لا يزال حياً لكرهه وهرب من جديد . الا انه ظل هناك ، واهناً ، فريسة لعواطف رقيقة ومبهمة . كان يتحسر ولا يعرف على ماذا .. ـ على ما يستطيع ان يكونه . وشاقه لحظة ان يتخيل اباً رؤوفاً ، كريماً ، شاملاً ، يستطيع ان يأسف لانه لم يكن الابن الذي لا عيب فيه لذلك الوالد المحب .

ثم هز كتفيه ، ودار نصف دورة ، وخرج من المقبرة .

وعاد شيء من الحيوية إلى القرية ، وانهى الزارعون نهارهم . وأضيئت نوافذ. ولكي يتجنب البيوت سار على طريق مولان ـ نوف بدلاً من ان يسير باتجاه المحطة ، ووجد نفسه في الحقول تقريباً .

ولم يكن وحيداً . فقد لاحقه ، متداخلاً عنيداً ، وتعلق به ، ونفذ إلى افكاره واحدة واحدة . ومشى بجانبه في ذلك السهل الصامت ، تحت ذلك الضوء المتجعد الذي يختلج على الثلج ، في ذلك الهواء الملطف بهدنة آنية من الرياح . لم يكن يكافح ؛ فقد استسلم إلى عسف هذا الموت ؛ وشدة عدم فائدة الحياة التي بدت له في هذه اللحظة ، وعبث كل جهد أثارا فيه حماسة لذيذة . لماذا نريد ؟ ماذا نأمل ؟ كل وجود هو سخرية . لا شيء ،لا شيء مطلقاً يستحق الجهد ـ منذ ان عرف الموت ! لقد شعر انه اصيب هذه المرة ، في لبابه .ما من طمع ، ما من رغبة في السيطرة ، ما من رغبة في تحقيق اي شيء كان . ولم يكن يتخيل انه يستطيع الشفاء من هذا القلق النفسي ، ولا ان يستعيد اية طمأنينة ؛ حتى انه لم يكن لديه اي ميل إلى الظن بان الوقت يتسع أحياناً للانسان ، إذا كانت الحياة قصيرة ، ليضع شيئاً من نفسه بأمن من التلف ، وانه منح أحياناً القدرة على النهوض قليلاً من حلمه فوق الموجة التي تحمله ، ليعوم

---

١ ـ الكائنان : هو والسيدة العجوز .

شيء منه بعد ان غرق عمودياً .

كان يسير أمامه رأساً بخطى سريعة ، غير منتظمة ، متشدداً كرجل هارب يحمل على صدره شيئاً سريع العطب ، الهرب من كل شيء ! ليس فقط من المجتمع وكلاليبه ، ليس فقط من العائلة ، من الصداقة ، من الحب ؛ ليس فقط من النفس ، من طغيان الوراثة والعادة ؛ بل الهرب ايضاً من جوهره الاكثر خفية ، من تلك الغريزة المستحيلة الحيوية التي لا تزال تعلّق بالوجود اكثر الحطام الانسانية حقارة . وزارته من جديد ، تحت شكلها المجرد ، فكرة الانتحار المنطقية ، الاختفاء الإرادي والكّلي . الهبوط اخيراً الى اللاشعور . وتخيل فجأة والده الميت ووجهه الجميل الهادىء .

« ... سوف نرتاح يا عم فانيا ... سوف نرتاح » .

وكان ذاهلاً رغماً عنه بسبب جلبة عدة عربات شاهد مصابيحها وكانت آتية باتجاهه ، مهتزة باستمرار خلال آثار مرور العجلات على الارض ، وبين صيحات وضحكات السائقين . كانت فكرة التقائه بالناس لا تحتمل ، وبدون ان يتردد ، قفز الحفرة الملأى بالثلج ، والتي تحاذي الطريق ، واجتاز مترنحاً ارضاً صلبة ، وبلغ طرف غاب صغير واندفع في الغاب .

كانت الاوراق المتجمدة تقرقع تحت نعليه : ورؤوس الاغصان الكالحة تسوط خديه ، وقد ادخل يديه في جيوبه عمداً ودخل بنشوة في قلب الغاب سعيداً بهذا السوط ، غير عارف الى اين يسير ، ولكنه عازم على الهرب من الطرقات ، ومن الناس ، ومن كل شيء !

لم يكن هناك سوى عصابة ضيقة من الارض المشجرة اسرع باجتيازها . ومن خلال جذوع الاشجار شاهد السهل الابيض من جديد تحت سماء ظلامية ، تقطعه طريق ، والاصلاحية أمامه مسيطرة على الافق . بصف أضوائها : طابق المصانع والدرس . عندئذ اجتازت مخيلته فكرة مجنونة : وجرى كل شيء كالفيلم : تسلّق جدار السقيفة المنخفض ، والركوب على الجسر حتى نافذة المخزن ، وكسر الزجاج ، واشعال عود ثقاب ، وإلقاء حزمة من القش المشتعل

من خلال القضبان الحديدية ، وتشتعل الفرش الصغيرة الاحتياطية كالمشعل ، ويبلغ اللهب بناء الادارة ، ويلتهم زنزانته القديمة ، ومنضدته ، وكرسيه ، ولوحه الاسود ، وسريره .. وتقضي النار على كل شيء .

وأمرّ يده على وجهه المخدوش واحس بالشعور المؤلم بعجزه ـ والمضحك . وادار ظهره نهائياً إلى المؤسسة ، والمقبرة ، والماضي ، وسار بخطى مسرعة نحو المحطة .

كان قطار الساعة ١٧ والدقيقة ٤٠ قد تأخر بضع دقائق . واضطر الى الصبر وركوب المركبة العامة (اومينبوس) في الساعة ١٩ .

كانت غرفة الانتظار كالثلاجة ملوثة بالعفونة . وقد خطا المئة خطوة طويلاً على الرصيف المقفر ، والنار في خديه ، ساحقاً في جيبه رسالة دانيال ؛ وكان قد اقسم انه لن يفتحها .

واخيراً اقترب من عاكس النور الذي ينير ساعة الجدار ، واستند الى الحائط ، وسحب الورقة من جيبه واخذ يقرأ :

« عزيزي جاك ، صديقي العزيز الكبير ، كبيرى العزيز ! تلقيت مساء البارحة كلمة انطوان ولم استطع اغماض عيني . لو كنت استطيع ، بين مساء البارحة وهذا الصباح ، الوصول إليك ورؤيتك حياً لمدة خمس دقائق ، لكنت قفزت الجدار دون تردد ، نعم ، رغم المخاطر ، لأراك يا كبيري ، يا صديقي ، وأجدك مرة ثانية امامي ، انت جاك ، حياً ! في هذه الغرفة الخاصة بصفوف الضباط ، والتي اتقاسمها مع شاخرين آخرين طوال الليل ، وعلى سقفي ذي الكلس المضاء بالقمر ، رأيت طفولتنا كلها تتوالى ، كل حياتنا المشتركة ، والمدرسة بعد ذلك ، وكل شيء ، كل شيء . يا صديقي ، يا صديقي القديم ، يا اخي ! كيف استطعت ان اعيش كل هذا الوقت بدونك ؟ اسمع : لم اشكّ دقيقة واحدة بصداقتك . وها انت ترى اني اكتب اليك منذ هذا الصباح، تماماً

بعد انتهاء التمرين ، عندما تلقيت الكلمة الصغيرة من انطوان ، دون ان اعرف شيئاً مفصلاً ، حتى دون ان أتساءل بأي عين ستقرأ هذه الرسالة مني ، ودون ان افهم ايضاً كيف ولماذا عاقبتني طوال ثلاث سنوات بهذا الصمت المميت . لقد اعوزتني كما تعوزني اليوم ، وكما اعوزتني على الخصوص قبل الجيش، في الحياة المدنية ! أترتاب بذلك ؟ تلك القوة التي بثثتها بي ، وكل الأشياء الجميلة التي لم تكن فيّ إلا في حالة الامكان والتي اخرجتها مني ، والتي بدونك ، بدون صداقتك ... » .

كانت يدا جاك ترتجف وهو يرفع حتى عينيه الاوراق المدعوكة التي كان يحل رموزها بجهد ، تحت الانارة السيئة ومن خلال دموعه . وكان فوق رأسه تماماً جرس ، حاد ، ثاقب كالمثقب ، يرتجف بشكل لا ينتهي .

« .. اعتقد انك لا تشك بهذا ابداً لانه كان لدي في ذلك الوقت كثير من الكبرياء لأعترف ، وخصوصاً لك . وحين اختفيت تماماً فاني لم استطع تصديق ذلك ، ولم افهم شيئاً عنه . لكم تعذبت ! وخصوصاً من الغموض ! ربما سأفهم ذات يوم . ولكن في أسوأ لحظات القلق ، والكراهية ايضاً ، لم تخطر لي ابداً فكرة تغير عواطفك بالنسبة الي (لو كنت حياً) . وانت ترى : واليوم ايضاً لا ارتاب بك .

« انقطعت عن الكتابة بسبب مناكدات الخدمة .

« لقد جئت التجيء الى زاوية في مطعم الجنود ، مع ان ذلك ممنوع في مثل تلك الساعة . انت بالتأكيد لا تعرف ما هي حياة الثكنة ، هذا العالم الذي اخذني وأمسك بي منذ ثلاثة عشر شهراً. ولكني اكتب لا للتحدث عن الثكنة.

« هذا مخيف كما ترى ، حتى ان المرء لا يعرف ماذا يقول وماذا يتحدث . وانت تدرك جيّداً الوف الاسئلة الموجودة على طرف قلمي . ما الفائدة ؟ كان بودي فقط ان ترضى بالاجابة على واحد منها ، لان هذا بالحقيقة مؤلم جداً : هل سأراك ؟ قل ؟ هل انتهى كل ذلك الكابوس؟ هل « وُجدت ثانية؟ » ام انك..

ستهرب ايضاً ؟ اسمـــع يا جاك . ما دمت متأكداً تقريباً بأنك ستقرأ هذه الرسالة على الاقل ، وما دمت لا املك سوى هذه الدقيقة لأصل اليك ، فدعني اصيح بك : انا قادر على فهم كل شيء منك . ولكني ارجوك ، مهما كنت تخطط ايضاً ، ان لا تختفي كلياً من حياتي ! انا بحاجة اليك . (لو كنت تعلم كم انا فخور بك ، وكم انتظر اشياء عظيمة منك ، وكم احرص على هذا الفخر !) انا مستعد لقبول كل شروطك . لو طلبت مني الا احصل على عنوانك، والا يكون تراسل بيننا ، وألا اكتب ابداً ، وحتى لو طلبت الا اوصل لأي شخص ، حتى لذلك المسكين انطوان ، الاخبار التي سأحصل عليها منك ، فاني اعدك بذلك، نعم . اني اقبل بكل شيء ، واتعهد مسبقاً بكل شيء . ولكن على ان احصل بـــين وقت وآخر على علامة حياة ، على برهان انك موجود وانك فكرت بي ! هذه الكلمات الاخيرة، اني آسف بسببها، واني اشطبها لأنني اعلم متأكداً انك تفكر بي . (في هذا لم يساورني الشك ابداً ، ولم تخطر لي الفكرة ابداً بانك تستطيع العيش دون ان تفكر بي ، بصداقتنا) .

« اني اكتب ، واكتب دون ان استطيع التفكير، واشعر جيداً اني لم اصل الى ايضاح افكاري . ولكن هذا لا يؤثر شيئاً ، انـــه لذيذ بعد ذلك الصمت المميت .

« بودي ان احدثك عن نفسي لكي تستطيع ، حـين تفكر بي ، ان تفكر بذلك الذي صرته وليس فقط بذلك الذي تركته . ربما يحدثك انطوان ، فهو يعرفني جيداً . لقد رأينا بعضنا البعض كثيراً منذ رحيلك . انا لا اعرف بماذا ابدأ . انا متأخر جداً كما ترى ، وهذا يخمد شجاعتي. ثم انك تعرف جيداً كيف انا : انا احيا ، واسير ، واكون ، بطيبة خاطر ، ولا اعرف العودة الى الوراء . وهذه الخدمة العسكرية قد قطعت عملي في اللحظة التي بدا لي فيها انني استشف اشياء جوهرية ، عني ، عن الفن ، عن كل مـا كنت ابحث عنه بشكل مشوش منذ البدء . ولكن من الحمق التكلم اليوم عن هذا . الا اني لا آسف على شيء . وهذه الحياة العسكرية هي بالنسبة الي شيء جديد وقوي جداً . اختبار كبير

وتجربة كبرى ، وخصوصاً منذ ما بدأت اقود رجالاً. ولكن من الحمق التحدث اليوم عن هذا .

« وأسفي الوحيد الكبير هو انني افترقت عن امي منــذ سنة . وخصوصاً لانني اشعر ان الاثنتين تتعذبان كثيراً من هذا الفراق . ويجب ان اقول لك ان صحة جني ليست على ما يرام واننا كنا قلقين في عدة مناسبات . ونحن ، يعني انا ، لان امي ، وانت تعرفها ، لا تعتقد ابــداً ان الامر يمكن ان ينقلب الى اسوأ . الا ان امي اعترفت ان جني ، في هــذه السنوات الاخيرة ، لم تستطع احتمال الشتاء الباريسي . ومنذ شهر ، والاثنتان في البروفانس في نوع من احد بيوت الراحة سيُعتنى بجني فيـه حتى الربيع اذا أمكن . ان لديهما الكثير من بواعث الهم والحزن ! وابي هو نفسه دائماً . ولن نتكلم عنه . انـــه في النمسا ولكن لديه قصصاً لا تنتهي .

« يا كبيري العزيز . اني افكر فجأة بوفاة والدك . ومن هنا كنت اريد ان ابدأ هــذه الرسالة . سامحني ، الا اني مرتبك لأتحدث اليــك عن الحداد ، ومع ذلك فاني اشعر بالتأثر حين افكر بمــا تشعر به : انا شبه واثق ان حادثاً كهذا احدث لك صدمة عنيفة غير منتظرة .

« اريد التوقف هنا بسبب الوقت وبسبب الضابط المناوب. واريد ان تصل هذه الرسالة اليك ، وبأسرع ما يمكن .

« يا كبيري ، لا يهم ، هناك ايضاً شيء اريد ان اكتبه اليــك كيفما اتفق . انا لا استطيع الذهاب الى باريس لأني مشتبك هنا وليس لدي اي وسيلة للذهاب اليك ، ولكن لونيفيل على مسافة خمس ساعات عن باريس . وانا منظور جيداً هنا (فالكولونيل ، بالطبيعة ، جعلني ازخرف قاعــة الاتصالات) . وانا حر بشكل كافٍ ولن يأبوا علي اجازة يوم اذا .. اذا انت .. ولكن كلا . فاني لا اريد حتى ان احلم بذلك ! واكرر لك انني مستعد « لقبول كل شيء وفهم كل شيء » . دون ان اكف عن محبتك كصديقي الوحيد الكبير الدئم .

« دانيال »

قرأ جاك هذه الصفحات الثمان دفعة واحدة . وظل مرتعشاً ، رقيق القلب محتاراً ، خجلاً . ولكن ما شعر به لم يكن استيقاظ الصداقة فقط – وكان هذا الاستيقاظ شديداً بحيث كان خليقاً بالوثوب الى القطار هذا المساء الى لونيفيل – لقد كان اكثر من ذلك ، كان قلق نفسي ينخر بعمق في منطقة اخرى من قلبه ، منطقة مؤلمة ، مظلمة لم يكن يقدر ولا يريد ان يحمل اليها النور .

وخطا بضع خطوات ، وكان يرتجف من تهيج الاعصاب اكثر من البرد . واحتفظ بالرسالة في يده ، وعاد يستند الى الجدار ، تحت رنين الجرس الجهنمي ، واخذ يعيد قراءتها كلها بأكثر ما يستطيع من التأني .

كانت الساعة قد دقت الثامنة والنصف حين خرج من محطة الشمال . وكان الليل جميلاً ونقياً ، والسواقي متجمدة ، والارصفة جافة .

كان يموت جوعاً . فقصد مكاناً لشرب الجعة في شارع لافاييت ، ودخل ، وسقط على مقعد صغير ، وبدون ان يرفع قبعته او يخفض طوق عنقه ، التهم ثلاث بيضات وطعاماً مؤلفاً من الكرنب المفروم المختمر ، ونصف ليبرة من الخبز .

وحين شبع شرب قدحين من الجعة بلا انقطاع ، وتطلع امامه . كانت القاعة شبه فارغة . وقبالته على الصف الآخر من المقاعد امرأة وحيدة تجلس الى طاولة امام قدح فارغ ، كانت تراقبه . انها سمراء ، عريضة الكتفين ، لا تزال شابة . وقد فاجأ نظرة رصينة ، مشفقة ، وشعر منها ببعض التأثر . كانت ترتدي ملابس متواضعة فلا تكون من اولئك المحترفات اللواتي يحمن حول المحطة . اهي مبتدئة ؟ وتلاقت عيونهما ، ولفت عينيه : عند اقل اشارة تأتي وتجلس الى منضدته . وكانت ذات تعبير ساذج ومجرب بشكل محزن . ولم يكن دون جاذبية او طعم . وتردد بضع ثوان ، تجتاحه الرغبة : سيكون منعشاً .. كانت تتفحصه بوضوح ، وبدت انها ادركت تردده . اما هو فكان يتجنب نظرتها باعتناء .

واخيراً امتلك نفسه ، ودفع الى الغلام ، وخرج بسرعة دون ان يلفت عينيه نحوها .

وفي الخارج انتابه البرد . ايعود على قدميه ؟ انه تعب جداً . وجاء الى حافة الرصيف ، مراقباً العربات لحظة ، واشار الى اول عربة اجرة فارغة شاهدها . وحين وقفت السيارة امامه شعر بمن يلمسه : لقد تبعته المرأة ؛ ولمست مرفقه وقالت بحمق :

ـ تعال الى عندي اذا اردت . شارع لامارتين .

فأشار نفياً برأسه ، وبشكل حي . وفتح الباب . وتوسلت المرأة كأنها وضعت في رأسها ان لا تتركه :

ـ انزلني على الاقل في شارع لامارتين رقم ٩٧ .

فنظر السائق الى جاك مبتسماً :

ـ اذن يا معلم ، الى رقم ٩٧ ، شارع لامارتين ؟

وظنت ان جاك قد قبل ، او تظاهرت بذلك ، فقفزت الى العربة المفتوحة . وقال جاك خاضعاً :

ـ لابأس ، الى شارع لامارتين .

وسارت السيارة .

وسألت على الاثر بصوت حار كان يكملها تماماً .

ـ لماذا تعنّد معي ؟

ثم اضافت بنبرة ناعمة وهي تنحني :

ـ أتعتقد ان احداً لم ير وجهك المنقلب !

وضمته بذراعيها بلطف . وهذه المداعبة ، وهذا الفتور ارخيا جاك . وخضع للميل في ان يُرثى له ، فخنق آهة دون ان يجيب . ولما كان بهذه الآهة وهذا الصمت كأنه اسلم نفسه اليها فانها ضمته بقوة ونزعت قبعته ، وجذبت رأسه الى صدرها . وتركها تفعل ذلك . وأصيب بالارهاق فجأة فأخذ يبكي دون ان يعرف لماذا .

وهمست في اذنه بصوت مرتجف :
ـ لقد اقدمت على عمل سيء . اليس كذلك ؟
وكان منذهلاً فلم يعترض . وادرك فجأة انه في باريس المتجمدة الجافة ، ببنطلونه الملوث بالطين حتى الركبتين ووجهه المخدوش من الاغصان ايمكن ان تبدو هيئته كشرير . فاطبق عينيه ، وشعر بنشوة لذيذة لأن تحسبه هـذه الفتاة لصاً .
وفسرت من جديد هذا الصمت بأنه اقرار ، فضمت رأسه اليها بشغف ، واقترحت بصوت مختلف ، مؤثر ، مشارك في الذنب :
ـ اتريد ان اخفيك عندي ؟
فقال دون ان يتحرك : كلا .
وكانت تبدو مستعدة لقبول ما لم تفهمه . وتابعت بعد تردد :
ـ على الاقل ، اتريد نقوداً ؟
ففتح عينيه هذه المرة واعتدل :
ـ ماذا ؟
فقالت وهي ترفع محفظتها الصغيرة :
ـ لدي هنا ثلاثماية واربعون قطعة اتريدها ؟
وكان في لهجتها العامية رأفة قاسية وشيء مغضب من اخت كبرى. وكان كثير التأثر بحيث لم يستطع الاجابة حالاً . وتمتم وهو يهز رأسه :
ـ شكراً .. لست بحاجة .
وتمهلت السيارة ووقفت امام بيت ذي باب منخفض . وكان الرصيف سيء الانارة مقفراً .
واعتقد جاك انها ستطلب منه الصعود الى بيتها . فماذا يفعل ؟ ولكن لم يكن عليه ان يتردد . وكانت قد نهضت ، والتفتت نحوه ووضعت ركبة على الوسادة وحضنت جاك في الظلام للمرة الاخيرة ، وتأوهت :
ـ ياللغلام المسكين !

وبحثت عن شفتيه وقبلتهما بعنف كأنها تريد اكتشاف سر فيهما ، وتجد فيهما طعم الجريمة ، ثم تخلصت حالاً .

ـ لا تدعهم يقبضون عليك على الاقل ايها الابله !

وقفزت من السيارة واغلقت بابها واعطت السائق مئة فلس قائلة :

ـ سر في شارع سان لازار ، وسيوقفك السيد .

وعاودت السيارة سيرها ، ولم يكن يكد الوقت يتسع لجاك ليرى المجهولة تختفي في رواق مظلم دون ان تلتفت .

ومر بيده على جبهته . لقد كان دائخاً .

وسارت السيارة . وخفض الزجاج ، وتلقى في وجهه نسمة هواء طري ، وتنشق دفقة كبيرة ، وانحنى على السائق وصاح بمرح :

ـ سر بي الى ٤ مكرر ، شارع الجامعة .

١٤

ما ان انتهى العرض في المقبرة حتى سار انطوان بالسيارة إلى كومبيانيه بحجة اعطاء تعليمات لصانع الرخام . ولكنه كان يخشى عدم انتظام مواعيد قطار العودة .قطار سريع في الساعة ١٧ والدقيقة ٣٠ سوف يعود به إلى باريس قبل العشاء . وكان يأمل ان يسافر وحده .

لقد حسب ذلك دون ان يلقي بالاً للصدفة .

فعند وصوله الى الرصيف ،قبل الساعة المعينة ببضع دقائق ،فوجىء بوجوده وجهاً لوجه مع الاب فيكار ، واضطر ان يكتم حركة غضب . وقال الاب موضحاً :

ـ لقد تلطف المونسنيور وقدم لي مكاناً في عربته لكي نستطيع التحدث قليلاً .

ولاحظ وجه انطوان العابس المتعب :

ـ يا صديقي المسكين ، يجب ان تكون قد استعدت قواك .. كثير من الناس ... وكل تلك الخطب . هذا النهار سيتسجل بالنسبة اليك بين الذكريات

العظيمة فيما بعد .. واني آسف لأن جاك لم يحضر ذلك ..

فكاد انطوان يوضح كم ان امتناع اخيه في الظروف الحالية بدا له طبيعياً ، حين اوقفه الاب :

ـ اني اسمعك ، اسمعك .. من الافضل الا يأتي . سوف ترويله كم كان هذا الاحتفال .. موجباً للعبرة ، اليس كذلك ؟

ولم يستطع انطوان ان يمنع نفسه من استهجان الكلمة ، وقال مدمدماً :

ـ موجباً للعبرة ؟ ربما بنظر آخرين . اما بالنسبة الي ، فاني اعترف لك ان هذا الاحتفال التبجيلي ، وتلك الفصاحة الرسمية ..

والتقى نظره بنظر الكاهن ، وفاجأ فيه وميضاً خبيثاً . كان الاب قد اصدر نفس الحكم الذي اصدره انطوان على خطب ما بعد الظهر .

ودخل القطار الى المحطة . ولمحا عربة قطار سيئة الانارة ولكنها فارغة ، فدخلاها .

ـ الا تدخن يا سيدي الاب ؟

فرفع الكاهن سبابته بوقار حتى شفتيه وقال آخذاً سيكارة: «ايها المغوي! » وأولعها وقد غضن عينيه ثم سحبها من شفتيه وتفحصها ملاطفاً ، نافخاً الدخان من منخريه . وقال بسذاجة :

ـ مما لا يمكن تجنبه في احتفال من النوع ان تكون هنا جهة ـ ولنقل مع صديقك نيتشه : « انسانية ... انسانية جداً .. » ورغم كل شيء يبقى ان مظاهرة جماعية كهذه للعاطفة الدينية ، والعاطفة الاخلاقية هي مؤثرة جداً ولا يمكن للمرء الا ان يشعر بها . اليس صحيحاً ؟

فقال انطوان بعد وقفة :

ـ لا ادري .

والتفت نحو الاب وتأمله لحظة صامتاً .

هذا الوجه الهادىء والنظرة اللماحة العذبة ، ونبرة المناجاة ، وذلك الانحناء للرأس نحو اليسار والتي تعطي الكاهن هيئة متأملة باستمرار ، وتانك

اليدان المرفوعتان الى علو الصدر بتراخ ، كل هذا كان منذ عشرين سنة مألوفاً لدى انطوان ، ولكنه اكتشف هذا المساء ان شيئاً قد تغير في علاقاتهما . حتى الآن لم يكن قد نظر الى الاب فيكار الا بالنسبة الى السيد تيبو : لم يكن الكاهن سوى المرشد الروحي لأبيه . وقد جاء الموت يقضي على هذه الواسطة ؛ والاسباب التي كانت تحدو به سابقاً الى اتخاذ تحفظ حكيم حيال الكاهن قد اختفت اليوم . ولم يكن امام الكاهن سوى رجل امام آخر . ولما كان من الصعب عليه ، بعد هذا النهار الاختباري ، ان يبدل تعبير تفكيره ، فقد كان مدعاة للتعزية ان يصرح دون مواربة .

ـ أعترف ان هذه العواطف غريبة عني تماماً ..

فاتخذ الاب نبرة ساخرة :

ـ ومع ذلك ، فبين العواطف البشرية تبدو العاطفة الدينية ، انها متقررة بوجه عام عند الانسان ، اذا لم اكن مخدوعاً .. ماذا تعتقد بهذا يا صديقي العزيز ؟

ولم يكن انطوان يفكر بالمزاح :

ـ اني اتذكر دائماً عبارة للاب لوكليرك مدير المدرسة الذي قال لي ذات يوم اثناء سنتي في صف الفلسفة : « يوجد اناس اذكياء وليس لديهم اي اتجاه فني . وربما انت ، ليس لديك اتجاه ديني » . ولم يكن الرجل الشجاع يبحث الا عن فرصة لفورة غضب . ولكني كنت افكر دائماً انه رأى في ذلك النهار بشكل واضح جداً .

فقال الاب دون ان يكف عن سخريته المحببة :

ـ لو امكن لهذا ان يكون يا صديقي المسكين ، لكنت تستحق الرثاء ، لان نصف العالم يصبح مغلقاً بالنسبة اليك ! نعم . لا يوجد ابداً مشاكل كبيرة لا يمكن القول لمن من لا يقربها بعاطفة دينية يبقى محكوماً بانه لم يشاهد منها سوى جزء ضعيف . وما يشكل جمال ديننا .. لماذا تبتسم ؟

ولم يكن انطوان نفسه يعلم . ربما ببساطة بدافع رد فعل عصبي ، بعد ذلك

الاسبوع من التأثر وبعد ذلك النهار من الملل .
وابتسم الاب بدوره :
ـ ماذا اذن ؟ اتنكر ان ديننا جميل ؟
فقال انطوان ببشاشة :
ـ كلا ، كلا . ليكن «جميلا» فاني اريدذلك تماماً ـ واضاف بنبرة لجوج : — لأرضيك .. ولكن على كل حال ..
— وبعد ؟
— ولكن على كل حال فان كونه « جميلا » لا يعفي من ان يكون معقولاً.
فحرك الاب يديه امامه بهدوء . تمتم :
— معقول !
كأن هذه الكلمة أثارت عالماً من الاسئلة التي لا يستطيع التعرض لهافي الوقت الحاضر ، ولكنه يملك المفتاح . وفكر ، ثم قال بنبرة تميل الى المناهضة :
ـ انت تقريباً من اولئك الذين يتخيلون ان الدين يفقد نفوذا في العقول الحديثة .
فقال انطوان الذي أدهش اعتداله الكاهن :
— لا ادري . ربما لا. ومن الممكن ايضاً ان جهود العقول الحديثة ـ وافكر بأولئك الذين هم الاكثر بعداً عن الايمان الحرفي — ترمي بشكل غامض الى جمع عناصر دين ، وتقريب المعلومات التي ستؤلف في مجموعها كلاً يختلف قليلاً عن المفهوم الذي يؤلفه كثير من المؤمنين عن الله ..
فاستصوب الكاهن !
ـ وكيف اذن يكون غير ذلك ؟ يجب التفكير بما هو عليه وضع الانسان . والدين هو التعويض الوحيد عن كل ما يشعر به مـــن منحطّ في غرائزه انه جدارته الوحيدة . وهو ايضاً التخفيف الوحيد عن آلامه ، والمصدر الوحيد للخضوع لله .
فهتف انطوان بتهكم :

ـ هذا صحيح . هناك القليل من الناس يقيمون وزناً للحقيقة اكثر من رفاهيتهم ! والدين هو منتهى الرفاهية الاخلاقية ! ولكن لا يساورك الغيظ من ذلك يا سيدي الاب ، فمع ذلك هناك بعض النفوس عندها الميل الى الفهم اكثر الحاحاً من الميل إلى الايمان . وهؤلاء ..

فأجاب الكاهن بسرعة :

ـ هؤلاء ؟ يضعون انفسهم دائماً على الصعيد الضيق الكثير الهشاشة للذكاء والتعقل . ولا يرتفعون الى ما وراء ذلك . يجب ان نرثي لهم ، نحن الذين يعيش ايماننا وينمو على صعيد آخر اكثر اتساعاً : صعيد الارادة ، صعيد العاطفة .. اليس صحيحاً ؟

فابتسم انطوان ابتسامة مبهمة . ولكن النور كان ضعيفاً بحيث ان الاب لم يشاهدها ؛ الا انه تابع ، وهذا الالحاح يبدو انه يشهد على انه ليس مخدوعاً تماماً بكلمة « نحن » التي لفظها .

ـ يتخيل المرء انه اليوم قوي جداً لانه يريد أن « يفهم » . ولكن الايمان هو الفهم . والفهم هو الايمان . أو بالاحرى ، لنقل ان « الفهم والايمان » ليس لهما معيار مشترك . فبعض الناس اليوم يرفضون صحة ما لم يتوصل عقلهم ، المهيأ بشكل ناقص أو المزيف بثقافة ذات اتجاه خاص ، إلى اثباته . وذلك لانهم ببساطة لا يسيرون الى الامام بشكل كاف . ومن الممكن تماماً معرفة الله بيقين واثباته بواسطة العقل . ومنذ ارسطو الذي كان معلماً للقديس توما ، ولا تنسى ذلك ، والعقل يقيم البرهان بفطنة ..

وترك انطوان الكاهن يتكلم دون ان يتدخل ، وقد اثبت عليه نظراً ارتيابياً . وتابع الكاهن الذي اقلقه هذا الصمت :

ـ ... ان فلسفتنا الدينية تقدم لنا حول هذه القضايا البراهين الاكثر حصراً ، والاكثر ..

فقاطعه انطوان اخيراً بمرح :

ـ يا حضرة الاب ، هل لديك حق في ان تقول : براهين دينية ... فلسفة

دينية ؟

فقال الاب فيكار متحيراً :

ـ الحق ؟

ـ لا يوجد تقريباً بحصر المعنى تفكير ديني لان التفكير هو الشك قبل كل شيء .

فهتف الاب :

ـ اوه ! اوه ! يا صديقي الصغير إلى اين نحن سائران ؟

ـ اعلم جيداً ان الكنيسة لا تهتم بهذا القليل .. ولكن جميع العلاقات التي حاولت إقرارها منذ مئة سنة بين ايمانها والفلسفة او العلم الحديث كانت ملفقة ـ واغفر لي هذه الكلمة ـ لان ما يغذي الايمان ، وما يشكل موضوعه ، وما يجتذب الامزجة الدينية بقوة ، هو بالضبط ذلك المافوق الطبيعي الذي تنكره الفلسفة والعلم !

وتململ الاب على المقعد . وبدأ يشعر ان الامر ليس لعباً . واخيراً تميز صوته بالاستياء :

ـ يبدو انك تجهل تماماً ان معظم شباننا وصلوا اليوم الى الايمان بمساعدة ذكائهم وبالبرهان الفلسفي .

فقال انطوان : اوه ! اوه !

ـ ماذا اذن ؟

ـ أعترف لك انني لم اتوصل الى فهم الايمان الا انه حدسي واعمى . اما حين يزعم انه يستند الى العقل ..

ـ الا تزال تعتقد اذن ان العلم والفلسفة ينكران ما فوق الطبيعي ؟ خطأ ياصديقي الشاب : خطأ ضخم . العلم يهمله ، الامر الذي ليس هو نفس الشيء . اما الفلسفة ، فان كل فلسفة جديرة بهذا الاسم ..

ـ جديرة بهذا الاسم .. برافو ! وها ان الخصوم الخطرين قد وضعوا في الظل !

وتابع الكاهن دون ان يدعه يقاطعه :

ـ .. كل فلسفة جديرة بهذا الاسم تقود بالضرورة الى ما فوق الطبيعي . ولكن لنسر الى ابعد من ذلك : حتى لو توصل علماؤك المحدثون الى اثبات وجود تناقض اساسي بين الجوهري من اكتشافاتهم وتعاليم الكنيسة ـ الامر الذي هو في الحالة الحاضرة لدفاعنا عن المسيحية خدعة حقيقية ووهم مستحيل ـ فما الذي يثبته هذا ؟ اني اسألك .

فقال انطوان مبتسماً :

ـ آه ! يا للشيطان !

وتابع الاب بحرارة :

ـ لا شيء ابداً . وهذا يعني ببساطة ان ذكاء الانسان ليس قادراً بعد على توحيد معارفه ، وانه يتقدم مترنحاً ـ واضاف بضحكة ودود :ـ الامر الذي لا يكون اكتشافاً بنظر الناس جميعهم ..

لنر يا انطوان . نحن لسنا في عصر فولتير . وهل انا بحاجة لأذكرك ان « العقل » المزعوم لفلاسفتك الملحدين لم ينل من الدين سوى انتصارات خادعة سريعة الزوال ؟ هل توجد نقطة واحدة في الايمان اقتنعت فيها الكنيسة بمخالفة المنطق ؟

فقاطعه انطوان ضاحكاً :

ـ ولا واحدة . واني اوافقك . فقد كانت الكنيسة تعرف دائماً ان تمتلك نفسها عند نقطة معينة . وعلماء اللاهوت عندكم اصبحوا اساتذة في فن صنع البراهين الدقيقة ذات المظهر المنطقي والتي اتاحت لهم ان لا يظلوا مرتبكين وقتاً طويلاً من هجمات علماء المنطق . ومنذ وقت قليل ، وأعترف بذلك ، اظهروا في هذه اللعبة مهارة مدهشة . ولكن هذا لا يوهم سوى اولئك الذين يريدون مسبقاً ان يغرروا بأنفسهم .

ـ كلا يا صديقي . بالعكس ، يجب ان تقنع ان لمنطق الكنيسة الكلمة الاخيرة دائماً لانها بغير ذلك اكثر ...

ـ .. اكثر دقة ، اكثر تماسكاً ..

ـ اكثر عمقاً من منطقكم . ربما تعترف معي ان عقلنا حين تُرك لمصادره الوحيدة لم يتوصل إلى شيء آخر سوى بناء كلمات لم يستطع قلبنا ان يجد حسابه فيها . لماذا اذن ؟ ليس هذا فقط بسبب وجود نظام للحقيقة يبدو انه يتفلت من المنطق الدارج ، ولا لأن معرفة الله تبدو انها تتجاوز امكانات الذكاء العادي : هذا على الخصوص ـ وافهمني جيداً ـ لأن ادراكنا ، المتروك لنفسه ، تنقصه القوة ، ينقصه الاخذ في هذه المواد الدقيقة . وقد قيل ايمان حقيقي ، ايمان حي من حقه طلب ايضاحات ترضي العقل . ولكن عقلنا نفسه عليه ان يتعلم من مساعدة الله للانسان على الخلاص ، وهذه المساعدة تنير الادراك . والمؤمن الحقيقي لا يندفع فقط بذكائه للبحث عن الله ؛ بل عليه ايضاً ان يقدم نفسه لله بتواضع ، لله الذي يبحث عنه ! وحين يرتفع حق الله بالتفكير العقلي يجب ان يصبح فارغاً فاتحاً فاه ، يجب ان يصبح .. متقعراً ليستقبل ، ليتلقى ذلك الرب الذي هو مكافأته .

وأكد انطوان بعد صمت مثقل :

ـ هذا ليعود إلى القول ان التفكير لا يكفي لبلوغ الحقيقة وانه يلزم ايضاً ما اسميته مساعدة الرب على الخلاص .. وهذا اقرار خطير جداً .

وكانت اللهجة قد جعلت الكاهن يتابع حالاً :

ـ آه ! يا صديقي المسكين . انت ضحية عصرك .. انت عقلاني !

ـ انا ..ـ من الصعب دائماً ان يقول المرء ما هو . ـ ولكني اعترف اني احرص على ارضاء العقل .

فحرك الاب يديه :

ـ وعلى مغالطات الشك .. لان هذا بقية من الرومنتيكية : يستخرج المرء شيئاً من الزهو من ضلالها ، ويتوهم انه يقاسي عذاباً عظيماً ..

فهتف انطوان .

ـ هذا ، كلا يا سيدي الاب . اني لا اعرف ذلك الضلال ولا ذاك الالم ولا

جميع حالات النفس الغامضة التي تكلمت عنها . ليس هناك اقل رومنتيكية مني . واني أجهل كل شيء عن القلق .

(قال ذلك ، ورأى ان هذا التأكيد لم يعد صحيحاً . بالتأكيد ، لم يكن لديه اقل قلق ديني بالمعنى الذي يستطيع الأب فيكار ان يفهمه . ولكن منذ ثلاث او أربع سنوات عرف هو أيضاً ، بقلق ، حيرة الانسان أمام الكون) .

وتابع :

— وبعد ، لو لم يكن لدي ايمان لكان القول اني فقدته غير صالح: وبالأحرى فاني اعتقد انني لم أحصل عليه أبداً .

فقال الكاهن :

— اسمع ، اسمع ! والولد التقي التي كنته انت يا انطوان ، أنسيت اذن ؟

— تقي ؟ كلا . مطيع : مجتهد ومطيع ، ليس أكثر . كنت بحكم الطبيعة محافظاً على النظام : كنت اتمم واجباتي الدينية كتلميذ جيد ، هذا كل شيء .

ـ انك تحقر ايمان طفولتك دون داع !

ـ ليس الايمان : التربية الدينية . وهذا يختلف جداً .

كان انطوان يحاول ان يكون صادقاً اكثر من محاولته ادهاش الكاهن . وكان تحريض خفيف يدفعه الى المجابهة جاء على اثر تعبه . وقد اندفع بصوت مرتفع في نوع من الاستقصاء الجديد بالنسبة اليه خلال ماضيه ، وتابع :

— نعم . تربية .. انظر قليلاً كيف تتسلسل الامور يا سيدي الاب . منذ سن الرابعة فان الام والخادمة ، وجميع الكائناب العليا التي يتعلق بها ولد كانت تردد عليه في كل مناسبة : « الرب الرحيم في السماء ؛ الرب الرحيم يعرفك وهو الذي خلقك ؛ الرب الرحيم يحبك ، الرب الرحيم يراك ، ويقاضيك ؛الرب الرحيم سيعاقبك ، الرب الرحيم سيكافئك .. » انتظر .. في سن الثامنة اخذوه إلى القداس الكبير ، إلى الخلاص ، بين الاشخاص الكبار الساجدين ؛ وأروه بين الزهور والاضواء ، وفي سحابة من البخور والموسيقى ، معرضاً مذهباً للقربان المقدس : انه دائماً نفس الرب الرحيم الموجود هنا في تلك الذبيحة

البيضاء . لابأس ! وفي سن الحادية عشرة شرحوا له من اعلى منبر ، وبسلطة ، وبلهجة اليقين ، الثالوث الاقدس ، وسر التجسد ، والفداء ، والبعث ، والحبل بلا دنس ، وكل الباقي .. وهو يسمع ، ويقبل .وكيف لا يقبل ؟ كيف يستطيع ابداء اقل شك حول معتقدات يظهرها اهله وزملاؤه واساتذته وجميع المؤمنين الذين يملأون الكنيسة ؟ كيف يتردد امام هذه الغوامض ، هـو الصغير جداً ؟ هو الضائع في العالم،والذي يشعر انه محاط منذ ولادته بظاهرات غامضة جداً ؟ فكر بهذا يا سيدي الاب : اعتقد ان هذا امر رئيسي ، نعم . اساس المسألة هنا ! كل شيء غير مفهوم ايضاً بالنسبة الى الطفل . الارض مسطحة امامه وهي مستديرة ؛ وتبدو جامدة ولكنها تدور كالخذروف في الفضاء .. والشمس تنبت الحبوب . والصيصان تخرج حية من البيضة .. وابن الله نزل من السماء ووضع على الصليب لافتداء الخطايا .. ولماذا لا ؟ كان الله هو الكلمة . والكلمة تحولت جسداً . وليفهم من يستطيع ان يفهم . لا يهم : قد جازت الحيلة .

وتوقف القطار . وارتفع في الليل عواء يذكر اسم محطة . وهناك مسافر كان يعتقد ان المقصورة فارغة ففتح الباب فجأة وأطبقه مستاء . ونفخة من الريح الجليدية مرت على الوجوه .

والتفت انطوان إلى الكاهن الذي لم يمكن يميز قسماته لان ضوء مصباح السقف كان ضعيفاً .

وصمت الاب . وعندئذ تابع انطوان بنبرة اكثر هدوءاً .

ـ اجل ، هل تستطيع ان تسمي هذا الاعتقاد الساذج للطفل « ايماناً » ؟ بالتأكيد كلا . فالايمان هو الذي يأتي فيما بعد . ان للايمان جذوراً اخرى . واستطيع القول انه لم يكن لدي ايمان .

فقال الاب بصوت اهتز فجأة بالسخط :

ـ قل بالاحرى انك لم تدعه ينفخ في نفسك التي كانت مهيأة لذلك . ان الايمان عطية من الله ، كالذاكرة ، وهو مثلها ، مثل جميع عطايا الله ، بحاجة

الى المحافظة عليه .. ولكن انت .. انت .. شبيه بكثير غيرك ، قد استسلمت للكبرياء ، لروح التناقض ، لزهو التفكير بحرية . للميل إلى التمرد ضـــد نظام مقرر ..

ولام نفسه حالاً على غضبه . كان مصمماً على عدم المضي في مناقشة دينية . إلا ان الأب أخطأ في لهجة أنطوان: هذا الصوت اللاذع، هذا النشاط، وما يشبه الفرح في الهجوم . أكسب جيشان ذهن الشاب نبرة بطولة مفرطة نوعاً . وسره ان يرتاب بصدقها المطلق . لقد ظل اعتباره لانطوان كبيراً : وفي هذا الاعتبار يوجد الأمل – اكثر من الأمل ، اليقين – بأن ابن السيد تيبو البكر لن يبقى في هذه الوضعية البائسة التي لا مبرر لها .

وكان انطوان يفكر ، ثم أجاب بوقار :

– كلا يا سيدي الأب . ان هذا يحدث تلقائياً دون اقل كبرياء ، دون الانصراف الى التمرد . حتى دون ان افكر به . وبقدر مـا استطيع تذكّره فاني بدأت منذ المناولة الأولى أشعر بغموض ان هناك شيئاً _ لا أعرف كيف اقول _ محيراً ، مقلقاً ، في كل ما علمونا اياه عن الدين ؛ شيئاً غامضاً، ليس فقط بالنسبة الينا نحن الاولاد ، بل بالنسبة لجميع الناس .. نعم ، بالنسبة للأشخاص الكبار ايضاً . وبالنسبة للكهنة أنفسهم .

فلم يستطع الأب ان يمنع حركة من يديه . وتابع انطوان :

– اوه ! لم أكن ارتاب ولن ارتاب أبداً بصدق الكهنـة الذين عرفتهم. ولا بحميتهم۔ او بالأحرى بحاجتهم الى الحمية .. ولكنهم هم انفسهم كانوا يبدون انهم يتحركون بجهد في هذه الظلمات ، ويسيرون على العميـاء ، ويدورون بقلق لاشعوري حول تلك العقائد المحكمة الإغلاق. وكانوا يؤكدون. يؤكدون ماذا ؟ ما أكدوه لهم ، بالتأكيد انهم لم يكونوا « يرتابون » بهذه الحقائق التي ينقلونها . ولكن هل كان رضاهم الداخلي أكثر قوة وأكثر يقيناً من تأكيداتهم ؟ أجل ، إني لم أتوصل إلى الاقتناع بذلك .. اني أهينكم .. ذلك انـــه كان لدينا وجه مقارنة : أساتذتنا العلمانيون . فهؤلاء ، وأعترف بذلك ، كانوا يبدون لي اكثر

رباطة جأش ، وأكثر رسوخاً في اختصاصهم ! كانوا يحدثوننا عن قواعد اللغة ، والتاريخ ، والهندسة ، وكانوا يبدون انهم يفهمون جيداً ما يتكلمون عنه .

فقال الأب عاضاً شفتيه :

– ايضاً يجب مقارنة الاشياء القابلة للمقارنة .

– ولكني لا افكر ، في سريرتي ، بمواد تدريسهم : اني افكر فقط بوضعية هؤلاء العلمانيين امام ما كانوا يعلموننا اياه . لم يكن في موقفهم شيء من الاضطراب حتى حين يكون علمهم على خطأ : وترددهم ، وحتى جهلهم ، كان ينشر في رابعة النهار . وهذا يوحي الثقة ، واؤكد لك ؛ هذا لا يمكن ان يوقظ اقل نية مبيتة من الخداع . كلا ، هذا ليس « خداعاً » ولكن مع ذلك ، اعترف لك يا سيدي الاب بانني كلما كنت اتقدم نحو الصفوف العليا كان يقل ايحاء كهنة المدرسة لي بهذا النوع من الطمأنينة التي كنت اشعر بها امام اساتذتنا في الجامعة .

فأجاب الكاهن بسرعة :

– لو كان الكهنة الذين علموك لاهوتيين حقيقيين لكنت احتفظت من صحبتهم بطابع طمأنينة مطلقة . (كان يفكر باساتذة المدرسة الاكليركية ، وبشبابه المجتهد المقتنع) .

ولكن انطوان تابع :

– فكر اذن ! ان الغلام الذي يطلقونه شيئاً فشيئاً في طريق الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، يجد فجأة امامه الفضاء كله يمتد ! بينما الدين يبدو له ضيقاً ، خدّاعاً ، غير معقول : متحذّر ..

هذه المرة قلب الاب نصفه الاعلى ومد يده :

– غير معقول ؟ اتستطيع القول جدياً : غير معقول ؟

فقال انطوان بقوة :

– نعم . واني استشف شيئاً لم اكن افكر به : هو انكم ، انتم ، تنطلقون من ايمان متين ، وللدفاع عن هذا الايمان تستنجدون باستدلالات العقل؛ بينما

نحن ، الناس الذين هم مثلي ، فاننا ننطلق من الشك ، من اللامبالاة ، وندع العقل يقودنا ، دون ان نعرف الى اين سيوصلنا .

وتابع على الاثر ، مبتسماً ، دون ان يفسح مجال الجواب للكاهـن :

ـ يا سيدي الاب ، اذا تصديت للمناقشة معى فسيثبت لك انني لا افهم شيئاً من كل هذا . واني اوافق على ذلك مسبقاً . انها مسائل لم افكر بها قبلاً . وربما لم افكر بها مطلقاً الا هذا المساء . وهـا انت ترى انني لا استند إلى الزندقة ، اني احاول فقط ان اوضح لك كيف ان تربيتي الكاثوليكية لم تمنعني من الوصول الى ما انا فيه : الى الكفر الكامل .

فقال الاب متغلباً قليلاً على طيبته :

ـ ان وقاحتك لا تخيفني يا صديقي العزيز . اني اصدقك اكثر مما تعرف ! تكلم ، اني مصغ اليك .

ـ حسناً، في الواقع استمريت ـ استمريت وقتاً طويلاً جداً ـ افعل كالآخرين . بلامبالاة لم اكن اعترف بها لنفسي : لامبالاة .. مهذبة . وحتى فيما بعد فاني لم اعد الى التحقيق ، الى اعادة النظر : وربما كنت في دخيلة نفسي لا اعلق اهمية كبرى على ذلك .. (وهكذا كنت بعيداً عن الحالة الروحية لأحد رفاقي الذي كان يستعد لامتحان مدرسة الصنائع والفنون والذي كتب الي ذات يوم ، بعد نوبة شك : « لقد اجتزت فحص التدميج *Assemblage* [1] : لاتركن يا صديقي إلى ذلك اذ ينقص كثير من المسامير الضخمة المشقوقة لتتماسك تلك القطع. »). وقد تصديت في ذلـك العهد للطب ؛ وكانت القطيعة آنذاك ـ او بالاحرى الانفصال ـ قد تمت ؛ ولم انتظر الدروس النصف علمية في السنة الاولى لأنتبه إلى انه لا يمكن الايمان بدون براهين .

ـ بدون براهين !

ـ .. وان من اللازم التنكر لمبدأ الحقيقة الثابتة لأنه يجب علينـا ألا نعتبر

---

١ ـ إدخال قطع من خشب او غيره بعضها في بعض لتؤلف كلا واحداً .

شيئـــاً كأنه صحيح إلا بتحفظ وحتى يثبت العكس .. نعم ، إني أستمر في اهانتك . ولكن لا تغضب من ذلك يا سيدي الأب ـ وهذا كل ما أردت قوله لك – انا حالة – اذا شئت يا سيدي الاب ـ كفر طبيعي ، غريزي . وهـــذا واقع ، وانا بكامل الصحة ، متزن ، ولي مزاج عملي جداً . وكنت استغني عن الغموض بشكل يدعو للاعجاب ، لا شيء مما أعرفه ، ولا شيء مما لاحظته اتاح لي الاعتقاد ان إله طفولتي موجود ، وحتى الآن لاأعترف بذلك ، وأستغني عنه بشكل يدعو للاعجاب .. لقد تشكل إلحادي في نفس الوقت الذي تشكل فيه عقلي . وليس لي ما أنكره . ولا يذهب بـــك التصور الى أنني أحد أولئك المؤمنين المحرومين الذين يستمرون على مناداة الرب في قلوبهم ؛ أحد أولئك القلقين الذين يمدون الأذرع بيأس نحو هذه السماء التي يجدونها فارغة .. كلا ، كلا : أنا نموذج لا يمد ذراعيه أبداً . وعالم بدون عناية إلهية ليس فيه مـــا يقلقني ؛ وانت ترى : انني أجد نفسي على خير ما يرام .

فحرك الأب يده امامه علامة الإنكار .

وألحّ أنطوان :

– على خير ما يرام . وها ان هذا قد دام خمس عشرة سنة .

وكان يتوقع ان يظهر غضب الكاهن على الأثر. ولكن هذا سكت ، وحرك رأسه بهدوء ، وقال أخيراً :

– انه المذهب المادي الصرف يا صديقي المسكين . وقد وصل بك الأمر الى هنا . افهم من الاستماع اليـــك انك لا تؤمن بسوى جسدك . وهذا كما لو انك لا تؤمن بسوى نصف نفسك – ويا له من نصف ! ومن حسن الحظ ان هذا كله لا يحـدث الا في الظاهر ، على السطح اذا صح القول . انت نفسك تجهل مواردك الحقيقية وتجهل أية قوة مخبأة تركتها فيك تربيتك المسيحية . هـذه القوة انت تنكرها : ولكنها تقودك يا صديقي المسكين !

– بمـــاذا اجيبك ؟ اؤكد لك انني لا أدين للكنيسة بشيء ، فذكائي ، وإرادتي ، وطبعي ، كلها نمت خارج الدين . وأستطيع القول أيضاً : بمعارضة

الدين . أشعر انني منفصل عن الميثولوجيا الكاثوليكية أكثر من انفصالي عن الميثولوجيا الوثنية ، دين ، خرافة ، واحد بالنسبة الي .. وليس بـدون ان احدد موقفي ، فان البقايا التي تركتها التربية المسيحية في نفسي هي صفر ..

فصاح الأب رافعاً ذراعه :

ـ أعمى ! اذن انت لا ترى ان كل حياتـك اليومية المؤلفة من الشغل ، والواجب ، والاخلاص للقريب ، هي تكذيب قاطع لماديتك ! قليل من الحيوات يزداد اشتمالها على وجود الله . وما من شخص اكثر منك لديه الشعور بمهمة يجب اتمامها ! وليس هناك شخص أكثر منك امتلاكاً لمعنى مسؤوليته في هذا العالم ! وبعد ؟ أليس في ذلك قبول ضمني بالتفويض الإلهي ؟ حيال من ستكون مسؤولاً اذا لم يكن حيال الله ؟

فلم يجب انطوان حالاً واستطاع الأب ، لحظة ، الاعتقاد انه ضرب بشكل مضبوط ، وفي الواقع فـان اعتراض الكاهن بدا له خالياً من كل أساس : ان يكون كثير الدقة بعمله فهذا لا يتضمن بالضرورة وجود الله ، ولا قيمة اللاهوت المسيحي ، ولا اي برهان غيبي . ألم يكن هو البرهان على ذلك ؟ ولكنه كان يشعر جيداً ، مرة أخرى ان هناك تناقضاً لا يمكن تفسيره بين عدم وجود المعتقد الاخلاقي عنده والوجدان المتناهي الذي يحمله في حياته . يجب ان نحب ما نعمله . فلماذا « لزومه » اذن ؟ لان الانسان ، وهو حيوان اجتماعي ، يجب ان يساهم بجهده لحسن سير المجتمع ، لتقدمه .. تأكيدات مجانية ، مبـادىء مسلـّم بها صادرة عن هزء لاذع ! « باسم ماذا ؟ » دائماً هذا السؤال الذي لم يجد له الجواب الحقيقي ابداً . وتمتم أخيراً :

ـ بوه ! هذا الوجدان ؟ مستودع ، تركته في كل فرد منا تسعة عشر قرناً من المسيحية.. ربما تسرعت كثيراً قبل قليل حين قوّمت معدل تربيتي بصفر ـ أو بالاحرى معدّل ميراثي .

ـ كلا يا صديقي . هذه الحياة فيك هي الخميرة المقدسة التي اشير اليها . وستستأنف هذه الخميرة فعاليتها ذات يوم : ستخمر كل العجين ! وفي ذلك النهار

فان حياتك الاخلاقية التي تتتابع من تلقاء نفسها بشكل لابأس به رغماً عنك ، ستجد محورها : اتجاهها الحقيقي ، اننا لا نفهم الله ما دمنا نبعده وحتى مـــا دمنا نبحث عنه .. سوف ترى : سترى ذات يوم ، دون ان تريد ذلك ، انك داخل الى المرفأ ،وفي ذلك اليوم ستعرف اخيراً انه يكفي الايمان بالله ليتوضح كل شيء ويأتلف .

فقال انطوان ضاحكاً :

ـ ولكن هذا ، اقبله منذ الآن . واعرف أن حاجاتنا في أغلب الاحيان تخلق ادويتها بنفسها؛ واوافق مختارا انحاجة الايمان عند معظم الكائنات هي متسلطة ، غريزية ،بحيث لا يهتمون ابداً بمعرفة ما إذا كان ما يؤمنون به يستحق أن يؤمن به : انهم يطلقون اسم حقيقة على كل ما تقذف بهم حاجة ايمانهم نحوه . ـ وقال بنبرة من يتكلم عن حدة ! ــ ومع ذلك فلن ُيزال من فكري ان معظم الكاثوليك الاذكيـــاء ، وخصوصاً الكثير من الكهنة المثقفين ، هم براغماتيون [١] بشكل يكثر او يقــل دون ان يعلموا . وما هو غير مقبول في المعتقدات بالنسبة الي يجب انيكون غير مقبول بالنسبةلكل عقل ثقافيحديث. فقط ، يتمسك المؤمنون بايمانهم ؛ ولكي لا يهزوه فـــانهم يتجنبون التفكير الكثير ، انهم يتشبثون بالنــاحية العاطفية ، بالناحية الأخلاقية من الدين . ثم ُيعتنى كثيراً بالتأكيد لهم انالكنيسة كانتمنذ وقت طويل قد فنّدتبانتصار جميع الاعتراضات التي لم يفكروا حتى بالذهاب لرؤيتها .. ولكن عفواً، فهذه ليست جملة معترضة ــ اردت ان أقول ان الحاجة الى الايمان ، مهما كانت عامة ، فلا يمكن ان تكون تبريراً كافياً للدين المسيحي ، المزدحم بالغموض، والأساطير القديمة ..

فصرخ الكاهن ، وللمرة الأولى كانت النبرة بدون جواب !

---

١ ـ براغماتيون : *Pragmatistes* : من اتباع مذهب فلسفي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

ـ ليس المقصود إثبات وجود الله حين نحس به .

ثم انحنى بحركة مودة وقال :

ـ ان ما هو غير مفهوم ، هو انك انت، انطوان تيبو، الذي تكلم هكذا.. في كثير من عائلاتنا المسيحية ، ويا للأسف ، فان الأولاد يرون أهلهم يعيشون وتتبسط حياة كل يوم تقريباً كما لو ان الله الذي علّموهم عنه لم يكن موجوداً . ولكن انت ، انت الذي استطعت التأكيد منذطفولتك الصغرى، وفي كل لحظة من وجود الله في عائلتك ! انت الذي رأيته ُيلهم أباك في كل عمل من أعماله .

وساد صمت . وكان انطوان يحدق بالكاهن كأنه أمسك عن الجواب . وقال أخيراً ، مضموم الشفتين ـ : نعم، بالضبط . لم أر الله أبداً ويا للأسف ! إلا من خلال والدي .ـ وهيئته ولهجته أكملتا تفكيرهفأضاف موجزاً: ـ ولكن ليس هذا هو يوم التبسط في ذلـك .

ثم وضع جبهته على الزجاج وقال : هذه كراي .

وخفض القطار سيره ، وتوقف . وسطع نور مصباح السقف بقوة . وتمنى انطوان ان يدخل احـــد المسافرين ليقطع حضوره الحديث . ولكن المحطة كانت مقفرة .

واهتز القطار .

بعد صمت طويل ، بدا كل منهما انه منغلق على تفكيره الخـــاص . وانحنى انطوان من جديد نحو الكاهن :

ـ انت ترى يا سيدي الأب ان هنالك أمرين على الأقل يمنعانني دائمـاً من العودة الى الكاثوليكية . اولاً مسألة الخطيئة : فـأنا غير قادر ، كما اعتقد على احتمال هول الخطيئة ، ثم مسألة العناية الالهيـة : اني لا استطيـع أبداً القبول بفكرة إله شخصّي .

وصمت الاب ، وتابـع انطوان :

ـ نعم ، ان ما تدعونه ، انتم الكاثوليك ، خطيئة ، هو ، على العكس ،

كل مـا هو حي وقوي بالنسبة إلي : غريزي – تعليمي ! وهو الذي يسمح – كيف اقول ؟ – بلمس الاشياء . والتقدم ايضاً . ليس هناك اي تقدم .. اوه ! انا لست مخدوعـاً بكلمة « تقدم » أكثر مما يلزم ؛ ولكنها كثيرة السهولة !

– لا يمكن لأي تقدم ان يكون ممكناً اذا ظل الانسان بعيداً عن الخطيئة . ولكن هذا يسير بنا بعيداً جداً – أضاف ذلك مجيباً بابتسامة ساخرة على هز الكاهن لكتفيه هزاً خفيفاً – اما فيما يتعلق بافتراض العناية الالهية ، كلا ! اذا وجدت معلومات تفرض نفسها علي بشكل لا جدال فيه فهي اللامبالاة العامة .

فارتجف الكاهن :

– ولكن علمك نفسه ، سواء اراد ام لا ، هل يصنع شيئاً آخر سوى التأكد من النظام السامي ؟ (اني اتجنب عمداً عبارة « المخطط الالهي » الاكثر صحة) . ولكن يا صديقي المسكين اذا سمحنا لأنفسنا بانكار ذلك الذكاء العالي الذي يدير الظاهرات ، والذي يحمل اثره كل ما هو هنا ، تحت ، واذا رفضنا القبول بأن لكل شيء في الطبيعة هدفاً ، وان كل شيء قد خلق بقصدالانسجام ، فليس بالمستطاع فهم شيء ابداً .

– ولكن .. ليكن ! فالكون غير مفهوم لدينا . اني اقبل هذا كواقع .

– ان هذا الغير مفهوم يا صديقي هو الله !

– ليس بالنسبة الي . فاني لم اخضع بعد لمحاولة اطلاق اسم « الله » على كل ما لا افهمه .

وابتسم وانقطع عن الكلام بضع ثوان .

وكان الكاهن ينظر اليه مستعداً للدفاع ، وتابع انطوان مبتسماً :

– ومع ذلك ، فان فكرة الالوهية بالنسبة لمعظم الكاثوليك قد تحولت إلى مفهوم صبياني لإله « طيب » ، لإله صغير شخصي عينـه محدقة بكل منا ، ويتابع بعناية رؤوم اقل ذبذبات ضميرنا الذري ، وان كلاً منا يستطيع بدون تعب ان يستشير بواسطة الصلاة : « يا إلهي ، أنرني .. يا الهي ، افعل بحيث .. الخ » ..

إفهمني يا سيدي الأب اني لا احاول ابداً انأجرحك بتهكم سهل . ولكني لم اتوصل إلى الفهم ان بالامكان افتراض اقل علاقة سيكلوجية ، اقل تبادل اسئلة واجوبة بين واحد منا ، حادث متناهي الصغر من الحياة الكونية (حتى بين الارض ، تلك الذرة من الغبار بين الغبائر) وبين هذا الكل الكبير ، هذا المبدأ الكوني ! كيف نعزو اليه حساسية تشبه حساسية الانسان، وحنواً ابوياً ورأفة ؟ كيف نحمل على محمل الجد فعالية الاسرار المقدسة ، والسبحة ـ وما ادراني ؟ ـ والقداس المأجور ، والمسمى « في سبيل » فـــلان ، « في سبيل » نفس ابعدت احتياطاً إلى المطهر ؟ بالحقيقة لا يوجد اي فرق جوهري بين هذه الاعمال التي تمارس ، وتلك المعتقدات ـ من المذهب الكاثوليكي ، وتلك المتعلقة بأي دين بدائي كان ، كالتضحيات الوثنية والتقدمات التي يضعها المتوحشون امام اصنامهم !

وكاد الاب يجيب انه يوجد بالفعل دين « طبيعي » مشترك بين جميـع الناس، وان هذا تماماً كان عقيدة جوهرية . ولكنه امتلك نفسه من جديد . وكان في زاويته وعنقه غارق بين كتفيه ، متصالب الذراعين ، وأطراف الأصابع داخلة تحت أطر ف الاكمام ، بهيئة هي معاً مسايرة ، مستسلمة وساخرة قليلاً ، وكان يبدو انه ينتظر نهاية هذا الكلام المرتجل .

الا ان الرحلة اوشكت على نهايتها.وأخذت العربة ترتج من اشتباك الخطوط الحديدية في الضاحية البـــاريسية . وخلال البخار الذي يغطي الزجاج كانت أضواء عديدة تلمع في الليل .

وانطوان الذي كان لا يزال لديه شيء يضيفه أسرع وقال :

ـ ومع ذلك يا سيدي الاب، لا تخطىء حول بعض الكلمات التي استعملتها. ومع ان ما من شيء يدعوني الى المغامرة على هذا الصعيد الفلسفي ، وأعرف ذلك ، فانني اريد ان أكون صريحاً حتى النهاية . كنت حدثتك عن النظام والمبدأ الكوني .. ذلك لأتعلم كجميع الناس.. وفي الواقع يبدو لي انه سيكون لدينا من الاسباب للشك في نظام بقدر ما لدينا للايمان به . ومن النقطة التي يجد

نفسه موضوعاً فيها ، فان الحيوان البشري الذي هو أنا يتأكد من بلبلة عظيمة لقوى تفلتت من عقالها . ولكن هل تطيع هذه القوى قانوناً عاماً خارجاً عنها وبامكانها تمييزه ؟ أم انها تطيع قوانين — كيف أقول ؟ — داخلية ، موجودة في كل ذرة وتضطرها إلى إتمام نوع من المصير « الشخصي » ؟ ثم تطيع قوانين لا تسيطر على هذه القوى من الخارج ولكنها تمتزج معها ، وتنعشها فقط ، بشكل ما ؟ وأيضاً في أي قياس لا يكون لعب الظاهرات غير متلاحم ؟ سوف أقبل ان العلل يولد بعضها من بعض بغير تحديد ، وكل علة هي معلول علة أخرى ، وكل معلول هو علة معلولات اخرى . لماذا يُراد تصوّر نظامٍ سامٍ بأي ثمن ؟ محاولة عقولنا المنطقية . لماذا يُراد ايجاد اتجاه مشترك لتلك الحركات التي يرتد بعضها على بعض الى ما لانهاية له ؟ غالباً ما أقول لنفسي ، فيما يتعلق بي ، ان كل شيء يجري كأن ليس هناك شيء يقود الى شيء ، وكأن ليس هناك شيء له اتجاه .

بعد ان تأمل الكاهن انطوان صامتاً خفض عينيه وقال بابتسامة جليدية :

ـ بعد هذا أعتقد ان من الصعب الهبوط الى أحط من ذلك .

ثم نهض ليزرر قفطانه ، فقال أنطوان باندفاعة أسف صادقة :

ـ أسألك الصفح لقولي لك هذا ياسيدي الأب . هذا النوع من المحادثة لا يمكن ان يوصل الى شيء : الا الى الجرح . لست أدري ما أصابني اليوم .

وكانا واقفين الواحد بقرب الآخر ، والكاهن ينظر بكآبة الى الشاب :

ـ لقد كلمتني بحرية كما تكلم صديقاً ، وبهذا على الاقل فاني اعرفك .

وبدا متردداً بقول شيء آخر . ولكن القطار وقف على محاذاة الرصيف ، فاقترح انطوان بنبرة اخرى : هل اوصلك إلى بيتك في عربة ؟

ـ بطيبة خاطر ، بطيبة خاطر .

في سيارة الاجرة كان انطوان مهموماً ، وقد استولت عليه الحياة المعقدة التي تنتظره ، فلم يتكلم ابداً. ورفيقه صامت هو ايضاً ، ويبدو مفكراً. ولكن حين اجتازا السين مال الاب نحو انطوان :

ـ ما عمرك ؟ ثلاثون سنة ؟ ـ اثنتان وثلاثون تقريباً .

ـ انت لا تزال شاباً .. سترى . آخرون غيرك انتهوا إلى الفهم ! وسيأتي دورك . هناك ساعات في الحياة لا يستطيع المرء فيها الاستغناء عن الله . ويوجد بينها واحدة رهيبة ، الاخيرة .

ففكر انطوان : « نعم ذلك الرعب من الموت .. الذي يثقل بشدة على كل اوروبي متمدن .. إلى أن نفسد عليه طعم الحياة بشكل يكثر او يقل » .

كان الكاهن على وشك الاشارة إلى موت السيد تيبو ولكنه امسك نفسه وتابـع : اتتصور ما يمكن ان يكون الوصول الى حافة الابدية دون الايمان بالله ، دون ان تشاهد على الحافة الاخرى الاب الشديد القدرة ، الرحيم الذي يمد الينا ذراعه ؟ والموت في الظلام الكلي دون اقل ألق من الامل ؟

فقال انطوان بحرارة : اوه ، ولكن هذا يا سيدي الأب أعرفه مثلك (هو أيضاً فكـّر بموت والده) . وتابـع بعد تردد قصير :

ـ ان مهنتي كمهنتك هي مشاهدة المحتضرين . وربما أكون قد رأيت موت غير المؤمنين اكثر منك ، ولدي ذكريات فظيعة بحيث اني لو كنت أستطيع ان أصنع لمرضاي حقنة ايمان في اللحظة الأخيرة! إني لست من اولئك الذين يشعرون حيال ثبات عزم الساعة الاخيرة باحترام صوفي. وبالنسبة إليّ فاني أتمنى، بدون خجل ، ان أكون في تلك اللحظة متقبلاً اليقين الأكثر تخفيفاً عني . وأخـاف نهاية دون امل كاحتضار دون مورفين .

وشعر بيد الكاهن تسقط مرتعشة على يده. لا شك بأن الكاهن يسعى جهده ليحصل على هذا الاقرار الذي لم يكن يأمل به ، كإشارة فأل .

وتابع ضاغطاً على يد انطوان بحرارة فيها شيء من الشكران :

ـ نعم ، نعم ، صدقني ! لا تقفل كل منفـــذ نحو هذا المفرج الكرب الذي تحتاجه ذات يوم مثلنا جميعاً . اريد ان أقول لا تقلع عن الصلاة .

فاعترض انطوان هازاً رأسه :

ـ الصلاة ؟ ذلك النداء المجنون .. نحو ماذا ؟ نحو ذلك النظام المبهم ! نحو

نظام أعمى وصامت ـ لامبالي ؟

ـ لا يهم ، لا يهم .. نعم هـــذا « النداء المجنون » ! صدقني .. مهما كانت النهاية الوقتية التي ينتهي اليها تفكيرك ، ومهما كانت فيما وراء الظاهرات تلك الفكرة المظلمة للنظام والقانون والتي تستشفها بواسطة البروق ، فيجب بالرغم من كل شيء أن تلتفت نحو هذا يا ولدي العزيز، وتصلي ! آه! اني اتوسل اليك ، بدلاً من أن تدفن في وحدتك! احتفظ بالاتصال ، احتفظ بلغة ممكنة مع اللامنتهي، حتى لو لم يكن هناك تبادل في تلك اللحظة ، حتى لو لم يكن في تلك اللحظة سوى مناجاة ظاهرة ! تلك الليلة التي لاتقاس بغيرها ،تلك اللاشخصية ، ذلك اللغز الذي لا تفك طلاسمه ، لايهم ، صل له ! صل لهذا الذي لا يمكن معرفته ، ولكن صل . لا ترفض هذا « النداء المجنون » لأنك بهـــذا النداء ستعرفه ذات يوم ، وعلى هذا النداء يجيب فجأة صمت داخلي . اعجوبة تهدئة ..

فلم يجب انطوان ، وفكر : « حاجز محكم [1] » . الا انه كان يشعر ان الكاهن متأثر جداً وعزم على أن لا يقول شيئاً يزيد من غمه .

ووصلا إلى شارع غرينيل ، وتوقفت السيارة .

واخذ الاب فيكار يد انطوان وشد عليها ؛ ثم مال قليلاً في ظـــل العربة قبل ان ينزل ، وتمتم بصوت مضطرب ! الدين الكاثوليكي شيء آخر يا صديقي ، صدقني : انه اكثر مما اتيح لك ان تستشفه حتى الآن ..

---

١ ـ حاجز محكم : *Cloison étanche* عبارة تعني حرفياً : حاجز معدني يقسم سفينة قساماً لا يمكن تسرب الماء من احدهما الى غيره .

انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

فهرست

١٩٧٠/٧/١٥٥

مطابع منشورات عويدات - بيروت - لبنان - تلفون ٢٧٢٧١٤

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAULT

Tome II

La Consultation
La Sorellina
La Mort du Père

Texte traduit en arabe

Par

Bahige CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban